

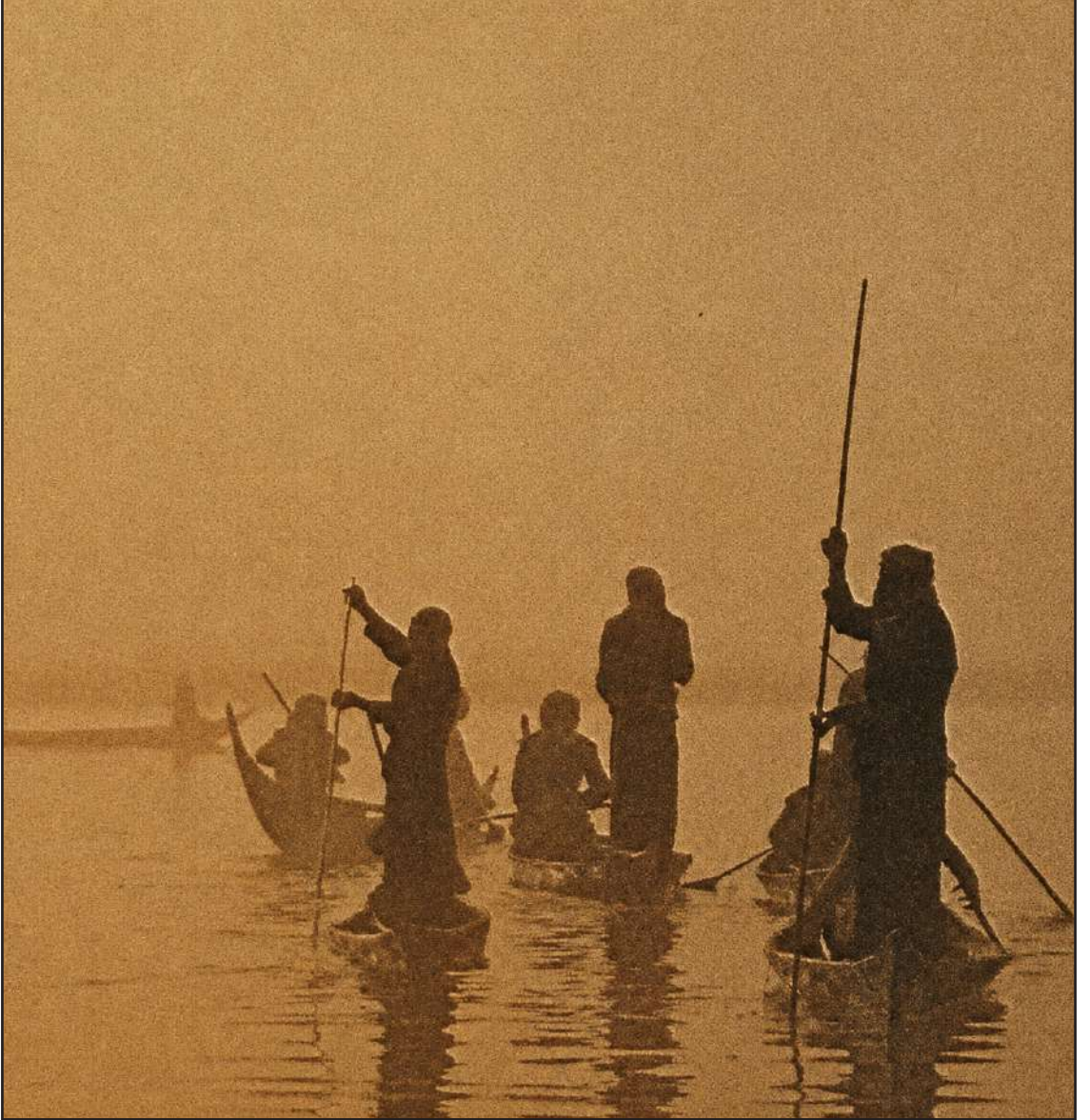
العدد

69

صيف 2026

# التجارب

فكرية فصلية



## ← الأهلر في العرق

---

تصوير نيك ويلر، 1977

---

« اتجاه» فكريّة فضليّة،

المدير المسؤؤل: عبد الرحمن أياس

رئيس التحرير: د. علي حمية

العنوان: فرات للنشر، رأس بيروت، بيروت، لبنان. ت: 00961 1 750053 – 00961 70 543166

البريد الإلكتروني: [editor@ittijah.info](mailto:editor@ittijah.info)

[www.ittijah.info](http://www.ittijah.info)

**Ittijah:** revue culturelle trimestrielle, Rédacteur en chef: Dr. Ali Hamiyeh.

**Adresse:** C/O Furat Publishers, Ras Beyrouth, Beyrouth, Liban,

tel: 00961 70 543166.

# اتجاه

فكرية فصلية  
صيف 2026

## محتويات العدد

3	حاضر ومستقبل الفلسفة	عفيف عثمان
9	هل تُبنى الفلسفة على أسس لغوية؟	جوزيف مقصود
23	مأزق الإيتيقا بين اسبينوزا وليفيثاس: من ضرورة الوجود إلى لامتناهية المسؤولية	يوسف أيوب
43	التفاوض الإدراكي كحقل سوسيوولوجي: إعادة تعريف التفاوض في سياق الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس	دليدا بيطار
65	تطور النظام العالمي وإعادة تشكيل مفهوم الحدود الجغرافية - في الفلسفة السياسية والاجتماعية: مقارنة في ضوء إتيان باليبار	سوزان طالب
89	العوامل المرتبطة بتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات في ظل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الراهنة: دراسة ميدانية	منال حمزة
113	تحسين الرفاه النفسي لمتطوعات جمعية المرأة الدرزية من خلال اليوغا	جانين زيادة
131	التماثل البنيوي في «عرائس المروج» لجبران خليل جبران	سامية السلوم
167	البيوت الترايبية في جبل عامل جنوب لبنان من خلال كتابات أدوارد روبنسون	سلام ضاهر
191	التنافس الدولي على الممرات البحرية الاستراتيجية وأبعاده الاقتصادية	مطانس ديب وهبه
221	التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد: نحو نظرية اتصالية في الدورة المغلقة للاعتماد الرقمي	نجوى طه
239	أهمية السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني للوجهات السياحية اللبنانية في العصر الحديث	مطانس ديب وهبه
267	الذكاء الاصطناعي التوليدي بوصفه مصدراً بديلاً للمعلومات السياحية: دراسة ميدانية في تصوّرات المستخدمين العرب ومستوى تقنهم	نجوى طه
1	Code-Switching and Contrapuntal Poetic Forms as a Semiotic and Poetic Strategy in Jawdat R. Haydar's Poetry	Doris Younes
29	Artificial Intelligence and Language: Can Machines Think Through Language?	Hind Sleem
47	Street life and the struggle for emotional control	Jeannine Ziade
65	Every Student Matters in Times of Crises: SEL Inclusion Across Learning Environments	Zeinab Haj Hassan
93	Inner Speech, Emotional-Reflection, and Academic Performance: A Psycholinguistic Study	Hind Sleem
111	L'Ontologie de l'Émergence Computationnelle: Vers une Métaphysique du Devenir Artificiel	Paméla Fakhoury
133	Le rôle de l'animal domestique comme figure d'attachement substitutive dans le cas d'une carence maternelle	Aline Ghosn

”اتجاه“ مجلة أسبوعية تصدر باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية، مرخصة بموجب قرار رقم 1920 صادر عن وزارة الإعلام بتاريخ 24 آب 1995، ومعتمدة من الجامعة اللبنانية بصفتها ”مجلة بحثية تُعنى بشؤون فكرية“.



## حاضر ومستقبل الفلسفة

أمام كل منعطف حضاري أو أزمة أو حدث جديد غير مسبوق تتوالى الأسئلة على العلوم الإنسانية ولا سيّما الفلسفة لتقدم أجوبة أو ملامح أو إطار جواب يتيح الفهم، باعتبارها قيّمة على المعنى وعلى إنتاجه. وحتى تتم مساءلة هذه العلوم وأمها ووضعها في قفص الاتهام لتجيب عن جدواها وأهميتها، لا بل عن مصيرها. واستحضر ملفاً خصصته مجلة «الفلسفة الآن» (Philosophy Now) في العام 2013، في العدد رقم 98 الخاص بشهري أيلول وتشرين الأول / سبتمبر واکتوبر، هذه المجلة التي انطلقت في مدينة لندن في العام 1991، باتت من ثم للناطقين باللغة الإنجليزية في أميركا وكندا وأستراليا. وكان السؤال بسيطاً ومُحدّداً عن «حاضر وطبيعة ومستقبل الفلسفة؟» موجهاً لعدد من المُشتغلين بالدرس الفلسفي. وأتت الإجابات على النحو الآتي.

### 1 - مسارات الفلسفة والبحث عن هويّة

قدّر الباحث الأميركي، أندرو بورتر ليكسينغتون، ماساتشوستس (Andrew Porter, Lexington, MA) أن للفلسفة حالياً ثلاثة مسارات رئيسية، أحدها الفلسفة الأكاديمية، التي يبدو أنها غارقة في التحليلات والنقاشات الداخلية ذات المرجعية الذاتية. أما الثاني، فيمكن تسميته «فلسفة الشارع»، تسعى لأن تكون

نسخة حديثة من فلسفة السوق اليونانية القديمة، لكن هذا التشابه لا يدوم. أما المجال الثالث فهو «الفلسفة الخفية»، التي يمارسها أفراد في الخفاء، حيث تتجلى أفكارهم وقيمهم في ممارسات ومواقف ظاهرة وخفية، تظهر في أمور مثل التصويت، وشعور الفرد بمستوى تعليمه، وطبيعة روح العصر في المجال العام، ولا تظهر هذه الأفكار في الخطاب العام إلا في شكل متقطع، ولطالما واجهت الفلسفة صعوبات جمة. إذ تُكافح حاليًا لإيجاد هويتها. يقودها العلم، كالفيزياء، إلى مجالات بالغة الأهمية وغير مطروقة من قبل. فهل

ستسير على خطى هذا العلم، أم ستقوده بإطار يُغيّر طبيعة "المُلاحظ"؟

تسعى الفلسفة جاهدة لفهم التغيرات الاجتماعية الهائلة المُضافة إلى التغيرات البيئية التي تُحيط بالكوكب، ومثل كثير من المناير، تُطلق كلامًا يبدو متمسكًا ظاهريًا، ولكنه في نهاية المطاف غير مُجدٍ. ولطالما شعرت الفلسفة أنها على وشك تحقيق إنجازٍ عملي، ولكنها مُهمّشة حاليًا، بل ومُهمّشة ذاتيًا في كثير من الأحيان.

ومن المرجح أن يكون مستقبل الفلسفة قائمًا على أشكالٍ مختلفة من «الشمولية». إن فهم الإمكانيات البشرية في سياق كوكبٍ كاملٍ من النظم البيئية يُمثل أفقًا واعدًا للفلسفة. إذ يُمكن لهذا الفهم أن يُرسي دعائم تغييرٍ مجتمعيٍّ إيجابيٍّ، ويُسهّم في خلق وحدةٍ حيث ينبغي أن تكون الأمور متكاملة، كما هو الحال في التعليم والتفكير ومراكز صنع القرار. كما تُجيد الفلسفة تحديد القيم وتركيبتها. وأمل أن تُوظف الفلسفة في المستقبل رسالتها المتمثلة في كونها حبا للحكمة في كيفية تعامل البشر مع علاقتنا بالطبيعة. قد يكون المستقبل مُشرقًا، ولكنه على الأرجح لن يكون كذلك من دون أن تقود الفلسفة مسيرة التغيير والتكيف.

## 2 - خطر يحدق بالفلسفة

أما الأستاذ البريطاني ستيف فولجر، من لايتون، لندن (Steve Foulger, Leyton, London)، فقد لاحظ أن أقسام الفلسفة تُغلق على جميع المستويات، وترتفع أسعار الكتب والمجلات في شكلٍ كبير. لذا، فإن الفلسفة، وخاصةً الفلسفة الأكاديمية، مُعرّضة للخطر، إن لم تكن مُهددة بالانقراض بالفعل. إذ إنها مُعرّضة للخطر في شكلٍ مُقلق من قبل أولئك الذين يُفضّلون الحقائق على الفهم، والذين لا يُدركون أن التعليم رحلةٌ مدى الحياة وغايةٌ قيّمة في حد ذاتها، وليس مُجرّد وسيلةٍ لكسب المال. وعنده أن لا حدود للتفلسف، ولا توجد مواضيع ممنوعة. ويضيف أنه من الخطأ والمُجحف محاولة كبح جماح حب الحكمة،

وتوجيهه نحو مساراتٍ مُحدّدة. مع ذلك، إذا أرادت الفلسفة أن تزدهر في المُستقبل، فعلى الفلاسفة أن يُدركوا أن الفلسفة في نهاية المطاف موردٌ للجميع، وليس فقط للفلاسفة «المُدرّبين» - فهي ليست ولن تكون نظاماً مُغلّقاً. وهذا لا يعني أنه يجب تجنب المواضيع والمفاهيم الصعبة، بل على العكس تماماً: فالمواضيع الصعبة هي التي تستحق على الأرجح الاهتمام الأكثر دقة. ويقول: بصفتي مؤمناً بتعدّد القيم و«الفطرة السليمة»، اعتبر إن الفلسفة لن تقدم، لا الآن ولا في المستقبل، إجابات صحيحة مطلقة أو سرديات شاملة. لكنها توفر الأدوات اللازمة للتفكير وإصدار أحكامنا الخاصة. فإذا لم تستطع فهم العالم، فلن تستطيع تغييره، والتغيير يحدث عندما تتنافس المفاهيم والنظريات والنماذج الجديدة على الاهتمام، متداخلةً مع ما هو قديم في مخزون الحكمة العالمي. لذا، لكي تبقى الفلسفة، عليها أن تحافظ على مكانتها ودورها في المجال العام. ليس كل فيلسوف بحاجة لأن يكون «فيلسوفاً عامّاً»، لكن الفلسفة تحتاج إلى حوار، ولا يمكنها أن تتشأ في فراغ.

### 3 - الحاجة إلى التفكير وتدريس الفلسفة

بدوره رأى مواطنه ديفيد هوارد، تشيرش ستريتون، شروبشاير (David Howard, Church Stretton, Shropshire)، أن العيش في عالمٍ مليءٍ بالمصطلحات المبهمة التي تُنقل فوراً بضغطة زر، يُبرز حاجةً ماسّةً ومستمرّةً إلى التفكير واللغة المتأنيّة والمنضبطة. إذ تُضفي التقنيات الحديثة، بما تحمله من وعودٍ وأخطار، طابعاً ملحاً على التساؤلات التقليدية حول الحرية وطبيعة المجتمع الأمثل. فنحن نتجاوز السيطرة الخفية للمؤثرين الخفيين، إلى مخاوف مجتمع المراقبة، مع التنقيب عن البيانات، وتحليل الشخصيات، وانتشار كاميرات المراقبة في كل مكان.

ويتساءل هوارد عما يُمكن للمرء أن يأمله من الفلسفة؟ فالمشكلات المستعصية للوعي والإرادة الحرة، المتأثرة بشدة بالتقدم العلمي، ستطلب جهوداً مضنية، وكذلك تداعيات أعمال علمية أخرى، كالهندسة الوراثية. ويطرح تغيير المناخ والعلومة تساؤلات ملحة حول توزيع موارد العالم، وحول طبيعة العدالة، لكنهما يُسلطان الضوء أيضاً على قضايا تتعلق بكيفية اتخاذ قرارات سليمة ودائمة، والابتعاد عن إغراءات الإشباع الفوري. فمتى سنُقر بأن جشعنا يُدمرنا؟ ويرى أننا في حاجة إلى وضوح التفكير في الأمور الجوهرية. كما يحتاج الفلاسفة عمومًا إلى الثقة، التي يُبديها البعض، للانخراط في قضايا الساعة - أي أن يكونوا مستعدين للنضال، والتحدى، وشق طريقهم عبر مستنقع التعليقات الإعلامية، أي أن يكونوا مُثيرين للجدل.

فعندما يُكرّس الفلاسفة وقتهم وجهدهم للنقاش العام، عليهم التحدث بلغة واضحة ومفهومة، لأن ذلك في حد ذاته سيُشكّل تحديًا لأساليب التعميم التي يفرضها أصحاب السلطة. يجب، في زعمه، دعم حركة تدريس الفلسفة في المدارس، وتزويد الشباب بالأدوات اللازمة للتفكير النقدي، لأن ذلك سيُشجع أيضًا على مقاومة المطالب المتزايدة بالامتثال. ويقدر هوارد أنه لا يمكن التنبؤ بالمستقبل، وأفضل ما يمكن فعله هو تحديد الآمال، ففي ذلك إقرار ضمني بما ينقص الحاضر، وتعبير عن الرغبة في شيء مختلف. ففي عالم متغير، يمكن للفلاسفة أن يكونوا حماة التعليم، ومدافعين عن الحرية، ومناصرين للإنسانية، وداعمين للعدالة والأخلاق الحميدة. وسيكون ذلك مستقبلاً جديراً بالأمل.

4 - مساءلة العالم المعاصر ومواجهة التحديات العلمية والأخلاقية والإجتماعية  
أما جوناثان تيبون، بريستون، لانكشاير (Jonathan Tipton, Preston, Lancashire)، فيسائل العالم المعاصر في ظل استمرار الركود العالمي، وقدرة السوق الحرة على خلق اقتصاد ملائم لأغلبية الناس ما جعله موضع تساؤل. ويعيد الإعتبار لدور الدولة في ظل سياسات الإفقار، ويلاحظ خضوع السياسات الخارجية للقوى الكبرى، كالولايات المتحدة الأميركية، ولا سيما تجاه الشرق الأوسط.

ويرى الى الشكوك التي أبدتها بعض المنظرين السياسيين حول إذا ما كان التدخل العسكري لإسقاط الأنظمة الديكتاتورية أو (كما يدعون غالباً) لحماية الموارد المعدنية الثمينة أمراً مرغوباً وفعالاً، إذ يبدو أنه يؤدي إلى احتلالات عسكرية مكلفة. كما يُعدّ صعود الإسلام المتشدد وتداعياته على حرية التعبير والتسامح وغيرها من القيم الديمقراطية الليبرالية مصدرًا لنقاش فلسفي معاصر مستمر.

ويعتبر إن هناك نقاشاً واسع النطاق حول قضايا الأخلاقيات الحيوية، نتيجةً للتقدم العلمي في أبحاث الجينوم وغيرها من التطورات الطبية. وقد لاقت فكرة إنشاء أعضاء بديلة من طريق «استخلاص» الخلايا الجذعية من أجنة بشرية مستنسخة يتم إتلافها لاحقاً معارضةً من جهات تُشدد على «حرمة الحياة»، بينما دافع عنها آخرون مؤكدين على فوائدها للعلوم الطبية والمجتمع ككل. ويمكننا أن نتوقع ازدياد أهمية الأخلاقيات الحيوية مع تطور القدرات على الاستنساخ الناجح والتلاعب بالجينوم البشري. علاوة على ذلك، ومع تقدم علم الأعصاب، ستبرز بلا شك تساؤلات حول طبيعة العقل والهوية الشخصية. ويبدو أن التطورات العلمية الحالية في علم الأعصاب عاجزة عن إسكات الجدل الدائر

حول فلسفات العقل. فعلى الرغم من اعتقاد معظم الفلاسفة والعلماء أن «العقل» مرادف لحالات الدماغ، إلا أن هناك من لا يزال يعتقد أن العقل البشري (وبالتالي الهوية الشخصية) لا يمكن اختزاله إلى مجرد وظائف فيزيولوجية.

ويقدّر تيبون إن مسار تطور الفلسفة الاجتماعية والسياسية غير واضح المعالم، لا سيّما في ضوء تحركات الاقتصادات الكبرى والدول القومية. كما أنه من غير المرجح حسم التحديات الأخلاقية والاجتماعية التي تواجه الديمقراطية الليبرالية، والتي تفرضها أيديولوجيات كالإسلام المتشدد، في وقت قريب. ومع ذلك، فهذه، في رأيه، هي أهم المسائل التي يجب حلها، إذ قد يتوقف عليها التقدم الاجتماعي، وربما مستقبل البشرية.

### 5 - الإهتمام بالراهن (والآن)

وأنا بدوري حاولت من جانبي الإجابة عن السؤال نفسه. وبدا لي أن طرح سؤال «مستقبل الفلسفة» غير صائب تماماً، فحري الكلام عن الفلسفة في المستقبل، أو كما طرح فيورباخ «فلسفة المستقبل»، الذي رصد فيه التحول وجعل الإنسان محور الكون بدلاً من الإله. ورغم تعقد المشكلات والتغير في العالم، بقيت الفلسفة حاضرة بأدواتها لتراقب وتقيم الحاضر، وقد شدّد الفيلسوف الفرنسي، ميشال فوكو، على ذلك في كتابه ما الفلسفة؟ (ترجمة د. الزواوي بغورة، 2025)، فرأى أنها تحافظ على علاقة وثيقة مع «الآن»، وخلافاً للمثال الأفلاطوني لخطاب تكون قيمته الحقيقية مطلقة، يرى فوكو أن أي خطاب يعتمد دائماً على ظروف اجتماعية تاريخية معينة. ومهما كان الخطاب الفلسفي تجريدياً وتقنياً، فإنه، كغيره، يشير دائماً إلى حدث راهن، إلى «الآن» الذي قد يتخذ أشكالاً مختلفة، ومن هذا المنظار، يجب على الفيلسوف أن يدرك ويقبل ارتباطه بعصر معين، في حاضر فريد. بتعبير أدق، تتمثل ممارسة «التشخيص» في فن تحديد وتفسير علامات ثقافة العصر. وبهذا التعريف، يبدو الفيلسوف وكأنه يتقمص دور الطبيب (معالج للأرواح). ولكن إذا كان من الممكن اعتباره طبيباً للثقافة، فإن مهمته ليست «العلاج»، أي تهدئة الألم الاجتماعي والتوفيق بين التوترات، بل وظيفته ببساطة هي شرح كيف أن حاضراً مختلف تماماً عن كل ما هو ليس هو، أي عن ماضينا. لذا، على الخطاب الفلسفي أن يُمارس وظيفة نقدية في كل عصر. فمشروع الفلسفة هو التوضيح الجذري والكوني بدرجة تؤدي «إلى تغيير وجه العالم».

ومن هنا قدرة المشتغلين بالفلسفة على استناف دورها دوماً، ولا سيّما الفلسفة السياسية

والإجتماعية، وتحديدًا في الزمن الديمقراطي، وتعمق دور الدولة ودخول الدين طرفاً، ما اقتضى توضيح الصلة بينهما، والتشديد على حياد الدولة بإزائه. ويرى الفيلسوف اللبناني، د. ناصيف نصّار كيف أن الديمقراطية تساهم في إنتاج «سياسة الحقيقة» التي تنتج بدورها وتوضح الحقيقة السياسية وحقيقة الديمقراطية. فهذه الأخيرة بنت الفلسفة، من الناحية النظرية، في تشديدها على الحرية والمساواة والشعب. ويضع نصّار للفلسفة أربعة أدوار تؤديها في المجتمع الديمقراطي ضمن السياسة المتعلقة بالحقيقة، دور سياسي ودور ابستمولوجي ودور أخلاقي ودور ميتافيزيقي. الدور السياسي تقوم به بوصفها فلسفة الظاهرة السياسية والديموقراطية تحديداً، والدور الابستمولوجي تقوم به بوصفها نظرية في المعرفة وأنماط التفكير، والدور الأخلاقي تؤديه بوصفها نظرية عامة في الواجبات والمحظورات، والدور الميتافيزيقي تؤديه بوصفه نظرية أخيرة في الوجود والمعنى.

وفي عالم تلمؤه الحروب والنزاعات ثمة مهمة أمام المشتغلين بالفلسفة، وهي توطيد الأسس النظرية للعيش معاً، ولا سيّما في ظل التعددية، وعلى الأخص التعددية الثقافية. ما يحتم تركيز المهمة التربوية على هذه المسألة، بوصفها مدخلاً رئيساً للمواطنة، بحسب ما تقول منظمة «اليونيسكو». ويُعبّر هذا عن نفسه في ترقية فهم واحترام الآخرين، كما اعتقاداتهم وقيمهم وثقافتهم، من منظار اعتبار الاختلاف موارد لبناء «الخير العام» (أو المصلحة العامة)، ويتميّز هذا البناء بمسار غير عنفي وتعايش سلمي. ومن أهداف هذا البرنامج: صون وتعزيز كرامة الإنسان، والاحترام والتفاهم المتبادل، والتقمص العاطفي، أي القدرة على وضع النفس مكان الآخر، والمسؤولية الفردية والجماعية، والمصالحة والعمل على بناء الجسور، وأخيراً تعليم الأخلاق.

والحال، تستند فلسفة العيش معاً، وفاقاً للتونسي د. فتحي التريكي، إلى جملة من المفاهيم والمبادئ، وهي في سعيها للتحقق، تستعين بالديمقراطية وقوة العقل النقدي والتعلّية، من أجل ألا تتحوّل الهوية إلى نزعة هويّة والإسلام إلى نزعة إسلامية، والأيدولوجيا إلى نزعة شمولية. ولا ننسى دور المجال العام (العزیز على قلب الفيلسوف الألماني يورغان هابرماس) والحوار وتبادل الأفكار في تقريب الناس من بعضهم بعضاً.

## هل تُبنى الفلسفة على أُسس لغويّة؟

### الملخص

في هذه الدراسة نحاول إبراز بعض التحوّلات الطارئة على الفلسفة المعاصرة، من خلال فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل، فمن المعلوم أنّ اللغة قد تخطّت النظرة التقليديّة إليها بأنّها أداة للتواصل والإفهام فحسب، لتكون غاية وجوديّة تكشف عن العالم المحيط بها وتمنحه معناه، أمّا التّأويل فهو ممارسة فلسفيّة تتخطّى تفسير النّصوص تفسيراً تقليديّاً لتشمل الوجود ذاته، وهذا التّلاقى ما بين اللغة والتّأويل يُفسّح في المجال لإعادة بناء الفلسفة وفقّ مرتكزات حديثة تنطلق من واقع الإنسان وتجربته المباشرة.

وبما أنّ فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل، تتضافران معاً في محاولة جادّة لتجاوز الفلسفة الكلاسيكيّة التي انشغلت بالماهيات المجرّدة، إلى فلسفة عصريّة، تماز بالمرونة والحيويّة، وتسمّ بأنّها قادرة على مواكبة التّعقيدات الدلاليّة والمعرفيّة التي يُظهرها الواقع، فاللغة هنا تُستقرّ بحسبانها بيت الوجود، والتّأويل هو المراجعة الدائمة للفهم، وتالياً قراءة النّص ليست واحدة وينتهي النّص بها، بل كلّ قراءة للنّص هي فعل تأويليّ جديد، وفي كلّ معنى نوع من التّجليّ الوجوديّ المتجدّد.

هذا، وقد اعتمدنا في هذا البحث مناهج متعدّدة، لعلّ أبرزها المنهج التحليليّ - النقديّ لاستقراء نصوص الفلاسفة الكبار، والمنهج المقارن لمقارنة المواقف الفلسفيّة المختلفة، والمنهج التاريخيّ لتتبّع التحوّلات المفهوميّة، وقد توصلّ البحث إلى نتائج

متنوّعة، ومن تلك النّتائج أنّ اللغة والتّأويل يُشكّلان فلسفة متكاملة بديلة للفلسفة التّقليديّة، وأنّ المعنى أصبح معياراً فلسفيّاً يُوجّه حركة الفكر واللغة، وأنّ الفهم لم يعد مجرد عمليّة معرفيّة، بل ممارسة وجوديّة مُتواصلة.

الكلمات المفتاحيّة: فلسفة اللغة، فلسفة التّأويل، المعنى، الفهم، الفلسفة المعاصرة.

## Abstract

In this study, we attempt to highlight certain transformations that have emerged within contemporary philosophy through the philosophy of language and hermeneutics. It is well known that language has surpassed the traditional view of being merely a tool for communication and comprehension, becoming instead an existential horizon that reveals the surrounding world and grants it meaning. Hermeneutics, on the other hand, has evolved into a philosophical practice that transcends conventional textual interpretation to encompass existence itself. This convergence between language and hermeneutics opens the way for reconstructing philosophy upon modern foundations rooted in human reality and direct experience.

Since the philosophy of language and hermeneutics converge in a serious attempt to move beyond classical philosophy—preoccupied with abstract essences—toward a contemporary philosophy characterized by flexibility and vitality, they prove capable of addressing the semantic and epistemological complexities revealed by reality. Language here is understood as the “house of being,” while hermeneutics is conceived as a continuous review of understanding. Consequently, reading a text is not a single, final act; rather, each reading constitutes a new interpretive process, and every meaning represents a renewed existential manifestation.

In conducting this research, we relied on multiple methodologies, most notably the analytical-critical method to examine the works of major philosophers, the comparative method to contrast different philosophical positions, and the historical method to trace conceptual transformations. The study reached diverse findings, among them: that language and hermeneutics together form a comprehensive philosophy that stands as an alternative to traditional philosophy; that meaning has become a philosophical criterion guiding the movement of thought and language; and that understanding is no longer a mere cognitive process but an ongoing existential practice.

Keywords: Philosophy of Language, Hermeneutics, Meaning, Understanding, Contemporary Philosophy.

## المقدمة

انتقل مفهوم الفلسفة، في العصر الحالي، من معالجة قضايا الوجود، واستقراء الماهيات المجردة؛ لتشهد بعض التحوّلات الجوهرية في مجالات اهتماماتها، متّجهةً إلى موضوعات مرتبطة مباشرة بالإنسان، وعلاقته بالعالم من حوله. وفي هذا الصدد، نرى أنّ فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل تهدفان إلى إعادة صياغة علاقة الفهم بالمعنى، كذلك تهدفان إلى تجاوز أُطر الفلسفة التقليديّة والخروج على التّجريد النّظريّ الذي كان يُميّزها من قبل، فالمعنى الآن هو القيمة المعيارية التي تضبط حركة اللغة، أمّا التّأويل فهو مراجعة دائمة مُتجدّدة للفهم، ويحمل الرّفص للمناهج المؤدلجة، ليؤسّس بذلك رؤية عصرية سيمتها الانفتاح والتّطور. هذا التّحوّل في جوهر الفلسفة ومفهوم التّأويل، يُمثّل انقلاباً في مفهوم البنية الفلسفية عينها، إذ إنّّه يضع اللغة والتّأويل في عمق التّفكير الفلسفيّ؛ لتكون الفلسفة أكثر قُرْباً من الواقع الإنسانيّ، وأفضل مقدره على معالجة قضايا المعنى والوجود في سياق مُتجدّد دائماً؛ وبذلك باتت الفلسفة فعلاً حيّاً يتفاعل مع النّصوص مُعيداً إنتاج المعنى بما يتناسب في كلّ مرّة مع تحوّلات التجربة الإنسانيّة، وهذا ما يمنح الفلسفة الطّابع الديناميكيّ الذي يؤهلها لتجاوز حدودها التقليديّة والانفتاح على المستقبل.

## التعريف بالموضوع

يرتكز هذا البحث على دراسة فلسفة اللغة بوصفها فلسفة مستقلة تستند إلى اللغة عينها، لا إلى إصلاح لغة الفلسفة فحسب، وعلى دراسة فلسفة التّأويل بوصفها ممارسة فلسفية تتجاوز تفسير النّصوص تفسيراً تقليديّاً، فاللغة غاية وجودية تكشف عن العالم وتمنحه المعنى، والتّأويل ليس منهجاً من مناهج فهم النّصوص، إنّما هو فلسفة للفهم بحدّ ذاته، أي بكلمة أخرى يمكن القول إنّ التّأويل هو فهم الفهم عينه. وعليه، فباجتماع هذين المجالين معاً، تتبلور فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل، بوصفها محاولة متقدّمة تسعى إلى إعادة رسم الفلسفة وفقّ مرتكزات جديدة، الأمر الذي يبيّن لنا أنّنا أمام فلسفة مزدوجة البنية، تتعامل مع اللغة بحسبانها وسيطاً وجودياً، وتتعامل مع التّأويل بحسبانها ممارسة عقلانية مُتحرّرة من القيود المنهجية، وتالياً هي فلسفة قادرة على إنتاج المعنى إنتاجاً مُستمراً، بما يُقدّم رؤية متكاملة تشمل الإنسان والعالم معاً.

## أهميّة الموضوع

يُعالج البحث قضيةً فلسفيّةً محوريّةً، تختصّ بكيفيّة إدراك الإنسان هذا العالم من خلال اللغة، وكذلك كيفيّة مراجعة الفهم من خلال التّأويل، فدراسة الأُسُس اللغويّة من بناء فلسفيّ تُبيّن ديناميكيّة الفكر الفلسفيّ الحديث، ومدى مقدرته على تخطّي المناهج التّقليديّة، ثمّ إنّها تُتيح للباحثين النّظر إلى اللغة والتّأويل، كونهما مجالين مُتكاملين يُعيدان صياغة علاقة الذات بالموضوع، وبلورة علاقة الفكر بالواقع.

وكذلك تتجلى الأهميّة في أنّ هذه الفلسفة جديدة بأن تفتح أفقًا جديدًا لفهم النّصوص، بل لفهم الوجود نفسه، وهي بذلك باتت أكثر قدرةً على مواكبة تحولات العصر؛ لذا يبدو أنّ البحث في بناء الفلسفة وفق أُسُس لغويّة، ضرورة معرفيّة؛ إذ إنّهُ يُمكننا من مواجهة تحديات الفهم في عالم تكثر فيه النّصوص وتمتلئ بالمعاني، وكذلك يُتيح لنا أدوات جديدة لتفكيك الالتباسات، ثمّ إعادة علاقة الإنسان بالوجود على مرتكزات تتميّز بالمرونة.

## أسباب الاختيار

إنّ اختيار هذا الموضوع الذي يُصنّف الفلسفة وفق الأُسُس اللغويّة، كان نتيجة الوعي بالحاجة إلى إعادة النّظر في الأدوات الفلسفيّة التي نستخدمها لفهم العالم، فالتّعقيدات الدلاليّة والمعرفيّة التي يفرضها الواقع الحاليّ لم تُعدّ قابلة للمعالجة عبر المناهج التّقليديّة التي انشغلت بالماهيات المجرّدة والوجود النّظريّ، بل تستدعي مقاربات جديدة أكثر التصاقًا بالإنسان وتجربته، واللغة هنا باتت مجالًا فلسفيًا قائمًا بذاته، يكشف عن الوجود ويمنحه معناه، أمّا التّأويل فقد تجاوز حدود التّفسير ليُصبح فلسفةً لفهم ذاته، أي إنّهُ مراجعة دائمة للمعنى على الرّغم من تغيّر التّجارب وتعدّد القراءات.

واستنادًا إلى هذا المنطلق، تُتيح لنا دراسة فلسفة الأُسُس اللغويّة والتّأويل فهّمًا أوسع لطبيعة الفلسفة المعاصرة، وتكشف عن قدرتها على تجاوز الفلسفة التّقليديّة إلى رؤية جديدة، فهي لا تكتفي بطرح أسئلة عن النّصوص أو المعاني، تحاول تأصيلها بما يُؤهلها لدورها المتمثّل في كونها فلسفةً قادرةً على مواكبة تحولات العصر، ومن ثمّ إنّ اختيار هذا الموضوع يعكس إدراكًا بأنّ الفلسفة اليوم مطالبة بأن تكون أكثر انفتاحًا على قضايا الإنسان، وأكثر قدرة على معالجة الالتباسات التي يفرضها النّص والوجود معًا.

### الإشكاليّات

- يرتكز البحث على الإشكاليّة المحوريّة الأتية: «كيف يُمكن لفلسفة اللغة وفلسفة التّأويل أن تُؤسّسا لرؤية جديدة تتجاوز الفلسفة التّقليديّة وتُعيد تعريف علاقة الفهم بالمعنى؟»  
ومن هذه الإشكاليّة تتفرّع إشكاليّات فرعيّة عدّة، ومنها:
- هل من المبالغة القول إنّ اللغة غاية وجوديّة تكشف عن العالم، وليست مجرد أداة للتّواصل؟
  - هل التّأويل فلسفة للفهم ذاته، أم أنّه يظلّ منهجًا لفهم النّصوص؟
  - كيف يؤدّي اجتماع اللغة والتّأويل إلى بلورة فلسفة بديلة للفلسفة التّقليديّة؟
  - ما أثر هذه الفلسفة الجديدة في إعادة صياغة علاقة الإنسان بالعالم؟

### الفرضيات

- اللغة ليست وسيلة تواصلية فحسب، بل هي غاية وجوديّة تكشف عن العالم وتمنحه معناه.
- التّأويل ليس منهجًا تقليديًا، بل هو وجود للفهم، أي إنّهُ مراجعة دائمة للمعنى.
- اجتماع اللغة والتّأويل يُفضي إلى فلسفة جديدة بديلة للفلسفة التّقليديّة.
- هذه الفلسفة الجديدة قادرة على إعادة صياغة علاقة الذات بالموضوع، وعلاقة الفكر بالواقع.

### المناهج البحثيّة المعتمدة

- يعتمد البحث مجموعة من المناهج العلميّة المتكاملة، منها:
- المنهج التّحليليّ التّقدي: لتحليل نصوص الفلاسفة الكبار مثل هايدغر وغادامر وسوسير وفتغنشتاين، والكشف عن دلالاتها الفلسفيّة.
  - المنهج المقارن: لمقارنة مواقف الفلسفة التّحليليّة والبنويّة والظّاهراتيّة إزاء اللغة والتّأويل، وإبراز أوجه التّباين والالتقاء بينها.
  - المنهج التاريخي: بقصد تتبّع التّحوّلات المفهوميّة التي طرأت على اللغة والتّأويل عبر المسار الفلسفيّ الطّويل.
  - المنهج التّقديّ الفلسفيّ: لتقويم الطروحات السّابقة والكشف عن مواطن القوّة والضعف فيها، ثمّ تقديم رؤية جديدة تتجاوز الطّرح التّقليديّ.

### الجديد في البحث

يمتاز هذا البحث بكونه لا يكتفي بتناول فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل، كلّ منهما على حدة، بل يسعى إلى دمجهما في إطار واحد متكامل، بما يُبرز تماهيهما ويكشف عن الخلفيّة الفلسفيّة

المشتركة التي تجمعهما. وهذا الدمج يُتيح إعادة صياغة الفهم والمعنى في الفكر المعاصر، ويؤسس لرؤية فلسفية جديدة تتجاوز حدود الطُّروحات التقلّيدية التي حصرت اللغة في كونها أداة وظيفية للتواصل، وحصرت التأويل في كونه منهجاً تقنياً لفهم النصوص، فالجديد هنا هو النظر إلى اللغة والتأويل معاً بوصفهما فلسفة وجودية متكاملة، ووجهان لرؤية واحدة تتسم بالانفتاح والمرونة، قادرة على إعادة بناء علاقة الإنسان بالعالم على أسس أكثر عمقاً ومرونة. وكذلك الجديد الذي نسعى إليه في هذا البحث يكمن في أنّ هذه الفلسفة المزدوجة لا تقتصر على معالجة قضايا النصوص أو المعاني، بل تمتدّ إلى إعادة بناء الفلسفة نفسها؛ لتكون أكثر قدرة على مواكبة تحولات العصر، وأكثر التصاقاً بالحياة الإنسانية في تعقيداتها وتنوعها.

### المبحث الأول: فلسفة اللغة وتحولاتها

لقد أخرجت فلسفة اللغة والتأويل البحث الفلسفي، من معالجاته التقلّيدية المتمحورة في الوجود المجرد إلى آفاق جديدة تتجاوز التجريد التاريخي إلى موضوعات أكثر حيوية. فاللغة لم تعد ماهية آلية أو أداة محايدة، بل أصبحت غاية تُحاكي الفكر والواقع في وقت واحد، بينما تحوّل التأويل من منهج تفسيري للنصوص إلى قراءة فلسفية تنبذ المنهج الجامد، وتتعامل مع الوجود نفسه بوصفه نصّاً مفتوحاً يستدعي فهماً مُتجدداً. هذا التحول يعكس انتقال الفلسفة من الانشغال بالماورائيات إلى الاهتمام بالإنسان والعالم، وهو ما يمنحها طابعاً أكثر حيوية وفاعلية. ومن خلال هذا المسار، يمكن القول إنّ الفلسفة ممارسة حيّة تتفاعل مع النصوص والظواهر، وتعيد إنتاج المعنى باستمرار بما يتناسب مع تحولات التجربة الإنسانية. ثمّ إنّ هذا الانفتاح على النصوص والوجود يؤدي بالفلسفة إلى أن تكون ذات وظيفة أكثر قدرة على معالجة القضايا المعاصرة، ويجعلها أداة لفهم الإنسان في سياقاته المتغيرة. تقتضي الضرورة المنهجية تمييز لغة الفلسفة من فلسفة اللغة، على الرغم من التقاطع الواقع بينهما، لكنّ لغة الفلسفة هي محاولات لإصلاح لغة البحث الفلسفي عبر المنهج التحليلي، كما فعل أتباع مدرسة كمبردج Cambridge School of Philosophy الذين قالوا إنّ مشكلة الفلسفة لغوية بالدرجة الأولى، أمّا فلسفة اللغة فهي فلسفة تنطلق من اللغة ذاتها لتبني منظومة فلسفية متكاملة ورؤية كونية إزاء الإنسان والوجود. فقد كان رأيهم أنّ الأسئلة الفلسفية الكبرى، في أكثرها، مثال سؤالنا ما هو الوجود، ليست بقضايا حقيقية تستدعي البحث، إنّما نتجت من سوء فهمنا منطق اللغة؛ ولذا هي قضايا زائفة (Internet Ency-clopedia of Philosophy, n.d)؛ لذلك رأى فتغنشتاين Ludwig Wittgenstein أنّ

مَهْمَةٌ الفلسفة ليست تقديم نظريات جديدة، بل العمل بوصفها علاجًا للارتباك الفكري من خلال تحليل اللغة وتوضيح معاني الكلمات (The Cambridge Handbook of the Philosophy of Language, n.d).

يتبين من هذا التمييز أن فلسفة اللغة ليست فرعًا من الفلسفة، بل هي فلسفة مستقلة، وهو ما دفع ببعض الفلاسفة إلى أن يعدّوها وريثًا شرعيًا للفلسفة التقليدية، ولكن ربما تكمن الإشكالية في هذا المسار في أن حصر مشكلة الفلسفة في اللغة، كما فعل التحليليون، يُضيق من أفق الفلسفة، بينما فلسفة اللغة تُوسّع هذا الأفق لتجعل اللغة مجالًا وجوديًا ومعرفيًا شاملًا. ومن خلال هذا المنطلق، يتبين أن فلسفة اللغة لا تكتفي بتصحيح أدوات التفكير، بل تُعيد بناء الفلسفة نفسها على قاعدة لغوية جديدة، تجعلها أكثر قدرة على التفاعل مع الواقع، وأكثر انفتاحًا على قضايا الإنسان.

ليست فلسفة اللغة مجرد تعامل فلسفي مع اللغة، بل هي فلسفة منبثقة من اللغة ذاتها، فالتفلسف سمة ملازمة للموضوع كما هو للذات، فاللغة مساوقة للعالم، وحيث يوجد عالم توجد لغة، والعكس صحيح (زيدان، 1985)، هذا ما يُبرّر اهتمام فلسفة اللغة بمجالين رئيسيين: الأول هو الفكر وتُجسّده اللغة، بينما المجال الثاني هو الواقع، واللغة تُمثّل موضوعيته. وبحسب هايدغر Martin Heidegger، اللغة هي بيت الوجود، فهي تكشف عنه وتُظهره، الأمر الذي يجعلها وسيطًا وجوديًا لا يُمكن تجاوزه. ومن خلال هذا التصوّر، يتضح أن اللغة ليست انعكاسًا خارجيًا للواقع فحسب، بل هي جزء من بنيته الداخليّة، إذ إنّها تمنح الأشياء ماهيتها وتُحدّد موقعها في الوجود، وهذا التداخل بين اللغة والعالم يفتح المجال أمام الفلسفة لتكون أكثر قدرة على فهم النّص، بل على فهم ماهية اللغة ذاتها (سعد، 2002)، وكذلك يُمكنها أن تستقرئ الإنسان في علاقته بالوجود، ويجعل اللغة عينها موضوعًا فلسفيًا قائمًا بذاته، لا مجرد أداة تعبيرية.

وقد شهدت اللغة تحولات عميقة على مستوى خصائصها ووظائفها، وقد باتت غاية بحدّ ذاتها، فالتفكير لا يسبق التعبير، بل هما متلازمان، كما يرى فتغنشتاين (زيدان، 1985)، والواقع لا يُصبح ما هو عليه إلا باللغة، كما يؤكّد هايدغر (أدهم، 1993)، هذا التحوّل جعل اللغة ذات ماهية غائبية، موضوعًا للفلسفة، يبحث في عوارضها الذاتية. وتوصيف اللغة بأنّها غاية يُحرّرها من كونها أداة، لكنّه يُحمّلها في الوقت عينه مسؤولية الكشف عن العالم، وهو ما يضعها في قلب الفلسفة المعاصرة. ومن خلال هذا المنظور، تُصبح اللغة وسيطًا وجوديًا لا يُمكن تجاوزه، إذ هي التي تمنح الفكر معناه، وتكشف عن الواقع في تعدّد ظواهره. إنّ هذا

التحوُّل يعكس انتقال الفلسفة من الاهتمام بالماهيات المجردة إلى الاهتمام بالوسيط الذي يمنحها معناها، وهو اللغة، الأمر الذي يجعلها أكثر قدرة على معالجة القضايا الراهنة. وبعُدُّ، يتجاوز دور اللغة حدود الاتصال إلى حيز الإبداع، ويتحوُّل الخطاب إلى مجال للكشف عن قدرات الإنسان الإبداعية، فالخطاب الإبداعي في الشعر أو في النصوص القرآنية يكشف عن قدرة اللغة على توليد المعاني بلا حدود، وهو ما بلوره تشومسكي في نظرية التحوُّل التوليدي التي تفترض أنَّ اللغة قدرة عقلية فطرية، يملكها الإنسان بوصفها جزءاً لا ينفصل عنه، بل يرافقه في سلوكه الإنساني، ويساعده على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل (ليونز، 1985)، ويؤكد تشومسكي أنَّ اللغة حدس إبداعي يُؤد كلاً لا متناهياً من لغة متناهية، وهي نظرية لها مكانتها في فهم علاقة اللغة بالفكر (Jackendoff, 2002). هذا التحوُّل من التحوُّل التقليدي إلى البنوي، ثم التوليدي، يعكس انتقال اللغة من كونها نظاماً مغلقاً إلى كونها نسقاً إبداعياً مفتوحاً (عياشي، 1996). ومن طريق هذا المسار، يتضح أنَّ اللغة الفلسفية فيها مجال رُحِب للإبداع بما يكشف عن قدرة الإنسان على توليد المعاني باستمرار، انطلاقاً من كونها أداة عصرية لتجديد الفكر والمعرفة.

هذا، وقد أسس فردينان دي سوسير للبنوية اللغوية (1985)، عبر تمييز اللغة من الكلام، وتمييز اللغويات الداخلية من الخارجية، مؤكداً أنَّ اللغة نسق مستقل لا يفهم إلا من خلال نظامه الخاص، والعلامة عنده اتحاد بين الدال والمدلول (عبد الواحد، 2018)، لا مجرد إحالة إلى الواقع. هذا التصوُّر جعل اللغة نسقاً مغلقاً، لكن الظاهراتية أعادت فتحه على الواقع، بتحديد العلامة بأنها إحالة إلى الخارج، وتالياً البنوية، ورغم أهميتها في الكشف عن بنية اللغة، وقعت في فخ الانغلاق (جامعة الجيلالي، 2024)، بينما الظاهراتية أعادت إلى اللغة انفتاحها على العالم، إذ أثبتت أنَّ اللغة والوعي في انفتاح دائم على العالم؛ فالكلمات لا تشير إلى أشياء معزولة، بل تُعبّر عن تجربتنا المعاشة وتكشف لنا عن عوالم ممكنة نعيش فيها (بو الطمين وبوسيس، 2020)، وربّما يكون الجمع بين البنوية والظاهراتية المرتكز الصحيح لفهم اللغة، وبهذا الجمع يمكن للباحث أن يُوازن بين البنية الداخلية للغة بوصفها نظاماً قائماً بذاته، ووظيفتها الخارجية التي تربط الإنسان بالعالم، وهو ما يفتح المجال أمام مقارنة أكثر شمولاً للعلامة اللغوية. كما أنَّ هذا التوازن يُتيح تجاوز النظرة الأحادية التي تحصر اللغة، إمّا في الفكر أو في الواقع، ليجعلها وسيطاً جامعاً بين الاثنين، قادراً على إنتاج المعنى في مستويات متعددة.

استناداً إلى ذلك، يبدو أنَّ المعنى في فلسفة اللغة تحوُّل من كونه طرفاً في معادلة لغوية،

إلى كونه معياراً فلسفياً يُحدّد صلاحية اللغة نفسها، فالمعنى هو الذي يُحدّد إمكان إطلاق حكم الصدق أو الكذب على الجملة، لا العكس. هذا التحوّل جعل المعنى حالة قيمية ومعياريّة تضبط حركة اللغة، وهو ما يفتح المجال أمام فلسفة اللغة لتكون فلسفة للمعنى بامتياز. ومن خلال هذه المنطلقات، يُصبح المعنى أساس وجود اللغة وليس تابعاً لها، إذ لا يمكن للغة أن تؤدّي وظيفتها من دون أن تكون مشبعة بالمعنى. وعليه، يعكس هذا التحوّل انتقال الفلسفة من الاهتمام بالصدق والكذب بوصفهما معيارين منطقيّين، إلى الاهتمام بالمعنى بوصفه شرطاً وجودياً للفكر واللغة معاً، كما أنّه يضع المعنى في موقع مركزيّ داخل الفلسفة ليكون معياراً للحقيقة، لا مجرد انعكاس لها، وهو ما يجعل فلسفة اللغة فلسفة للمعنى قبل أن تكون فلسفة للفظ أو التعبير.

### المبحث الثّاني: انعطافات في فلسفة التّأويل

يقضي التّأمّل الفلسفيّ منّا أن نُصغي إلى النّصّ، بعيداً من المناهج المسبقة، ونترك النّصّ ليُخبرنا عن نفسه، ويكشف عن معناه في حركة مُتجدّدة، في عمليّة إصفاء بصريّة مُستمرّة منّا، فالنّصّ هنا ذو ماهية ميتافيزيقية، يحتوي المعاني الطّاهرة، والعالم نفسه نصّ مفتوح. وهذا التّماهي ما بين النّصّ والعالم يمنحنا المقدرة على تجديد نظرتنا إلى الأمور نظرة مستمرّة، وتالياً كلّ معنى هو تجلّ وجوديّ لشيء ما، والنّظر في العالم بوصفه نصّاً يُفسح المجال لفلسفة التّأويل لتكون الفلسفة الشّاملة التي تحتوي الوجود، بدلاً من كونها مجرد منهج محدود يمكن توظيفه في فهم النّصوص، إذ إنّها ترى أنّ كلّ ما في الوجود لا يُدرك إلّا من خلال الفهم والتّأويل (غادامير، 2006).

ومن خلال هذا التّصوّر، نقول إنّ النّصّ وسيط بين الدّات والموضوع، والتّأويل ممارسة وجودية لا تنفصل عن التجربة الإنسانيّة، ممارسة تتخطّى فهم الواقع فهماً أحاديّاً إلى تقديم رؤية جديدة، متعدّدة الطبقات، وفيها كلّ قراءة لها نظرة جديدة إلى العالم، ومن يتحلّى بهذه الممارسة يستطيع استقراء معانٍ جديدة في كلّ قراءة جديدة منه للنّصوص، فالتّأويل العامّ فعل مستمرّ يبتغي اكتشاف الوجود، والفلسفة اللغويّة هي تجديد استقراء النّصوص والمعاني فيها.

هذا، وقد مرّ التّأويل بثلاثة مستويات أساسيّة: المنهجيّ، والمعرفيّ، والفلسفيّ (قارة، 1998)، يرتبط المستوى المنهجيّ بتفسير النّصوص تفسيراً تقليديّاً، والهدف الوصول إلى مراد المؤلّف بدقّة بعيداً من سوء الفهم، ولكنّ هذا دفع بعضهم إلى الانطلاق بهذا المنهج إلى نوع من الهرمنوطيقا الفيلولوجية واللاهوتية، أمّا المستوى المعرفيّ الذي بدأه دلتاي

Wilhelm Dilthey، فقد توسّع التّأويل فيه ليشمل العلوم الإنسانيّة، في محاولة لتأسيس أصل إبستمولوجيّة لها تُماثل العلوم الطّبيعيّة في دقّتها، بينما المستوى الفلسفيّ فقد بلوره كلّ من هايدغر وغادامر، فاللغة هي المشترك الآن ما بين الدّات والموضوع، والتّأويل فلسفة تبتغي الفهم المُطلق (مصطفى، 2003).

على هذا، يعكس هذا المسار عمليّة تطوّر التّأويل من منهج إلى فلسفة، الأمر الذي يُضفي عليه طابع الشّموليّة، كما يتبيّن لنا في هذه العمليّة أنّ التّأويل الآن قد بات إطاراً معرفيّاً يُوجّه العلوم الإنسانيّة ويمنحها شرعيّة فلسفيّة، كما أنّه يفتح المجال أمام الفلسفة لتكون أكثر قدرة على معالجة قضايا الإنسان، عبر رُبط النّصوص بالوجود ذاته، هذا التدرّج من المنهج إلى الفلسفة يعكس نضج التّأويل، ويؤكد أنّه لم يُعدّ حكرًا على النّصوص الدّينيّة أو الأدبيّة، بل أصبح ممارسة فلسفيّة شاملة.

أمّا هايدغر فقد عمد إلى قلب المعادلة التّقليديّة في وجهة نظره أنّ اللغة تنطق الوجود، وأنّ الإنسان ليس هو من يتكلّم اللغة، بل اللغة هي التي تتكلّم من خلاله، وذلك بقوله إنّ اللغة تنطق الوجود، وهناك فحسب حيث توجد لغة يوجد عالم (مصطفى، 2003)، هذا التّصوّر يعني أنّ اللغة أصيلة في الوجود، والتّأويل فلسفة للفهم ذاته، أمّا غادامر فقد طوّر هذه الرّؤية ليؤسّس فلسفة التّأويل بوصفها نظريّة متكاملة تربط اللغة بالوجود، مؤكّداً أنّ الحقيقة تسبق المنهج، وأنّ الفهم لا ينفصل عن اللغة. هذا التّصوّر، برغم عمقه، يُثير إشكاليّة في دور الدّات، إذ يبدو أنّها تتراجع أمام اللغة، الأمر الذي يستدعي إعادة التّفكير في العلاقة التّفاعليّة المتبادلة ما بين الإنسان واللغة. وفي هذا الصّدّد تحتاج فلسفة التّأويل إلى إعادة الموازنة؛ كي تحافظ على فاعليّة الإنسان ودوره في إنتاج المعنى من جهة، وتفتح المجال للنّقاش الفلسفيّ الجديد في حدود اللغة، وهل هي قادرة على احتواء أشكال الوجود كافّة، ما يطرح إشكاليّة جديدة هل فلسفة التّأويل جامدة أو أنّها مفتوحة على المراجعة الدّائمة؟ لم يُعدّ النّصّ في فلسفة التّأويل محض عبارات بنيويّة جافّة، بل أصبح حركة دائمة تستدعي تأويلاً مُتواصلًا، يلتقي فيه أفق القارئ بأفق النّصّ في عمليّة تناصّ مستمرّة، عمليّة تعتمد التّقاء أفق القارئ بأفق النّصّ، في فهم يصل إلى غايته جزئيًّا، وبذلك كلّ قراءة تُصبح تأويلاً عامًّا (مصطفى، 2003)، وهكذا يُصبح العالم نصًّا والنّصّ عالمًا، ويغدو التّأويل وسيلة لفهم الوجود ذاته. وعليه، إنّ هذا التّحوّل يجعل من كلّ قراءة فعلًا تأويليًّا جديدًا، ومن كلّ معنى تجليًّا وجوديًّا متجدّدًا، فالنّصّ فضاء مفتوح للتّفاعل بين الدّات والموضوع، فكلّ قراءة تضيف طبقة جديدة على المعنى، هذا الانفتاح يجعل النّصوص حيّة، قادرة على إنتاج معانٍ

جديدة في كلّ سياق، وهو ما يمنح التّأويل طابعًا ديناميكيًا لا ينفصل عن التّجربة الإنسانيّة. هذا، وقد لحظت النّظريّات البنيويّة أنّ علاقة الدّات الإنسانيّة بلغتها ليست فقط في قراءة النّصوص واستقراء معانيها، بل هي مدمجة في المجالات المعرفيّة كافّة، ومن ذلك، إضافة إلى الفلسفة: الأنثروبولوجيا والفيزياء والرياضيّات، منطلقة من رؤية تصوّريّة أنّ العالم بأكمله هو حقيقة واقعيّة مبسّطة يستطيع الإنسان إدراكها، ومن هذا المنطلق كانت البنيويّة الألسنيّة ذات توجّه شامل، وأبرز من تبنّى هذه الآراء فيها فردينان دي سوسير، وكلود ليفي شتراوس (Marcel, 1970).

ويُمكن القول إنّ اجتماع اللغة والتّأويل على خلفيّة فلسفيّة واحدة يُنضي إلى انبثاق فلسفة متكاملة موازية للفلسفة التّقليديّة، إنّ لم تكن بديلة منها. فاللغة والتّأويل معًا يُشكّلان فلسفة جديدة تتسم بالسيولة والانفتاح، وتفتح أمام الفكر الفلسفيّ المعاصر أفقًا جديدًا يتجاوز حدود الفلسفة التّقليديّة، إذ لم يُعدّ البحث الفلسفيّ محصورًا في الماورائيّات والماهيات الجامدة التي يصعب على كثير من النّاس متابعتها أو فهم أبعادها، بل أصبح معنيًا بالإنسان في علاقته بالعالم، وباللغة في قدرتها على كشف الوجود وإعادة صياغة المعنى، فلسفة اللغة والتّأويل بهذا المعنى هي نوع من إعادة تأسيس التراث الفلسفيّ على أُسُس أكثر حيويّة ومرونة، حين يصبح الفهم ذاته موضوعًا للفلسفة، والمعنى معيارًا يُوجّه حركة الفكر واللغة معًا، ومن خلال هذا التأسيس الجديد، يُمكن الفلسفة أن تُعيد بناء أدواتها ومناهجها بما يتناسب مع تعقيدات العصر، ووفّق هذه المرتكزات، اللغة ليست لغة بحدّ ذاتها وكفى، هي كذلك في ارتباطها بكيئونة الأنا الإنسانيّة، لكنّها تتعلّق كذلك بكلّ من الكيئونة والعدم وارتباطهما بها (أدهم، 1993)، وما فلسفة اللغة والتّأويل، مجتمعتان، إلّا محاولة متقدّمة، تهدف إلى رُبط الفهم بالمعنى (ريكور، 2003).

وبما أنّ كلّ قراءة للنّص هي فعل تأويليّ جديد، وكلّ معنى يتجلّى هو كشف وجوديّ مُتجدّد، تبقى الفلسفة في حالة مراجعة دائمة، لا تُفضل على يقين نهائيّ، بل تبقى مفتوحة على احتمالات المعنى، وهنا تكمن قوّة فلسفة اللغة والتّأويل: أنّها فلسفة سلسلة مرّنة، لا تنغلق على منهج واحد، بل تتفتح على تعدّد المناهج والقراءات، لِتُعيد صياغة علاقة الإنسان بالعالم في ضوء لغويّ وتأويليّ جديد، ومن خلال هذا الانفتاح، تُصبح الفلسفة أكثر قدرة على معالجة قضايا الإنسان في سياقاته المختلفة، وأكثر استعدادًا لمواجهة التّحدّيات المعرفيّة والدلاليّة التي يفرضها الواقع باستمرار.

## الخاتمة

خلص البحث إلى أنّ فلسفة اللغة وفلسفة التّأويل تتضافران معاً في محاولة متطوّرة تسعى إلى إعادة صياغة الفلسفة المعاصرة، من طريق تجاوز الفلسفة التّقليديّة التي انشغلت من قبل بالوجود والماهيات والتّعقيدات، إلى فلسفة جديدة تنظر إلى الكون، وإلى النّصوص، نظرة واحدة متمحورة في الفهم والوعي واللغة، وتبيّن في معطيات البحث أنّ اللغة قد باتت غاية وجوديّة تكشف عن العالم، والتّأويل هو الفهم بحدّ ذاته، وإذ يجتمعان تتبلور الفلسفة الجديدة البديلة من الفلسفة التّقليديّة.

هذا التّطوّر المفاهيمي وُضِعَ الفلسفة في موقع أكثر اقتداراً على معالجة التّطوّرات الحاليّة، وجعل منها أداة مؤثّرة في عمليّة فهم الإنسان في سياقاته المتغيّرة، الأمر الذي يمنحها طابعاً يمتاز بالحيويّة والفعاليّة، ويمنح الفلسفة سمة الالتصاق بالواقع، لتكون أكثر مقدرة على مواكبة التّحدّيات والدّلاليّة التي تفرضها تطوّرات العصر، وانطلاقاً من ذلك نُوصي بضرورة دمج فلسفة التّأويل بالأسس اللغويّة الفلسفيّة في مناهج البحث المعاصر؛ لقدرتهما في حال تضافرهما معاً على معالجة التّعقيدات الدّلاليّة والمعرفيّة التي يفرضها الواقع، كذلك نوصي بمحاولة تطوير مقاربات نقدية عصريّة تستقري التراث الفلسفي العربي والغربي معاً، بما يفتح أفقاً جديداً مُعيّناً على فهم علاقة الإنسان بالعالم فهماً تامّاً.

## مراجع الدّراسة

### أولاً: المراجع العربيّة

- أدهم، سامي. (1993). فلسفة اللغة. بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع.
- بوالطمين، نوال؛ بوسيس، وسيلة. (2020). الظّاهراتيّة والظّاهراتيّة التّأويليّة – رؤية في المفاهيم والعلاقات. مجلّة إشكالات في اللغة والأدب، مجلد: 09، عدد: 3.
- البهنساوي، حسام. (1994). أهميّة الرّبط بين التّفكير اللّغويّ عند العرب ونظريّات البحث اللّغويّ الحديث. القاهرة: مكتبة الثّقافة الدّينيّة.
- جامعة الجيلالي، بونعامة خميس مليانة (2024). نقد بنيويّ: البنيويّة التّكوينيّة المفهوم والأصول الفلسفيّة.
- دي سوسير، فردينان. (1985). دروس في الألسنيّة العامّة. ترجمة صالح القرماذي وآخرين. تونس: الدار العربيّة للكتاب.
- ريكور، بول. (2003). نظريّة التّأويل، الخطاب وفائض المعنى. ترجمة سعيد الغانمي. بيروت: المركز الثّقافيّ العربيّ.

- زيدان، محمود فهمي (1985). في فلسفة اللغة. بيروت: دار النهضة العربيّة.
- سعد، توفيق. (2002). في ماهيّة اللغة وفلسفة التّأويل. بيروت: المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنّشر والتّوزيع.
- عبد الواحد، عبد الحميد النوري. (2018). الدالّ والمدلول. موقع إلكتروني: [https://www.net.alukah.org/126765/language\\_literature/](https://www.net.alukah.org/126765/language_literature/)
- عياشي، منذر. (1996). اللسانيات والدلالة. حلب: مركز الإنماء الحضاري.
- غدامير، هانس غيورغ. (2006). فلسفة التّأويل الأصول، المبادئ، الأهداف. ترجمة محمّد شوقي الزّين. الجزائر: منشورات الاختلاف. والمغرب: المركز الثقافيّ العربيّ، وبيروت: الدّار العربيّة للعلوم.
- قارة، نبيهة. (1998). الفلسفة والتّأويل. بيروت: دار الطليعة.
- ليونز، جون. (1985). نظريّة تشومسكي اللّغويّة. ترجمة وتعليق د. حلمي خليل، الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.
- مصطفى، عادل. (2003). فُهم الفُهم مدخل إلى الهرمنوطيقا، نظريّة التّأويل من أفلاطون إلى جادامر. المملكة المتّحدة: مؤسّسة هنداوي.

#### ثانياً: المراجع الأجنبيّة

- Marcel, C. (1979). La Langage: Structure Et Evolution. Paris.
- Jackendoff, R. (2002). Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution. Oxford: Oxford University Press.
- Internet Encyclopedia of Philosophy. (n.d.). Ordinary language philosophy. Retrieved June 8, 2026, from <https://iep.utm.edu/ord-lang>
- Cambridge University Press. Retrieved June 8, 2026, from <https://www.cambridge.org/core/books/abs/cambridge-handbook-of-the-philosophy-of-language/philosophy-of-language-definitions-disciplines-and-approaches/2454CB9E11A20BCB77AE0447969A7CB>



## مأزق الإيتيقا بين اسبينوزا وليفيناس: من ضرورة الوجود إلى لامتناهية المسؤولية

### الملخص

تبحث هذه الدراسة في الإنقسام الإيتيقي بين باروخ اسبينوزا وإيمانويل ليفيناس باعتباره مأزقاً أساسياً في تاريخ الفلسفة الأخلاقية - مأزقاً بين الضرورة العقلانية المحايثة والمسؤولية الإيتيقية المتعالية. ففي حين تؤسس إيتيقا اسبينوزا الأخلاق على الفهم العقلاني للنظام الإلهي للطبيعة (Deus sive Natura)، يقوم ليفيناس بعكس هذا التقليد مدعياً أن الإيتيقا تسبق الوجود وتقوم على الالتزام اللامتناهي تجاه الآخر. كما يكشف هذا المقال العواقب الميتافيزيقية والأخلاقية لهذين الموقفين، ويؤكد أن التوتر بين عقلانية اسبينوزا وإيتيقا ليفيناس يحدد حدود الفكر الأخلاقي الحديث. نحن نزعم أننا لا نهدف إلى التوفيق ما بين هذين الموقفين، وإنما إلى فهم كيفية كشف كل منهما لحدود العقل والحرية والمسؤولية. فتقترح إيتيقا اسبينوزا القائمة على الضرورة المفرحة وإيتيقا ليفيناس القائمة على التعالي والمسؤولية اللامتناهية مسارات مختلفة نحو الحرية الإنسانية، الأول عبر الفهم والثاني عبر اللقاء مع الآخر المختلف. وبذلك يصبح المأزق الفاصل بينهما مساحة فلسفية منتجة، حيث يمكن إعادة التفكير في الإيتيقا على أنها مشاركة عقلانية في الوجود وانكشاف للآخر خارج الوجود.

### Abstract:

This study examines the ethical divide between Baruch Spinoza and Emmanuel Levinas as a fundamental impasse in the history of moral philosophy—an impasse between immanent rational necessity and transcendent ethical responsibility. While Spinoza's ethics grounds morality in the rational understanding of the divine order of nature (Deus sive Natura), Levinas reverses this tradition by claiming that ethics precedes being and is founded on an infinite obligation toward the Other.

The article explores the metaphysical and ethical consequences of these two positions and argues that the tension between Spinoza's rationalism and Levinas's ethics defines the limits of modern ethical thought. We contend that our aim is not to reconcile these two positions, but rather to understand how each reveals the limits of reason, freedom, and responsibility. Spinoza's ethics, grounded in joyful necessity, and Levinas's ethics, grounded in transcendence and infinite responsibility, propose divergent paths toward human freedom—one through understanding, the other through the encounter with radical alterity.

In this way, the impasse between them becomes a productive philosophical space in which ethics can be rethought both as rational participation in being and as an exposure to the Other beyond being.

### مفاتيح الكلمات:

الإيتيقا، الآخر، وجه الآخر، المسؤولية، اللامتاهي، الغيرية، القلق الأخلاقي

### المقدمة

يبقى سؤال الإيتيقا، وأساسها ومعناها، من أكثر اهتمامات الفلسفة ثباتاً واستمراراً. منذ التصور اليوناني المبكر للفضيلة وحتى البحث الحديث عن الاستقلال الأخلاقي، حاول الفلاسفة تحديد ما إذا كانت الإيتيقا تنشأ من طبيعة الوجود أم من المسؤولية التي تتجاوزه. فتبرز ضمن هذا الإطار التاريخي الواسع قليل من المقارنات مثل المقارنة بين باروخ اسبينوزا (1632–1677) وإيمانويل ليفيانس (1906–1995)، بحيث لا تمثل تصوراتهما للإيتيقا مجرد نظم فكرية متباينة، بل توجهات متعارضة نحو بنية الواقع والوجود الإنساني ذاته. تتكشف الإيتيقا لاسبينوزا كبرهان هندسي على الضرورة الأخلاقية المرتكزة على النظام العقلاني للجوهر، بينما تقوم الكلية واللامتاهي لليفينانس بتحويل هذا البناء الوجودي بأكمله معلنةً أن «الإيتيقا هي الفلسفة الأولى». يكمن بين هذين المفكرين مأزقاً عميقاً ونقطة يتواجه فيها الإيمان العقلاني والإيتيقا المتعالية دون إمكانية التوفيق.

بحسب اسبينوزا، لا تنفصل الإيتيقا عن الوجود، حيث تتجسد السعادة القصوى في الحب العقلي لله، أي في فهم النظام الضروري للطبيعة ومطابقة أفعال المرء مع قوانينها الأبدية. في هذا السياق، لا تعتبر الحياة الإيتيقية مسألة طاعة لأمر خارجي، بل انسجام داخلي مع ضرورة الوجود. وبغية تحقيق الإنسان لحرية يتجاوز الفرد الهروب من السببية ويسعى إلى فهمها، فتكمن الحرية في فهم الضرورة. كما يدرك الفرد من خلال العقل أن كل ما يوجد ينبثق عن الجوهر اللامتناهي لله أو للطبيعة. وهكذا يتطابق الكمال الإيتيقي مع الفهم الوجودي وتصبح الفضيلة متطابقة مع المعرفة. تكشف هذه المطابقة كيف أن إيتيقا اسبينوزا متأصلة بعمق، بحيث لا يوجد تعالي خارج وحدة الجوهر ولا يوجد آخر يقطع الذات من خارج نظام الوجود.

في المقابل، يعلن ليفيناس عن ثورته الأخلاقية!! بحيث يتحدى الاتجاهات الشمولية للميتافيزيقا الغربية، بما في ذلك الأحادية العقلانية لاسبينوزا. بالنسبة له، لا يمكن للوجود - كمفهوم لاختزال للآخر - أن يؤسس الإيتيقا، بل يجب أن يسبقها لقاء يتجاوز الوجود ذاته. يفرض وجه الآخر، في ضعفه وأمره، على الذات مسؤولية لا تنتهي. فلا تستمد هذه المسؤولية من المعرفة أو العقل أو القانون الطبيعي، إنها حدث يخترق الذات ويكشفها لالتزام لامتناهي لا يمكن الوفاء به. إذًا، تصبح العلاقة الإيتيقية غير متماثلة ومتعالية؛ أنا مسؤول عن الآخر قبل أي حرية اختيار، وتحدد هذه المسؤولية جوهر ذاتي ومن ثم انقطاعًا للوجود لا استمرارية له.

يحدد التوتر بين هذين التصورين ما يمكن تسميته مأزق الإيتيقا بما هو حدٌ للعقل وبداية للأخلاق. فبينما يؤكد نظام اسبينوزا على أن المعرفة تساوي الحرية وأن الإيتيقا تنشأ ضمن وحدة الوجود، يصر ليفيناس على أن المسؤولية تساوي الإنسانية وتبدأ الإيتيقا خارج الوجود. يكشف الصراع بين الضرورة العقلانية والتعالي، بين الضرورة الهندسية للجوهر والدعوة للامتناهي للآخر، عن استحالة تأسيس الإيتيقا على مبدأ واحد. ومع ذلك، فإن هذه الاستحالة نفسها تفتح فضاءً فلسفيًا خصبًا عنوانه الاعتراف بأن الإيتيقا تتأرجح بين الفهم والالتزام، بين الضرورة واللامتناهي. كما يكشف هذا المأزق ما بين إيتيقا اسبينوزا والكلية واللامتناهي لليفيناس مفهوم الحرية وطبيعة علاقة الذات بالآخر. من خلال تتبع المسار من ضرورة الوجود إلى لامتناهي المسؤولية، نهدف إلى إظهار أن المواجهة بين اسبينوزا وليفييناس لا تعارض فلسفتين فحسب، بل تحدد الإيتيقا نفسها.

### الجزء الأول - إيتيقا اسبينوزا: الضرورة العقلانية والوجودية

قلما توجد في تاريخ الفلسفة الحديثة أعمال تعيد تعريف العلاقة بين الميتافيزيقا والأخلاق بشكل جذري كما هي الإيتيقا عند اسبينوزا. فيكتبها بأسلوب هندسي على طريقة إقليدس، وتكشف هذه العملية على شكل استنتاج صارم للحياة الأخلاقية من البنية الأساسية للوجود نفسه. بالنسبة له، لا يمكن فصل الإيتيقا عن الوجود، لأن الإنسان جزء لا يتجزأ من الطبيعة وليس استثناءً لها. فكل فعل ورغبة وفكرة تنبثق من نفس النظام الضروري الذي يحكم الكون، ومن ثم، فإن فهم الأخلاق يتطلب فهم طبيعة الواقع. لا تقوم فلسفة اسبينوزا الإيتيقية على أمر إلهي أو اختيار ذاتي، وإنما على الفهم العقلاني للضرورة. فالتصرف الأخلاقي هو التصرف وفق العقل، والتصرف وفق العقل يعني التصرف وفق الطبيعة.

#### 1- الجوهر والنظام الكامن للطبيعة

يقوم النظام الأخلاقي برمته على مبدئه الميتافيزيقي الجذري *Natura sive Deus* الله أو الطبيعة. وبهذه الصياغة، يُلغى التمييز التقليدي بين الخالق والمخلوق، إذ لا يوجد سوى جوهر واحد لامتناهٍ، قائم بذاته ومفهوم بذاته، يعبر عن نفسه عبر صفات لامتناهية، لا نعرف منها إلا صفتين هما الفكر والامتداد. أما الكائنات المحدودة، بما فيها الإنسان، فليست إلا أحوال (*modi*)، أي تعيّنات جزئية لهذا الجوهر الواحد، وتعبيرات مخصوصة عن قدرته اللامتناهية.

وبناءً على ذلك، يكون اله اسبينوزا محايثاً للعالم لا متعالياً عليه؛ ليس كياناً خارج الطبيعة أو فوقها، بل هو عين نظامها الداخلي وضرورتها العقلانية. فالله ليس علة متجاوزة للأشياء، وإنما علة محايثة لكل ما يوجد. ومن هنا، فإن كل ما هو كائن يتبع بالضرورة طبيعة الله أو الطبيعة، بحيث لا مجال للصدفة أو العرض أو الإمكان المفتوح. يقول صراحة: «في الطبيعة لا يوجد شيء عرضي، بل إن كل الأشياء قد تحددت من ضرورة الطبيعة الإلهية لأن توجد وتُحدت أثراً بطريقة معيّنة».

تترتب على هذه الأحادية الوجودية نتائج أخلاقية حاسمة، إذ لا يمكن فهم الحرية بوصفها انفصلاً عن السببية أو تحرراً من الضرورة، بل على العكس، بوصفها فهمًا واعياً للضرورة واندماجاً عقلانياً فيها وهذا ما يؤكد هيجل حيث يرى أن الحرية عند اسبينوزا لا تُفهم إلا بوصفها وعياً بالضرورة. فالإنسان الحر ليس من يفلت من نظام الطبيعة، بل من يدرك أن أفعاله وانفعالاته لحظات داخل نظام عقلائي لامتناهٍ، ويتصرف وفق هذا الإدراك. وبهذا

المعنى، تتأسس الفضيلة على المشاركة الواعية للضرورة لا التمرد عليها. فتتحقق الفضيلة حيث تُفهم وتتحوّل الضرورة من قيد إلى مصدر فرح، ومن عبودية إلى قوة فاعلة. وهذا ما يذهب إليه دولوز بأن الإيتيقا ليست أخلاق واجب، بل علم بأنماط الوجود داخل الطبيعة. فالإنسان الحكيم، الموجّه بالعقل، لا يعارض النظام الكوني، بل يرى فيه شرط إمكان حريته وازدهاره. من هنا فالأخلاق ليست ملحقة بالميتافيزيقا، بل منبثقة عنها مباشرة، بما يجعل الفضيلة تعبيراً عن ازدياد القدرة على الفعل داخل نظام.

## 2- الـ كوناتس (Conatus) والمعنى الأخلاقي للـ رغبة

يتموضع في قلب علم الأخلاق، عمدة كتب اسبينوزا، مفهوم الـ conatus بوصفه المبدأ الذي يفسّر في آن واحد ماهية الكائن وسلوكه. فالـ conatus هو ذلك السعي الذي يبذله كل موجود، بقدر ما هو فيه، للمحافظة على وجوده والاستمرار فيه. هو ليس مجرد نزوع بيولوجي غريزي، بل تعبير أنطولوجي عن جوهر الشيء الفعلي ذاته. بهذا المعنى، لا يُفهم الكائن المحدود إلا بوصفه أسلوباً يتحدد جوهره من خلال هذا الجهد الدائم في الاستمرار.

يتخذ هذا السعي شكل الرغبة، التي لا تُعرّف بوصفها عرضاً نفسياً أو انفعالاً عرضياً، بل باعتبارها عين جوهر الإنسان من حيث هو محدّد إلى الفعل. ومن هنا، لا تبدأ الحياة الأخلاقية من قمع الرغبة أو إدانتها، وإنما من فهمها وردّها إلى أصلها العقلي، إذ إن الرغبة التي تنشأ عن العقل لا يمكن أن تكون مضطربة أو شريرة في ذاتها. وعلى هذا الأساس، يتحدد الخير أخلاقياً بقدر ما يزيد من قدرة الإنسان على الفعل ويعزّز فعاليته الوجودية، في حين يُعرّف الشر بما ينقص هذه القدرة أو يحدّها منها.

يتيح هذا التصور للكوناتس إدراك الأساس الذي يقوم عليه ما يمكن تسميته بالأخلاق المحيطة، حيث تثبتق القيم الأخلاقية من بنية الوجود ذاته، لا من تعالٍ معياري خارجه. فالأخلاق هنا امتداد مباشر للأنطولوجيا؛ كل ما يعزّز الاستمرار في الوجود ويزيد القدرة على الفعل يُعدّ خيراً، وكل ما يعرقل هذا الجهد يُعدّ شراً. غير أن هذا التأسيس، على قوته النسقية، يضع الأخلاق ضمن أفق تأكيد الذات والمحافظة على الجوهر.

غير أن هذه الرغبة، التي تمثّل جوهر الإنسان وسعيه إلى الاستمرار، لا تكتسب بعدها الأخلاقي إلا حين تُرشد بالعقل. فالرغبات والانفعالات التي تنشأ عن أفكار غير كافية، وتكون محدّدة بأسباب خارجية، تجعل الإنسان في حالة انفعال لا فعل، وتُخضع النفس

لسلطة ما لا تتحكم فيه، فتغدو تابعة ومتقلبة وخاضعة للحظ والصدفة. وعلى هذا النحو، تتحدد العبودية الإنسانية بوصفها عجزاً عن أن يكون الإنسان علة لأفعاله. في المقابل، لا يتحقق طريق الحرية إلا عبر تحويل الانفعالات السلبية إلى انفعالات فاعلة، أي تلك التي تتبع من أفكار كافية ومن معرفة عقلية بالأسباب التي تحدثنا. ويصاحب هذا التحول انفعال الفرح (laetitia) الذي يعرفه اسبينوزا بوصفه انتقال النفس من درجة أدنى من الكمال إلى درجة أعلى، أي ازدياد قدرتها على الفعل. وبقدر ما تدرك intel – ligit النفس الأشياء كلها على أنها ضرورية، تكون قدرتها على الانفعالات أعظم، أي أن خضوعها لها يكون أقل. بمعنى آخر، كلما ازداد فهم الإنسان لأسباب مشاعره وانفعالاته، انتقل من وضعية المعاناة والانقياد إلى وضعية الفعل والسيادة على الذات. في هذا السياق، لا تفهم الإيتيقا الاسبينوزية كمنظومة معيارية تأمر وتنهى، بل بوصفها علاجاً معرفياً للنفس، يهدف إلى تحرير الإنسان عبر كشف الضرورة العقلانية التي تحكم الأشياء والانفعالات معاً. فالمعرفة لا تلغي الانفعال، لكنها تعيد إدراجه في نظام الضرورة، فتبديد وهم الصدفة، وتُخرج الإنسان من العبودية إلى الحرية. في مقابل ذلك، يقيم إيمانويل ليفيناس، كما سنرى لاحقاً، قطيعة جذرية مع هذا النموذج، إذ تتطرق الأخلاق عنده من انكشاف الذات على الآخر وما يستتبعه من مسؤولية سابقة على كل إرادة وكل ماهية. فإذا كان الـ conatus الاسبينوزي يعبر عن جوهر الكائن بوصفه جهداً في البقاء، فإن الأخلاق عند ليفيناس تبدأ من لحظة تعطيل هذا الجهد لصالح الآخر، حيث تُستدعى الذات إلى التضحية بجزء من قدرتها على الفعل استجابةً لنداء الوجه. ومن هنا يتكشف مأزق الإيتيقا بين نموذج يؤسس الأخلاق على المحايثة والقدرة (اسبينوزا)، ونموذج يجعلها رهينة اللامحايث والمسؤولية اللامشروطة (ليفيناس).

### 3- الفضيلة والحب العقلي لله

في كتابه، علم الأخلاق، يبلغ البناء الإيتيقي عند اسبينوزا ذروته من خلال مفهوم الحب العقلي لله (amor Dei intellectualis)، الذي يعرفه بوصفه أعلى أشكال الفرح وأكثرها كمالاً. فهذا الحب ينشأ عن المعرفة الحدسية التي يدرك بها العقل ذاته بوصفه أسلوباً أبدياً من أساليب الفكر الإلهي. ومن خلال هذه المعرفة، لا ينال الإنسان خلوداً شخصياً أو زمنيّاً، بل يشارك — من حيث العقل — في أبدية الجوهر، أي في ما هو غير خاضع للفساد أو الزمان.

ويكتمل بهذا التتويج الأخلاقي المسار الميتافيزيقي، حيث تغلق الدائرة بين المعرفة والحب؛ فكلما ازداد الإنسان فهماً لله أو للطبيعة، ازداد حبه لهما، وكلما تعمق هذا الحب، تعزز الفهم نفسه. وبالتالي يشكّل الحب والمعرفة تعبيران عن نشاط عقلائي واحد، يتجلى تارة في صورة إدراك، وتارة في صورة فرح فعّال. ومن ثمّ، لا تكون الحياة الأخلاقية إلا حياة الفهم، ولا تكون الفضيلة سوى العيش وفق قوانين طبيعتنا الخاصة، وهي في جوهرها قوانين الله أو الطبيعة ذاتها.

على هذا الأساس، تُلغى إيتيقا اسبينوزا كل تصور للتعالي الأخلاقي؛ فلا يوجد أمر إلهي مفروض من خارج نظام الوجود، ولا قانون أخلاقي يأتي من علوٍ. فالخير والشر لا يتمتعان بوجود موضوعي مستقل، بل هما مفهومان تعبيريان يحددان العلاقة بين الأشياء من جهة، وطبيعتنا وقدرتنا على الفعل من جهة أخرى. فما يزيد قدرتنا على الفعل يُسمّى خيراً، وما ينقصها يُسمّى شراً. وبهذا المعنى، لا تقوم الأخلاق على الطاعة أو الامتثال، بل على معرفة مفرحة؛ إذ تكون الحرية محايدة في فهم الضرورة، وتتحقق السعادة في إدراكها لا في إنكارها.

نتيجة هذا النظام تكون رؤية الإيتيقا بشكلها عقلانية، حتمية، وعميقة الإيجابية في أن واحد. لا ينسحب الشخص الحكيم لاسبينوزا من الحياة، بل يحتضنها كإلهية. فتحل سكينه الفهم محل عواطف الخوف، والذنب، والندم — التي تعد مركزية في النظم الأخلاقية التقليدية. وبما أن كل شيء يحدث وفق ضرورة الطبيعة، فلا مجال للسخط الأخلاقي أو التمرد الميتافيزيقي.

إذاً، تمثل هذه الإيتيقا واحدة من أكثر التأكيدات راديكالية للوجود في الفلسفة الغربية. لا يأمر إله اسبينوزا؛ إنه ببساطة موجود. فتصبح الإيتيقا فن مواءمة الذات مع ضرورة الواقع، ويحقق الإنسان الفضيلة من خلال الفهم. بهذا المعنى، ليست فلسفته الأخلاقية عقيدة واجب، وإنما ميتافيزيقا الفرحة. ولكن تبقى الإشكالية في شكل مفهوم الآخر في فلسفة اسبينوزا!!

لإن إذا كانت جميع الكائنات تعبيراً عن نفس الجوهر، فإن الآخر — كما هو حقيقي كآخر — يخفي. فتصبح العلاقة الأخلاقية بين الذات والآخر مجرد علاقة ضمن كلفة الطبيعة. وعليه لا وجود للاختلاف الذي يتجاوز نظام الوجود، ولا وجه يأمرني من وراء الضرورة. فمن منظور ليفيانس، تظل إيتيقا اسبينوزا محصورة ضمن الوجود!! الآخر ليس وجهاً بل أسلوباً؛ ليس نداءً بل سبباً.

ومع ذلك، يكشف نظام اسبينوزا عن حقيقة أساسية لن يتخلى عنها ليفيانس تمامًا، وهي أن الإيتيقا لا يمكن فصلها عن مسألة الوجود. سينشأ المأزق بينهما تحديداً من هذا التوتر — بين ضرورة الوجود ولامتناهيية الأمر الأخلاقي. ففي حين يرى اسبينوزا الخلاص في المعرفة، سيراه ليفيانس في المسؤولية؛ وحيث يجد اسبينوزا الحرية في الفهم، سيحددها ليفيانس في الالتزام تجاه الآخر.

### الجزء الثاني - إيتيقا ليفيانس: التعالي والمسؤولية اللامتناهيية

يفتح إيمانويل ليفيانس واحدة من أكثر الثورات الأخلاقية حسماً في القرن العشرين. في مواجهة التراث الميتافيزيقي الممتد من بارمنيدس إلى هايدغر — حيث يسبق الوجود كل معنى — فيصر ليفيانس على أن الإيتيقا هي الفلسفة الأولى. العلاقة الأخلاقية، وليس الوجودية، هي التي تؤسس للوجود الإنساني. لفهم تحدي ليفيانس لاسبينوزا، يجب أن نستوعب هذا الانقلاب: إذا عرف اسبينوزا الفضيلة بفهم النظام الكامن للوجود، فإن ليفيانس يعرف الخير بانقطاع هذا النظام. وتبدأ الإيتيقا، وفق ليفيانس، حيث تنتهي الوجودية — عند اللقاء بالآخر الذي لا يمكن اختزاله في ضرورة الجوهر.

#### 1- من الكلية إلى اللامتناهي

يستند فكر إيمانويل ليفيانس إلى التمييز الجذري بين الكلية واللامتناهي، وهو تمييز صاغه بشكل منهجي في عمله الرئيسي الكلية واللامتناهي (1961). تشير الكلية إلى أفق الوجود كما يُستوعب داخل المعرفة، حيث يُردّ كل ما هو موجود إلى شبكة من العلاقات والعلل والهويات القابلة للفهم والتملك المفهومي. إنَّها عالم المعقولة المغلقة، حيث لا يبقى شيء خارج النظام، ولا يُعترف بغير ما يمكن إدراجه ضمن نسق شامل. وبهذا المعنى، تمثّل الكلية الأفق الذي تتحقق فيه الميتافيزيقا الاسبينوزية: عالم *sive Deus* *Natura*، أي نظام عقلائي مكتفٍ بذاته، لا خارج له ولا تعالٍ يتجاوزه.

في مقابل ذلك، يشير اللامتناهي عند ليفيانس إلى ما يفلت من كل احتواء نسقي، وإلى بعد من التعالي لا يمكن اختزاله في المعرفة أو استيعابه ضمن الكلية. فاللامتناهي لا يُعطى كموضوع، ولا يُدرك بوصفه كياناً، بل يُختبر كاختراق للنسق، وكدعوة تُربك سيادة الفهم. يتجلى هذا الأثر للامتناهي تحديداً في تجربة الآخر، حيث يظهر وجه الآخر (le visage) كحضور مقاوم لكل تشبيه أو تحليل مفهومي.

فلا يعنى الوجه كموضوعاً بين موضوعات، ولا أسلوباً ضمن جوهر كلي، وإنما هو خطاب

حيّ يخاطبني ويأمرني ويستدعيني إلى المسؤولية. إنّه لا يُعرّف ذاته، بل يفرض عليّ واجباً سابقاً على كل معرفة وكل اختيار. بهذا المعنى، يقطع الوجه النظام الطبيعي المغلق الذي يؤكّد اسبينوزا خضوعه للضرورة الإلهية. فإذا كان اسبينوزا يجد السلام والحرية في فهم ضرورة كل الأشياء والانخراط العقلي فيها، فإن ليفيناس يرى في هذا الاكتمال المعرفي خطراً يتمثل في إلغاء الغيرية وتحييد المسؤولية. فاليقظة الأخلاقية بنظره، تتبع من القلق الذي يوقظه حضور الآخر، ومن الانقطاع الذي يُحدثه في استمرارية الوجود لا من الفهم وعليه، لا تُفهم الإيتيقا عند ليفيناس بوصفها نمطاً من المعرفة أو مشاركة في نظام الوجود، بل بوصفها مسؤولية غير مشروطة، تسبق كل أنطولوجيا وكل تأويل عقلي للعالم. فالأخلاق ليست اندماجاً في الكلية، بل خروجاً عنها؛ وليست تأكيداً للوجود، بل تعريضاً للذات أمام ما يتجاوز كل نسق وضرورة.

## 2- الوجه والأمر الأخلاقي

يرى إيمانويل ليفيناس الوجه باعتباره تجلياً للتعالي وانكشافاً للغيرية لا بوصفه هيئة فيزيائية أو معطى حسياً يمكن إدراجه ضمن منظومة الموضوعات. فالوجه لا يُدرّك، بل يُواجه؛ ولا يُعرّف، بل يُعبّر. إنه حضور الآخر في ضعفه وعريه، حضور يخرج عن كل تصنيف أنطولوجي أو احتواء معرفي. ومن هنا فإن الوجه لا يدلّ على معنى، بل يخاطب، ويُنشئ علاقة أخلاقية سابقة على كل معرفة وتأمّل نظري.

عند ظهور الآخر، فأنا أوامر بـ «لا تقتل». ينبثق هذا الأمر مباشرة من حضور الوجه ذاته لا عن قانون وضعي ولا عن عقل عملي. إنّه نداء أخلاقي فوري، غير قابل للتبرير أو الاشتقاق، وبهذا المعنى يكون أقدم من كل تفكير ومن كل اختيار حر. فالوجه، بوصفه تعبيراً، يفرض واجباً لا يُناقش، ويوقظ في الذات مسؤولية لم تخترها ولم تقرّها بإرادتها. ومن ثمّ، لا تكون الحرية أصل المسؤولية، بل على العكس، المسؤولية هي شرط إمكان الحرية.

في هذا الإطار، يقبل ليفيناس البنية العقلانية التي تقوم عليها إيتيقا اسبينوزا. فحين يؤسس اسبينوزا الحرية على المعرفة، يرى ليفيناس في هذا الاكتمال المعرفي خطراً أخلاقياً يتمثل في إلغاء الغيرية وتحييد المسؤولية، لأن النظام الكلي المكتفي بذاته لا يترك مجالاً لنداء الآخر ولا لقلق الواجب.

فتتشكل الذات بواسطة الآخر وليس العكس. إنّها ذات مُستدعاة، موضوعة موضع السؤال، ومسؤولة قبل أن تكون حرة. لذلك لا يمكن تعريف الذات انطلاقاً من الوعي أو الإرادة، وإنما

من خلال الالتزام الأخلاقي الذي يربطها بالآخر ربطاً لا فكاك منه. وهنا يبلغ ليفيناس ذروة أطروحته حين يؤكد أن معنى الأنا لا يتحقق إلا بوصفها وجوداً من أجل الآخر. يشكّل هذا الاستبدال للذات بالآخر جوهر إيتيقا ليفيناس، وهي إيتيقا لا تقوم على التبادلية أو الاعتراف المتبادل كما عند هيغل، بل على عدم تماثل جذري في العلاقة الأخلاقية. فالآخر يسمو عليّ، في حين لا يتبرّر وجودي الخاص إلا بقدر ما يكون خدمة ورعاية واستجابة. وبهذا المعنى، تقدّم إيتيقاه شكلاً من التعالي دون لاهوت؛ إذ يلعب وجه الآخر الدور الذي كانت تؤديه فكرة الله في الميتافيزيقا التقليدية: يأمر بلا إكراه، ويُلزم بلا عنف، ويؤسّس الأخلاق خارج كل نسق ميتافيزيقي مغلق.

### 3- المسؤولية اللامتناهية ومسألة العدالة

يصف ليفيناس المسؤولية بأنها لامتناهية لأنها لا يمكن أن تُستنفد. يقول ليفيناس في الكلية واللامتناهي: «المسؤولية عن الآخر لا يمكن أن تُستنفد، لأنها سابقة على كل عقد وكل التزام» وبالتالي هي تجاوز لمعنى أداء الواجب إلى البقاء دائماً خاضعاً للمحاسبة. يقول ليفيناس: «الذات هي رهينة الآخر، مسؤولة عنه قبل أن تختار أن تكون كذلك» فالذات الأخلاقية مطاردة بمطالبة الآخر ووجودها استجابة لا تنتهي. يخلق هذا الطلب اللامتناهي توتراً في قلب الإيتيقا، استحالة الرضا التام وضرورة الانخراط المستمر. ومع ذلك، يعترف ليفيناس أيضاً بأن المسؤولية الخالصة يجب أن تتحول في نهاية المطاف إلى العدالة. عندما يوجد العديد من الآخرين - الثالث، الرابع، وما إلى ذلك - يجب على الذات موازنة الالتزامات وإجراء مقارنات. يقول في هذا السياق: «حضور الثالث يفرض المقارنة، والحكم، والعدالة». وفي موضع آخر يقول: «مع الآخر يظهر الثالث، ومع الثالث تظهر العدالة والمؤسسات».

وبالتالي تتطلب العدالة مؤسسات وقوانين ونظاماً سياسياً. ومع ذلك، حتى ضمن العدالة، تظل العلاقة الأصلية بالوجه هي الأساس. يقول ليفيناس بوضوح حاسم: «العدالة التي تنسى الوجه تتحول إلى عنف». كما يجب ألا تنسى الدولة والقانون والعقل تضرد الوجه الذي دعاهم أولاً إلى الوجود. فبدون هذا الأصل الأخلاقي، تتحول السياسة إلى هيمنة - كلية بلا تعالي.

### 4- نقد ليفيناس للإيتيقا الوجودية

يقوم نقد ليفيناس لاسبينوزا — وبشكل أوسع لأي إيتيقا وجودية — على اتهام أن «علة ذاتها» تقلل، أو بمعنى آخر تختزل الآخر. ففي عالم اسبينوزا، يتم دمج الآخر دائماً في نفس الجوهر، وبالتالي لا يمكن أن يكون هناك خارجية، أو تعالي، أو «أخرية» حقيقية. هذا الامتصاص أو الاختزال للآخر ضمن كليّة الوجود يؤدي إلى محو أخلاقياً.

من خلال تعريف الله بالطبيعة، يذيب اسبينوزا الوجه ضمن نظام الأسباب، ومن خلال تعريف الحرية بالفهم، يقمع الصدمة الأخلاقية لاستدعاء الآخر. فتتطلب الأخلاق بالمعنى الليفيانس ما ينكره اسبينوزا تماماً، أي انقطاع الوجود بشيء لا يمكن استنتاجه منه. وبالتالي يجب على الإيتيقا أن تتجاوز الوجودية، لا أن تنبثق منها. وعليه يؤكد على أن العلاقة مع الآخر ليست وجودية، إنها أخلاقية. فالآخر لا يُعطى داخل أفق الكينونة، بل يقتحمها ويزعزع استمراريتها، ويكشف حدود كل نسق يدّعي الاكتمال.

في هذا الانقلاب المفهومي، يضع ليفيناس نفسه بوصفه نقيضاً لإسبينوزا في ميدان الإيتيقا. ومع ذلك، فإن نقده لا يتخذ شكل القطيعة التامة؛ إذ يرث عن اسبينوزا الجدلية الفلسفية والوعي بصرامة العقل والضرورة. يعترف ليفيناس بأن الكلية لا مفر منها، وبأن الوجود الإنساني لا يمكن أن ينفصل عن القوانين والأنظمة التي تنظمه. لكنه يصرّ في المقابل على أن أثر اللامتناهي، أي حضور الآخر الذي لا يُختزل، يجب أن يظلّ يزعج هذا النظام، ويمنعه من الانغلاق على ذاته.

وعليه، لا تكون الإيتيقا حالة انسجام أو تصالح مع النظام الكلي، بل حالة قلق دائم، ويقظة أخلاقية مستمرة ضد خطر تحويل الوجود إلى منظومة مغلقة، وضد اختزال الآخر إلى وظيفة داخل نسق شامل. فالإيتيقا، عند ليفيناس، ليست طمأنينة عقلية، بل مسؤولية لا تنتهي.

كذلك حيث يكون إله اسبينوزا جوهرًا كاملاً يتطابق مع نظام الطبيعة، يكون إله ليفيناس تعالياً يتجلى من خلال الوجه. فلا يفهم الإله عند ليفيناس بوصفه كائنًا لاهوتياً أو مبدأً أنطولوجياً أعلى وإنما باعتباره إمكانية المعنى الأخلاقي ذاته. بالنسبة له، الله ليس كلية الوجود ولا نظامه الضروري، بل ارتفاع اللامتناهي (الخير) خارج الوجود. من هنا، لا يلتقي بالله عبر التأمل الميتافيزيقي أو المعرفة العقلية، وإنما من خلال المسؤولية الأخلاقية. الله لا يُدرك، بل يُستجاب له. ويعبّر عن ذلك بقوله: «تشأ فكرة الله كفكرة اللامتناهي في داخلنا». تتبين هذه الفكرة من انكشاف الآخر الذي يتجاوز قدرتنا على الاحتواء. فيصبح اللامتناهي أثراً يوقظ الذات ويستدعيها إلى ما يفوقها.

وبذلك تغدو العلاقة الأخلاقية شكلاً من أشكال الوحي غير اللاهوتي؛ فالآخر يكشف عن

اللامتناهي دون أن يُحيل إلى عقيدة أو ميتافيزيقا تقليدية. فبينما يوحد الحب العقلي لله عند إسبينوزا الذات مع نظام الوجود ويمنحها طمأنينة عقلية نابعة من فهم الضرورة فإن الالتزام الأخلاقي أمام الله عند ليفيانس يفصل الذات عن الكلية، ويمنع ذوبانها في نسق شامل. فالذات الإنسانية ليست أسلوباً من جوهر الله، كما في النسق الإسبينوزي، وإنما خادماً للامتناهي، ومسؤولة أمام ما لا يمكن امتلاكه أو استيعابه. وعليه، تكمن الحرية في الاستجابة للتعالي. فالحرية تُقاس بقدرتها على التخلي عن مركزيتها والانفتاح على نداء الآخر. إنها حرية مثقلة بالمسؤولية، لا حرية مكتفية بذاتها.

بهذا المعنى، يحول فكر ليفيانس الإيتيقا إلى ما يمكن تسميته منفي ميتافيزيقي، فتبقى الذات دائماً مغتربة عن راحة الوجود، ومحرومة من طمأنينة الاكتمال، لأنها مدعوة باستمرار إلى خدمة ما يتجاوز الفهم والامتلاك. غير أن هذا المنفى لا يُعدّ مأساة، بل يشكّل كرامة الوجود الإنساني. فأن تكون أخلاقياً يعني قبول استحالة الاكتمال، والعيش بالقرب من اللامتناهي دون ادعاء امتلاكها أو احتوائها.

### الجزء الثالث - مأزق الإيتيقا بين اسبينوزا وليفيانس

يتيح هذا الحوار ما بينهما للكشف عن أعمق شروخ الفلسفة الغربية. فما يجمعهما هو اقتناعهما المشترك بأن الإيتيقا يجب أن تمس أسس الوجود نفسه، وما يفرقهما هو معنى هذا الأساس. بالنسبة لاسبينوزا، تولد الحياة الأخلاقية من الفهم العقلاني للوجود، أما بالنسبة لليفيانس، فتبدأ الحياة الأخلاقية بدعوة الآخر التي تتجاوز الوجود. يتجسد المأزق بينهما في صراع بين عالمين، عالم الضرورة وعالم المسؤولية، هدوء الكلية وقلق اللامتناهي.

#### 1- من الوجودية إلى الإيتيقا: نموذجان للحرية

ينشأ مفهوم الحرية عند اسبينوزا من الفهم. يحقق الإنسان، المحاصر في شبكة الضرورة الطبيعية، التحرر فقط من خلال إدراك الأسباب التي تحدده. فالمعرفة هي الحرية لأن الفهم يحول التأثيرات السلبية إلى إدراك فاعل. والحرية هي القدرة على تأكيد الضرورة بفرح. وبالتالي يتطابق الكمال الأخلاقي مع الوضوح الميتافيزيقي.

أما مفهوم الحرية عند ليفيانس، هو أكثر اختلافاً من ذلك! هو ليس نتاج الفهم، بل أثر الانقطاع، حيث تنشأ الحرية فقط عندما تواجه الذات الآخر وتزاح من مركزها الوجودي. المسؤولية تسبق الاختيار. فبينما حرية اسبينوزا هي المصالحة مع نظام الوجود، حرية

ليفيناس هي انقطاع — رفض البقاء ضمن الكلية.

هنا يظهر المأزق بوضوح، تبلغ الإيتيقا عند اسبينوزا ذروتها في الانسجام بين الإنسان والطبيعة؛ أما مع ليفيناس، تبدأ في التنافر بين الذات والآخر. أحدهما يجد السلام في نظام الضرورة؛ والآخر يجد اليقظة في جرح الالتزام.

## 2- المعرفة مقابل المسؤولية

تتمثل الإيتيقا عند اسبينوزا في مسار عقلائي إلى السعادة، فمن خلال الأفكار الكافية تصعد النفس إلى الحب العقلي لله، أي وحدة محايثة مع الوجود نفسه. أما مع ليفيناس، فيرى هذه الوحدة العقلية كنوع من التخدير الأخلاقي. فحيث أن تقليص الاختلاف إلى المماثلة ما هو إلا تعبير عن خطر وجودي. فالمعرفة تميل إلى الشمولية، تجمع وتشرح وتمتص. بالمقابل، تقاوم الإيتيقا الشمولية، لذلك تحل المسؤولية محل الفهم كأسلوب أعلى للعلاقة. فلا يركز الموضوع الأخلاقي على من يعرف، وإنما إلى من يستجيب.

ومع ذلك، فإن مشروع اسبينوزا ليس فارغاً أخلاقياً كما يقترح ليفيناس. فالإنسان، في فهم الضرورة، يرتفع فوق الشهوات الأنانية ويحقق حباً عالمياً لجميع الكائنات كتعابير عن الجوهر الإلهي نفسه. في هذا الحب، لا يسعى الفرد إلى السيطرة، بل إلى الانسجام. هناك، في اسبينوزا، نوع من العالمية الأخلاقية الأولية التي تسبق مطلب ليفيناس للانفتاح، رغم أنها مؤسّسة على العقل لا المسؤولية.

على المستوى الميتافيزيقي، يقف اسبينوزا وليفيناس عند قطبين متقابلين. بالنسبة لاسبينوزا، المحايثة هي شرط الحقيقة، الله هو الطبيعة؛ كل ما هو موجود يوجد ضمن الجوهر اللامتناهي نفسه. أما ليفيناس، فيعيد التعالي كبعد أخلاقي يتجاوز الفهم.

يشكل هذا الاختلاف رؤيتين متناقضتين للخير. عند اسبينوزا، الخير هو ما يعزز قدرة الفرد على الوجود (conatus). أما عند ليفيناس، فالخير هو ما يعلق قدرة الفرد من أجل الآخر. تنمو الذات الاسبينوزية بفهم الضرورة؛ أما الذات الليفيانسية فتقلل نفسها لخدمة الآخر. الأول يجد الخلاص في التوحد مع الكل والثاني في الانفصال عن الكل.

ولكن مع ذلك، تكشف معارضتهما عن تكامل خفي. حيث تحمي إيتيقا اسبينوزا المعنى ضمن نظام الطبيعة لأنها توفر البنية العقلانية التي تجعل الحياة الأخلاقية مفهومة. أما مع ليفيناس، فتحمي الإيتيقا الفرادة التي لا تقبل الاختزال. إذا قدم اسبينوزا منطق الإيتيقا، ويقدم ليفيناس ضميرها. معاً، يحددان حدّي الفكر الأخلاقي، حد الوجود وحد التعالي.

كما تختلف النغمات الانفعالية لاسبينوزا وليفيناس أيضاً بشكل حاد. عند اسبينوزا، يتحرك

الموضوع الأخلاقي من عبودية الشهوات إلى فرح الفهم. فذروة الإيتيقا هي beatitudo السعادة الناتجة عن العيش وفق العقل، أي أن الإيتيقا هي الصفاء من خلال الفهم. أما الموضوع الأخلاقي عند ليفيناس، فيعيش في قلق دائم. المسؤولية لا تصاحبها الفرح، بل القلق والتواضع. وجه الآخر يزجج الأنا، ويفتح جرحاً لانهائياً لا يلتئم أبداً. لا يكون الموضوع الأخلاقي في سلام؛ كرامته تكمن في اضطرابه. بالنسبة لليفيناس، أن تكون أخلاقياً يعني أن تتحمل الآخر، وأن تحمل عبء مسؤولية لا يمكن تصفيتهما. بهذا المعنى، يحول ليفيناس الحياة الأخلاقية من مسار معرفي إلى رسالة خدمة؛ القديس الليفيناسي يحمل العالم. إذاً يكمن بينهما مأزقاً يسمح لنا بطرح إشكالية: هل تسعى الحياة الجيدة إلى الفهم أم المسؤولية، السلام أم اليقظة، الانسجام أم الانقطاع؟

### 3- إعادة النظر في المأزق: بين الوجودية والإيتيقا

قد يبدو الصراع بين اسبينوزا وليفيناس غير قابل للتسوية، لكنه يعبر عن توتر جوهري للإيتيقا نفسها. يعلمنا اسبينوزا أنه بدون الفهم، تنهار الإيتيقا في الفوضى؛ ويعلمنا ليفيناس أنه بدون التعالي، تنهار في الكلية. لذلك يشير هذا إلى أن المأزق ليس فشلاً، بل تناقضاً مثيراً. يجب أن تتأرجح الإيتيقا بين هذين القطبين. من اسبينوزا، نستطيع أن نرث انضباط العقل، وتأكيد الوجود، وفرح الضرورة. أما من ليفيناس، فقد نرث يقظة المسؤولية، والانفتاح على الآخر، والتواضع أمام التعالي. قد تتطلب الحياة الأخلاقية الحقيقية كلاهما، وضوح المحايثة عند اسبينوزا ورأفة التعالي عند ليفيناس.

في الواقع، يمكن القول إن ليفيناس يفرّج ما هو ضمنى عند اسبينوزا. يتطلب الحب سواء كان عقلياً أو أخلاقياً تجاوزاً للذات. حيث يسعى اسبينوزا إلى إذابة الفردية في وحدة الطبيعة، يسعى ليفيناس إلى إذابتها في خدمة الآخر. كل منهما يتصور إيتيقا تتجاوز الأنانية، وإن كان ذلك عبر مسارات مختلفة. لذا، فإن المأزق ليس تناقضاً بل حواراً بين طريقتين للإنسانية أي طريقتين للهروب من طغيان الذات.

### نحو إيتيقا تتجاوز المأزق

إذا قرأنا اسبينوزا وليفيناس معاً، يمكننا تمييز أفق يتجاوز معارضتهما. تذكّرنا الإيتيقا العقلانية لاسبينوزا أن الحياة الأخلاقية تتطلب الفهم حيث يجب أن توضع المسؤولية ضمن نظام العالم. وبيدكّرنا ليفيناس أنه لا يمكن لأي نظام، مهما كان عقلياً، أن يستنفد

معنى الإيتيقا. بين المحايثة للوجود وتعالى الآخر، تتكشف الإيتيقا كمسار مستمر وكحركة من المعرفة إلى المسؤولية، من الفهم إلى الرأفة.

إذن، فالمأزق الحقيقي للإيتيقا ليس بين اسبينوزا وليفيانس، بل داخل الحالة الإنسانية نفسها. نحن كائنات طبيعية وكائنات متعالية، محكومة بالضرورة ومستدعاة للمسؤولية في الوقت ذاته. أن نعيش أخلاقياً يعني أن نسكن هذا التناقض بلا حل. بمعنى أن نجد الحرية في الضرورة والمسؤولية في الحرية.

يكشف هذا اللقاء بين اسبينوزا وليفيانس أن للإيتيقا أصلاً مزدوجاً. من جانب، جذورها في الوجودية: لتكون أخلاقياً، يجب أن تفهم طبيعة الأشياء، القوانين التي تحكم الواقع، وحدود قدرتك الخاصة أي بدون الفهم العقلاني، تصبح المسؤولية عمياء. ومن جانب آخر، جذورها في التعالى: لتكون أخلاقياً، يجب أن تتجاوز الذات، وأن تستجيب لنداء لا يمكن لأي قانون طبيعي أن يمليه. بدون التعالى، يصبح الفهم لا مبالاة.

يعطي اسبينوزا للإيتيقا شكلها: الوضوح، التماسك، والضرورة. ويعطيها ليفيانس قلبها: التواضع، الرحمة، والمسؤولية اللامتناهية. في مواجهتهما، يظهر الموضوع الأخلاقي ليس كمفكر سيادي، بل ككائن ممزق بين المعرفة والالتزام، الفرح والقلق، التأكيد والخدمة. بهذا المعنى، ليست الإيتيقا علمًا ولا وصية، إنها تقاوض دائم بين المحايثة والتعالى.

على الرغم من اختلافاتهما، يمكن لحظ مصالحة دقيقة بين الفلسفتين. فحب اسبينوزا العقلي لله (amor Dei intellectualis) يلمح بالفعل إلى شيء لامتناهي، شعور يوحد الفهم والحب، المعرفة والتفانى. تحوّل المسؤولية اللامتناهية عند ليفيانس هذه الحركة إلى تعالى أخلاقي بدلاً من التعالى العقلي. كلا الفيلسوفين، رغم اتجاهاتهما المعاكسة، يسعيان لتجاوز الأنا وفتح الذات للمطلق، سواء كان محايثاً أو متعالياً.

في اسبينوزا، تذوب الذات في كلية الطبيعة؛ ومع ليفيانس، تُزاح بلامحدودية الآخر. كلا التعبيرين يعبران عن الرغبة في التحرك خارج منطق الأنا المتمركز حول الذات والهيمنة. لذلك، يمكن إعادة تصور المأزق بينهما ليس كمعارضة بل كتكامل حيث يوفر اسبينوزا الأساس الميتافيزيقي الذي يجعل النظام الأخلاقي ممكناً، بينما يعيد ليفيانس التعالى الذي يمنعه من أن يتحول إلى طغيان.

إذاً، لكي نفكر بما هو أبعد من المأزق، يجب أن نعرف بأن الإيتيقا يجب أن تسكن كلا البعدين: الضرورة والتعالى. الحياة الإنسانية معلقة بين هذين البعدين، لأننا محدودون بقوانين الطبيعة، وفي الوقت ذاته مستدعون بمسؤولية لا يمكن لأي قانون أن يستنفدها.

في عالم مهدد بشكل متزايد بالحتمية التكنولوجية، والنسبية الأخلاقية، وفقدان الوجه الإنساني، يكتسب الحوار بين اسبينوزا وليفيانس أهمية متجددة. نتعلم من اسبينوزا الحاجة إلى الإيتيقا العقلانية المبنية على معرفة الأسباب والانسجام مع النظام الطبيعي. ونتعلم من ليفيانس أن العقل وحده لا ينقذنا حيث تبدأ الإيتيقا من هشاشة الآخر، من الاعتراف بأن الوجه الإنساني يسبق كل نظام وكل حقيقة.

المأزق، إذن، ليس نهاية مسدودة بل انفراج؛ هو تذكير بأن الإيتيقا يجب أن توازن دائماً بين وضوح العقل ولا متناهية المسؤولية. أن تكون أخلاقياً يعني تأكيد سلام اسبينوزا وقلق ليفيانس في الوقت ذاته.

### تأمل ختامي

تمثل الرحلة الأخلاقية من اسبينوزا إلى ليفيانس حركة من ضرورة الوجود إلى لامحدودية المسؤولية، من الفرح العقلاني للفهم إلى القلق الأخلاقي للتعاطف. بين هذين القطبين يكمن الفضاء الهش للوجود الإنساني — مساحة يلتقي فيها الفهم بالمسؤولية دون أن تتطابق أبداً.

أن تعيش أخلاقياً يعني السكن في هذا الفضاء دون الانسحاب إلى صفاء الكلية، ودون الاستسلام تماماً لدوار اللامتناهي. يعني أن تفهم أن كل الأشياء واحدة، وأن تتذكر أن وجه الآخر يقطع هذه الوحدة إلى الأبد. المأزق بينهما، بعيداً عن كونه تناقضاً، يصبح جوهر الإيتيقا نفسه الذي يكمن في رفض السماح لأي من الوجود أو التعالي بالحصول على الكلمة الأخيرة.

### لائحة بالمصادر والمراجع:

#### المصادر العربية:

1- اسبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، عدد الصفحات 374.

2- ليفيانس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، عدد الصفحات 333.

#### المصادر الأجنبية:

1- Levinas, Emmanuel, Ethics and Infinit, (P. Nemo, Interviewer, & R. Cohen,

Translator) Duquesne Univeristy press, 1985, 126 pages.

2- Levinas, Emmanuel, Entre Nous, On Thinking of the Other, Trans. Michael B. Smith and Barbara Harshav Columbia University Press, New York, 1998, 250 pages.

3- Levinas, Emmanuel, Existence and Existents, (A. Lingis, Trans.) Dordrecht/Boston/London: Kluwer Academic Publisher, 1988, 61 pages.

4- Levinas, Emmanuel, Otherwise Than Being or Beyond Essence. (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, 1991, 242 pages.

- 1- الدكتور يوسف أيوب، دكتوراة فلسفة، الجامعة اللبنانية
- 2- Beatitudo هي ليست لذة حسية ولا سعادة نفسية ولا مكافأة أخلاقية.. هي حالة الوجود التي يبلغها الانسان حين يعيش وفق العقل ويفهم نفسه والعالم ضمن نظام الضرورة
- 3- اسبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009، الباب الأول، التعريف، 6، القضية 10، الشرح، ص 32
- 4- المصدر نفسه، الباب الأول، القضية 25، ص 59.
- 5- المصدر نفسه، الباب الأول، القضية 18، 55-54.
- 6- المصدر نفسه، الباب الأول، القضية 29، ص 63.
- 7- المصدر نفسه، الباب الثالث، القضية 6 والقضية 7 ص 156.
- 8- المصدر نفسه، الباب الثالث، تعريف الانفعالات، 1 ص 211.
- 9- المصدر نفسه، الباب الرابع، القضية 18 الحاشية ص 249-248
- 10- المصدر نفسه، الباب الرابع، القضية 37 الحاشية 268-264
- 11- المصدر نفسه، الباب الرابع، تمهيد ص 233-229
- 12- المصدر نفسه، الباب الثالث، القضية 3 ص 154؛ الباب الخامس، القضية 3 ص 318
- 13- المصدر نفسه، الباب الثالث، تعريف الانفعالات، 2، ص 212
- 14- المصدر نفسه، الباب الخامس، القضية 6، ص 321
- 15- المصدر نفسه، الباب الخامس، القضايا 32 و33، ص 342-341.
- 16- المصدر نفسه، الباب الخامس، القضية 23، الشرح، ص 336-335.
- 17- المصدر نفسه، الباب الخامس، القضية 36، الشرح ص 345-344.
- 18- المصدر نفسه، الباب الرابع، التعريف، 8، ص 234.

- 19- المصدر نفسه، الباب الرابع، تمهيد، ص 229-233.
- 20- المصدر نفسه، الباب الرابع، القضية 38، ص 269.
- 21- ليفيناس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، المقدمة ص 34-33.
- 22- Levinas, Emmanuel, Ethics and Infinit, (P. Nemo, Interviewer, & R. Cohen, Translator) Duquesne Univeristy press.p 80-95.
- 23- ليفيناس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، ص 199-203.
- 24- المصدر نفسه، ص 215-217.
- 25- Levinas, Emmanuel, Otherwise Than Being or Beyond Essence, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p 45-50.
- 26- Levinas, Emmanuel, Ethics and Infinit, (P. Nemo, Interviewer, & R. Cohen, Translator) Duquesne Univeristy press.p 82-90.
- 27- Levinas, Emmanuel, Otherwise Than Being or Beyond Essence, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p 56-60 and 112-118.
- 28- ليفيناس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، المقدمة ص 245-250.
- 29- المصدر نفسه، ص 104-101.
- 30- لمصدر نفسه، ص 245.
- 31- Levinas, Emmanuel, Otherwise Than Being or Beyond Essence, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p 114.
- 32- ليفيناس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، ص 213.
- 33- Levinas, Emmanuel, Otherwise Than Being or Beyond Essence, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p 157.
- 34- Levinas, Emmanuel, Entre Nous, On Thinking of the Other, Trans. Michael B. Smith and Barbara Harshav Columbia University Press, New York, 1998, p. 104.
- 35- ليفيناس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، ص 187-201.
- 36- Levinas, Emmanuel, Existence and Existents, (A. Lingis, Trans.) Dordrecht/Boston/London: Kluwer Academic Publisher, 1988, p. 89-94.

37- Levinas, Emmanuel, *Otherwise Than Being or Beyond Essence*, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p 112-118.

38- ليفيانس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، ص 77-82، 199-203.

39- Levinas, Emmanuel, *Ethics and Infinit*, (P. Nemo, Interviewer, & R. Cohen, Translator) Duquesne Univeristy press.p 87-90.

40- Levinas, Emmanuel, *Otherwise Than Being or Beyond Essence*, (A. Lingis, Trans.) London: Kluwer Academic Publisher, p51-57 and 114-120.

41- ليفيانس، ايمانويل، الكلية واللامتناهي، ترجمة عبد العزيز بو مسهولي، صفحة 7 للنشر والتوزيع، السعودية، 2021، ص 98-104.



# التفاوض الإدراكي كحقل سوسيولوجي: إعادة تعريف التفاوض في سياق الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس

د. دليدا بيطار

## الملخص:

تقدّم هذه الدراسة إعادة تأطير سوسيولوجي لمفهوم التفاوض من خلال تطوير مفهوم "التفاوض الإدراكي"، بوصفه إطارًا تحليليًا يتجاوز المقاربات التقليدية القائمة على تبادل المصالح وحسابات المنفعة. وتنطلق من فرضية مفادها أن التفاوض، في سياق الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس، لم يعد يقتصر على التفاعل المصلحي بين الأطراف، بل أصبح عملية لإنتاج المعنى، وإعادة تشكيل الإدراك، وبناء الواقع التفاوضي ذاته.

تعتمد الدراسة مقارنة نوعية تفسيرية، وتستند إلى تحليل مقارنة لثلاث حالات معاصرة: الحرب الروسية-الأوكرانية، والصراع في غزة، والمفاوضات الإيرانية-الأمريكية. وتُظهر النتائج أن التفاوض يجري داخل بيئات معلوماتية متنازع عليها، حيث تتقاطع السرديات، وتُعاد هندسة الشرعية، وتُصاغ تصورات الذات والآخر والواقع بما يؤثر في مسارات التفاوض ونتائجه.

وتطوّر الدراسة نموذجًا تحليليًا ثلاثي الأبعاد يقوم على إدراك الذات، وإدراك الآخر، وبناء الواقع التفاوضي، كما تحدد آليات التفاوض الإدراكي في بناء السرديات، وهندسة الشرعية، وإدارة الأطر الإدراكية. وتخلص إلى أن الحروب الهجينة أعادت تشكيل شروط إمكان التفاوض، من خلال نقل مركزه من التفاعل المادي إلى التفاعل الإدراكي.

وبذلك، تسهم الدراسة في إعادة تموضع التفاوض ضمن علم الاجتماع السياسي، وتقدم إطاراً نظرياً يفسر التفاوض بوصفه عملية لإنتاج الواقع بقدر ما هو عملية لتوزيع المصالح. الكلمات المفتاحية: التفاوض الإدراكي؛ الحروب الهجينة؛ حروب الجيل الخامس؛ علم الاجتماع السياسي؛ الإدراك؛ الشرعية؛ السرديات؛ البيئة المعلوماتية.

### Abstract (English)

This paper offers a sociological reconceptualization of negotiation by developing the concept of cognitive negotiation as an analytical framework that moves beyond traditional approaches centered on interest exchange and utility calculations. It argues that, in the context of hybrid and fifth-generation warfare, negotiation is no longer confined to material bargaining among actors, but has become a process through which meanings, perceptions, and the negotiated reality itself are produced and contested.

Adopting a qualitative interpretive approach, the paper examines three contemporary cases: the Russia–Ukraine war, the conflict in Gaza, and Iran–United States negotiations. The analysis shows that negotiation increasingly takes place within contested information environments, where narratives intersect, legitimacy is engineered, and perceptions of the self, the other, and reality are continuously reshaped in ways that affect negotiation trajectories and outcomes.

The paper develops a three-dimensional analytical model based on self-perception, other-perception, and the construction of negotiated reality. It also identifies key mechanisms of cognitive negotiation, including narrative construction, legitimacy engineering, and the management of cognitive frames. The study concludes that hybrid warfare has transformed the conditions of negotiation by shifting its center of gravity from material interaction to cognitive interaction.

By repositioning negotiation within political sociology, the paper contributes to the literature by offering a theoretically grounded framework for understanding negotiation as a process of producing reality as much as distributing interests.

**Keywords:** Cognitive Negotiation; Hybrid Warfare; Fifth-Generation Warfare; Political Sociology; Perception; Legitimacy; Narratives; Information Environment.

## المقدمة

شهدت الأدبيات الكلاسيكية في دراسات التفاوض، ولا سيما تلك المتأثرة بنماذج الاختيار العقلاني ونظرية الألعاب، تمركزاً واضحاً حول تصور التفاوض بوصفه عملية تبادل مصالح بين أطراف عقلانية تسعى إلى تعظيم مكاسبها وتقليل خسائرها. وقد شكّل هذا التصور، لعقود طويلة، الإطار التحليلي المهيمن لفهم ديناميات التفاوض في العلاقات الدولية، حيث يُفترض أن الأطراف تدخل العملية التفاوضية وهي تمتلك تفضيلات محددة، وتتحرك ضمن بيئة معلوماتية يمكن ضبطها أو التنبؤ بها نسبياً.

غير أنّ التحولات البنوية التي يشهدها النظام الدولي المعاصر، ولا سيما في ظل صعود الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس، كشفت عن قصور جوهري في هذه المقاربات. فالتفاوض لم يعد يدور حصراً حول سؤال: ماذا يريد كل طرف؟ بل بات يتمحور بصورة متزايدة حول سؤال أكثر تعقيداً: كيف يُدرك كل طرف ذاته والآخر والواقع الذي يتفاوض عليه؟ وبذلك، انتقل مركز الثقل من مستوى المصالح المادية إلى مستوى التمثلات الإدراكية التي تعيد صياغة معنى الوقائع وحدود الممكن التفاوضي.

في هذا السياق، لا يمكن فهم التفاوض المعاصر بمعزل عن التحولات الأعمق في طبيعة السلطة ذاتها، التي لم تعد تُمارَس فقط عبر أدوات الإكراه المادي، بل من خلال إنتاج المعرفة وتوجيه الإدراك الجماعي وإعادة تشكيل المعنى. ومن هنا تكتسب إسهامات ميشيل فوكو حول ترابط السلطة والمعرفة، وبيار بورديو حول السلطة الرمزية والحقل الاجتماعي، أهمية تحليلية خاصة، إذ تسمح بإعادة تأطير التفاوض بوصفه حقلاً لإنتاج الشرعية وتعريف الواقع، لا مجرد تقنية لتسوية الخلافات أو توزيع المكاسب.

وعليه، تنطلق هذه الدراسة من إشكالية مركزية مفادها أن التفاوض في زمن الحروب الهجينة لم يعد مجرد آلية إجرائية لتسوية النزاعات، بل تحوّل إلى عملية سوسولوجية معقدة لإعادة تنظيم المجال التفاوضي إدراكياً ورمزياً. فالأطراف لا تتفاوض فقط على شروط مادية أو ترتيبات تقنية، بل على شرعية السرديات، ومصداقية التمثلات، والقدرة على فرض تعريف معيّن للواقع باعتباره التعريف المقبول أو المشروع. ومن ثمّ، يصبح التحكم في الإدراك شرطاً مؤثراً في إنتاج النتائج التفاوضية ذاتها.

وتتأسس فرضية البحث على أن الحروب الهجينة، بما تتطوي عليه من تداخل بين

العسكري والإعلامي والرقمي والخوارزمي، قد أعادت هيكلية المجال التفاوضي عبر نقل مركزه من التفاعل المصلحي إلى التفاعل الإدراكي. فالتفاوض في هذه السياقات لا ينفصل عن الصراع على المعنى، بل يتحول إلى امتداد للصراع بوسائل رمزية ومعلوماتية، حيث تتقاطع استراتيجيات الإقناع، والتأطير، والتضليل، وإدارة الانطباع، ضمن بنية تفاوضية واحدة.

ضمن هذا الإطار، تقترح الدراسة مفهوم "التفاوض الإدراكي" بوصفه إطاراً تحليلياً يفسّر الكيفية التي تُعاد من خلالها صياغة تصورات الأطراف عن الذات والآخر والواقع محلّ التفاوض. ولا يتعامل هذا المفهوم مع الإدراك بوصفه عنصراً نفسياً أو اتصالياً مرافقاً للتفاوض فحسب، بل بوصفه بنية سوسيولوجية تُنتج المجال التفاوضي ذاته، وتحدد ما يُعدّ ممكناً أو مشروعاً أو قابلاً للتفاوض.

وتسعى الدراسة إلى تحقيق ثلاثة أهداف مترابطة: أولاً، تفكيك حدود النماذج الكلاسيكية للتفاوض في تفسير التحولات الراهنة؛ ثانياً، تأصيل مفهوم التفاوض الإدراكي ضمن علم الاجتماع السياسي، من خلال ربطه بنظريات السلطة والمعرفة والتمثيلات الاجتماعية؛ وثالثاً، اختبار القدرة التفسيرية لهذا المفهوم عبر مقارنة مقارنة لثلاث حالات معاصرة هي: الحرب الروسية-الأوكرانية، والصراع في غزة، والمفاوضات الإيرانية-الأمريكية. منهجياً، تعتمد الدراسة مقارنة نوعية تفسيرية لا تهدف إلى تعميم إحصائي أو إجراء تحليل خطاب شامل بالمعنى التقني الضيق، بل إلى بناء تفسير سوسيولوجي مقارن لآليات تشكّل الإدراك داخل العملية التفاوضية. وتُقرأ المواد النوعية المعتمدة، من خطابات رسمية وبيانات دبلوماسية وتغطيات إعلامية ومحتوى رقمي متداول، بوصفها فضاءات لإنتاج المعنى ومؤشرات على كيفية بناء الفاعلين لتصوراتهم حول الذات والآخر والواقع، لا بوصفها مصادر وصفية للأحداث فحسب.

وتتمثل وحدة التحليل الأساسية في "السردية التفاوضية"، بما تتضمنه من تعريف للفاعل، وتوصيف للخصم، وتأطير للقضية، وتحديد لما يُعدّ حلاً مشروعاً أو مقبولاً. وبناءً على ذلك، تستند الدراسة إلى ثلاثة أبعاد تحليلية مترابطة: إدراك الذات، وإدراك الآخر، وبناء الواقع التفاوضي. ويُستخدم هذا التقسيم بوصفه إطاراً إجرائياً لفهم الكيفية التي تُنتج بها الأطراف تصوراتها التفاوضية داخل بيئات معلوماتية متنازع عليها.

وتكمن مساهمة هذه الدراسة في إعادة تموضع التفاوض ضمن أفق سوسيولوجي أوسع، ينقل التحليل من مستوى "تبادل المصالح" إلى مستوى "إنتاج الإدراك". فهي لا تكتفي

بنقد المقاربات العقلانية التقليدية، بل تقترح نموذجًا تحليليًا بديلاً يفسر التفاوض بوصفه صراعًا على تعريف الواقع بقدر ما هو تفاوض على توزيعه. وبذلك، تسعى الدراسة إلى سدّ فجوة نظرية في أدبيات التفاوض، تتمثل في محدودية المقاربات التي تتعامل مع الإدراك بوصفه عاملاً مساعدًا أو متغيرًا نفسيًا، لا بوصفه بنية سوسولوجية منتجة لشروط التفاوض ذاته. ومن هنا، تتبلور الفكرة المركزية للبحث: أن القوة في القرن الحادي والعشرين لم تعد تُقاس بامتلاك الموارد وحدها، بل بالقدرة على تشكيل الوعي وإدارة الإدراك داخل البيئات السياسية والتفاوضية المعاصرة.<sup>1</sup>

### الفصل الأول: أزمة النماذج الكلاسيكية للتفاوض في تفسير التحولات المعاصرة

شكّلت النماذج الكلاسيكية للتفاوض، ولا سيما تلك المستندة إلى فرضيات العقلانية الأدائية، إطارًا تحليليًا مهميًا لفهم ديناميات التفاعل بين الفاعلين في العلاقات الدولية. غير أنّ التحولات البنيوية المرتبطة بصعود أنماط الصراع المعاصر—وفي مقدمتها الحروب الهجينة—أفضت إلى اهتزاز الأسس النظرية التي قامت عليها هذه النماذج. يهدف هذا الفصل إلى تفكيك البنية المفاهيمية للمقاربات التقليدية، وبيان حدودها التفسيرية، تمهيدًا للانتقال نحو تأطير سوسولوجي بديل.

#### أولاً: التفاوض كعملية عقلانية—الأسس والافتراضات

تقوم المقاربات الكلاسيكية على تصور مفاده أن الفاعلين يتصرفون وفق منطلق عقلائي يهدف إلى تعظيم المنفعة وتقليل الكلفة. وقد تبلور هذا الاتجاه ضمن حقلين أساسيين: نظرية الاختيار العقلاني ونظرية الألعاب.

#### 1. نظرية الاختيار العقلاني وإشكالية التفضيلات الثابتة

تفترض نظرية الاختيار العقلاني أن الفاعلين يمتلكون تفضيلات محددة ومستقرة، وأنهم قادرون على ترتيبها وفق سلم أولويات واضح، بما يسمح لهم باتخاذ قرارات محسوبة في بيئة تفاوضية. غير أنّ هذا الافتراض يتجاهل الطبيعة الاجتماعية للتفضيلات ذاتها، إذ لا تُبنى بمعزل عن السياق الثقافي والرمزي، بل تتشكل ضمن شبكات من المعاني والتمثّلات.<sup>2</sup>

#### 2. نظرية الألعاب: من التبسيط النمذجي إلى التعقيد الواقعي

تُعدّ Game Theory من أبرز الأدوات التحليلية التي استُخدمت لتفسير التفاوض، حيث يتم تمثيل التفاعلات في صورة نماذج رياضية تعتمد على استراتيجيات محددة ونتائج محتملة. إلا أنّ هذه النماذج، رغم دقتها الشكلية، تعاني من نزعة اختزالية، إذ

تفترض بيئة معلوماتية شبه مكتملة، وتغفل عن ديناميات الغموض والتلاعب الإدراكي التي تميّز الصراعات المعاصرة.<sup>3</sup> وتُظهر دراسات حديثة أن النماذج العقلانية التقليدية تعجز عن تفسير السلوك التفاوضي في البيئات التي تتسم بالتلاعب المعلوماتي والضبابية الإدراكية، حيث يصبح الإدراك نفسه متغيراً استراتيجياً.<sup>4</sup>

### 3. التفاوض القائم على المصالح: حدود النموذج الإجرائي

طوّر Roger Fisher وWilliam Ury نموذج "التفاوض القائم على المصالح"، الذي يدعو إلى الفصل بين الأشخاص والمشكلة، والتركيز على المصالح بدلاً من المواقف.<sup>5</sup> ورغم القيمة التطبيقية لهذا النموذج، إلا أنه يفترض ضمناً وجود أرضية مشتركة للواقع، متجاهلاً إمكانية اختلاف تعريف هذا الواقع ذاته بين الأطراف.

### ثانياً: حدود المقاربات الكلاسيكية في سياق الحروب المعاصرة

#### 1. تفكك افتراض الشفافية المعلوماتية

في سياق Hybrid Warfare، لم تعد المعلومات معطى محايداً، بل أصبحت أداة صراعية بحد ذاتها. إذ تُستخدم وسائل الإعلام، والمنصات الرقمية، والتقنيات الخوارزمية لإنتاج روايات متنافسة، ما يؤدي إلى انهيار فرضية "المعرفة المشتركة" التي تقوم عليها النماذج الكلاسيكية.<sup>6</sup>

#### 2. تحوّل الفاعل من عقلائي إلى إدراكي

لم يعد الفاعل التفاوضي مجرد وحدة حسابية، بل أصبح فاعلاً إدراكياً يتأثر بالبنى الرمزية، والهوية، والانتماء، والذاكرة الجماعية. وهنا، تبرز أهمية التحليل السوسيولوجي الذي يرى في الفعل الاجتماعي نتاجاً لتفاعل معقد بين البنية والفاعل، كما عند Pierre Bourdieu<sup>7</sup>، بما يسمح بتجاوز التصور الذي يختزل الفاعل التفاوضي في نموذج حسابي عقلائي، ويفتح المجال لفهم المحددات الإدراكية والرمزية والهوياتية التي تؤثر في السلوك التفاوضي المعاصر.

#### 3. انهيار الفصل بين الحرب والتفاوض

في الحروب التقليدية، كان التفاوض يُعدّ مرحلة لاحقة للصراع. أما في الحروب المعاصرة، فقد أصبح التفاوض امتداداً للحرب بوسائل غير عسكرية، حيث تتداخل العمليات العسكرية مع الحملات الإعلامية، والحروب السيبرانية، وإدارة الإدراك الجماعي.<sup>8</sup>

ثالثاً: نحو إعادة تأطير سوسولوجي للتفاوض

### 1. التفاوض كحقل اجتماعي

يمكن إعادة تعريف التفاوض بوصفه "حقلًا" بالمعنى البورديوي، أي فضاءً من العلاقات الاجتماعية التي تتوزع فيه أشكال مختلفة من الرأسمال (المادي، الرمزي، المعرفي). داخل هذا الحقل، لا يتنافس الفاعلون فقط على الموارد، بل على الشرعية وعلى القدرة على فرض تعريف معين للواقع.<sup>9</sup>

### 2. التفاوض وإنتاج الحقيقة

وفقاً لتحليل Michel Foucault، لا تُتهم الحقيقة بوصفها معطى ثابتاً، بل كنتاج لعلاقات السلطة والمعرفة<sup>10</sup>. وعليه، يمكن فهم التفاوض بوصفه فضاءً لإنتاج "حقائق تفاوضية" تُثبت داخله سرديات معينة وتُقصى أخرى، عبر تفاعل السلطة والمعرفة والسرديات المتنافسة.

### 3. التمثلات الاجتماعية كأداة تفاوضية

تلعب التمثلات الاجتماعية دوراً محورياً في تشكيل مواقف الأطراف، إذ تحدد كيفية إدراكهم لأنفسهم وللآخر. وفي هذا السياق، لا يكون الصراع على المصالح فقط، بل على المعاني التي تمنح هذه المصالح قيمتها.<sup>11</sup> يُظهر التحليل أن النماذج الكلاسيكية، رغم أهميتها التاريخية، لم تعد كافية لتفسير التفاوض في سياق الحروب الهجينة. إذ يكشف الواقع المعاصر عن انتقال جوهري من التفاوض بوصفه عملية عقلانية لتبادل المصالح، إلى التفاوض بوصفه عملية سوسولوجية لإعادة إنتاج الإدراك والتمثلات. ومن هنا، تبرز الحاجة إلى تطوير إطار نظري بديل يستوعب هذا التحول، وهو ما سيتم تناوله في الفصل التالي من خلال تأصيل مفهوم "التفاوض الإدراكي".

**الفصل الثاني: التفاوض كحقل إدراكي-تأصيل سوسولوجي لمفهوم "التفاوض الإدراكي"**  
إذا كان الفصل السابق قد كشف حدود النماذج الكلاسيكية في تفسير التفاوض المعاصر، فإن هذا الفصل يسعى إلى بناء إطار نظري بديل، ينقل التحليل من مستوى المصالح إلى مستوى الإدراك. فالتحولات المرتبطة بالحروب الهجينة لم تُعد تشكيل أدوات الصراع فحسب، بل أعادت صياغة البنى الإدراكية التي من خلالها يفهم الفاعلون أنفسهم والعالم من حولهم. وعليه، يصبح التفاوض عملية إنتاج للمعنى، لا مجرد آلية لتوزيع الموارد.

أولاً: التفاوض بوصفه حقلاً لإعادة تشكيل المعنى

1. الحقل التفاوضي وإعادة توزيع السلطة الرمزية

يتيح مفهوم "الحقل" عند Pierre Bourdieu فهم التفاوض بوصفه فضاءً اجتماعياً تتقاطع داخله قوى متعددة، حيث لا يُختزل الصراع في بُعد المادي، بل يمتد إلى التنافس على أشكال الرأسمال الرمزي والمعرفي.<sup>12</sup>

في هذا الإطار، لا يتفاوض الفاعلون فقط على شروط اتفاق، بل على من يمتلك الشرعية لتحديد معنى هذه الشروط. وهنا، تتحول السلطة من كونها قدرة على الإكراه إلى قدرة على فرض تعريف معين للواقع باعتباره "الواقع المشروع".

2. التفاوض كصراع على تعريف الواقع

لا يُعدّ الواقع في السياق التفاوضي معطًى موضوعياً، بل بناءً اجتماعياً يتم إنتاجه عبر التفاعل. ومن هذا المنظور، يصبح التفاوض عملية لإعادة تعريف:

\* من هو الفاعل الشرعي

\* ما هي القضية محل النزاع

\* ما هو الحل المقبول

وبذلك، يتجاوز التفاوض مستوى "ما نريده" إلى مستوى "ما نعتقد أنه موجود أصلاً".

ثانياً: السلطة والمعرفة - إنتاج الحقيقة التفاوضية

1. من التفاوض إلى إنتاج "أنظمة الحقيقة"

يقدم تحليل Michel Foucault مدخلاً حاسماً لفهم التفاوض بوصفه ممارسة لإنتاج الحقيقة. فالحقيقة، وفق هذا المنظور، ليست انعكاساً للواقع، بل نتاجاً لعلاقات القوة التي تحدد ما يمكن قوله، وما يُعتبر صحيحاً.<sup>13</sup>

في السياق التفاوضي، تتجلى هذه الفكرة في:

\* فرض سرديات معينة كحقائق

\* إقصاء روايات بديلة

\* إعادة صياغة الوقائع بما يخدم موقعاً تفاوضياً محدداً

وتشير الأدبيات المعاصرة في الحوكمة الخوارزمية والقوة الرقمية إلى أن المنصات والخوارزميات لم تعد مجرد وسائط تقنية لنقل المعلومات، بل أصبحت فاعلاً بنيوياً يشارك في إعادة ترتيب الانتباه العام وتحديد أولويات الإدراك السياسي. ومن ثمّ، فإن

التحكم في تدفق المعلومات لا يعمل خارج المجال التفاوضي، بل يساهم في تشكيل حدوده، وتحديد ما يُعدّ مشروعاً أو مقبولاً داخله<sup>14</sup> .<sup>15</sup>

## 2. التفاوض كآلية للضبط الإدراكي

لا يقتصر التفاوض على تبادل الحجج، بل يشمل أيضاً ضبط المجال الإدراكي الذي تُهمّهم ضمنه هذه الحجج. وهنا، يصبح النجاح التفاوضي مرتبطاً بقدرة الفاعل على:

\* تحديد إطار النقاش (Framing)

\* توجيه إدراك الجمهور

\* إعادة ترتيب أولويات الخصم

ثالثاً: التمثّلات الاجتماعية وبناء المواقف التفاوضية

## 1. التمثّلات كشرط للفاعل التفاوضي

تُظهر أعمال Serge Moscovici أن التمثّلات الاجتماعية تُشكّل الإطار الذي من خلاله يدرك الأفراد الواقع<sup>16</sup>.

في التفاوض، لا يتصرف الفاعلون بناءً على الواقع كما هو، بل بناءً على تمثّلاتهم عنه، وهو ما يؤدي إلى:

\* تضخيم التهديدات

\* إعادة تأويل نوايا الطرف الآخر

\* إنتاج تصورات متناقضة للحدث ذاته

## 2. الهوية والذاكرة كمتغيرات تفاوضية

تلعب الهوية الجماعية والذاكرة التاريخية دوراً حاسماً في تشكيل الإدراك التفاوضي، حيث:

\* تُستخدم السرديات التاريخية لتبرير المواقف .

\* يُعاد استدعاء المظالم لتعزيز الشرعية.

\* تُبنى حدود "نحن/هم" التي تُؤطر التفاعل.

وبذلك، يصبح التفاوض مشروطاً ببنية رمزية عميقة تتجاوز اللحظة الراهنة.

رابعاً: إدارة الانطباع والتفاوض كأداء اجتماعي

## 1. التفاوض كعرض تفاعلي

يُتيح تحليل Erving Goffman فهم التفاوض بوصفه أداءً اجتماعياً، حيث يسمى

الفاعلون إلى إدارة الانطباعات التي يكوّنها الآخرون عنهم.<sup>17</sup>  
في هذا السياق:

\* تُصاغ الرسائل التفاوضية كخطاب موجّه.

\* تُستخدم الرموز والإيماءات لتعزيز الموقف.

\* يُعاد تشكيل الهوية التفاوضية بشكل استراتيجي.

## 2. الانطباع كأداة قوة

لا يقتصر التفاوض على ما يُقال، بل يشمل كيف يُقال، وللمن يُوجّه. وهنا، تتحول إدارة الانطباع إلى أداة قوة، حيث يمكن:

\* تضخيم الموقف التفاوضي.

\* إضعاف خصم دون مواجهة مباشرة.

\* خلق تصورات عن الحزم أو المرونة.

## خامساً: نحو نموذج "التفاوض الإدراكي"

### 1. تعريف المفهوم

يمكن تعريف "التفاوض الإدراكي" بوصفه: عملية تفاوضية يُعاد من خلالها تشكيل تصورات الأطراف عن الذات والآخر والواقع محلّ التفاوض، بحيث يصبح التحكم في المعنى والشرعية شرطاً مؤثراً في إنتاج النتائج التفاوضية.

### 2. تمييز مفهوم "التفاوض الإدراكي" عن المفاهيم المجاورة

على الرغم من تقاطع مفهوم "التفاوض الإدراكي" مع عدد من الأدبيات المعاصرة المرتبطة بالإدراك والسرديات والاتصال السياسي، إلا أنه لا يختزل فيها، بل يختلف عنها من حيث موضوع التحليل ووظيفة الإدراك داخل العملية التفاوضية ذاتها. فمقاربات الـ Framing تركز أساساً على كيفية تأطير القضايا وتوجيه تفسيرها داخل المجال العام، من خلال إعادة تنظيم المعاني وتحديد الزوايا الإدراكية التي يُفهم الحدث عبرها.<sup>18</sup> كما تهتم أدبيات Strategic Narratives ببناء سرديات سياسية تُستخدم لإعادة تشكيل التصورات الدولية وتعزيز الشرعية داخل النظام الدولي.<sup>19</sup> أما أدبيات Cognitive Warfare و Psychological Operations، فتتصرف بصورة رئيسية إلى توظيف الإدراك كأداة صراع تهدف إلى التأثير في وعي الخصم أو إرباكه أو إعادة توجيه سلوكه ضمن بيئات معلوماتية متنازع عليها.<sup>20</sup>

في المقابل، لا يتعامل مفهوم "التفاوض الإدراكي" مع الإدراك بوصفه أداة مرافقة للتفاوض فحسب، بل بوصفه البنية التي يُعاد داخلها إنتاج الواقع التفاوضي نفسه. فموضوع التفاوض لا يكون محددًا مسبقًا بصورة ثابتة، بل يُعاد تعريفه عبر الصراع على الشرعية، وعلى تمثّلات الذات والآخر، وعلى تحديد ما يُعدّ واقعًا تفاوضيًا مشروعًا أصلاً. ومن هذا المنظور، لا يقتصر التفاوض الإدراكي على إدارة الرسائل أو تحسين الموقع التفاوضي، بل يتصل بإعادة تشكيل شروط إمكان التفاوض وحدود المعنى التي تتحرك الأطراف ضمنها.<sup>21</sup>

وبذلك، يتموضع مفهوم "التفاوض الإدراكي" ضمن مقاربة سوسولوجية أوسع، تنظر إلى التفاوض بوصفه حقلاً لإنتاج الإدراك والمعنى، لا مجرد مساحة لتبادل المصالح أو إدارة الانطباعات السياسية. فبينما تشغل المقاربات الاتصالية أو الأمنية بتأثير السرديات في السلوك السياسي، ينصرف هذا المفهوم إلى تحليل الكيفية التي يُعاد من خلالها بناء "الواقع التفاوضي" ذاته بوصفه نتاجًا لعلاقات القوة والمعرفة والتمثّلات الاجتماعية.<sup>22</sup> ومن هنا، لا يُخنزل "التفاوض الإدراكي" في كونه تقنية لإدارة التصورات أو تحسين الموقع التفاوضي، بل يتمثل في إعادة تشكيل البنية الإدراكية التي تُنتج الواقع التفاوضي ذاته وتحدد شروط إمكانه.

### 3. مكونات النموذج

يقوم التفاوض الإدراكي على ثلاثة أبعاد مترابطة:

- أ. الإدراك الذاتي كيف يرى الفاعل نفسه (قوة، شرعية، ضحية، فاعل مركزي)
- ب. إدراك الآخر كيف يُعرّف الخصم (عدو، شريك، تهديد وجودي، فاعل غير شرعي)
- ج. إدراك الواقع كيف يُبنى الواقع محل التفاوض (أزمة، نزاع، احتلال، إصلاح)

### 4. آليات التفاوض الإدراكي

- \* السرديات: إنتاج روايات مهيمنة
- \* الرمزية: توظيف الرموز والهوية
- \* الإعلام والخوارزميات: إعادة تشكيل الإدراك الجماعي
- \* إدارة الإطار (Framing): تحديد معنى القضية

### 5. نتائج التفاوض الإدراكي

- \* إعادة تعريف الشرعية السياسية
- \* إعادة تشكيل موازين القوة دون استخدام مباشر للقوة

\* إنتاج "واقع تفاوضي" جديد يفرض نفسه على الأطراف يكشف هذا الفصل أن التفاوض، في سياق الحروب المعاصرة، لم يعد مجرد تفاعل بين مصالح متعارضة، بل أصبح حقلاً سوسيولوجياً تُعاد داخله صياغة التمثّلات التي تمنح هذه المصالح معناها وحدودها. ومن خلال دمج مقاربات Pierre Bourdieu و Mi- chel Foucault و Erving Goffman، يتبلور نموذج "التفاوض الإدراكي" كإطار تحليلي قادر على تفسير تعقيدات التفاعل التفاوضي في زمن الحروب الهجينة. ويُهد هذا التأسيس النظري للانتقال إلى الفصل الثالث، حيث سيتم اختبار هذا النموذج على حالات واقعية معاصرة.

الفصل الثالث: التفاوض الإدراكي في الممارسة — مقارنة تحليلية مقارنة في سياق الحروب الهجينة:

بعد تأصيل مفهوم "التفاوض الإدراكي" بوصفه إطاراً سوسيولوجياً لإعادة فهم العملية التفاوضية، يسعى هذا الفصل إلى اختبار صلاحيته التفسيرية عبر تحليل مقارن لحالات معاصرة، تُقرأ لا بوصفها أمثلة وصفية، بل كحقول يُعاد ضمنها إنتاج الإدراك التفاوضي. وبذلك، يُفهم التفاوض في سياق الحروب الهجينة بوصفه ممارسة تسهم في إعادة بناء الواقع التفاوضي، عبر الصراع على السرديات والشرعية والإدراك.<sup>23</sup> ويكتسب هذا البعد أهمية متزايدة في ظل ما تصفه الأدبيات الحديثة بـ "اقتصاد الانتباه" (Attention Economy)، حيث تصبح القدرة على جذب الانتباه وإعادة توجيهه مورداً سياسياً واستراتيجياً يؤثر في تشكيل الإدراك العام وفي إعادة ترجيح المواقع التفاوضية للأطراف المتصارعة.<sup>24</sup>

#### 1. الحرب الروسية-الأوكرانية

تُظهر الحرب الروسية-الأوكرانية تحوُّلاً بنيوياً في طبيعة الواقع التفاوضي، إذ لم يعد هذا الواقع معطى مشتركاً يمكن الانطلاق منه، بل موضوعاً للصراع ذاته. تعمل الأطراف على إنتاج وقائع متنافسة عبر منظومات إعلامية ورقمية كثيفة، بما يعيد تعريف الحدث وسياقه وفاعليه بصورة مستمرة.

وقد ظهر ذلك بوضوح خلال المفاوضات المرتبطة بممرّات تصدير الحبوب في البحر الأسود، حيث لم يقتصر الخلاف على الشروط التقنية للاتفاق، بل امتدّ إلى الصراع حول توصيف الأزمة الغذائية عالمياً، وتحديد الطرف المسؤول عن تعطيل الإمدادات،

بما جعل السردية الإعلامية جزءاً من البنية التفاوضية ذاتها. في هذه الحالة، يتضح البعد الإدراكي للتفاوض من خلال الصراع على تسمية الحدث ذاته. فبينما جرى تقديم الحرب، في الخطاب الروسي، ضمن أطر ترتبط بالأمن القومي ورفض التمدد الغربي وحماية المجال الحيوي، قُدمت في الخطاب الأوكراني والغربي بوصفها اعتداءً على السيادة وانتهاكاً للنظام الدولي. ولا يُعدّ هذا الاختلاف مجرد تباين لغوي، بل يمثل صراعاً على بناء الواقع التفاوضي نفسه: هل يجري التفاوض حول ترتيبات أمنية بين قوى متنازعة، أم حول إنهاء عدوان على دولة ذات سيادة؟ ومن هنا، تصبح السردية شرطاً سابقاً للتفاوض، لأنها تحدد طبيعة القضية، وحدود الحل المقبول، وموقع كل طرف داخل المجال التفاوضي.

في هذا السياق، لا يكون التفاوض مساراً لحل نزاع قائم، بل امتداداً لصراع على تعريف هذا النزاع، حيث تُستخدم السرديات كأدوات لإعادة تثبيت "حقيقة تفاوضية" معينة تُفرض بوصفها المرجعية المقبولة. ويُفاقم من ذلك طابع البيئة المعلوماتية المعاصرة، حيث تتكاثر مصادر التأثير وتنشظى السلطة المعرفية، ما يؤدي إلى تقويض افتراض "المعرفة المشتركة" الذي قامت عليه النماذج الكلاسيكية للتفاوض.<sup>25</sup> تكشف هذه الحالة أن التفاوض لم يكن يدور حول شروط التسوية فحسب، بل حول الصراع على تعريف طبيعة الحرب نفسها، وهو ما يؤكد مركزية "إدراك الواقع" بوصفه أحد المكونات التأسيسية لنموذج التفاوض الإدراكي.

## 2. غزة

أما في حالة غزة، فيتمحور التفاوض حول إعادة إنتاج الشرعية عبر إدارة الإدراك الجمعي. فالمسألة لا تنحصر في شروط مادية (هدنة، تبادل، ترتيبات ميدانية)، بل في القدرة على تعريف الذات بوصفها ضحية أو فاعلاً مشروعاً، وتعريف الآخر ضمن أطر نزع الشرعية. تلعب الوسائط الرقمية دوراً حاسماً هنا، حيث تتحول الصور والخطابات والشهادات إلى أدوات ضغط تُعيد تشكيل الوعي العالمي وتؤثر مباشرة في حدود الممكن التفاوضي. وقد برز ذلك بصورة واضحة خلال المفاوضات المرتبطة بوقف إطلاق النار وتبادل الأسرى، حيث تحوّلت الصور الإنسانية والخطابات الإعلامية المتداولة عبر المنصات الرقمية إلى عنصر مؤثر في إعادة تشكيل الضغط الدولي وحدود المقبول تفاوضياً، أصبحت معه إدارة التعاطف العالمي جزءاً من البيئة التفاوضية ذاتها. وتكشف هذه الحالة بصورة خاصة عن مركزية الصراع على توصيف الفاعلين وحدود شرعيتهم. فالمفردات المستخدمة

في المجال التفاوضي ليست محايدة؛ إذ يختلف معنى العملية التفاوضية جذرياً تبعاً لما إذا كان الفاعل يُقدّم بوصفه مقاومة، أو تنظيمًا مسلحًا، أو طرفًا غير شرعي، أو ممثلًا لمعانة جماعية. كما يختلف معنى الطرف الآخر تبعاً لما إذا كان يُعرّف بوصفه دولة تمارس حق الدفاع عن النفس، أو قوة احتلال، أو فاعلاً مسؤولاً عن أزمة إنسانية. بهذا المعنى، لا يدور التفاوض حول وقف إطلاق النار أو تبادل الأسرى فحسب، بل حول تثبيت صورة أخلاقية وسياسية لكل طرف، بما يجعل إدراك الآخر عنصراً حاسماً في تحديد حدود الضغط الدولي وإمكانات التسوية.

بهذا المعنى، يصبح الرأي العام—العابر للحدود—جزءاً من بنية القوة التفاوضية، وتغدو "سياسات التعاطف" مورداً استراتيجياً يُستثمر لإعادة ترجيح موازين القوة داخل العملية التفاوضية.<sup>26</sup> وتُظهر هذه الحالة أن إعادة إنتاج الشرعية داخل المجال التفاوضي ارتبطت بقدرة الأطراف على إعادة تشكيل الإدراك الجمعي للضحية والفاعل المشروع، بما يجعل "إدراك الآخر" عنصراً حاسماً في إعادة بناء التوازن التفاوضي.

### 3. المفاوضات الإيرانية—الأمريكية

في المقابل، تكشف المفاوضات الإيرانية—الأمريكية عن نمط يتمحور حول إدارة الهوية السيادية. فالتفاوض لا يُختزل في مضمونه التقني المرتبط بالبرنامج النووي، بل يتجاوز ذلك إلى كيفية تعريف الدولة لذاتها داخل النظام الدولي. تُقرأ المواقف التفاوضية ضمن منطلق الحفاظ على صورة الذات السياسية، بحيث يغدو كل تنازل أو تشدد فعلاً ذا دلالة رمزية أمام الداخل والخارج. تُستخدم هنا أدوات رمزية—خطاب سياسي، استدعاء تاريخي، تمثيلات للسيادة—لإعادة إنتاج هذا الإدراك وتثبيتته، ما يجعل التفاوض عملية مزدوجة تُدار على مستويين: مستوى العلاقات الدولية ومستوى الشرعية الداخلية.<sup>27</sup>

وقد ظهر ذلك خلال مراحل إحياء الاتفاق النووي، حيث لم يكن الخلاف محصوراً في الجوانب التقنية المتعلقة بالتخصيب أو العقوبات، بل امتدّ إلى كيفية تقديم أي تنازل للرأي العام الداخلي بوصفه تعبيراً عن الحفاظ على السيادة لا تراجعاً عنها، ما جعل إدارة صورة الدولة جزءاً من التفاعل التفاوضي نفسه. وتبرز هنا أهمية الإدراك الذاتي بوصفه محددًا للسلوك التفاوضي. فالموقف الإيراني لا يُقرأ فقط من زاوية المكاسب التقنية أو الاقتصادية المرتبطة بالعقوبات والبرنامج النووي، بل من زاوية الحفاظ على صورة الدولة كفاعل سيادي لا يخضع للإملاء الخارجي. وفي المقابل، لا تتحرك الولايات المتحدة داخل التفاوض بوصفها طرفاً تقنياً فحسب، بل بوصفها قوة دولية معنية بإعادة

تثبيت صورة القيادة والقدرة على ضبط قواعد النظام الدولي. لذلك، يصبح كل تنازل أو تشدد محكوماً ليس فقط بحسابات المصلحة، بل بكيفية ظهوره أمام الداخل والخارج، أي بكيفية انسجامه مع صورة الذات التي يسعى كل طرف إلى تثبيتها.

وتؤكد هذه الحالة أن إدارة صورة الذات السياسية والسيادية لم تكن عنصراً مرافقاً للتفاوض، بل جزءاً بنيوياً من العملية التفاوضية ذاتها، بما يعزز أهمية "الإدراك الذاتي" داخل النموذج المقترح.

على الرغم من تباين السياقات الثلاثة، تكشف المقارنة أن كل حالة تُبرز بعداً مركزياً من أبعاد التفاوض الإدراكي. ففي الحرب الروسية-الأوكرانية يتقدم الصراع على بناء الواقع التفاوضي، حيث يصبح تعريف الحرب وشروطها ومعناها جزءاً من موضوع التفاوض ذاته. وفي حالة غزة، يبرز الصراع على إدراك الآخر وحدود شرعيته، إذ تتحول صورة الفاعل والضحية والمسؤولية الأخلاقية إلى عناصر مؤثرة في تشكيل الضغط الدولي والمجال التفاوضي. أما في المفاوضات الإيرانية-الأمريكية، فيتقدم الإدراك الذاتي، حيث تصبح صورة الدولة عن نفسها، بوصفها فاعلاً سيادياً أو قوة ضابطة للنظام الدولي، جزءاً من شروط القبول أو الرفض داخل العملية التفاوضية. وبذلك، لا تُستخدم الحالات الثلاث بوصفها أمثلة متفرقة، بل بوصفها اختباراً مقارناً للأبعاد الثلاثة التي يقوم عليها نموذج "التفاوض الإدراكي".

وتتلاقى هذه الأبعاد الثلاثة ضمن ثلاث آليات مترابطة: بناء السردية عبر إنتاج روايات متنافسة حول الحدث؛ وهندسة الشرعية عبر تحديد موقع الفاعلين ضمن أطر القبول والرفض؛ واختلال الإدراك حيث تتباين تمثيلات الأطراف للذات والآخر والواقع، بما يضبط حدود التفاعل الممكن. وتُفعل هذه الآليات عبر منظومة أدوات تشمل الإعلام، والرموز، والخوارزميات، والخطاب السياسي، لتُشكّل مجتمعة البنية الإدراكية للتفاوض، حيث يتداخل إنتاج المعنى مع إعادة توزيع القوة.<sup>28</sup> ويُفهم هذا التحول في ضوء ما تصفه الأدبيات الحديثة بـ«البيئة المعلوماتية المتنازع عليها»، حيث تتداخل الخوارزميات والمنصات الرقمية في إعادة إنتاج الإدراك الجماعي وتوجيهه، بما يعمّق أثره على مسارات التفاوض ونتائجه.<sup>29</sup>

تُفضي هذه القراءة إلى أن التفاوض في سياق الحروب الهجينة لم يعد مرحلة لاحقة للصراع، بل أحد أشكاله المستمرة. فالصراع يعيد تموضعه على مستوى الإدراك، حيث يستمر التنافس على تعريف الواقع وإنتاج الشرعية وتوجيه الوعي حتى داخل العملية

التفاوضية ذاتها. وبذلك، تصبح المخرجات التفاوضية انعكاسًا لتوازن إدراكي بقدر ما هي انعكاس لتوازن قوى مادية، ما يفسر هشاشة كثير من الاتفاقات واستمرار التوتر داخلها.<sup>30</sup> وعليه، يثبت التحليل أن "التفاوض الإدراكي" ليس توصيفًا مجازيًا، بل نموذجًا تفسيريًا قادرًا على كشف البنية العميقة للتفاعل التفاوضي المعاصر، حيث تتقدم المعاني على الوقائع، ويغدو التحكم في الإدراك شرطًا لإنتاج السياسة وحدودها.

### الخاتمة

تُفضي هذه الدراسة إلى إعادة تعريف التفاوض في سياق الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس، لا بوصفه آلية إجرائية لتسوية النزاعات أو توزيع المصالح فحسب، بل بوصفه حقلًا سوسيولوجيًا تتداخل داخله المصالح مع الإدراك والشرعية والتمثلات. فقد بين التحليل أن الأطراف المتفاوضة لا تتحرك داخل واقع موضوعي محايد، ولا تدخل العملية التفاوضية وهي تحمل تصورات ثابتة عن ذاتها وخصومها، بل تتخبط في بيئات معلوماتية متنازع عليها، تُعاد فيها صياغة معنى الذات والآخر والحدث التفاوضي ذاته.

وقد أظهرت الحالات الثلاث أن التفاوض الإدراكي يتخذ أنماطًا متميزة بحسب طبيعة السياق. ففي الحرب الروسية-الأوكرانية، برز نمط بناء الواقع التفاوضي من خلال التنافس على تعريف الحرب ومعناها وشروط إنهائها. وفي حالة غزة، ظهر نمط هندسة الشرعية، حيث تحوّلت صورة الفاعل والضحية والمسؤولية الأخلاقية إلى عناصر مؤثرة في تشكيل الضغط الدولي وحدود الممكن التفاوضي. أما في المفاوضات الإيرانية-الأمريكية، فقد تقدّم نمط تثبيت صورة الذات السيادية، إذ ارتبطت المواقف التفاوضية بصورة الدولة عن ذاتها، وبكيفية تمثيلها للسيادة والاعتراف والمكانة أمام الداخل والخارج.

وعليه، تكشف الدراسة أن تعثر المفاوضات أو هشاشة الاتفاقات لا يُفسّر فقط بتعارض المصالح أو اختلال موازين القوة، بل أيضًا بتعارض البنى الإدراكية التي تمنح هذه المصالح معناها السياسي. فحين يختلف الأطراف في تعريف الواقع ذاته، يصبح الاتفاق على الحل أكثر تعقيدًا، لأن التفاوض لا يدور عندئذٍ حول الشروط فحسب، بل حول الإطار الذي يجعل هذه الشروط ممكنة أو مشروعة أو قابلة للاعتراف.

وبذلك، تؤكد الدراسة أن فهم التفاوض المعاصر يقتضي تجاوز النماذج العقلانية التقليدية نحو مقاربة سوسيولوجية إدراكية ترى في التفاوض ممارسة لإنتاج المعنى والشرعية وحدود الممكن السياسي. فالقوة في السياقات التفاوضية الراهنة لا تقاس فقط

بامتلاك الموارد أو القدرة على فرض الشروط، بل بالقدرة على تشكيل الإدراك الذي يحدد معنى هذه الموارد والشروط داخل المجال السياسي.

### الإسهام العلمي

تتمثل مساهمة هذه الدراسة في اقتراح مفهوم "التفاوض الإدراكي" بوصفه أداة تحليلية لفهم التحولات التي طرأت على التفاوض في سياق الحروب الهجينة وحروب الجيل الخامس. ولا يقدم هذا المفهوم باعتباره توصيفاً بلاغيًا لتحولات الصراع، بل باعتباره إطاراً يوسع مجال التحليل من تبادل المصالح إلى إنتاج التصورات التي تجعل هذه المصالح مفهومة ومقبولة أو مرفوضة.

كما تسهم الدراسة في إعادة إدماج التفاوض ضمن علم الاجتماع السياسي، من خلال ربطه بنظريات السلطة والمعرفة والتمثّلات الاجتماعية والسلطة الرمزية. وبهذا المعنى، تنقل الدراسة التفاوض من كونه تقنية دبلوماسية أو إجرائية إلى كونه ممارسة اجتماعية تتحدد داخلها مواقع الفاعلين، وحدود الشرعية، وشروط الاعتراف، ومعنى الحلول الممكنة. وتقترح الدراسة نموذجاً تحليلياً ثلاثي الأبعاد يقوم على إدراك الذات، وإدراك الآخر، وبناء الواقع التفاوضي، بما يسمح بقراءة الحالات المعاصرة لا بوصفها نزاعات مادية فقط، بل بوصفها صراعات على المعنى والاعتراف وتعريف الواقع. ومن هنا، تكمن القيمة النظرية للدراسة في توفير إطار قابل للتطبيق في دراسات لاحقة حول التفاوض داخل البيئات الرقمية والمعلوماتية المتنازع عليها.

### الخلاصة التركيبية النهائية

في ضوء ما تقدّم، يمكن القول إن التفاوض في القرن الحادي والعشرين لم يعد يُحسم فقط بمن يمتلك القوة أو الموارد، بل بمن يمتلك القدرة على تعريف الواقع الذي تُمارَس داخله هذه القوة. فحين يصبح الإدراك جزءاً من بنية الصراع، يغدو التفاوض ذاته مجالاً لإنتاج السياسة، لا مجرد وسيلة لإنهائها.

## لائحة المراجع:

## أولاً المراجع العربية:

- أبو زيد، نصر حامد. إشكاليات القراءة وآليات التأويل. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994.  
 بلقزيز، عبد الإله. الدولة والمجتمع: جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008.  
 المسيري، عبد الوهاب. اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود. القاهرة: دار الشروق، 2002.

## ثانياً المراجع الأجنبية :

- Bourdieu, Pierre. Outline of a Theory of Practice. Cambridge: Cambridge University Press, 1977.  
 Bourdieu, Pierre. The Field of Cultural Production. New York: Columbia University Press, 1993.  
 Bourdieu, Pierre. The Logic of Practice. Stanford: Stanford University Press, 1990.  
 Brandon K. Yoder and Kyle Haynes, "Signaling under the Security Dilemma: An Experimental Analysis," Journal of Conflict Resolution 65, no. 4 , 2021.  
 Castells, Manuel. Networks of Outrage and Hope: Social Movements in the Internet Age. 2nd ed. Cambridge: Polity Press, 2015.  
 Couldry, Nick, and Ulises A. Mejias. The Costs of Connection: How Data Is Colonizing Human Life and Appropriating It for Capitalism. Stanford: Stanford University Press, 2019.  
 Elster, Jon. Nuts and Bolts for the Social Sciences. Cambridge: Cambridge University Press, 1989.  
 Entman, Robert M. "Framing: Toward Clarification of a Fractured Paradigm." Journal of Communication 43, no. 4 ,1993.  
 Fairclough, Norman. Discourse and Social Change. Cambridge: Polity Press, 1992.  
 Fisher, Roger, and William Ury. Getting to Yes: Negotiating Agreement Without Giving In. New York: Penguin Books, 1981.  
 Foucault, Michel. Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972–1977. Edited by Colin Gordon. New York: Pantheon Books, 1980.  
 Foucault, Michel. The Archaeology of Knowledge. London: Routledge, 1972.  
 Freedman, Lawrence. The Future of War: A History. 2nd ed. New York: PublicAffairs, 2019.  
 Goffman, Erving. The Presentation of Self in Everyday Life. New York: Anchor Books, 1959.

- Hoffman, Frank G. "Hybrid Warfare and Challenges." *Joint Force Quarterly* 52 .2009.
- Lynch, Marc. *The New Arab Wars: Uprisings and Anarchy in the Middle East*. Rev. ed. New York: PublicAffairs, 2020.
- Meijer, Albert, Lukas Lorenz, and Martijn Wessels, "Algorithmization of Bureaucratic Organizations: Using a Practice Lens to Study How Context Shapes Predictive Policing Systems," *Public Administration Review* 81, no. 5 2021.
- Miskimmon, Alister, Ben O'Loughlin, and Laura Roselle. *Strategic Narratives: Communication Power and the New World Order*. New York: Routledge, 2013.
- Moscovici, Serge. *Social Representations: Explorations in Social Psychology*. Cambridge: Polity Press, 2000.
- Nye, Joseph S., Jr. *Do Morals Matter? Presidents and Foreign Policy from FDR to Trump*. New York: Oxford University Press, 2020.
- Osinga, Frans P. B., and Tim Sweijjs, eds. *NL ARMS Netherlands Annual Review of Military Studies 2020: Deterrence in the 21st Century*. The Hague: T.M.C. Asser Press, 2021.
- Parsi, Trita. *Losing an Enemy: Obama, Iran, and the Triumph of Diplomacy*. Updated ed. New Haven: Yale University Press, 2017.
- Schelling, Thomas C. *The Strategy of Conflict*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1960.
- Snyder, Timothy. *The Road to Unfreedom: Russia, Europe, America*. New York: Tim Duggan Books, 2018.
- Zuboff, Shoshana. *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power*. Updated ed. New York: PublicAffairs, 2021.

- 
1. Norman Fairclough, *Discourse and Social Change* (Cambridge: Polity Press, 1992), 37
  2. Jon Elster, *Nuts and Bolts for the Social Sciences* (Cambridge: Cambridge University Press, 1989), 22-30. وللمقاربة التأويلية العربية في علاقة اللغة بإنتاج المعنى ينظر أيضاً: عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود (القاهرة: دار الشروق، 2002، ص 115 - 132).
  3. Thomas C. Schelling, *The Strategy of Conflict* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1960), 3-20.
  4. Brandon K. Yoder and Kyle Haynes, "Signaling under the Security Dilemma: An Experimental Analysis," *Journal of Conflict Resolution* 65, no. 4 (2021): 672-700.
  5. Roger Fisher and William Ury, *Getting to Yes: Negotiating Agreement Without Giving In* (New York: Penguin Books, 1981), 10-15.

6. Frank G. Hoffman, "Hybrid Warfare and Challenges," *Joint Force Quarterly* 52 (2009): 34–39.
7. Pierre Bourdieu, *Outline of a Theory of Practice* (Cambridge: Cambridge University Press, 1977), 72–95.
8. Lawrence Freedman, *The Future of War: A History* (New York: PublicAffairs, 2019), 320–335.
9. Pierre Bourdieu, *The Logic of Practice* (Stanford: Stanford University Press, 1990), 120–140.
10. Michel Foucault, *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings* (New York: Pantheon Books, 1980), 109–133.
11. Serge Moscovici, *Social Representations: Explorations in Social Psychology* (Cambridge: Polity Press, 2000), 45–60.
12. Pierre Bourdieu, *The Field of Cultural Production* (New York: Columbia University Press, 1993), 29–45.
13. Michel Foucault, *The Archaeology of Knowledge* (London: Routledge, 1972), 49–78.
14. للمقاربة التأويلية العربية في تحليل النص والخطاب ينظر أيضاً: نصر حامد أبوزيد إشكاليات القراءة وآليات التأويل (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1994، ص 87).
15. Nick Couldry and Ulises A. Mejias, *The Costs of Connection: How Data Is Colonizing Human Life and Appropriating It for Capitalism* (Stanford: Stanford University Press, 2019), 103.
16. Albert Meijer, Lukas Lorenz, and Martijn Wessels, "Algorithmization of Bureaucratic Organizations: Using a Practice Lens to Study How Context Shapes Predictive Policing Systems," *Public Administration Review* 81, no. 5 (2021): 837–846.
17. Serge Moscovici, *Social Representations: Explorations in Social Psychology* (Cambridge: Polity Press, 2000), 18–36.
18. Erving Goffman, *The Presentation of Self in Everyday Life* (New York: Anchor Books, 1959), 22–40.
19. Robert M. Entman, "Framing: Toward Clarification of a Fractured Paradigm," *Journal of Communication* 43, no. 4 (1993): 51–58.
20. Alister Miskimmon, Ben O'Loughlin, and Laura Roselle, *Strategic Narratives: Communication Power and the New World Order* (New York: Routledge, 2013), 2–18.
21. Frans P. B. Osinga and Tim Sweijs, eds., *NLARMS Netherlands Annual Review of Military Studies 2020: Deterrence in the 21st Century* (The Hague: T.M.C. Asser Press, 2021), 311.
22. Michel Foucault, *Power/Knowledge: Selected Interviews and Other Writings, 1972–1977*, ed. Colin Gordon (New York: Pantheon Books, 1980), 109.
23. Pierre Bourdieu, *The Logic of Practice* (Stanford: Stanford University Press, 1990), 52.
24. Lawrence Freedman, *The Future of War: A History*, 2nd ed. (New York: PublicAffairs, 2019), 352.
25. Shoshana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism: The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power*, updated ed. (New York: PublicAffairs, 2021), 321.

25. Timothy Snyder, *The Road to Unfreedom: Russia, Europe, America*, 1st ed. (New York: Tim Duggan Books, 2018), 221–245.
26. Marc Lynch, *The New Arab Wars: Uprisings and Anarchy in the Middle East*, rev. ed. (New York: PublicAffairs, 2020), 198–214.
- ولفهم جدليات الدولة والمجتمع في الاجتماع، ينظر أيضاً: عبد الإله بلقزيز، الدولة والمجتمع: جدليات التوحيد والانقسام في الاجتماع العربي المعاصر (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2008، ص 221).
27. Trita Parsi, *Losing an Enemy: Obama, Iran, and the Triumph of Diplomacy*, updated ed. (New Haven: Yale University Press, 2017), 265–289.
28. Manuel Castells, *Networks of Outrage and Hope: Social Movements in the Internet Age*, 2nd ed. (Cambridge: Polity Press, 2015), 145–162.
29. Shoshana Zuboff, *The Age of Surveillance Capitalism*, updated ed. (New York: PublicAffairs, 2021), 312–340.
30. Joseph S. Nye Jr., *Do Morals Matter? Presidents and Foreign Policy from FDR to Trump*, 1st ed. (New York: Oxford University Press, 2020), 198–212.



## تطور النظام العالمي وإعادة تشكيل مفهوم الحدود الجغرافية

تتناول هذه الدراسة التحولات التي أصابت مفهوم الحدود الجغرافية بفعل تطور النظام العالمي من النموذج الوستفالي القائم على الإقليم والسيادة، إلى المرحلة الراهنة التي تتسم بتكثف العولمة، وتنامي المخاطر العابرة للحدود، وازدياد الاعتماد على الوسائط الرقمية في إدارة التنقل والأمن والاقتصاد. وتطلق الدراسة من فرضية رئيسية مؤداها أن الحدود لم تتلاش في عصر العولمة كما افترض بعض الخطاب الليبرالي في تسعينيات القرن العشرين، بل أعيد تشكيلها وظيفيا ومؤسسيا. فالحدود اليوم ليست مجرد خطوط فاصلة على الخريطة، وإنما أصبحت منظومات سياسية وقانونية وتقنية تنتج التمييز، وتفرز الحقوق، وتعيد تعريف العلاقة بين الدولة والمجتمع والفرد.

وتعتمد الدراسة مقارنة تجمع بين التحليل التاريخي والمنهج المقارن والإطار الفلسفي السياسي والاجتماعي. وقد جرى اعتماد إتيان باليبار بوصفه المرجع الفلسفي المركزي للدراسة، لكونه عالج الحدود بوصفها مؤسسات تنتج المواطنة والاختلاف في آن، وربطها بأزمة الديمقراطية والسيادة والهوية في العالم المعاصر. كما تستأنس الدراسة بكل من ميشيل فوكو في تحليل الحدود كأليات للضبط الأمني وإدارة السكان، وجورجيو أغامبن في فهم الحدود باعتبارها فضاءات محتملة لحالة الاستثناء وتعليق الضمانات القانونية. وتخلص الدراسة إلى أن الحدود المعاصرة

تتحرك في اتجاه مزدوج: فهي تنفتح اقتصاديا وتقنيا أمام السلع ورؤوس الأموال والبيانات، لكنها تتشدد سياسيا وأمنيا تجاه البشر، ولا سيما المهاجرين واللاجئين والفئات الهشة. ومن ثم فإن فهم الحدود اليوم يقتضي تجاوز النظرة الجغرافية الصلبة إلى قراءة متعددة المستويات ترى فيها مؤسسة سياسية واجتماعية وأخلاقية تعكس تحولات النظام العالمي وتعيد إنتاجها.

#### الكلمات المفتاحية

الحدود الجغرافية، النظام العالمي، السيادة، العولمة، إتيان باليبار، فوكو، أغامبن، الحدود الذكية، الهجرة، الأمنة.

#### تصميم البحث

ينتظم هذا البحث في بنية أكاديمية متدرجة، تراعي التسلسل المنهجي من التأصيل النظري إلى التحليل المقارن، وذلك على النحو الآتي:  
أولاً: المقدمة والإطار المنهجي العام للبحث.

ثانياً: التطور التاريخي لمفهوم الحدود في سياق تشكّل النظام العالمي.

ثالثاً: الحدود في الفلسفة السياسية والاجتماعية مع اتخاذ إتيان باليبار مرجعاً مركزياً.

رابعاً: التحولات المعاصرة في وظائف الحدود، ولا سيما الأمنة والرقمنة والهجرة والمناخ.  
خامساً: مناقشة تطبيقية مقارنة في ضوء الاتحاد الأوروبي والفضاء المتوسطي والشرق الأوسط.

سادساً: النتائج والتوصيات والخاتمة العامة.

#### مقدمة

يعد موضوع الحدود من أكثر الموضوعات التصاقاً بتاريخ الدولة الحديثة وبنية النظام الدولي. فمنذ أن اكتسبت الدولة الإقليمية الحديثة مركزها في التنظيم السياسي العالمي، أصبح الحد أداة لتحديد المجال الجغرافي للسيادة، ولترسيم نطاق الاختصاص القانوني، ولتمييز الجماعة السياسية عن غيرها. غير أن هذا التعريف الكلاسيكي، على الرغم من أهميته التأسيسية، لم يعد كافياً لفهم ما أصاب الحدود في العقود الأخيرة من تحولات. فقد دفعت نهاية الحرب الباردة، والتوسع الرأسمالي العالمي، والثورة الرقمية، والتهديدات الأمنية غير التقليدية، إلى إعادة تعريف الحدود في وظائفها ومعانيها وآليات إدارتها.

إن أهمية هذا الموضوع لا تعود فقط إلى حضوره في أدبيات الجغرافيا السياسية والعلاقات

الدولية، بل إلى كونه مسألة تقع في صميم الفلسفة السياسية والاجتماعية أيضا. فالحدود لا تحدد الخرائط فقط، بل تحدد من يملك حق الدخول، ومن يستحق الحماية، ومن يوضع في خانة الغريب أو الخطر أو اللاجئ أو المواطن. ولهذا فإن السؤال عن الحدود هو، في الوقت نفسه، سؤال عن السلطة، والشرعية، والعدالة، والهوية، والمواطنة، والعلاقة بين الداخل والخارج. ومن هنا يصبح إدراج المقاربة الفلسفية ضرورة منهجية لا ترفا نظريا. وتكتسب الدراسة راهنتها من كون العالم يشهد اليوم مفارقة مركبة: فمن جهة، تتزايد شبكات الترابط العابر للحدود على مستوى التجارة والمال والتكنولوجيا والاتصال؛ ومن جهة ثانية، تتعاظم سياسات الغلق والفرز والتتبع والمراقبة على المعابر وفي الفضاءات الحدودية وفي عمق الإقليم الوطني نفسه. وقد بينت المفوضية السامية للأمم المتحدة لشؤون اللاجئين أن عدد المهجرين قسرا بلغ 123.2 مليون شخص مع نهاية سنة 2024، وهو رقم يكشف بوضوح أن الحدود لم تعد شأنًا تقنيا محضًا، بل أصبحت ساحة مركزية لإدارة الأزمات الإنسانية والسياسية والأمنية في آن واحد (UNHCR, 2025). كما أن التحول الرقمي أعاد تعريف الحدود من خلال الانتقال من النموذج الحاجزي إلى النموذج الخوارزمي. فالحدود الذكية القائمة على القياسات الحيوية، وتبادل قواعد البيانات، والتقييم المسبق للمخاطر، تعني أن عملية الفرز لم تعد تبدأ عند المعبر فقط، بل تسبق الوصول إليه أحيانا، وتمتد بعد العبور أيضا. وفي هذا السياق أعلنت المفوضية الأوروبية أن نظام الدخول والخروج الأوروبي System Exit/Entry أصبح نافذا على نطاق فضاء شنغن في 10 نيسان 2026، مسجلا بيانات السفر والقياسات الحيوية لغير مواطني الاتحاد الأوروبي الذين يدخلون لإقامة قصيرة (Commission European, 2026). بناء على ذلك، تنطلق هذه الدراسة من سؤال مركزي مفاده: كيف أعاد تطور النظام العالمي تشكيل مفهوم الحدود الجغرافية ووظائفها، وما الذي تكشفه هذه التحولات عن تبدل العلاقة بين السيادة والفضاء والسلطة والمواطنة؟ وللإجابة عن هذا السؤال ستسعى الدراسة إلى الجمع بين التأصيل التاريخي، والتفكيك النظري، والتحليل المقارن، في ضوء مرجعية فلسفية مباشرة تتصل بموضوع الحدود لا بموضوع الدولة فقط.

أولا: إشكالية البحث وأسئلته

تتمثل إشكالية البحث في أن الحدود لم تعد تؤدي وظيفة واحدة مستقرة يمكن اختزالها في حماية الإقليم أو إعلان السيادة. فالحدود المعاصرة أصبحت مجالا تتقاطع فيه رهانات الأمن والاقتصاد والهوية والبيئة والتكنولوجيا، بحيث لم يعد ممكنا تحليلها انطلاقا من

منطق جغرافي صرف أو من مفهوم قانوني ضيق. ومن هنا تطرح الدراسة السؤال الآتي:  
إلى أي مدى ما زالت الحدود تحتفظ بوظيفتها التقليدية في ظل نظام عالمي متغير، وما  
طبيعة الأدوار الجديدة التي صارت تؤديها بوصفها مؤسسات سياسية واجتماعية وتقنية؟  
• كيف تطور مفهوم الحدود من النموذج الوستفالي إلى مرحلة العولمة وما بعدها؟  
• ما أثر التحولات الجيوسياسية والاقتصادية والرقمية في وظائف الحدود المعاصرة؟  
• كيف تساعد الفلسفة السياسية والاجتماعية، ولا سيما عند إتيان باليبار، في إعادة فهم  
الحدود؟

• إلى أي حد أسهمت الهجرة القسرية، والتغيرات المناخية، والحدود الذكية في إعادة  
إنتاج الحدود لا في إلغائها؟  
ثانياً: فرضيات البحث

• الفرضية الأولى: لم تؤد العولمة إلى زوال الحدود، بل إلى تحويلها من خطوط فاصلة  
إلى منظومات فرز ومراقبة متعددة المواقع.  
• الفرضية الثانية: ترتبط إعادة تشكيل الحدود المعاصرة بتحول مفهوم السيادة من  
السيادة الإقليمية الصلبة إلى سيادة انتقائية وشبكية تمارس داخل الحدود وعبرها وخارجها.  
• الفرضية الثالثة: يتيح فكر إتيان باليبار، مدعوماً بمفاهيم فوكو وأغامبن، فهماً أعمق  
للحدود بوصفها مؤسسات تنتج التفاوت في الحقوق والانتماء، لا مجرد أدوات للفصل  
المكاني.

ثالثاً: أهمية البحث

تتبع أهمية البحث علمياً من أنه يصل بين دراسات العلاقات الدولية والجغرافيا السياسية  
من جهة، والفلسفة السياسية والاجتماعية من جهة ثانية، وهو وصل ما زال ضعيفاً نسبياً  
في كثير من الدراسات العربية. كما أن البحث يسهم في تجاوز ثنائية مبسطة ظلت سائدة  
زمناً بين تصور يرى الحدود في طريقها إلى الاختفاء، وتصورٍ مقابل يراها ثابتة صلبة لا  
يطرأ عليها تغيير. أما عملياً، فتظهر أهمية الموضوع في ارتباطه المباشر بملفات النزوح،  
والهجرة، والرقابة الرقمية، والأمن الإقليمي، والسياسات الإنسانية، وهي كلها ملفات  
تتداخل بقوة في السياقين الإقليمي والدولي.

رابعاً: المنهجية وحدود الدراسة

تعتمد الدراسة المنهج التاريخي التحليلي لتتبع تطور الحدود في سياق تحولات النظام  
العالمي، والمنهج المقارن لرصد اختلاف أنماط الحدود بين البيئات الجيوسياسية

المتباينة، والمنهج الفلسفي التأويلي لتفكيك المفاهيم المركزية مثل السيادة، والمواطنة، والهوية، وحالة الاستثناء، والأمننة. أما من حيث الحدود الزمنية، فتركز الدراسة على المرحلة الممتدة من نهاية الحرب الباردة حتى سنة 2026، مع الرجوع إلى المحطات التأسيسية الأسبق كلما دعت الحاجة إلى ذلك. ومن حيث الحدود الموضوعية، فإن الدراسة لا تتناول كل تفصيل قانوني أو تقني يتعلق بالحدود، بل تركز على التحولات البنيوية في مفهومها ووظائفها في الفكر والممارسة.

#### خامساً: الدراسات السابقة

تكشف مراجعة الأدبيات أن موضوع الحدود انتقل في العقود الأخيرة من الهامش إلى المركز داخل العلوم السياسية والجغرافيا السياسية والفلسفة الاجتماعية. فقد أسهم جون أغنيو في تفكيك ما سمّاه الفخ الإقليمي، أي الاعتقاد بأن الدولة الإقليمية هي الإطار الوحيد المعقول لتحليل السياسة العالمية، وبذلك فتح الباب أمام إعادة التفكير في الحدود خارج التصور الصلب الذي ورثته الحداثة السياسية الأوروبية (Agnew, 2017). ويمثل هذا التحول خطوة أساسية، لأنه نقل النقاش من سؤال السيادة كامتلاك حصري لمجال ثابت إلى سؤال كيفية ممارسة السلطة على نحو متدرج ومتعدد المستويات. ومن جهة ثانية، ساعدت أعمال هيدز نيكول وإيان تاونسند - غولت، وكذلك كاثلين ستودت وماثيو لونغو، في إظهار أن الحدود لم تفقد مركزيتها في عصر العولمة، وإنما تبدلت أشكال اشتغالها. فقد جرى التأكيد في هذه الأعمال على أن الحدود أصبحت مؤسسات سياسية قائمة بذاتها، وليست مجرد انعكاس لقرارات سيادية عليا أو خطوط صامتة على الخرائط. وتكمن قيمة هذه الأدبيات في أنها نقلت دراسة الحدود من مستوى الوصف الجغرافي إلى مستوى تحليل البنى المؤسسية والخطابات الأمنية والوظائف الاجتماعية للحدود (Gault-Townsend & Nicol, 2005; Staudt, 2017; Longo, 2018).

أما في الحقل الفلسفي، فتبرز مساهمة إتيان باليبار بوصفها الأكثر اتصالاً المباشر بموضوع البحث، لأنه لم يكتف بتحليل الحدود بوصفها أدوات سيادية، بل فهمها بوصفها مؤسسات تنتج اللامساواة في الخبرة السياسية ذاتها. فحدود العالم المعاصر، بحسب باليبار، لا تعمل على الجميع بالطريقة نفسها؛ إذ تعبرها بعض الفئات بسلاسة، بينما تتحول بالنسبة إلى فئات أخرى إلى فضاءات اشتباه وانتظار وإقصاء. وهذا البعد التفاوتي في عمل الحدود هو ما يمنح أطروحته قوة تفسيرية خاصة في دراسة العلاقة بين المواطنة والعولمة والديمقراطية (Balibar, 2002; 2009).

وفي المقابل، أسهمت كتابات ويندي براون وديديه بيغو ودانييلا دافيتي في توضيح كيف تقترب الحدود المعاصرة بالنزعات الأمنية وبأشكال جديدة من الاستثناء وإدارة القلق العام. وتفيد هذه الأدبيات في بيان أن الحدود ليست فقط مواقع للإغلاق أو الفتح، بل آليات لإعادة إنتاج السلطة والشرعية والخوف الجماعي. وعلى الرغم من كثافة هذه الأدبيات الأجنبية، ما تزال الدراسات العربية في هذا الموضوع محدودة نسبياً، أو تكتفي غالباً بالبعد القانوني أو الجيوسياسي دون التوسع في البعد الفلسفي السياسي والاجتماعي. ومن هنا تأتي مساهمة هذا البحث في محاولة الجمع بين الحقول الثلاثة: الجغرافيا السياسية، والعلاقات الدولية، والفلسفة السياسية الاجتماعية.

#### سادساً: خطة البحث

- المبحث الأول: التطور التاريخي لمفهوم الحدود من الدولة الإقليمية إلى العولمة.
- المبحث الثاني: الحدود في الفلسفة السياسية والاجتماعية مع اتخاذ إتيان باليبار مرجعاً مركزياً.
- المبحث الثالث: التحولات المعاصرة في وظائف الحدود، ولا سيما الأمنة والهجرة والمناخ والرقمنة.
- المبحث الرابع: مناقشة تطبيقية مقارنة في ضوء الاتحاد الأوروبي والفضاء المتوسطي والشرق الأوسط.

#### المبحث الأول: التطور التاريخي لمفهوم الحدود في سياق تشكل النظام العالمي

1. الحدود في النموذج الوستفالي: من السيادة المجردة إلى الإقليم المؤطر  
يستحضر كثير من الباحثين معاهدة وستفاليا لسنة 1648 باعتبارها اللحظة الرمزية التي انتقل فيها النظام الأوروبي من تعدد الولاءات الإقطاعية والدينية إلى مبدأ الدولة ذات السيادة الإقليمية. ورغم أن الأدبيات المعاصرة تنبه إلى أن النظام الوستفالي لم ينشأ الدولة الحديثة دفعة واحدة، فإن أهميته تكمن في ترسيخ فكرة أن المجال السياسي المشروع هو مجال محدد بحدود، وأن ممارسة السلطة المشروعة ترتبط بإقليم معلوم وسكان معلومين. ومن ثم صار الحد قريناً للسيادة، وصار رسم الخريطة جزءاً من بناء الدولة نفسها (Agnew, 2003).

في هذا الإطار كان الحد يفهم بوصفه خطأ قانونياً وسياسياً يحدد من يملك سلطة التشريع، ومن يحتكر العنف المشروع داخل الإقليم. غير أن هذا المعنى المبكر لم يكن محايداً أو تقنياً؛ إذ ارتبط ببناء جهاز الدولة الحديثة، وبصعود الجيوش الدائمة، والضرائب، والإدارة

المركزية، وسجل الأحوال الشخصية، وكلها أدوات هدفت إلى جعل السكان قابليين للحكم. ومن هنا فإن الحدود لم تكن خارج عملية صناعة الدولة، بل كانت أحد شروطها المادية والرمزية. وقد بين مالكوم أندرسون أن تشكل الحدود الحديثة ارتبط تاريخياً بمسار تشكل الدولة القومية وليس فقط بتثبيت خطوط على الخرائط (Anderson, 1996).

ومع تطور الفكر السياسي الحديث، ترسخ تصور يرى الدولة بوصفها الكيان الأعلى للتنظيم السياسي، ويربط بين السيادة، والشعب، والإقليم. وهذا ما يسميه جون أغنيو لاحقاً بالفخ الإقليمي، أي الميل إلى افتراض أن السياسة لا تفهم إلا داخل وحدات إقليمية مغلقة ذات حدود واضحة، وأن الداخل يختلف نوعياً عن الخارج (Agnew, 2017). تكمن أهمية هذا المفهوم في أنه يسمح بفهم الحدود ليس كمعطى طبيعي، بل كافتراض نظري وسياسي أنتجته الحداثة الأوروبية ثم عممته على العالم.

## 2. الاستعمار وإعادة رسم الخرائط: الحدود بوصفها أداة للهيمنة

إذا كان النموذج الأوروبي قد أسس لتلازم الحدود والسيادة، فإن التوسع الاستعماري نقل هذا النموذج إلى مناطق عديدة من العالم في صورة غير متكافئة. ففي آسيا وإفريقيا والشرق الأوسط، كثير من الحدود الحديثة لم ينشأ من تراكم اجتماعي داخلي أو من توافق بين الجماعات المحلية، بل من قرارات استعمارية هدفت إلى إدارة المجال، وضبط الموارد، وتسهيل الحكم غير المباشر، وتقاسم النفوذ بين الإمبراطوريات. ولذلك بقيت الحدود في هذه المناطق تحمل آثاراً مزدوجة: فهي حدود قانونية معترف بها دولياً، لكنها في الوقت نفسه حدود مشبعة بتاريخ من الفرض الخارجي والنزاعات المؤجلة.

وقد أنتج هذا المسار الاستعماري مفارقة عميقة. فمن جهة، جرى تعميم الشكل الإقليمي للدولة الحديثة باعتباره الصيغة الوحيدة للانتظام السياسي. ومن جهة أخرى، جرى رسم الحدود على نحو تجاهل في أحيان كثيرة الامتدادات الاجتماعية واللغوية والقبلية والدينية والاقتصادية القائمة. وهذا ما يفسر أن عدداً كبيراً من النزاعات اللاحقة ارتبط لا بالطعن في مبدأ الحدود ذاته، بل بالنزاع على شرعيتها أو عدالتها أو قابليتها للحياة. ومن ثم لا يمكن فهم الحدود في الجنوب العالمي من غير استحضار علاقتها بالبنية الاستعمارية وإعادة إنتاجها في مرحلة ما بعد الاستقلال.

وفي الشرق الأوسط، تبرز هذه المسألة بوضوح في حدود ما بعد انهيار السلطنة العثمانية ونظام الانتداب. فالخرائط التي تكرست في القرن العشرين لم تكن مجرد نتيجة

لانبعاث قوميات محلية، بل كانت أيضا انعكاسا لموازن القوى الدولية. وهكذا أصبحت الحدود في المنطقة خطوطا سياسية شديدة الحساسية، تحمل وظيفة مزدوجة: حماية الدولة من ناحية، وتكثيف هشاشتها من ناحية ثانية، لأنها ظلّت في أحيان كثيرة موضوع شك أو مراجعة أو اختراق من قبل قوى دولية وإقليمية.

### 3. الحرب الباردة ونهاية الثنائية القطبية

خلال الحرب الباردة اكتسبت الحدود معنى استراتيجيا جديدا. فلم تعد مجرد إطار للسيادة الداخلية، بل صارت أيضا خطوط تماس بين معسكرين متواجهين. وبفعل الاستقطاب الأيديولوجي والعسكري، بات الحد في بعض المناطق يمثل خط مواجهة جيوسياسية مباشرة، كما في أوروبا المقسمة، أو في مناطق النزاع بالوكالة في آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية. ومع ذلك، فإن الحرب الباردة لم تلغ المعنى الإقليمي للحدود؛ بل زادت صلابته في كثير من الأحيان من خلال عسكرة المجال وتكثيف الرقابة على الحركة والولاء.

غير أن انهيار الاتحاد السوفياتي ونهاية الثنائية القطبية أديا إلى إطلاق خطاب واسع حول نهاية الحدود وانكماش العالم وانتصار السوق. ففي تسعينيات القرن الماضي رُوّج بقوة لفكرة أن العولمة ستفضي إلى تراجع أهمية الإقليم وتآكل سيادة الدولة لصالح الشركات العابرة للقوميات، والمنظمات الدولية، والشبكات الرقمية. وقد بدت بعض الوقائع داعمة لهذا الطرح، مثل تحرير التجارة، واتساع حركة رؤوس الأموال، وقيام اتحادات إقليمية ذات حدود داخلية أكثر انفتاحا، وعلى رأسها الاتحاد الأوروبي.

لكن التجربة اللاحقة أظهرت أن الحدود لم تختف، بل تغيّرت مبرراتها وأشكالها. فبدل أن تكون حدودا جامدة في كل الحالات، أصبحت حدودا انتقائية تسمح بمرور بعض التدفقات وتمنع بعضها الآخر. وقد أشار هيدر نيكول وإيان تاونسند - غولت إلى أن الحدود في العالم المعولم لم تفقد أهميتها، بل تحولت إلى مؤشرات على عمليات جيوسياسية واقتصادية وثقافية أشمل، بحيث صار تحليل الحدود مدخلا لتحليل التحولات العالمية نفسها (Gault-Townsend & Nicol, 2005).

### 4. من الحدود الخطية إلى الحدود الشبكية

أحد أهم التحولات النظرية في العقود الأخيرة هو الانتقال من فهم الحدود بوصفها خطا فاصلا واحدا إلى فهمها كمنظومة متعددة المواقع. فالحدود اليوم لا تنحصر في السور أو

المعبر أو الشريط الحدودي، بل تمتد إلى أنظمة التأشير، وشركات الطيران، ومنصات مشاركة البيانات، ومراكز الاحتجاز، والموانئ البعيدة، والاتفاقات الثنائية الخاصة بإعادة القبول، بل وحتى إلى التطبيقات الرقمية التي تقيم المخاطر قبل السفر. وهذا ما يجعل الحدود المعاصرة أكثر انتشارا وأقل قابلية للاختزال في صورة جغرافية بسيطة. وعليه، صار الحد المعاصر يعمل بطريقتين متلازمتين: فهو من جهة يواصل أداء وظيفته الرمزية بوصفه علامة على الدولة وسيادتها، ومن جهة ثانية يتحول إلى جهاز للانتقاء والتصنيف وإدارة الحركة. ويترتب على هذا التحول أن السلطة الحدودية لم تعد تمارس في نقطة واحدة، بل عبر سلسلة من المؤسسات والفاعلين العموميين والخواص. ومن هنا يصبح الحد مؤسسة شبكية تتجاوز النموذج الترابي الصلب من غير أن تلغيه نهائيا. وهذه الفكرة ستتضح أكثر حين ننقل إلى الفلسفة السياسية والاجتماعية للحدود.

المبحث الثاني: الحدود في الفلسفة السياسية والاجتماعي الحدود كمؤسسة سياسية



إنتاج الاختلاف والمواطنة

أسهمت أعمال الفيلسوف إتيان بفي إعادة التفكير في الحدود بوصفها مؤسسات سياسية واجتماعية تنتج أنماطا متباينة من المواطنة، والعبور، والانتماء. المصدر: ويكيبيديا كومنز، ملف «Etienne Balibar - Tomislav Me» تصوير jpg، 2011، بتريخيص 2.0 BY CC dak

يعد الفيلسوف الفرنسي إتيان باليبار من أكثر الفيلسوف الفرنسي إتيان باليبار المفكرين اتصالا المباشر بموضوع الحدود في الفلسفة السياسية المعاصرة، ولذلك جرى اتخاذه مرجعا نظريا مركزيا في هذه الدراسة. وتكمن قيمة باليبار في أنه لا يتعامل مع الحدود بوصفها تفصيلا جغرافيا في هامش النظرية السياسية، بل بوصفها موقعا كاشفا لأزمة الديمقراطية الحديثة، ولمفارقات المواطنة، ولإعادة تشكل السيادة في عالم معولم. ففي مقالته الشهيرة الحدود العالمية، الحدود السياسية يؤكد أن الحدود ليست معطى طبيعيا أو محايدا، بل هي مؤسسات سياسية تنتج آثارا غير متساوية على الأفراد بحسب مواقعهم وجنسياتهم وأجسادهم وانتماءاتهم (Balibar, 2002).

يذهب باليبار إلى أن الحد لا يعمل بالطريقة نفسها على الجميع. فهناك من يعبر الحدود

بسهولة شبه تلقائية بفضل جواز السفر، أو الموقع الطبقي، أو الامتياز الجيوسياسي، وهناك من تتحول الحدود بالنسبة إليه إلى اختبار يومي للهوية والخضوع والانتظار والاشتباة. ومن ثم فإن الحدود لا تفصل بين فضائين فقط، بل توزع الحقوق والفرص والمخاطر بصورة متفاوتة. بهذا المعنى تصبح الحدود مؤسسة لإنتاج الاختلاف السياسي والاجتماعي، لا مجرد خط للتقسيم المكاني.

كما يلفت باليبار إلى أن الحدود لم تعد موجودة فقط عند الحدود. فعمليات التحقق، والتمييز، والمراقبة، وتوزيع الشرعية على الحركة، باتت تتسلل إلى المدن والموانئ والمطارات وأماكن العمل ومخيمات اللجوء وحتى إلى الفضاءات الرقمية. ولهذا يمكن القول إن ما يسميه بعض الباحثين توطين الحدود داخل المجتمع يجد عند باليبار أساسا فلسفيا متينا. فالمواطنة نفسها لا تعود وضعا قانونيا مجردا، بل تصبح تجربة تعاش على نحو متفاوت تبعا لقرب الفرد أو بعده من آليات الفرز الحدودي.

وفي مقالته أوروبا بوصفها حدودا يوسع باليبار هذا التحليل ليربط بين الحدود والمواطنة والديمقراطية في الفضاء الأوروبي. فهو يرى أن أوروبا ليست كيانا تجاوز الحدود ببساطة، بل فضاء أعاد إنتاجها بصورة أكثر تعقيدا: إذ أزيلت بعض الحدود الداخلية، في حين جرى تشديد الحدود الخارجية، كما ظهرت حدود اجتماعية وثقافية جديدة داخل المجتمعات الأوروبية نفسها. ومن ثم فإن الحديث عن ما بعد القومية لا يعني اختفاء الحدود، بل تحولها إلى بنية أكثر انتشارا وتداخلا (Balibar, 2009).

وتتبع أهمية باليبار لهذه الدراسة من كونه يقدم مفهوما للحدود يجمع بين السياسي والاجتماعي والأخلاقي. فالحدود عنده ليست فقط أدوات للدولة، بل هي أيضا مواقع يتحدد فيها معنى المساواة وعدم المساواة، والحق في الحركة، والحق في الاعتراف، والحق في الانتماء. ومن هنا يمكن النظر إلى الحدود بوصفها اختبارا لنوعية النظام العالمي نفسه: هل هو نظام يوسع إمكانات المواطنة والعدالة، أم نظام يعيد توزيع الامتياز والاستبعاد على نطاق كوني؟

ومن الناحية الاجتماعية، تكتسب أطروحة باليبار قيمة إضافية لأنها تبين أن الحدود لا تُنتج فقط عبر القوانين، بل عبر تمثيلات جماعية للهوية والغيرية والخوف. فالحد هنا ليس قرارا تقنيا تتخذه الدولة فحسب، بل هو أيضا انعكاس لحدود رمزية وثقافية ترسمها المجتمعات داخل ذاتها تجاه من تعتبرهم غرباء أو أقل استحقاقا للانتماء. ولهذا فإن دراسة الحدود عند باليبار تفتح البحث على سوسيولوجيا التمييز، وعلى فلسفة المواطنة

التفاوتية، وعلى السؤال عن إمكان قيام شكل من المواطنة عبر الوطنية يتجاوز الحصر القومي من دون إلغاء الواقع المؤسسي للدولة.

## 2. ميشيل فوكو: الحدود بوصفها جهازا للأمن والحكومية

إذا كان باليبار يضعنا أمام الحدود بوصفها مؤسسة تنتج الاختلاف السياسي والاجتماعي، فإن ميشيل فوكو يوفر لنا الأدوات المفهومية اللازمة لفهم كيف تعمل هذه المؤسسة. ففي محاضراته عن الأمن، الإقليم، السكان يبين فوكو أن السلطة الحديثة لم تعد تقتصر على السيادة بمعناها القديم، أي الأمر والمنع والعقاب، بل صارت تمارس أيضا عبر الحكومية وتقنيات إدارة السكان وتوجيه التدفقات وتقليل المخاطر (Foucault, 2007).

ومن هذا المنظور لا تفهم الحدود الحديثة باعتبارها أجهزة منع مطلق، بل باعتبارها آليات لتنظيم الحركة. فالسلطة الأمنية لا تستهدف وقف الجريان دائما، وإنما إدارة الجريان وتمييز النافع من الخطر، والشرعي من غير الشرعي، والمقبول من المرفوض. ولهذا فإن الحدود في العصر الحديث تميل إلى العمل بمنطق المرشح أو الفلتر أكثر من منطق الحاجز الصلب. فهي تسمح بالحركة الاقتصادية والسياحية المربحة، لكنها تشدد على الحركة التي تصنفها خطرا أمنيا أو عبئا اجتماعيا أو تهديدا ديموغرافيا.

كما تساعدنا قراءة فوكو على فهم العلاقة بين الحدود والبيانات. فإدارة السكان تقتضي معرفة السكان، ومعرفة السكان تقتضي إحصاءهم وتصنيفهم ومتابعتهم وربطهم بقواعد معطيات متزايدة الاتساع. ومن هنا فإن القياسات الحيوية، وقوائم المراقبة، وتحليل المخاطر المسبق، والتشبيك بين قواعد البيانات الشرطة والهجرية، ليست مجرد تحسينات تقنية، بل هي تجليات معاصرة للحكومية الأمنية. وعلى هذا الأساس تصبح الحدود الذكية امتدادا لتاريخ أطول من تحويل السكان والحركة إلى موضوع للمعرفة والضبط.

إن القيمة الفلسفية لفوكو في موضوع الحدود تكمن في إزاحته النقاش من سؤال أين يقع الحد؟ إلى سؤال كيف يعمل الحد؟ وبهذا التحول تتغير طبيعة التحليل: فبدل الاكتفاء بوصف المعابر والأسوار، نبحث في التقنيات والمؤسسات والخطابات التي تجعل بعض الأجساد مرئية ومربية، وتجعل بعض الحركات شرعية وبعضها الآخر موضع توقيف أو استثناء. وهذا ما يفسر الدور المتعاضم للمطارات والموانئ ومراكز الاحتجاز ووكالات الهجرة في إعادة تعريف المجال السياسي نفسه.

ومن الناحية الاجتماعية أيضا، يتيح فوكو فهم الحدود باعتبارها جزءا من تكنولوجيا أوسع لتشكيل الذات. فالمسافر، والمهاجر، وطالب اللجوء، وحتى المواطن، يتعلمون التكيف

مع معايير الرؤية الأمنية والبيروقراطية: أي نوع من الوثائق يجب حمله، وأي سلوك يعد مشبوهاً، وأي سرديّة ينبغي تقديمها عند المعبر. وهكذا تصبح الحدود مدرسة صامتة لإنتاج الطاعة الإجرائية ولتطبيع المراقبة في الحياة اليومية.

### 3. جورجيو أغامبن: الحدود وحالة الاستثناء

يوفر جورجيو أغامبن بعداً مكملاً للتحليل حين يربط بين السيادة وحالة الاستثناء. ففي كتابه الإنسان المقدس وحالة الاستثناء يؤكد أن السلطة السيادية الحديثة لا تعرف فقط بقدرتها على تطبيق القانون، بل أيضاً بقدرتها على تعليقه مؤقتاً باسم الضرورة، بحيث تصبح الاستثناءات قابلة للتحويل إلى نمط حكم دائم (Agamben, 1998; 2005).

وعند إسقاط هذا التصور على الحدود، يتبين أن الفضاء الحدودي غالباً ما يكون الفضاء الأمثل لتمدد الاستثناء. فالمهاجر أو طالب اللجوء أو عديم الوثائق قد يوجد في وضع لا تطبق عليه فيه الضمانات كاملة، ولا يخرج منه بالكامل إلى خارج القانون. وهكذا تتحول المخيمات، ومناطق العبور، ومراكز الاحتجاز، وبعض الترتيبات الخاصة بالإعادة والاعتراض البحري، إلى فضاءات رمادية تتوتر فيها العلاقة بين الحق والسلطة. وقد بينت دراسات قانونية وسياسية لاحقة أن مقارنة أغامبن تساعد على تفسير كثير من السياسات الأوروبية في إدارة أزمة الهجرة واللجوء، خصوصاً عندما يجري تبرير الإجراءات الاستثنائية باسم الطوارئ أو حماية الحدود (Davitti, 2018).

لا يعني ذلك أن كل حدود هي بالضرورة فضاء اعتقال أو تعليق كامل للحقوق، لكن أطروحة أغامبن تكشف أن الحدود المعاصرة تحمل قابلية بنوية لتحويل بعض الفئات إلى حياة معزاة من الحماية الكاملة. وتزداد هذه القابلية حين تقترن الحدود بخطابات الخطر الوجودي أو الغزو الديموغرافي أو الحرب على الإرهاب. عندها يصبح الحد مجالاً تتراجع فيه الحساسية الديمقراطية لصالح منطق الضرورة والقرار السيادي.

ومن ثم فإن الاستفادة من أغامبن في هذا البحث لا تقوم على تعميم صورة قاتمة موحدة عن الحدود، بل على إبراز كيف يمكن أن تتحول الحدود، في لحظات معينة، إلى مسارح لتعليق المعيارية القانونية والأخلاقية. وهذه الفكرة تساعدنا على فهم أن الحدود ليست فقط مواقع لإدارة الحركة، بل مواقع يكشف فيها النظام السياسي عن حده الأخلاقي أيضاً.

### 4. حنة أرندت: انعدام الجنسية والحق في أن تكون للإنسان حقوق

تقدم حنة أرندت إضافة نوعية لهذا النقاش من خلال تحليلها لوضع عديمي الجنسية والملاجئين في كتابها أصول الشمولية. فقد رأت أن أخطر ما يصيب الإنسان عندما يفقد

انتماءه السياسي ليس فقط فقدان بعض الحقوق الجزئية، بل فقدان الإطار السياسي الذي يجعل لهذه الحقوق معنى وفعالية. ومن هنا جاءت فكرتها الشهيرة عن الحق في أن تكون للإنسان حقوق، أي الحق في الانتماء إلى عالم سياسي يجعل الرأي فعّالا والفعل ذا أثر (Arendt, 1973).

وتتصل هذه الفكرة بموضوع الحدود اتصالا مباشرا، لأن الحدود هي الآلية التي تحدد عمليا من يظل داخل الجماعة السياسية ومن يلقي خارجها أو على هامشها. فحين يُحرّم الإنسان من النفاذ إلى فضاء سياسي يعترف به، أو يبقى معلقا بين أنظمة قانونية مترددة في استقباله، يصبح وجوده مكشوفاً لهشاشة الحقوق المجردة غير المسنودة بعضوية سياسية. ولهذا فإن آرنندت تضيف إلى باليبار وفوكو وأغامبن بعدا معياريا بالغ الأهمية: فهي تذكرنا بأن أزمة الحدود ليست فقط أزمة سيادة وأمن، بل أزمة انتماء واعتراف وفاعلية سياسية.

ومن الناحية الاجتماعية، تسمح آرنندت بفهم أن اللاجئ أو عديم الجنسية ليس مجرد شخص يتحرك عبر الحدود، بل شخص يكشف حدود النظام الدولي نفسه. فادعاء العالمية في حقوق الإنسان يصطدم، عند الحدود، بواقع أن التمتع العملي بالحقوق يظل مرتبطا إلى حد بعيد بالانتماء إلى دولة أو إلى جماعة سياسية معترف بها. ومن هنا تكتسب مسألة اللجوء والجنسية والعبور بعدا فلسفيا يتجاوز الإدارة اليومية للحدود إلى السؤال عن من هو الإنسان الذي يُعترف له فعلا بصفة صاحب حق.

وعليه، فإن إدماج آرنندت في هذا البحث يوسّع الإطار الفلسفي من تحليل السلطة إلى تحليل الشرعية الأخلاقية للحدود. فالحد العادل ليس فقط الحد الذي يضبط الحركة بكفاءة، بل الحد الذي لا يحول الإنسان إلى كائن فائض عن العالم السياسي. وبهذا تصبح العدالة الحدودية متصلة عضويا بمسألة الحق في الانتماء والحق في الظهور داخل فضاء عمومي معترف به.

##### 5. تركيب فلسفي: من الخط الجغرافي إلى المؤسسة السياسية والاجتماعية

إذا جمعنا بين باليبار وفوكو وأغامبن وآرنندت أمكن الوصول إلى تصور أكثر تركيبا للحدود. فباليبار يبين أن الحدود تنتج اختلافا سياسيا واجتماعيا في الحقوق والانتماء؛ وفوكو يشرح كيف تعمل الحدود بوصفها أجهزة أمنية لإدارة السكان والتدفقات؛ وأغامبن يكشف قابليتها للتحويل إلى فضاءات استثناء تتراجع فيها الضمانات القانونية. هكذا تغدو الحدود مؤسسة متعددة الأبعاد: إنها تحدد من ينتمي ومن يمر ومن ينتظر ومن يطرد

ومن يستثنى. ومن هنا تتضح الصلة المباشرة بين موضوع الحدود والفلسفة السياسية والاجتماعية: فالحدود ليست هامشا للنظام السياسي، بل واحدة من أكثر نقاطه كشفا لطبيعة السلطة والعدالة فيه.

وبهذا المعنى، فإن إعادة التفكير في الحدود لا تستهدف فقط فهم تحولات الجغرافيا السياسية، بل أيضا مراجعة مفاهيم الدولة والمواطنة والحرية والمساواة. فحين تكون الحدود موزعة في المجتمع، ومشفوعة بخوارزميات وتقييمات مسبقة للمخاطر، ومقترنة بإمكانية الاستثناء، فإن السؤال عن الحدود يصبح سؤالاً عن مستقبل الديمقراطية نفسها، لا عن وظيفة المعابر وحدها.

### المبحث الثالث: التحولات المعاصرة في وظائف الحدود

#### 1. العولمة والسيادة: هل تراجعت الحدود أم أعيد تشكيلها؟

سادت في مرحلة ما بعد الحرب الباردة أدبيات رأت أن العولمة ستفضي تدريجياً إلى إضعاف الدولة الوطنية وتجاوز الحدود الصلبة. غير أن هذا التصور، على الرغم من استناده إلى وقائع فعلية مثل تدويل الإنتاج وتحرير التجارة واتساع الاتصالات، أغفل أن الدولة لم تتسحب من المجال الحدودي، بل أعادت تنظيمه. فالعولمة لم تلغ الحاجة إلى الحدود؛ بل زادت الحاجة إلى إدارتها بطريقة أكثر انتقائية ومرونة. ويظهر ذلك بوضوح في أن الدول منفتحة جدا على حركة الرساميل والسلع والبيانات في حدود معينة، لكنها شديدة الحساسية تجاه حركة البشر عندما تُقرأ من زاوية الأمن أو الهوية أو سوق العمل (Agnew, 2017).

وهنا يكتسب تحليل ويندي براون قيمة خاصة. فهي ترى أن تكاثر الجدران والسياسات الحدودية المتشددة في زمن العولمة لا يعبر عن سيادة قوية مطمئنة، بل عن سيادة قلقة تشعر بتآكل قدرتها على الضبط في عالم متشابك، فتحاول تعويض ذلك بإظهار مادي ورمزي للحدود (Brown, 2010). وتدل هذه الأطروحة على أن الحد المعاصر يقوم بوظيفة نفسية - سياسية أيضا: فهو يطمئن الجماعة الوطنية ويعيد تمثيل الدولة بوصفها حارسا، حتى حين تكون كثير من مصادر التهديد والتحكم واقعة خارج سيطرة الدولة المباشرة.

إن العولمة، إذن، لم تؤد إلى اختفاء الحدود، بل إلى إعادة توزيع وظائفها. فالحدود ما زالت تخدم إعلان السيادة، لكنها باتت تخدم كذلك التنافس الاقتصادي، والاصطفاء المهاري، وإدارة المخاطر، والسيطرة على التنقل. ولهذا فمن الأدق الحديث عن تحول

الحدود من حدود ترابية صرفة إلى حدود وظيفية مركبة، تجمع بين الانفتاح والانتقاء، وبين الإتاحة والمنع، وبين الاقتصاد والأمن.

ومن المهم هنا التمييز بين نوعين من العولمة: عولمة وظيفية تتمثل في تسارع تدفقات رأس المال والتجارة والبيانات، وعولمة معيارية أو قيمية كان يفترض أن ترافقها توسيع لحقوق الإنسان والعدالة العابرة للحدود. وقد تحقق النوع الأول بدرجة أكبر بكثير من الثاني، الأمر الذي جعل الحدود تنفتح أمام بعض التدفقات أكثر مما تنفتح أمام البشر. وهذا الاختلال أحد مفاتيح فهم التناقض البنيوي في النظام العالمي المعاصر.

## 2. الأمانة والهجرة القسرية

من أبرز العوامل التي أعادت تشكيل الحدود في العقود الأخيرة صعود ما يسمى بأمانة الهجرة. فبدل التعامل مع الهجرة بوصفها ظاهرة اجتماعية واقتصادية وإنسانية في المقام الأول، جرى إدراجها بصورة متزايدة ضمن حقول الأمن والشرطة وإدارة المخاطر. وقد أوضح ديدويه بيغو أن هذا التحول لم ينتج فقط من خطابات سياسية طارئة، بل من تشكل حقل مهني أمني يضم الشرطة وحرس الحدود وأجهزة الاستخبارات وخبراء البيانات والفاعلين الإداريين الذين أعادوا تعريف التنقل البشري في لغة الخطر والاشتباه (Bigo, 2002).

ويتبدى أثر هذا التحول في توسع ممارسات مثل الاعتراض البحري، والرقابة المسبقة على شركات النقل، وقوائم المنع من السفر، ومراكز الاحتجاز، وسياسات إعادة القبول، فضلا عن استخدام أدوات الفرز البيومترى والخوارزمي. وفي هذا السياق، يصبح الحد جهازا يستبق الحركة ويؤطرها قبل وقوعها، لا مجرد نقطة للتحقق بعد الوصول. كما تبرز هنا مفارقة أخلاقية وسياسية: ففي الوقت الذي تتعاضد فيه الحاجة الإنسانية إلى الحماية جراء النزاعات والانهيئات البيئية، تتزايد قابلية الدول إلى قراءة هذه الحركات من منظور أمني بالدرجة الأولى.

وتكفي الإشارة إلى أن عدد المهجرين قسرا عالميا بلغ 123.2 مليون شخص مع نهاية عام 2024 لإدراك أن الحدود تحولت إلى مركز متقدم في إدارة الأزمات الإنسانية الدولية (UNHCR, 2025). فهذا الرقم لا يدل فقط على اتساع النزاعات، بل يدل أيضا على أن مسألة الدخول، والعبور، وطلب الحماية، وإعادة التوطين، ورفض الدخول، باتت جميعها مسائل حديّة بامتياز. ومن هنا فإن الحدود لم تعد تفصل بين الدول فحسب، بل تفصل كذلك بين أشكال متفاوتة من الإنسانية القانونية: من يحظى بالحماية، ومن

يبقى معلقا في الانتظار، ومن يعاد، ومن يُصنف تهديدا. وتساعد المقاربة الفلسفية هنا على فهم أن الأمانة لا تغير السياسات فقط، بل تغير التصور الاجتماعي للآخر. فالحدود الأمنية تنتج سردية تجعل المهاجر أو اللاجئ موضوعا للمراقبة قبل أن يكون شخصا ذا حق. وبهذا تتقاطع السياسة العامة مع الفلسفة الاجتماعية للهوية والخوف والانتماء. ومن ثم فإن تحليل الهجرة المعاصرة دون تحليل للحدود بوصفها مؤسسات للفرز الرمزي والمادي يبقى تحليلا ناقصا.

### 3. التغير المناخي والموارد والطاقة

لم تعد الحدود اليوم مرتبطة بالنزاع العسكري أو الهجرة وحدهما؛ بل أصبحت كذلك مرتبطة على نحو متزايد بالتغير المناخي وبالضغوط الواقعة على الموارد والطاقة. فقد أكد تقرير الهيئة الحكومية الدولية المعنية بتغير المناخ أن التغير المناخي يفاقم مواطن الهشاشة البشرية، ويؤثر في أنماط النزوح والتنقل من خلال موجات الحر، والجفاف، والفيضانات، وارتفاع مستوى سطح البحر، وتدهور الأمن الغذائي والمائي (IPCC, 2023). وعلى هذا الأساس لم يعد السؤال الحدودي مقتصرًا على من يعبر الآن، بل

امتد إلى من سيضطر إلى العبور مستقبلا تحت ضغط التغيرات البيئية.

وتبرز في هذا السياق إشكالية بالغة الأهمية تتعلق بما إذا كان القانون الدولي الراهن قادرا على استيعاب من يتحركون تحت ضغط المناخ. فالفئات المتأثرة بالكوارث والضغوط البيئية لا تنطبق عليها دائما التعريفات القانونية التقليدية للاجئ، رغم أن أوضاعها قد تكون قسرية في الواقع. وهنا تتقاطع الحدود مع سؤال العدالة المناخية: فالكثير من المجتمعات الأكثر تعرضا للخطر هي الأقل مساهمة تاريخيا في الانبعاثات، لكنها تواجه أشد القيود حين تحاول النجاة أو التكيف.

أما على صعيد الطاقة، فإن خطوط الأنابيب، وممرات النقل، والمضائق البحرية، ومنشآت البنية التحتية العابرة للحدود، جعلت من الحدود فضاءات استراتيجية لإدارة الأمن الطاقوي. فالصراع على خطوط الإمداد لا يتعلق فقط بالاقتصاد، بل يعيد أيضا تشكيل خرائط النفوذ والسيادة. وهذا يعني أن الحد المعاصر لا يدار فقط باعتباره حاجزا ضد العبور غير النظامي، بل باعتباره نقطة حساسة في شبكات الاعتماد المتبادل العالمية.

وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح في الحدود الشاطئية والمضائق الاستراتيجية، إذ لا تُفهم هذه الفضاءات بوصفها معابر طبيعية فحسب، بل بوصفها نقاطا تتقاطع فيها السيادة الساحلية مع حرية الملاحة الدولية ومع حسابات الأمن الطاقوي والعسكري. ولذلك فإن

القانون الدولي للبحار يعكس توترا بنيويا بين اختصاص الدول المشاطئة وبين حق المرور في المضائق المستخدمة للملاحة الدولية، بما يمنع اختزال المضيق في مجرد امتداد إقليمي مغلق.<sup>1</sup>

ويعد مضيق هرمز مثالا مكثفا لهذا التحول، لأنه لا يمثل فاصلا بحريا بين ضفتين متقابلتين فحسب، بل يشكل عقدة جيواستراتيجية في بنية الخليج والمحيط الهندي، حيث تتداخل فيه حركة التجارة والطاقة مع حسابات الردع والتنافس البحري الدولي. أما باب المنذب، بوصفه البوابة الجنوبية للبحر الأحمر، فيكشف أن الحدود البحرية قد تتحول إلى مركز لإعادة تنظيم المجال الإقليمي بأكمله، نظرا إلى ما يربط هذا الممر بين البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وما ينتجه ذلك من تداخل بين الأمن الإقليمي وسلاسل الإمداد العالمية. ومن ثم فإن المضائق الشاطئية تؤكد أن الحدود المعاصرة لا تعمل فقط بمنطق الفصل، بل أيضا بمنطق التحكم الانتقائي في التدفقات والممرات الحساسة، وهو ما يوسع مفهوم الحدود من الخط الترابي إلى الفضاء الشبكي البحري.<sup>2</sup>

#### 4. الحدود الذكية والرقابة الرقمية

أفضت الثورة الرقمية إلى تحول نوعي في أدوات إدارة الحدود. فبدل الاقتصار على الجواز المختوم، والتفتيش اليدوي، والسجلات المحلية، انتقلت دول كثيرة إلى أنظمة مترابطة تعتمد القياسات الحيوية، وتحليل البيانات، وقوائم التنبيه، والتقييم المسبق للمخاطر. وقد أوضحت المفوضية الأوروبية أن نظام الدخول والخروج الأوروبي EES يسجل اسم المسافرين، وبيانات وثيقة السفر، والبيانات الحيوية المتمثلة ببصمات الأصابع والصور الوجيهة، إلى جانب تاريخ ومكان الدخول والخروج وقرارات رفض الدخول بالنسبة إلى غير مواطني الاتحاد الأوروبي المقيمين إقامة قصيرة (Commission European, 2026: d.n).

تكشف هذه الأنظمة أن الحد لم يعد حدثا أنيا يقع لحظة العبور، بل أصبح سلسلة زمنية وتقنية تبدأ قبل الوصول من خلال قواعد التأشيرات وبيانات الحجز والمعايير الخوارزمية، وتستمر بعد العبور عبر تتبع مدة الإقامة وملاءمة الوضع القانوني. وبهذا المعنى تتكامل الحدود الذكية مع منطق فوكوي يقوم على المعرفة المسبقة والتصنيف والإدارة الوقائية للسكان.

لكن هذه الرقمنة تثير أسئلة عميقة تتجاوز الكفاءة التقنية. فهي تتعلق بمدى شفافية

الخوارزميات، وبإمكان حصول التمييز، وبتحديد استخدام البيانات الشخصية، وبالعلاقة بين الأمن والخصوصية، وبإمكانية الطعن في القرارات الآلية أو شبه الآلية. كما أن الحدود الذكية قد تزيد من تباين الخبرة الحدية بين الأفراد: فمن يملك وثائق قوية وتاريخ سفر مريحا يعبر بسرعة، بينما يجد آخرون أنفسهم موضوعين في مسارات فرز أكثر تشددا. وبذلك تعيد التقنية إنتاج اللامساواة بدلا من إغائها. وتبعاً لذلك، فإن الرقمنة لا تبطل التحليل الفلسفي للحدود، بل تجعل الحاجة إليه أشد. فحين تنتقل السلطة من الحاجز المادي إلى المنصة الرقمية، لا تختفي مسألة السيادة والفرز والعدالة، وإنما تتخذ شكلا أكثر تعقيدا وأقل ظهورا. ومن ثم فإن دراسة الحدود الذكية تقتضي الجمع بين التحليل التقني والتحليل السياسي والأخلاقي في آن واحد.

#### المبحث الرابع: مناقشة تطبيقية مقارنة

##### 1. الاتحاد الأوروبي: إزالة بعض الحدود وإعادة بناء حدود أخرى

يقدم الاتحاد الأوروبي حالة نموذجية لتبيان أن إزالة الحدود لا تعني بالضرورة تراجع المنطق الحدودي. فمن الناحية الداخلية، سمحت ترتيبات شنغن بحرية حركة غير مسبوقة بين عدد كبير من الدول الأوروبية. غير أن هذا الانفتاح الداخلي ترافق مع بناء أكثر تعقيدا للحدود الخارجية، سواء عبر الوكالات المشتركة، أو الأنظمة الرقمية، أو الاتفاقات مع الدول المجاورة، أو سياسات الاعتراض والإعادة. وقد أصبح الفضاء الأوروبي، وفقا لتعبير باليبار، فضاء حدوديا بامتياز: فحدوده لا تنحصر في أطرافه الجغرافية، بل تمتد إلى داخله وخارجه في آن (Balibar, 2009).

ويظهر هذا التناقض بصورة أوضح حين نقارن بين سهولة الحركة داخل الاتحاد لمواطنيه أو لبعض الزائرين، وبين صعوبة الوصول بالنسبة لطالبي اللجوء والمهاجرين غير النظاميين. فالإتحاد الأوروبي ليس فضاء بلا حدود، بل فضاء يعيد توزيع الحدود على نحو مختلف. ومن هنا فإن التجربة الأوروبية، بدل أن تكون برهانا على نهاية الحدود، تكشف كيف يمكن لإتحاد فوق قومي أن يضاعف تعقيدها، وأن ينقلها من النموذج الخطي إلى النموذج الشبكي المترابط بين المعابر والقواعد الرقمية والاتفاقات الخارجية.

##### 2. الفضاء المتوسطي: الحدود بوصفها منطقة فرز إنساني وأمني

يشكل البحر المتوسط مثالا دالا على تحول الحدود إلى مساحة فرز إنساني وأمني في آن واحد. فالمتوسط ليس مجرد حيز مائي بين قارات، بل هو نظام حدودي تتحرك

داخله سفن الإنقاذ، وخضر السواحل، وشبكات التهريب، والمنظمات الإنسانية، والاتفاقات الثنائية، والآليات القضائية، والخطابات السياسية المتعارضة حول الحماية والسيادة والأمن. وقد كشفت السنوات الأخيرة أن الحدود البحرية يمكن أن تكون أكثر كثافة من الحدود البرية من حيث المراقبة والاعتراض والملاحقة القانونية والرمزية. وفي هذا الفضاء تحديدا تبدو أطروحة أغامبن حول الاستثناء أكثر قابلية للفهم. فثمة أشخاص يتم إنقاذهم من الفرق لكنهم يظلون عالقين قانونيا وسياسيا، أو يعادون إلى أماكن لا تتوافر فيها الضمانات الكافية، أو يودعون في مراكز احتجاز انتظرية. كما أن المقاربة الإنسانية نفسها قد تصبح أحيانا جزءا من إدارة الخطر لا بديلا عنها. ومن هنا فإن المتوسط لا يكشف فقط مأساة الهجرة المعاصرة، بل يكشف أيضا كيف أصبحت الحدود تحدد القيمة العملية للحق في الحياة واللجوء والتنقل.

### 3. الشرق الأوسط: الحدود بين الإرث الاستعماري والاختراق الإقليمي

في الشرق الأوسط تتخذ الحدود دلالة مركبة تتجاوز ما نجده في التجربة الأوروبية. فهي من جهة تحمل آثارا قوية لترسيمات استعمارية ولتسويات ما بعد الحرب العالمية الأولى. ومن جهة ثانية، تتعرض بصورة مستمرة لضغوط الحروب الأهلية، والتدخلات الإقليمية، والاقتصادات الحدودية غير الرسمية، وحركات النزوح الجماعي. ولذلك فإن الحدود في المنطقة تبدو في بعض السياقات شديدة الصلابة قانونيا ورمزيا، لكنها في الممارسة عرضة للاختراق وإعادة التفاوض وإعادة التوظيف.

وتكشف حالات العراق وسوريا ولبنان وفلسطين واليمن وليبيا بدرجات متفاوتة أن الحدود ليست مجرد خطوط رسمية، بل هي أيضا مجالات صراع على الشرعية والهوية والموارد والأمن. كما أن النزوح الواسع في المنطقة أظهر أن قدرة الدولة على ضبط حدودها تتفاوت بشدة بحسب تماسكها المؤسسي وبحسب موقعها في توازنات القوى الدولية والإقليمية. ومن هنا فإن دراسة الحدود في الشرق الأوسط توضح أن السيادة لا تمارس بصورة متجانسة داخل جميع الدول، وأن الحدود قد تكون في آن واحد عنوانا للدولة، ومؤشرا على هشاشتها.

### 4. نحو مفهوم جديد للسيادة والحدود

تقضي هذه المقارنات إلى نتيجة مفادها أن السيادة المعاصرة لا تمارس فقط داخل الإقليم، بل عبر إدارة النفاذ إلى الإقليم، وعبر التحكم بالشبكات المحيطة به، وعبر تصدير بعض الوظائف الحدودية إلى الخارج. فالدولة التي تقعد اتفاقات مع دول عبور،

أو تستخدم منصات رقمية لتقييم المخاطر قبل السفر، أو تعتمد شركات خاصة وخبراء بيانات في الضبط الحدودي، تمارس شكلا من السيادة الشبكية لا يمكن فهمه بمفاهيم القرن التاسع عشر وحدها.

غير أن هذا لا يعني زوال السيادة أو حلول نظام ما بعد دولتي كامل. بل الأدق أن السيادة أعادت ترتيب أدواتها، وأصبحت أقل ارتباطا بصورة السور الثابت، وأكثر ارتباطا بالقدرة على الاختيار والفرز والتتبع والتفاوض على الحركة. وبهذا المعنى فإن الحدود ما تزال مؤشرا ممتازا لقياس موقع الدولة في النظام العالمي: فكلما زادت قدرتها على التحكم الانتقائي في التدفقات وعلى فرض معاييرها خارج حدودها المباشرة، بدا أن سيادتها تعمل بمنطق مركب يتجاوز الإقليم من دون أن يستغني عنه.

#### مناقشة نقدية

تكشف القراءة السابقة أن الخلل في كثير من النقاشات الشائعة حول الحدود يكمن في افتراض ثنائية حادة بين عالمين: عالم الدولة الصلبة القديمة، وعالم العولمة السائلة التي لا تعترف بالحدود. غير أن الوقائع والمقاربات الفلسفية والسياسية المدروسة هنا تقود إلى استنتاج مختلف: الحدود لم تختف ولم تبق كما كانت، بل تحولت إلى بنى أكثر تعقيدا وانتشارا. فهي ما زالت تفصل، ولكنها أيضا تصنف وتنتقي وتراقب وتعلق الحقوق أحيانا وتنتج الامتيازات أحيانا أخرى.

ومن هنا تبدو الحاجة ملحة إلى تجاوز التصورات القانونية والإدارية الضيقة نحو فلسفة سياسية واجتماعية للحدود. فالسؤال لم يعد فقط: أين ترسم الحدود؟ بل: من يرسمها؟ ولصالح من؟ وبأي معايير؟ وعلى حساب أي حقوق؟ وما العلاقة بين شرعية الحماية وشرعية المنع؟ وكيف نوفق بين مطلب السيادة ومطلب الكرامة الإنسانية في عالم تتسع فيه الحركات القسرية وتتعاظم فيه المخاطر البيئية والتقنية؟

كما يتضح أن الحدود صارت تعكس تفاوتنا عالميا في قيمة الحركة. فحرية التنقل ليست موزعة على البشر بالتساوي، بل تتحكم فيها تراتبية الجوازات، والبنى الاستعمارية السابقة، واللامساواة الاقتصادية، والتصنيفات الأمنية والعرقية والثقافية. وبهذا المعنى تصح ملاحظة باليبار بأن الحدود مؤسسات لاختبار الديمقراطية نفسها، لأنها تكشف إلى أي مدى تقبل الأنظمة السياسية توسيع دائرة الحقوق، أو إلى أي مدى تعيد تنظيمها بمنطق الامتياز والاستبعاد.

أما على الصعيد المنهجي، فإن دراسة الحدود تقتضي جهدا عابرا للتخصصات. فلا يمكن

للجغرافيا وحدها أن تفسرها، ولا للفلسفة وحدها، ولا للقانون وحده. فالحدود المعاصرة تقع عند تقاطع الخرائط، والبيانات، والشرعية، والمخيل الاجتماعي، والتقنيات الأمنية، والاقتصاد السياسي للهجرة والموارد. ولهذا فإن أي مشروع بحثي جاد حولها ينبغي أن يظل مفتوحا على المقاربة البين - تخصصية، من غير أن يفقد صرامته المفهومية.

### نتائج البحث

- النتيجة الأولى: الحدود لم تعد تفهم بوصفها خطوطا جامدة فقط، بل بوصفها مؤسسات متعددة المواقع تعمل عبر القانون والتقنية والخطاب الأمني والمخيل الاجتماعي.
- النتيجة الثانية: الفلسفة السياسية والاجتماعية، ولا سيما عند إتيان باليبار، تكشف أن الحدود تنتج لا مساواة فعلية في خبرة المواطنة والحركة والحق في الحماية.
- النتيجة الثالثة: أدت الهجرة القسرية والتغيرات المناخية والحدود الذكية إلى تعميق مركزية الحدود في النظام العالمي بدل إضعافها.
- النتيجة الرابعة: السيادة المعاصرة لا تمارس فقط من خلال التحكم في الإقليم، بل أيضا من خلال التحكم في إمكان الوصول إلى الإقليم وفي شروط العبور داخله وعبره. توصيات منهجية وسياسية

إن النتائج المتوصل إليها في هذا البحث تسمح بصياغة جملة من التوصيات ذات الطابع المعرفي والسياسي. أولى هذه التوصيات أن دراسة الحدود في الجامعات العربية تحتاج إلى مزيد من الانفتاح على الأدبيات الفلسفية والسياسية المقارنة، وعدم الاكتفاء بالمقاربة الوصفية أو القانونية. فموضوع الحدود لم يعد مسألة جغرافية منفصلة، بل موضوعا مركبا يقع عند تقاطع السلطة والهوية والاقتصاد والتقنية والعدالة. وثانيها أن السياسات العامة المتعلقة بالحدود والهجرة واللجوء يجب أن تراعي بصورة أوضح البعد الإنساني والمعياري، بحيث لا تختزل إدارة الحركة في لغة الاشتباه والمخاطر. فالحدود التي تُدار حصريا بوصفها أجهزة أمنية معرضة لإنتاج مزيد من الهشاشة والتمييز، وإلى إضعاف الشرعية الأخلاقية للدولة نفسها، حتى عندما تتجح إجراءاتها في الضبط والمنع.

وثالثها أن التحول الرقمي في إدارة الحدود يقتضي أطر مساءلة وشفافية أشد صرامة، لأن الخوارزميات والبيانات الحيوية ليست محايدة سياسيا أو اجتماعيا. ومن هنا تبدو الحاجة قائمة إلى ربط الحدود الذكية بمبادئ حماية البيانات، وإمكانية الطعن، وعدم

التمييز، حتى لا تتحول الكفاءة التقنية إلى غطاء لشرعنة استبعاد غير مرئي. ورابعها أن العالم العربي، بحكم موقعه الجيوسياسي وتاريخه الاستعماري وحدوده المتحركة تحت ضغط الحروب والنزوح، يحتاج إلى أجندة بحثية مستقلة حول العدالة الحدودية، وحول أثر الحدود في بناء الدولة والهوية والمواطنة. ومن شأن مثل هذه الأجندة أن تسهم في نقل النقاش من إدارة الأزمات المتلاحقة إلى إنتاج معرفة نقدية تساعد على بلورة سياسات أكثر توازناً وإنسانية.

### خاتمة

خلصت هذه الدراسة إلى أن تطور النظام العالمي لم يفض إلى انحلال الحدود الجغرافية، بل إلى إعادة بنائها على أسس أكثر تعقيداً. فقد انتقلت الحدود من كونها خطوطاً تعلن السيادة الإقليمية فحسب إلى كونها مؤسسات سياسية واجتماعية وتقنية لإدارة الحركة، وفرز الحقوق، وتوزيع الامتيازات والمخاطر. وبينما ظن بعض الخطاب المعولم أن الحدود ستذوب بفعل السوق والتقنية، أظهرت الوقائع أن الدولة والمجتمعات السياسية لم تتخل عنها، بل أعادت توظيفها بما يتلاءم مع أنماط جديدة من الحكم والرقابة والأمننة. كما بينت الدراسة أن الفلسفة السياسية والاجتماعية تقدم أدوات لا غنى عنها لفهم هذا التحول. وقد شكل إتيان باليبار المرجعية الأقرب مباشرة إلى موضوع البحث، لأنه أعاد تعريف الحدود بوصفها مؤسسات تنتج المواطنة والاختلاف وعدم المساواة. أما فوكو فقد مكّن من فهم آلياتها كأجهزة أمنية لإدارة السكان والتدفقات، في حين كشف أغامبن قابليتها للتحول إلى فضاءات استثناء يتراجع فيها القانون لحساب الضرورة المعلنة. وعلى ضوء هذا التركيب، يصبح الحد المعاصر مرآة مكثفة للنظام العالمي نفسه: فهو يترجم تناقضه بين الانفتاح الاقتصادي والانغلاق الإنساني، وبين خطاب الحقوق وممارسة الفرز، وبين الادعاء الكوني والقيود الانتقائي.

وعليه، فإن إعادة التفكير في الحدود اليوم ليست مسألة نظرية فحسب، بل ضرورة سياسية وأخلاقية. فالعالم الذي تتعاظم فيه الهجرة القسرية، وتتسع فيه آثار التغير المناخي، وتتعمق فيه الرقابة الرقمية، يحتاج إلى نقاش جديد حول العدالة الحدودية، وحدود السيادة، وحقوق غير المواطنين، وأفق المواطنة عبر الوطنية. ومن دون هذا النقاش ستبقى الحدود، كما تكشفها الخبرة المعاصرة، موقعا تتجسد فيه اختلالات النظام العالمي أكثر مما تحل فيه مشكلاته.

### لائحة المراجع

#### أولاً: المراجع العربية

- أمين، أشرف محمود. (2022). الموقف النقدي من النظام العالمي الجديد (إمبراطورية العولمة): دراسة في فلسفة أنطونيو نيغري السياسية. مجلة كلية الآداب بقنا.
- العزب، جمال الدين. (2022). العلوم السياسية ما بين تأثير تقنيات الذكاء الاصطناعي ومراجعة أركان ووظائف مفهوم الدولة وبنية النظام العالمي. كلية الاقتصاد والعلوم السياسية.
- العبيدان، هنادي محمد إبراهيم. (2025). تطور الدبلوماسية وتعدد أدوارها. مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية.
- غورباتشوف، ميخائيل. (2014). النظام العالمي الجديد. مركز الإمارات للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

#### ثانياً: المراجع الأجنبية

- Agamben, G. (1998). *Homo Sacer: Sovereign Power and Bare Life*. Stanford University Press.
- Agamben, G. (2005). *State of Exception*. University of Chicago Press.
- Agnew, J. (2003). *Geopolitics: Re-visioning World Politics*. Routledge.
- Agnew, J. (2017). *Globalization and Sovereignty: Beyond the Territorial Trap*. Rowman & Littlefield.
- Anderson, M. (1996). *Frontiers: Territory and State Formation in the Modern World*. Polity Press.
- Arendt, H. (1973). *The Origins of Totalitarianism*. Harcourt Brace Jovanovich.
- Balibar, E. (2002). *World Borders, Political Borders*. PMLA, 117(1), 71-78.
- Balibar, E. (2009). *Europe as Borderland*. *Environment and Planning D: Society and Space*, 27(2), 190-215.
- Baruah, D. M. (2024). *The Contest for the Indian Ocean: And the Making of a New World Order*. Yale University Press.
- Bigo, D. (2002). *Security and Immigration: Toward a Critique of the Governmentality of Unease*. *Alternatives*, 27(S1), 63-92.
- Brown, W. (2010). *Walled States, Waning Sovereignty*. Zone Books.
- Davitti, D. (2018). *Biopolitical Borders and the State of Exception in the European Migration Crisis*. *European Journal of International Law*, 29(4), 1173-1196.

- European Commission. (n.d.). Entry/Exit System (EES). Directorate-General for Migration and Home Affairs.
- European Commission. (2026). Entry/Exit System Is Fully Operational. Directorate-General for Migration and Home Affairs.
- Foucault, M. (2007). *Security, Territory, Population: Lectures at the Collège de France, 1977-1978*. Palgrave Macmillan.
- IOM. (2024). *World Migration Report 2024*. International Organization for Migration.
- IPCC. (2023). *Climate Change 2023: Synthesis Report*. Intergovernmental Panel on Climate Change.
- Longo, M. (2018). *The Politics of Borders: Sovereignty, Security, and the Citizen after 9/11*. Cambridge University Press.
- Miran, J. (2017). The Red Sea. In D. Armitage, A. Bashford, & S. Sivasundaram (Eds.), *Oceanic Histories* (pp. 156-181). Cambridge University Press.
- Nicol, H. N., & Townsend-Gault, I. (Eds.). (2005). *Holding the Line: Borders in a Global World*. UBC Press.
- Ntovas, A. X. M. (2014). Straits Used for International Navigation. In D. J. Attard, M. Fitzmaurice, & N. A. Martínez Gutiérrez (Eds.), *The IMLI Manual on International Maritime Law: Volume I: The Law of the Sea* (pp. 71-98). Oxford University Press.
- Rothwell, D. R., & Stephens, T. (2023). *The International Law of the Sea* (3rd ed.). Hart Publishing.
- Staudt, K. (2017). *Border Politics in a Global Era: Comparative Perspectives*. Rowman & Littlefield.
- UNHCR. (2025). *Global Trends 2024*. United Nations High Commissioner for Refugees.
- Weber, L., & Pickering, S. (2011). *Globalization and Borders: Death at the Global Frontier*. Palgrave Macmillan.

---

1- Donald R. Rothwell and Tim Stephens, *The International Law of the Sea*, 3rd ed., Hart Publishing, Oxford, 2023, pp. 230-257; Alex G. M. Ntovas, "Straits Used for International Navigation," in David Joseph Attard, Malgosia Fitzmaurice, and Norman A. Martinez Gutierrez (eds.), *The IMLI Manual on International Maritime Law: Volume I: The Law of the Sea*, Oxford University Press, Oxford, 2014, pp. 71-98.

2- Jonathan Miran, "The Red Sea," in David Armitage, Alison Bashford, and Sujit Sivasundaram (eds.), *Oceanic Histories*, Cambridge University Press, Cambridge, 2017, pp. 156-181.

3- Darshana M. Baruah, *The Contest for the Indian Ocean: And the Making of a New World Order*, Yale University Press, New Haven, 2024, pp. 47-48.

# العوامل المرتبطة بتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات في ظل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الراهنة: دراسة ميدانية

د. منال حمزة

## الملخص

هدفت هذه الدراسة إلى تحليل العوامل المرتبطة بتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات في ظل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية الراهنة في لبنان. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وطُبِّقت على عينة عشوائية بسيطة مكوّنة من 175 امرأة لبنانية تتراوح أعمارهن بين 20 و40 سنة، شملت متزوجات وغير متزوجات. وتم تحليل البيانات باستخدام برنامج SPSS، من خلال الإحصاءات الوصفية واختبار مربع كاي. أظهرت النتائج وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين تأخر سن الزواج وكل من المستوى التعليمي، ومكان السكن، ومعايير اختيار الشريك، والشعور بانعدام الأمن والاستقرار، في حين لم تُظهر النتائج علاقة دالة مع الوضع المهني. وتوصي الدراسة بضرورة تبني سياسات اجتماعية واقتصادية داعمة للشباب، ولا سيما في مجالات الإسكان والاستقرار المالي، إلى جانب إجراء مزيد من الدراسات المتخصصة لفهم أعمق لظاهرة تأخر سن الزواج في السياق اللبناني.

الكلمات المفتاحية: تأخر سن الزواج، معايير اختيار الشريك، انعدام الأمن والاستقرار، لبنان.

استاذ مساعد في  
الجامعة اللبنانية،  
كلية الآداب والعلوم  
الانسانية، بيروت -  
لبنان

**Abstract**

This study aimed to examine the factors associated with delayed marriage among Lebanese women in light of the current economic, social, and security conditions in Lebanon. The study adopted a descriptive-analytical method and was conducted on a simple random sample of 175 Lebanese women aged 20 to 40, including both married and unmarried women. Data were analyzed using SPSS through descriptive statistics and the chi-square test. The results revealed statistically significant relationships between delayed marriage and educational level, place of residence, partner selection criteria, and feelings of insecurity and instability, while no significant relationship was found with employment status. The study recommends adopting supportive social and economic policies for youth, particularly in the areas of housing and financial stability, in addition to conducting further studies to achieve a deeper understanding of delayed marriage in the Lebanese context.

**Keywords:** Delayed marriage, partner selection criteria, insecurity and instability, Lebanon.

**1- المقدمة**

يتحدّد العمر الذي يتم فيه الزواج داخل المجتمعات تبعاً لجملة من العوامل المتداخلة، من أبرزها القيم الاجتماعية والثقافية، والمرجعيات الدينية، إضافة إلى الأطر القانونية التي قد تضع قيوداً أو شروطاً عمرية للزواج، كما يختلف هذا العمر بين البيئات الحضرية والريفية. غير أن التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، على المستويين المحلي والعالمي، أسهمت في إحداث ارتفاع ملحوظ في سن الزواج، ولا سيما في المدن. ويُعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى تزايد انخراط الإناث في المسار المهني والتعليمي بمختلف مراحلها، حيث يتطلب استكمال بعض التخصصات، خاصة في مرحلة الدراسات العليا، فترات زمنية طويلة، الأمر الذي يؤدي إلى تأجيل الزواج ليقع غالباً ضمن الفئة العمرية ما بين 23 و29 سنة لدى الفتيات، وبين 27 و34 سنة لدى الذكور (كرباج وشاهين، 2023).

شهدت التركيبة الاجتماعية والديموغرافية اللبنانية في السنوات الأخيرة تحولاً ملحوظاً في أنماط الزواج، تميّز بتأخر ملحوظ في سن الزواج الأول لدى النساء. ووفقاً لبيانات حديثة، يحتل لبنان حالياً المرتبة الأولى في متوسط سن الزواج الأول للنساء في المنطقة العربية، حيث يبلغ حوالي 30.4 عاماً (World Population Review, 2025). ويعود هذا التوجه إلى تفاعل معقد بين عوامل اقتصادية وتعليمية وثقافية. وقد شكل الانهيار الاقتصادي عام 2019 عاملاً محفزاً حاسماً، إذ أدى انخفاض قيمة الليرة

اللبنانية والتضخم المفرط إلى جعل «مشروع الزواج» التقليدي بما في ذلك تكاليف السكن والزفاف باهظاً للغاية بالنسبة للشباب. تهدف هذه الدراسة إلى تحليل العوامل المؤثرة في تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، من خلال دراسة ميدانية تسعى إلى الكشف عن محددات هذه الظاهرة في السياق الاجتماعي والاقتصادي اللبناني.

### 1-1- إشكالية البحث

تتبع مشكلة هذه الدراسة من تزايد ظاهرة تأخر سن الزواج بين النساء اللبنانيات في ظل التحولات التي يشهدها المجتمع اللبناني. وعلى الرغم من أن لبنان يحتل حالياً المرتبة الأولى عربياً في متوسط تأخر سن الزواج الأول للنساء البالغ 30.4 عاماً، إلا أن الأدبيات البحثية اللبنانية تعاني من نقص واضح في الدراسات التي تتناول هذه الظاهرة بشكل دقيق. فمعظم الدراسات المحلية المتاحة تُركّز بشكل أساسي على قلق الزواج لدى الإناث في لبنان من منظور نفسي، أو تتناول موضوع الزواج بشكل عام دون التطرق إلى مسألة التأخر كظاهرة مستقلة قائمة بذاتها وقابلة للقياس الكمي. كما أن هذه الدراسات لم تأخذ بعين الاعتبار التأثيرات العميقة للأزمة الاقتصادية التي بدأت عام 2019، والتي أدت إلى انهيار قيمة الليرة اللبنانية، وارتفاع معدلات التضخم إلى مستويات قياسية، وتراجع الناتج المحلي الإجمالي، وارتفاع معدل البطالة، إضافة إلى الأزمات السياسية والأمنية. هذا الواقع المعقد جعل من تكاليف الزواج التقليدية عبئاً مالياً يفوق قدرة الشباب اللبناني. ومن هنا، تسعى هذه الدراسة إلى سد الفجوة البحثية القائمة في الأدبيات اللبنانية من خلال قياس ظاهرة تأخر الزواج بشكل فعلي لدى عينة من النساء اللبنانيات استناداً إلى بيانات كمية، مع الأخذ بعين الاعتبار التأثيرات المتشابكة للعوامل الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية والأمنية التي أسهمت في تشكيل هذه الظاهرة في المجتمع اللبناني.

سؤال البحث الرئيسي:

ما العوامل التي تؤثر في تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات غير المتزوجات، في ظل الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية الراهنة في لبنان؟

### 1-2- أسئلة البحث

يتفرّع من السؤال البحثي الرئيسي الأسئلة الفرعية الآتية:

● ما طبيعة العلاقة بين المستوى التعليمي وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات؟

- هل توجد علاقة بين مكان السكن وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات؟
- ما طبيعة العلاقة بين الوضع المهني وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات؟
- هل توجد علاقة بين معايير اختيار الشريك وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات؟
- كيف يرتبط الشعور بانعدام الأمن والاستقرار بحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات؟

### 1-3- أهمية البحث

تكتسب هذه الدراسة أهمية كبيرة من خلال إسهامها في سد فجوة معرفية واضحة في الأدبيات البحثية اللبنانية المتعلقة بتأخر سن الزواج لدى النساء، وذلك على المستويين النظري والتطبيقي. فمن الناحية النظرية، تكتسب الدراسة أهميتها من كونها من الدراسات الميدانية القليلة في لبنان التي تتعامل مع تأخر سن الزواج بوصفه ظاهرة اجتماعية مستقلة قابلة للقياس الكمي، وليس مجرد حالة نفسية، كما هو شائع في معظم البحوث السابقة التي ركزت على قلق الزواج أو المواقف الذاتية لدى الإناث. وتقدم الدراسة إطاراً تحليلياً متكاملاً يربط بين المتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في تفسير الظاهرة، بما يُسهم في إثراء الأدبيات اللبنانية الاجتماعية. أما من الناحية التطبيقية، تتمثل أهمية الدراسة في توفير بيانات ميدانية واقعية وحديثة تعكس تأثير الانهيار الاقتصادي، وارتفاع تكاليف المعيشة، وعدم الاستقرار السياسي والأمني على سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، وهو ما يمكن أن يشكل مرجعاً علمياً لصانعي السياسات الاجتماعية، والمؤسسات الرسمية، والمنظمات المعنية بشؤون الأسرة والشباب.

### 1-4- أهداف البحث

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- الكشف عن طبيعة العلاقة بين المستوى التعليمي وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.
- تحديد العلاقة بين مكان السكن وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.
- فحص العلاقة بين الوضع المهني وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.
- استكشاف العلاقة بين معايير اختيار الشريك وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.
- تحليل العلاقة بين الشعور بانعدام الأمن والاستقرار وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

### 1-5- فرضيات البحث

استناداً إلى الفجوة البحثية التي كشفت عنها الأدبيات السابقة، تُبنى هذه الدراسة على مجموعة من الفرضيات:

الفرضية الأولى: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين المستوى التعليم وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

الفرضية الثانية: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين مكان السكن وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

الفرضية الثالثة: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين الوضع المهني وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

الفرضية الرابعة: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين معايير اختيار الشريك وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

الفرضية الخامسة: توجد علاقة ذات دلالة إحصائية بين الشعور بانعدام الأمن والاستقرار وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات.

### 1-6- الدراسات السابقة

قدّمت الباحثة رزّوق (2024) دراسةً ميدانية هدفت إلى تحليل طبيعة العلاقة بين الشعور بالوحدة والامتنان وقلق الزواج لدى الإناث في مدينة طرابلس في لبنان. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وطُبِّقت على عينة مكوّنة من 100 موظفة إدارية غير متزوجة يعملن في معاهد خاصة في مدينة طرابلس. أظهرت النتائج وجود علاقة عكسية ذات دلالة إحصائية بين مستوى الامتنان والشعور بالوحدة لدى الإناث العازبات، بما يعكس ارتباط ارتفاع الامتنان بانخفاض الإحساس بالوحدة، كما كشفت عن علاقة عكسية معتدلة بين الامتنان وقلق الزواج، مما يشير إلى الدور الوقائي للامتنان في التخفيف من حدة القلق المرتبط بالزواج.

قدّم الباحثان كرجاج وشاهين (2023) دراسةً ميدانية هدفت إلى قياس مدى شيوع ظاهرة تأخر سن الزواج بين طالبات الدراسات العليا في جامعة دمشق، وتحليل محدداتها، مع فحص علاقتها بكل من المرحلة التعليمية ومعايير اختيار شريك الحياة. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي ذي الطابع الارتباطي، واستخدمت الاستبانة أداةً رئيسةً لجمع البيانات. تكوّنت العينة من 783 طالبة دراسات عليا موزّعات على أربع كليات هي التربوية،

والآداب، والزراعة، وطب الأسنان، بواقع 583 طالبة ماجستير و200 طالبة دكتوراه. أظهرت النتائج ارتفاعاً ملحوظاً في مستوى انتشار تأخر سن الزواج بين أفراد العينة، مع وجود علاقة ارتباطية دالة إحصائياً بين تأخر الزواج والمرحلة التعليمية. كما بيّنت النتائج أن ظروف الحرب جاءت في مقدمة العوامل المفسّرة لتأخر الزواج، تلتها العوامل الاقتصادية، ثم التعليمية، في حين احتلت العوامل الاجتماعية المرتبة الأخيرة. وعلى صعيد معايير اختيار الشريك، تصدّر التوافق النفسي والعاطفي قائمة الأولويات، يليه التجانس في المستوى التعليمي، بينما جاءت المعايير الأخرى بدرجات أقل من الأهمية لدى طالبات الدراسات العليا.

أجرت الباحثتان شهباز وعلي (2022) دراسة ميدانية هدفت إلى تحليل المحددات الاجتماعية المرتبطة بتأخر سن الزواج لدى النساء العاملات في جامعة بغداد، مع التركيز على أربعة أبعاد رئيسية هي البعد الأسري، والبعد الاقتصادي والمهني، والبعد النفسي والذاتي، والبعد البيئي، إضافة إلى اختبار الفروق في هذه العوامل تبعاً لنوع المهنة (تدريسية أو إدارية). اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، وشملت عينة قصدية مكوّنة من 100 امرأة عاملة متأخرة عن الزواج في جامعة بغداد. جرى تحليل البيانات باستخدام البرنامج الإحصائي SPSS. وأظهرت النتائج أن الأبعاد الاجتماعية الأربعة تسهم بدرجات متقاربة في تفسير ظاهرة تأخر سن الزواج لدى النساء العاملات، كما كشفت النتائج عن عدم وجود فروق دالة إحصائياً تُعزى لمتغير طبيعة المهنة فيما يتعلق بالمحددات الأسرية والنفسية-الذاتية والبيئية، في حين أظهرت البيانات وجود فروق ذات دلالة إحصائية في تأثير المحددات الاقتصادية والمهنية تبعاً لطبيعة العمل، وذلك لصالح فئة الموظفين الإداريات.

قامت الباحثة خليل (2016) دراسة هدفت إلى تحليل المحددات الرئيسية المرتبطة بظاهرة تأخر الزواج في المجتمعات العربية، مع التركيز على مدينة أملج بالمملكة العربية السعودية كحالة دراسية. اعتمدت الدراسة على المنهج الكمي باستخدام نموذج الانحدار اللوجستي الثنائي لتحديد العوامل الأكثر تأثيراً في انتشار هذه الظاهرة. شملت عينة الدراسة القصدية 200 مشارك من الكلية الجامعية بأملج، موزعين بالتساوي بين الذكور والإناث، سواء كانوا متزوجين أو غير متزوجين من الطلبة والموظفين. أظهرت نتائج الدراسة أن المتغيرات الأكثر تأثيراً في تأخير سن الزواج تشمل: وفاة أحد الوالدين أو كليهما مما يترتب عليه تحمل الشاب أو الفتاة مسؤولية رعاية الأشقاء الأصغر

سناً، والمبالغة في المعايير والمواصفات المطلوبة في الشريك المحتمل، ودرجة اهتمام الفرد بتقييم وتخطيط الأسرة المستقبلية، وأنماط التفاعل الاجتماعي بين الجنسين عبر منصات التواصل الاجتماعي، بالإضافة إلى الميل نحو المبالغة في استعراض المتطلبات المادية والاجتماعية المرتبطة بالزواج.

أجرى الباحث الخضيرى (2015) بدراسةً تحليلية تناولت ظاهرة تأخر سن الزواج بين الشباب في المجتمع السعودي، مستهدفةً تحديد أسبابها من منظور الشباب الجامعي، ورصد العوامل الرئيسة التي أسهمت في تفاقمها، إلى جانب تحليل آثارها الاجتماعية والسلوكية، واستكشاف السبل الممكنة للحد منها. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، واستخدمت الاستبانة المحكّمة أداةً لجمع البيانات، وطُبِّقت على عينة عشوائية قوامها 320 طالباً من طلاب جامعة الملك سعود، مع توظيف أساليب إحصائية ملائمة لطبيعة البيانات وأهداف التحليل. كشفت النتائج أن الدافع الديني يُعد من أهم المحفزات نحو الزواج لدى الشباب السعودي، كما أوضحت النتائج أن آليات اختيار شريك الحياة تتمحور بشكل رئيسي حول الاختيار الذاتي المقترن بموافقة العائلة، بالإضافة إلى الاعتماد على التوصيات من دائرة الأقارب. في المقابل، أظهر المشاركون رفضاً واضحاً لطرق الاختيار غير التقليدية مثل التعارف عبر الإنترنت.

أجرى الباحثان (Bibas & Saber, 2025) دراسةً ميدانية هدفت إلى تحديد العوامل الرئيسة المؤثرة في تأخر سن الزواج في إقليم كردستان العراق. اعتمدت الدراسة المنهج الوصفي التحليلي وتم تحليل البيانات إحصائياً باستخدام برنامج SPSS. أظهرت النتائج أن ضعف مستوى الثقة المتبادلة بين الرجال والنساء، ولا سيما المخاوف المرتبطة بالالتزام والموثوقية في العلاقات، إضافة إلى محدودية حرية اختيار شريك الحياة نتيجة الضغوط الأسرية والاجتماعية، تُعد من أكثر العوامل تأثيراً في تأخر الزواج. كما بيّنت النتائج أن العوائق الاقتصادية والضغط الاجتماعي والثقافية، مثل اشتراط المهور المرتفعة، تسهم بدور بارز في تأجيل الزواج. في المقابل، جاءت العلاقات العاطفية السابقة للزواج وضعف الرقابة على المحتوى الإعلامي ضمن أقل العوامل تأثيراً في اتخاذ قرار تأخر الزواج، مما يؤكد أن إشكاليات الثقة وغياب حرية الاختيار تمثل المحددات الأبرز لهذه الظاهرة في الإقليم.

قدّم الباحث (Bagi, 2023) دراسةً تحليلية تناولت ظاهرة تأخر سن الزواج في إيران، في سياق اجتماعي يتّسم بارتباط الإنجاب بالزواج الرسمي وضمن الإطار الأسري.

هدفت الدراسة إلى تحقيق غايتين أساسيتين، تمثلتا في رصد اتجاهات تأخر الزواج على المستوى الكلي خلال الفترة الممتدة بين عامي 1984 و2022، وتحليل الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة اعتماداً على بيانات فردية. شملت العينة 3,891 فرداً ممّن مرّوا بتجربة تأخر الزواج. أظهرت النتائج انخفاض نسبة النساء المتزوجات في الفئة العمرية 25-29 سنة من 90% عام 1984 إلى 60% عام 2022، كما تراجعت النسبة لدى الرجال من 76% إلى 30% خلال الفترة نفسها. وعلى المستوى الفردي، كشفت النتائج أن متوسط سن الزواج الفعلي تجاوز السن المرغوب فيه بنحو خمس سنوات لدى النساء. كما بيّنت الدراسة أن العوامل الاقتصادية، مثل صعوبات الحصول على عمل، والأعباء المالية، ومشكلات السكن، شكّلت السبب الأبرز لتأخر الزواج لدى الرجال، في حين تمثّلت الأسباب الأكثر شيوعاً لدى النساء في صعوبة إيجاد الشريك المناسب، وعدم توافر الظروف الملائمة، والاستمرار في التعليم.

#### 1-7- التعليق على الدراسات السابقة

تكشف مراجعة الدراسات السابقة عن اتفاق واضح في تناول ظاهرة تأخر سن الزواج كإشكالية اجتماعية متعددة الأبعاد تتشابك فيها عوامل اقتصادية ونفسية واجتماعية وثقافية. فقد أجمعت معظم الدراسات على أن العوامل الاقتصادية، بما في ذلك صعوبات توفير متطلبات الزواج المادية والأعباء المالية ومشكلات السكن، تمثل محددات رئيسية في تأخر الزواج، كما أشارت إليه دراسات خليل (2016)، وشهباز وعلي (2022)، وكرباج وشاهين (2023)، و(Bagi, 2023). كما اتفقت الدراسات على أهمية معايير اختيار الشريك ودورها في تأخير الزواج، حيث أظهرت دراسة خليل (2016) أن المبالغة في المواصفات المطلوبة تشكل عاملاً مؤثراً، بينما أكدت دراسة كرباج وشاهين (2023) أن التوافق النفسي والعاطفي والتجانس التعليمي يتصدران قائمة الأولويات لدى طالبات الدراسات العليا. ومن الملاحظ أن معظم الدراسات السابقة اتبعت المنهج الوصفي التحليلي مع التركيز على فئات محددة مثل طالبات الدراسات العليا أو العاملات أو طلاب الجامعات، إلا أن هناك نقصاً واضحاً في الدراسات التي تتناول السياق اللبناني بشكل شامل. فعلى الرغم من أن دراسة رزّوق (2024) تناولت الجانب النفسي المتمثل في قلق الزواج لدى الإناث في لبنان، إلا أنها لم تختبر ظاهرة تأخر الزواج بشكل مباشر كمتغير تابع قائم بذاته، ولم تأخذ بعين الاعتبار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتي

تختلف في حدّتها وتعقيدها عن السياقات المدروسة في البلدان الأخرى. كما أن الدراسات اللبنانية المتاحة لم تستخدم بيانات كمية حقيقية لقياس حالة تأخر الزواج استناداً إلى العمر الفعلي للمشاركات، ولم تفحص العلاقة بين هذه الظاهرة ومجموعة واسعة من المتغيرات الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية في آن واحد. من هنا، تسعى الدراسة إلى سد هذه الفجوة البحثية من خلال قياس ظاهرة تأخر الزواج بشكل مباشر وكمي لدى النساء اللبنانيات واختبار مدى ارتباطها بالعوامل الديموغرافية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية.

## 2- الإطار النظري

يتناول هذا القسم الإطار النظري لتأخر سن الزواج للنساء وأسبابه وآثاره، بالإضافة إلى النظريات المفسرة له.

### 1-2- مفهوم تأخر سن الزواج

يُقصد بتأخر سن الزواج بلوغ المرأة عمراً يتجاوز الإطار العمري السائد والمتعارف عليه للزواج داخل المجتمع الذي تنتمي إليه دون الارتباط بعقد زواج، حيث يُستخدم هذا المفهوم لوصف الحالة الاجتماعية للإناث اللواتي تجاوزن سن الثلاثين ولم يسبق لهن الزواج، واللواتي قد يتعرضن لضغوط حياتية متعددة. وترتبط هذه الحالة بجملة من الانعكاسات الاجتماعية والنفسية والسلوكية التي لا تقتصر آثارها على المرأة فحسب، بل تمتد لتشمل الأسرة والمجتمع ككل. كما يُنظر إلى تأخر الزواج بوصفه نتاجاً لتفاعل مجموعة من العوامل، من أبرزها التغيرات الاجتماعية والثقافية، إلى جانب الأوضاع الاقتصادية والمعيشية التي تسهم في تفاقم هذه الظاهرة (معشي، 2017).

كما يُعرّف تأخر الزواج بوصول المرأة إلى مرحلة عمرية محددة دون اتخاذ قرار الزواج، على الرغم من اعتبار هذه الخطوة محطة أساسية في مسار حياتها، لما تتضمنه من انتقال إلى نمط عيش جديد وتحمل مسؤوليات اجتماعية وأسرية مختلفة (مالكي وزيتوني، 2017).

### 2-2- أسباب تأخر سن الزواج

تتعدد العوامل التي أسهمت في بروز ظاهرة تأخر سن الزواج، ومن أهمها (المشوم، 2020):

- **المبالغة في الشروط والمتطلبات الأسرية:** إذ تتدخل بعض الأسر، ولا سيما الأمهات، بشكل مفرط في قرارات زواج بناتهن، ما يؤدي إلى رفض المتقدمين لأسباب غير جوهرية، مثل محدودية الدخل، أو اختلاف المكانة الاجتماعية أو الوظيفية. كما تُقرض أحياناً قواعد

- تقليدية، كاشتراط زواج الابنة الكبرى قبل الصغرى، أو مقارنة أوضاع الأزواج المحتملين بأزواج الأخوات من حيث الوضع المادي والاجتماعي. ويضاف إلى ذلك التضخيم غير المبرر لتكاليف الزواج والمهور، بما يحول الزواج إلى عبء مادي مبالغ فيه.
- **المثالية الزائدة في اختيار الشريك:** حيث يُغلب الاهتمام بالمظاهر الشكلية كالهئية الخارجية والجمال والعمر على حساب الجوانب الجوهرية، إلى جانب رفض الزواج من أشخاص سبق لهم الارتباط، أو وضع شروط صارمة تتعلق بالسن أو المستوى التعليمي، بما يحدّ من فرص الزواج الواقعية.
  - **سوء فهم مفاهيم الحداثة والحرية:** إذ يُساء تفسير بعض المظاهر المرتبطة بالتححرر الشخصي، ما يؤدي إلى سلوكيات تُضعف الثقة المتبادلة بين الجنسين، وتنعكس سلباً على فرص الارتباط.
  - **تراجع القيم والعادات الاجتماعية الداعمة للزواج:** مثل البساطة والتكافل الاجتماعي، حيث كان التعاون بين أفراد المجتمع المحلي يسهم في تخفيف الأعباء المادية عن المقبلين على الزواج، وهو ما تراجع بشكل ملحوظ.
  - **الدور السلبي لبعض وسائل الإعلام:** إذ تروّج بعض الأعمال الدرامية والسينمائية لصورة سلبية عن الحياة الزوجية، مركّزة على النزاعات والمشكلات، مما يعزز مخاوف الشباب من الزواج ويدفعهم إلى تأجيله أو العزوف عنه.
  - **تأثر المجتمع بأنماط ثقافية دخيلة:** نتيجة الانفتاح على عادات وتقاليذ وافدة، انعكست خصوصاً في مظاهر الاحتفالات وتكاليفها، فابتعدت عن الطابع البسيط الذي كان سائداً، وارتفعت كلفة الزواج إلى مستويات تفوق الإمكانيات.
  - **تفضيل بعض الأسر إطالة المسار التعليمي للإناث:** حيث يُشجّع استمرار الدراسة حتى نهاية المرحلة الجامعية أو الدراسات العليا، ما يؤدي إلى تأخر سن الزواج بحكم طول مدة التعليم.
  - **التشدد المضط في المعايير الدينية والأخلاقية:** إذ يبالغ بعض الأهالي في التخوف من سلوك الطرف الآخر، نتيجة ضعف الوعي بأهمية الزواج وآثاره الإيجابية، وعدم إدراك الانعكاسات السلبية المترتبة على تأخيرها.

## 2-3- تأخر سن الزواج في السياق اللبناني

شهد نمط الزواج في لبنان تحولات عميقة نتيجة تداخل مجموعة من العوامل البنيوية والديموغرافية والسياسية. فقد أسهمت الهجرة المستمرة إلى الخارج، وتراجع معدلات

الخصوبة، واختلال شكل الهرم السكاني ولا سيما انخفاض نسبة فئة الشباب مقارنة بالفئات العمرية الأخرى، إلى جانب الحروب المتكررة، وانعدام الاستقرار الأمني، وتدهور الخدمات العامة، والتدفق الكبير للاجئين السوريين، وتقلص فرص العمل، في إعادة تشكيل بنية الزواج في المجتمع اللبناني. ويُعدّ النزوح الخارجي أحد العوامل الأكثر تأثيراً في تقلص حجم الفئة الشابة، خاصة بين الذكور، الأمر الذي انعكس مباشرة على "سوق الزواج" من حيث التوازن العددي بين الجنسين. وتشير البيانات الإحصائية إلى أن نسبة الأسر اللبنانية التي تضم فرداً مهاجراً واحداً على الأقل ارتفعت منذ عام 2004 لتصل إلى نحو 6.3% من إجمالي الأسر. كما تُظهر خصائص المهاجرين منذ ذلك التاريخ غلبة واضحة للذكور، إذ شكّلوا ما يزيد على ثلاثة أرباع المهاجرين، مقابل نسبة أقل للإناث، في حين كانت الغالبية الساحقة من المهاجرين دون سن الخامسة والثلاثين (Jad et al., 2024).

وتجدر الإشارة إلى أن الهجرة ليست ظاهرة حديثة في لبنان، بل تشكّل مساراً تاريخياً متواصلًا ازداد حدة في فترات الأزمات. وقد أسهم هذا النزيف البشري المستمر، ولا سيما في صفوف الشباب، في تعميق ظاهرة تأخر سن الزواج في السياق اللبناني، من خلال تقليص فرص الارتباط، وزيادة حالة عدم اليقين تجاه المستقبل الأسري والاجتماعي (Jad et al., 2024).

#### 4-2- نظريات البحث

يعرض هذا القسم النظريات المفسّرة للدراسة كما يلي:

أولاً: نظرية التحول الديموغرافي الثاني (Second Demographic Transition Theory):

تشير نظرية التحول الديموغرافي الثاني إلى مرحلة متقدمة من التحول السكاني تتميز بتغيرات عميقة في أنماط الزواج والأسرة، من أبرزها تأخر سن الزواج الأول، وارتفاع معدلات العزوبية، وتراجع الخصوبة، وتزايد الأهمية الممنوحة للتعليم، وتحقيق الذات، والاستقلال الفردي، خاصة لدى النساء. وترى هذه النظرية أن التحولات القيمية والثقافية، إلى جانب التوسع في التعليم العالي ومشاركة المرأة في سوق العمل، تؤدي إلى إعادة تعريف الزواج من كونه ضرورة اجتماعية مبكرة إلى خيار مؤجل يخضع لتقديرات فردية (Lesthaeghe, 2010). وقد استُخدمت هذه النظرية على نطاق واسع في تفسير ارتفاع سن الزواج في المجتمعات التي تشهد تغيرات اجتماعية واقتصادية متسارعة، بما

في ذلك المجتمعات العربية التي تمر بمرحلة انتقالية غير مكتملة. وتُعد نظرية التحول الديموغرافي الثاني ذات صلة مباشرة بأهداف هذه الدراسة، لا سيما في تفسير العلاقة بين المستوى التعليمي والوضع المهني وتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، حيث يُفترض أن ارتفاع التحصيل العلمي والطموح المهني يسهمان في تأخر الزواج. ثانياً: النظرية الاقتصادية للزواج (Economic Theory of Marriage):

طوّرت هذه النظرية غاري بيكر، وهي تنظر إلى الزواج بوصفه قراراً عقلانياً يقوم على المقارنة بين المنافع المتوقعة والتكاليف المترتبة عليه. ويفترض بيكر أن الأفراد يتخذون قرار الزواج عندما يكون العائد الصافي المتوقع من هذا الارتباط أعلى من العائد الناتج عن البقاء دون زواج، مع الأخذ بعين الاعتبار عناصر مثل الدخل، والاستقرار الوظيفي، وتقسيم الأدوار داخل الأسرة، وتكاليف المعيشة، والفرص البديلة (Becker, 1981). تكتسب هذه النظرية أهمية مباشرة في هذه الدراسة، لأنها توفر تفسيراً واضحاً للعلاقة بين الوضع المهني والظروف الاقتصادية وتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، لا سيما في ظل الانهيار الاقتصادي الذي يشهده لبنان منذ عام 2019 وارتفاع تكاليف المعيشة ومتطلبات تأسيس الأسرة.

### ثالثاً: نظرية المعايير الاجتماعية (Social Norms Theory)

تُرَكِّز نظرية المعايير الاجتماعية على دور القيم السائدة والتوقعات الاجتماعية في توجيه سلوك الأفراد وقراراتهم المتعلقة بالزواج، بما في ذلك تحديد العمر المناسب للزواج، ومعايير اختيار الشريك، وأدوار الجنسين داخل الأسرة. ووفقاً لهذه النظرية، فإن التغيير في المعايير الاجتماعية، مثل ارتفاع سقف التوقعات من الشريك، أو تغيير النظرة إلى أدوار المرأة، أو تراجع الضغط الاجتماعي المباشر نحو الزواج المبكر، يسهم في تأجيل الزواج (القحطاني، 2023). تُسهم نظرية المعايير في تفسير العلاقة بين معايير اختيار الشريك وتأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، وكذلك العلاقة بين الشعور بانعدام الأمن والاستقرار وتأجيل الزواج، في ظل التغيرات الاجتماعية والضغط النفسي والأمنية التي تؤثر في قرارات الزواج داخل المجتمع اللبناني.

### 3- منهجية البحث

اعتمدت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي بوصفه المنهج الأنسب لتحقيق أهدافها البحثية، نظراً لطبيعة الظاهرة المدروسة المتمثلة في تأخر سن الزواج لدى النساء

اللبنانيات، وما يحيط بها من عوامل اجتماعية واقتصادية وأمنية متداخلة. ويقوم هذا المنهج على وصف الواقع القائم كما هو، من خلال جمع بيانات ميدانية كمية تعكس الخصائص الفعلية لعينة الدراسة، ثم تحليل العلاقات بين المتغيرات.

### 3-1- عينة البحث

يتكوّن مجتمع الدراسة من جميع النساء اللبنانيات المقيمات في لبنان خلال فترة إجراء الدراسة، واللاتي يبلغ عمرهن بين 20 و40 سنة بمختلف المستويات التعليمية. أما عينة الدراسة فقد بلغت 175 امرأة لبنانية، وتم اختيارها باستخدام أسلوب العينة العشوائية البسيطة بما يتلاءم مع أهداف الدراسة، وشملت العينة نساءً متزوجات ونساءً غير متزوجات. حيث تم توزيع 300 استبيان وإلغاء 125 إجابة ضمن معايير الاستبعاد باعتبارهم غير متزوجات وتحت سن الثلاثين.

### 3-2- أدوات البحث

اعتمدت هذه الدراسة على الاستبيان كأداة رئيسية لجمع البيانات، نظراً لملاءمتها لطبيعة المنهج الوصفي التحليلي المعتمد، وقدرته على الحصول على بيانات كمية دقيقة من عينة الدراسة حول ظاهرة تأخر سن الزواج والعوامل المرتبطة بها. وقد تم تصميم الاستبيان بما ينسجم مع أهداف الدراسة ومتغيراتها، وتكوّنت من ثلاثة أقسام. تضمّن القسم الأول البيانات الديموغرافية، وشمل متغيرات أساسية مثل العمر الحالي، والحالة الاجتماعية، والعمر عند الزواج الأول للمتزوجات، والمستوى التعليمي، والوضع المهني، ومكان السكن، ومستوى الدخل. أما القسم الثاني فقد خُصص لقياس معايير اختيار الشريك. في حين ركّز القسم الثالث على الشعور بانعدام الأمن والاستقرار.

### 3-3- متغيرات البحث

المتغير التابع في هذه الدراسة هو حالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، وقد تم قياسه كمتغير ثنائي اعتماداً على العمر الفعلي والحالة الاجتماعية. جرى احتساب هذا المتغير وفق إجراء محدد، حيث صُنّفت المتزوجات اللواتي تم زواجهن قبل سن الثلاثين ضمن فئة غير المتأخرات عن الزواج، بينما صُنّفت المتزوجات اللواتي تزوّجن عند سن الثلاثين أو أكثر ضمن فئة المتأخرات عن الزواج. كما أُدرجت النساء غير المتزوجات اللواتي تبلغ أعمارهن الحالية ثلاثين سنة فأكثر ضمن فئة المتأخرات عن الزواج، في حين تم استبعاد النساء غير المتزوجات الأصغر من سن الثلاثين من الدراسة. أما المتغيرات المستقلة، فقد تضمنت المستوى التعليمي، ومكان السكن، والوضع المهني، إضافة إلى معايير اختيار الشريك والشعور بانعدام الأمن والاستقرار.

## 4-3- الأساليب الإحصائية

تم تحليل البيانات باستخدام برنامج (SPSS) الإصدار 27، لما يتميز به من كفاءة في معالجة البيانات الكمية. وقد تم في المرحلة الأولى الاعتماد على الأساليب الإحصائية الوصفية لعرض خصائص عينة الدراسة، وذلك من خلال حساب التكرارات والنسب المئوية لمختلف المتغيرات الديموغرافية. أما في المرحلة الثانية، فقد تم استخدام اختبار مربع كاي (Chi-Square Test) لفحص الفرضيات البحثية، والكشف عن مدى وجود علاقات ذات دلالة إحصائية بين المتغير التابع المتمثل في حالة تأخر سن الزواج والمتغيرات المستقلة.

## 4- نتائج البحث ومناقشتها

يتناول هذا القسم عرض النتائج الإحصائية، إلى جانب اختبار الفرضيات البحثية والتحقق من دلالتها الإحصائية.

جدول رقم (1): الإحصاء الوصفي للمعلومات الديموغرافية

النسبة	التكرارات	المعلومات الديموغرافية	
45.1%	79	غير متزوجة	الحالة الاجتماعية
54.9%	96	متزوجة	
13.7%	24	ثانوي أو أقل	المستوى التعليمي
26.3%	46	إجازة	
31.4%	55	ماجستير	
14.3%	25	دكتوراه	
14.3%	25	مهني	
21.1%	37	طالبة	الوضع المهني
20.0%	35	عاطلة عن العمل	
21.7%	38	عمل حر	
21.7%	38	موظفة بدوام جزئي	
15.4%	27	موظفة بدوام كامل	

9.1%	16	البقاع	مكان السكن
5.7%	10	الجنوب	
10.3%	18	الشمال	
9.7%	17	النبطية	
12.6%	22	بعلبك-الهرمل	
28.0%	49	بيروت	
14.3%	25	جبل لبنان	
10.3%	18	عكار	
19.4%	34	أقل من ٣٠٠	الدخل الشهري للأسرة
36.0%	63	300-600	
16.0%	28	600-1000	
10.3%	18	أكثر من ١٠٠٠	
18.3%	32	لا أعلم	
٣٣,١٥ سنة			العمر الحالي
٢٧,٨٢ سنة			عمر الزواج الأول

يُظهر الجدول رقم (1) نتائج الإحصاء الوصفي للمعلومات الديموغرافية لعينة الدراسة، حيث يتضح أن توزيع أفراد العينة من حيث الحالة الاجتماعية جاء متقاربًا نسبيًا، إذ بلغت نسبة المتزوجات 54.9% مقابل 45.1% لغير المتزوجات. كما يشير توزيع المستوى التعليمي إلى ارتفاع ملحوظ في التحصيل الأكاديمي، إذ شكّلت كل من فئة الماجستير والدكتوراه مجتمعين نحو 45.7% من العينة، وهو ما يعكس حضورًا قويًا للمرأة المتعلمة. وعلى صعيد الوضع المهني، تبين وجود تقارب في نسب الطالبات، والعاطلات عن العمل، والعاملات في وظائف حرة أو بدوام جزئي، في حين سجّلت فئة الموظفين بدوام كامل النسبة الأدنى. أما من حيث مكان السكن، فقد استحوذت بيروت على النسبة الأعلى (28.0%). وبخصوص الدخل الشهري للأسرة، برزت فئة الدخل المتوسط (300-600 دولار) كنسبة الأعلى. وأخيرًا، بلغ متوسط العمر الحالي لأفراد

عينة البحث 33.15 سنة، في حين وصل متوسط عمر الزواج الأول إلى 27.82 سنة. جدول رقم (2): الإحصاء الوصفي للمعلومات المتعلقة بمعايير اختيار الشريك وانعدام الأمن والاستقرار

النسبة	التكرارات	المعلومات المتعلقة بمعايير اختيار الشريك وانعدام الأمن والاستقرار
		ما المعيار الأهم لديك عند اختيار شريك الحياة؟
22.3%	39	الاستقرار المالي
16.0%	28	الالتزام الديني والأخلاقي
4.6%	8	الانتماء الطائفي المشترك
14.3%	25	التوافق النفسي والعاطفي
15.4%	27	السمعة العائلية
8.0%	14	المستوى التعليمي
19.4%	34	المظهر الخارجي
		إلى أي مدى يؤثر الوضع المالي للشريك على قرارك بالزواج؟
21.1%	37	تأثير ضعيف
28.0%	49	تأثير كبير
24.6%	43	تأثير متوسط
26.3%	46	لا يؤثر
		هل أدت معايير المرتفعة في اختيار الشريك إلى تأخير الزواج؟
27.4%	48	إلى حد ما
27.4%	48	لا
45.1%	79	نعم
		كيف تصفين تأثير الأزمة الاقتصادية في لبنان على قرارك بالزواج؟
16.0%	28	تأثير ضعيف
53.1%	93	تأثير كبير
30.9%	54	تأثير متوسط
		هل ترين أن الظروف الحالية في لبنان مناسبة لتكوين أسرة؟

26.3%	46	غير متأكدة
59.4%	104	لا
14.3%	25	نعم
		إلى أي مدى تشعرين بانعدام الأمن والاستقرار في حياتك الحالية في لبنان؟
20.6%	36	بدرجة ضعيفة
45.7%	80	بدرجة كبيرة جداً
21.7%	38	بدرجة متوسطة
12.0%	21	لا أشعر بانعدام الأمن والاستقرار
		ما الشعور الغالب لديك تجاه الزواج في ظل الأوضاع الراهنة؟
26.3%	46	استعداد مشروط
32.6%	57	حذر وتفكير
29.7%	52	قلق وتردد
11.4%	20	لا أشعر بالقلق

يُبيّن الجدول رقم (2) أن الاستقرار المالي جاء في المرتبة الأولى كأهم معيار لاختيار شريك الحياة بنسبة 22.3%، يليه المظهر الخارجي بنسبة 19.4%، ثم الالتزام الديني والأخلاقي والسمعة العائلية بنسب متقاربة. كما تشير النتائج إلى أن الوضع المالي للشريك يُعد عاملاً مؤثراً في قرار الزواج لدى غالبية أفراد العينة، إذ أفادت 28.0% بوجود تأثير كبير و24.6% بتأثير متوسط، مقابل 26.3% اعتبرته غير مؤثر. وفيما يتعلق بمعايير الاختيار المرتفعة، أفادت نسبة 45.1% من المشاركات بأنها أسهمت بشكل مباشر في تأخير الزواج. وعلى صعيد الأمن والاستقرار، أظهرت النتائج أن الأزمة الاقتصادية في لبنان كان لها تأثير كبير على قرار الزواج لدى أكثر من نصف العينة (53.1%)، في حين رأت الغالبية أن الظروف الراهنة غير مناسبة لتكوين أسرة (59.4%). كما عبّرت نسبة مرتفعة من المشاركات (45.7%) عن شعورهن بانعدام الأمن والاستقرار بدرجة كبيرة جداً أو متوسطة. أما الشعور الغالب تجاه الزواج في ظل هذه الأوضاع، فقد أبدت الغالبية (32.6%) بالحذر وتفكير.

جدول رقم (3): نتائج اختبار الفرضية الأولى

الاستنتاج	القيمة الاحتمالية	قيمة كاي <sup>2</sup>	متأخرة	غير متأخرة	تأخر سن الزواج المستوى التعليمي
دال إحصائياً	0.000	70.642	16	30	إجازة
			8	16	ثانوي أو أقل
			25	0	دكتوراه
			52	3	ماجستير
			9	16	مهني

يُظهر الجدول رقم (3) نتائج اختبار الفرضية الأولى المتعلقة بالعلاقة بين المستوى التعليمي وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، حيث تشير قيمة مربع كاي البالغة (70.642) عند مستوى دلالة إحصائية 0.000 أصغر من 0.05 إلى وجود علاقة ذات دلالة إحصائية قوية بين المتغيرين. ويتضح من توزيع التكرارات أن نسب تأخر الزواج ترتفع بشكل ملحوظ مع ارتفاع المستوى التعليمي، إذ تتركز أعلى أعداد المتأخرات عن الزواج ضمن فئتي الماجستير (52 حالة) والدكتوراه (25 حالة). وبناءً على هذه النتائج، تم قبول الفرضية الأولى التي تنص على وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين المستوى التعليمي وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات. ويمكن تفسير العلاقة الدالة بين المستوى التعليمي وتأخر سن الزواج بأن الالتحاق بمراحل تعليمية عليا، كالدراسات العليا، يفرض امتداداً زمنياً للمسار الأكاديمي ويؤدي إلى تأجيل الاستقرار الأسري. كما يرتبط ارتفاع المستوى التعليمي بزيادة الطموحات المهنية وارتفاع معايير اختيار الشريك، ما يقلل من فرص الزواج في أعمار مبكرة.

جدول رقم (4): نتائج اختبار الفرضية الثانية

الاستنتاج	القيمة الاحتمالية	قيمة كاي <sup>2</sup>	متأخرة	غير متأخرة	تأخر سن الزواج
غير دال إحصائياً	0.755	1.894	25	12	طالبة
			22	13	عاطلة عن العمل
			24	14	عمل حر
			25	13	موظفة بدوام جزئي
			14	13	موظفة بدوام كامل

يُعزى عدم دلالة العلاقة بين الوضع المهني وتأخر سن الزواج إلى أن عدم الاستقرار الاقتصادي في لبنان يشمل معظم الفئات المهنية على حد سواء، ما يقلل من قدرة العمل بحد ذاته على تفسير قرار الزواج. وبذلك، يصبح العامل المهني أقل تأثيراً مقارنة بعوامل بنيوية أوسع مثل الأوضاع الاقتصادية العامة وانعدام الاستقرار.

جدول رقم (5): نتائج اختبار الفرضية الثالثة

الاستنتاج	القيمة الاحتمالية	قيمة كاي <sup>2</sup>	متأخرة	غير متأخرة	تأخر سن الزواج
دال إحصائياً	0.024	16.118	9	7	البقاع
			5	5	الجنوب
			9	9	الشمال
			13	4	النبطية
			14	8	بعلدك-الهرمل
			40	9	بيروت
			11	14	جبل لبنان
			9	9	عكار

يُظهر الجدول رقم (5) نتائج اختبار الفرضية الثالثة المتعلقة بالعلاقة بين مكان السكن وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، حيث تشير قيمة مربع كاي البالغة (16.118) عند مستوى دلالة إحصائية 0.024 وهي أقل من 0.05 إلى وجود علاقة ذات دلالة إحصائية بين المتغيرين. ويتضح من توزيع التكرارات أن نسب تأخر سن الزواج تختلف باختلاف مكان السكن، إذ تسجّل المناطق الحضرية، ولا سيما بيروت، أعلى عدد من المتأخرات عن الزواج (40 حالة مقابل 9 غير متأخرات). وبناءً على هذه النتائج، تم قبول الفرضية الثالثة. وتُعزى العلاقة الدالة بين مكان السكن وتأخر سن الزواج بالفوارق بين البيئات الحضرية والريفية، حيث ترتبط المدن الكبرى بأنماط حياة أكثر فردية وارتفاع في تكاليف المعيشة.

جدول رقم (6): نتائج اختبار الفرضية الرابعة

تأخر سن الزواج	غير متأخرة	متأخرة	قيمة كاي <sup>2</sup>	القيمة الاحتمالية	الاستنتاج
معيّار اختيار الشريك					
الاستقرار المالي	3	36	86.241	0.000	دال إحصائياً
الالتزام الديني والأخلاقي	23	5			
الانتماء الطائفي المشترك	6	2			
التوافق النفسي والعاطفي	17	8			
السمعة العائلية	3	24			
المستوى التعليمي	11	3			
المظهر الخارجي	2	32			

يُوضّح الجدول رقم (6) نتائج اختبار الفرضية الرابعة المتعلقة بالعلاقة بين معايير اختيار الشريك وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، حيث تشير قيمة مربع كاي المرتفعة (86.241) عند مستوى دلالة إحصائية 0.000 وهو أقل من 0.05 إلى وجود علاقة ذات دلالة إحصائية قوية بين المتغيرين. ويتضح من توزيع التكرارات أن تأخر سن الزواج يتركز بشكل واضح لدى النساء اللواتي يعتبرن الاستقرار المالي المعيار الأهم لاختيار الشريك، إذ بلغت حالات التأخر ضمن هذه الفئة 36 حالة مقابل 3 حالات غير متأخرة، كما سُجّلت نسب مرتفعة للتأخر لدى من يضعن المظهر الخارجي في مقدمة

المعايير، حيث بلغ عدد المتأخرات 32 حالة. وبناءً على هذه النتائج، تم قبول الفرضية الرابعة. يمكن تفسير العلاقة بين معايير اختيار الشريك وتأخر سن الزواج بأن التركيز على معايير مادية واجتماعية مرتفعة، ولا سيما الاستقرار المالي، يؤدي إلى تضيق دائرة الشركاء المحتملين وبالتالي تأخير الزواج. في المقابل، تسهم المعايير المرنة المرتبطة بالتوافق النفسي والقيمي في تسريع اتخاذ قرار الزواج.

جدول رقم (7): نتائج اختبار الفرضية الخامسة

تأخر سن الزواج الشعور بانعدام الأمن	غير متأخرة	متأخرة	قيمة كاي <sup>2</sup>	القيمة الاحتمالية	الاستنتاج
بدرجة ضعيفة	31	5	92.841	0.000	دال إحصائياً
بدرجة كبيرة جداً	11	69			
بدرجة متوسطة	4	34			
لا أشعر بانعدام الأمن والاستقرار	19	2			

يُبين الجدول رقم (7) نتائج اختبار الفرضية الخامسة المتعلقة بالعلاقة بين الشعور بانعدام الأمن والاستقرار وحالة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات، حيث تشير قيمة مربع كاي المرتفعة (92.841) عند مستوى دلالة إحصائية 0.000 وهو أقل من 0.05 إلى وجود علاقة ذات دلالة إحصائية قوية بين المتغيرين. ويتضح من توزيع التكرارات أن نسب تأخر سن الزواج ترتفع بشكل حاد لدى النساء اللواتي يشعرن بانعدام الأمن والاستقرار بدرجة كبيرة جداً أو بدرجة متوسطة، إذ بلغت حالات التأخر 69 حالة و34 حالة على التوالي، مقابل أعداد محدودة جداً لغير المتأخرات ضمن هذه الفئات. وبناءً على هذه النتائج، تم قبول الفرضية الخامسة.

تُعزى هذه العلاقة القوية بين الشعور بانعدام الأمن وتأخر سن الزواج بأن الزواج يُعد قراراً طويلاً الأمد يتطلب حدًا أدنى من الاستقرار النفسي والاجتماعي. ومع تصاعد المخاوف الأمنية والسياسية والاقتصادية، يرتفع سن الزواج في ظل غياب الثقة بالمستقبل.

#### مناقشة النتائج

تنسجم نتائج هذه الدراسة إلى حدٍ كبير مع ما توصلت إليه معظم الدراسات السابقة،

فقد أظهرت نتائج الفرضية الأولى وجود علاقة دالة بين المستوى التعليمي وتأخر سن الزواج، وهو ما يتوافق مع نتائج دراسة كرجاج وشاهين (2023) التي أشارت إلى أن امتداد المسار التعليمي يُسهم بشكل مباشر في تأجيل الزواج. وفيما يتعلق بمعايير اختيار الشريك، أكدت نتائج هذه الدراسة وجود علاقة قوية بين التركيز على الاستقرار المالي وتأخر سن الزواج، وهو ما يتقاطع بوضوح مع نتائج (Blbas & Saber, 2025) التي أبرزت العوامل الاقتصادية والاشتراطات المادية كأحد أبرز مسببات التأخير، ومع ما أشار إليه خليل (2016) حول المبالغة في متطلبات الزواج. كذلك، تتوافق النتائج المتعلقة بالشعور بانعدام الأمن والاستقرار مع ما توصلت إليه دراسة كرجاج وشاهين (2023) بشأن تأثير الحروب وعدم الاستقرار، ومع نتائج دراسة رزوق (2024) التي أبرزت أثر العوامل النفسية والقلق المرتبط بالزواج. في المقابل، تختلف نتائج هذه الدراسة عن دراسة شهباز وعلي (2022) فيما يتعلق بالوضع المهني، إذ لم تُظهر الدراسة الحالية علاقة دالة بين الوضع المهني وتأخر الزواج.

#### التوصيات

- بناءً على النتائج التي توصلت إليها الدراسة، يمكن تقديم التوصيات التالية:
- 1- توصي الدراسة بأن تعمل الحكومة اللبنانية على إنشاء برنامج وطني شامل يوفر قروضاً إسكانية ميسرة وطويلة الأجل للشباب المقبلين على الزواج بفوائد منخفضة.
  - 2- نظراً للعلاقة القوية بين المعايير المرتفعة لاختيار الشريك وتأخر الزواج، توصي الدراسة بأن تتعاون المؤسسات الدينية والاجتماعية والإعلامية على إطلاق حملات توعوية واسعة تستهدف النساء، تركز على أهمية التوافق النفسي والقيم المشتركة.
  - 3- توصي الدراسة بضرورة تحقيق الاستقرار السياسي والأمني من خلال إصلاحات مؤسساتية جذرية وحوار وطني شامل. كما يجب وضع خطة استراتيجية واضحة للتعافي الاقتصادي من أجل استعادة ثقة الشباب بالمستقبل وتمكينهم من اتخاذ قرارات مصيرية كالزواج دون خوف أو قلق.
  - 4- توصي الدراسة الباحثين بإجراء دراسات طولية تتابع نفس العينة عبر سنوات لفهم التغيرات في معايير الزواج وقراراته.

## خاتمة

استنتجت هذه الدراسة أن ظاهرة تأخر سن الزواج لدى النساء اللبنانيات تُعتبر نتيجة مباشرة لتشابك مجموعة من العوامل في ظل الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والأمنية الراهنة في لبنان. فقد أظهرت النتائج وجود علاقات ذات دلالة إحصائية بين تأخر سن الزواج وكل من المستوى التعليمي، ومكان السكن، ومعايير اختيار الشريك، والشعور بانعدام الأمن والاستقرار، في حين لم تُسجَل علاقة دالة مع الوضع المهني، ما يعكس محدودية تأثير الحالة الوظيفية في سياق أزمة اقتصادية شاملة تطل مختلف الفئات. وتبيّن أن ارتفاع التحصيل التعليمي، والتركّز في المناطق الحضرية، والمبالغة في المعايير المادية لاختيار الشريك، إضافة إلى تصاعد مشاعر عدم الاستقرار، جميعها تسهم في تأجيل قرار الزواج لدى النساء.

## المراجع

### المراجع العربية

- 1- الخضيرى، صالح بن إبراهيم. (2015). ظاهرة تأخر سن الزواج من وجهة نظر الشباب الجامعي: دراسة ميدانية. مجلة الآداب، (2)27، 137-77. جامعة الملك سعود.
- 2- القحطاني، نورة ناصر. (2023). معايير الاختيار للزواج وعلاقتها بالعوامل المؤثرة في تأخر سن الزواج لدى الشباب السعودي: دراسة تطبيقية على عينة من طلبة البكالوريوس بجامعة الملك سعود. شؤون اجتماعية، (4)160، 106-59. <https://doi.org/10.35217/0048-040-160-003>
- 3- إيمان عبدالرحمن المشوم. (2020). الزواج بين التبكير والتأخير وأثارهما الاجتماعية، المجلة اللبنانية للعلوم الإسلامية، 140-126.
- 4- برنس روبي رزوق. (2024). التفاعل بين الشعور بالوحدة والامتنان وقلق الزواج لدى الإناث في لبنان «عينة من مدينة طرابلس شمال لبنان»، مجلة أوراق ثقافية، 470-443.
- 5- خليل، انتصار علي. (2016). استخدام تقنية الانحدار اللوجستي لتحديد أهم العوامل المؤثرة في تأخر سن الزواج في المملكة العربية السعودية. مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، (2)13، 246-220.
- 6- شهباز، انتصار زين العابدين، وعلي، انتصار معاني. (2022). العوامل الاجتماعية لتأخر سن الزواج لدى المرأة العاملة في جامعة بغداد. مجلة البحوث التربوية والنفسية، (72)19، 627-604. <https://doi.org/10.52839/0111-000-072-021>

- 7- كبراج، مروة، وشاهين، عزت. (2023). درجة انتشار ظاهرة تأخر سن الزواج لدى طالبات الدراسات العليا وعلاقتها بالمرحلة التعليمية ومعايير اختيار الشريك: دراسة ميدانية في بعض كليات جامعة دمشق. مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، 39(3)، 41-21.
- 8- مالكي، أمينة وزيتوني، حبيبة. (2017). تأخر الزواج عند الشباب في المجتمع الحضري، رسالة ماجستير، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، بسكرة، الجزائر.
- 9- معشي، محمد بن علي بن مساوي (2017). واقع العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية المرتبطة بظاهرة العنوسة (تأخر سن الزواج) كما يدركها أكاديميو جامعة جازان واقترحاتهم للحد منها، المجلة التربوية الدولية المتخصصة. 6(7)، 151 - 167 الأردن.

#### المراجع الأجنبية

- 1- Bagi, M. (2023). Reasons for delayed marriage and its determinants in Iran. *Journal of Applied Sociology*, 34(1), 31-50.
- 2- Becker, G. S. (1981). *A Treatise on the Family*. Cambridge, Harvard University Press.
- 3- Blbas, H. T. A., Ali, A. N., & Saber, A. F. (2025). Key factors influencing delayed marriage: insights from the Kurdistan region of Iraq—a middle Easterner's perspective. *SN Social Sciences*, 5(3), 1-14.
- 4- Jad, I., Taminian, L., Mansour, R., Rasheed, A. J., Al Muaqat, F., & Tarabay, M. (2024). The State of Marriage in the Arab Mashreq: Jordan, Syria, Iraq, Palestine, and Lebanon. In *The Handbook of Marriage in the Arab World* (pp. 137-216). Singapore: Springer Nature Singapore.
- 5- Lesthaeghe, R. (2010). The unfolding story of the second demographic transition. *Population and development review*, 36(2), 211-251.
- 6- World Population Review (2025). Mean Age at First Marriage by Country 2025. <https://worldpopulationreview.com/>

# تحسين الرفاه النفسي لمتطوعات جمعية المرأة الدرزية من خلال اليوغا

د. جانين زيادة  
ابو طقة

## الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة فاعلية برنامج تدخلية قائم على تقنيات الهاثا يوغا في خفض مستوى الضغوط النفسية لدى متطوعات جمعية المرأة الدرزية في لبنان، في ظل الأزمات الاجتماعية والاقتصادية المتلاحقة. اعتمد البحث المنهج الإجرائي التفاعلي ذي الطابع التطبيقي الميداني، حيث تم تصميم برنامج يدمج التمارين الجسدية، تقنيات التنفس، والتأمل الواعي. وقد أظهرت النتائج فاعلية البرنامج في تحقيق انخفاض واضح في مستويات الضغوط النفسية والقلق لدى المشاركات، حيث تحسنت درجاتهن بشكل ملحوظ في القياسات البعدية لمقياس إدراك الضغوط ومقياس تايلور للقلق. كما لم تكن النتائج رقمية فقط، بل شملت تحسناً في الأداء السلوكي للمتطوعات من خلال اكتساب مهارات تكيف جديدة وتعزيز الثقة بالذات، مما انعكس إيجاباً على دافعيتهن للإنجاز. يخلص البحث إلى أهمية اعتماد برامج تدخل تكاملية لتعزيز مهارات التكيف النفسي وتحسين الأداء الوظيفي لدى المتطوعات.

الكلمات المفتاحية: الضغوط النفسية - الهاثا يوغا - المتطوعات  
- إدارة الضغوط - الصحة النفسية

## Abstract

This research aims to investigate the effectiveness of an intervention program based on Hatha Yoga techniques in reducing psychological stress levels among volunteers at the Druze Women's Association in Lebanon, amidst consecutive social and economic crises. The study adopted an interactive procedural approach with a field-applied nature, designing a program that integrates physical exercises, breathing techniques, and mindfulness meditation as psycho-physical tools for stress management. Field observations and exploratory studies initially revealed high levels of anxiety, psychological exhaustion, and a weakened ability to adapt among the volunteers. The results demonstrated the program's effectiveness in achieving a clear reduction in the participants' psychological stress and anxiety levels, with scores improving significantly in the post-test measurements of both the Perceived Stress Scale and the Taylor Manifest Anxiety Scale. The research concludes with the importance of adopting integrated, low-cost intervention programs to bolster psychological adaptation skills and improve functional performance among volunteers.

**Keywords:** Psychological Stress – Hatha Yoga – Volunteers – Stress Management – Mental Health

## 1. المقدمة

تشكل الضغوط النفسية سمة بارزة من سمات الحياة المعاصرة، خاصة في المجتمعات التي تواجه أزمات صحية، اقتصادية، واجتماعية متلاحقة، مما يؤدي إلى ارتفاع معدلات القلق، الإرهاق، والاحتراق النفسي بين الأفراد، لا سيما العاملين في القطاعات الخدمية والتطوعية. تُعرف الضغوط النفسية بأنها العلاقة بين الفرد وبيئته، والتي تتضمن التحديات التي تفوق قدرة تحمله أو تهدد رفاهيته النفسية (Salimzadeh et al., 2021)) وتتأتى الضغوط من مصادر متعددة تشمل البيئة المحيطة، وطريقة إدراك الفرد للظروف، بالإضافة إلى استجاباته العاطفية والجسدية لهذه الضغوط (الطريزي، 1994).

يشير التقدم الحضاري وتسارع الحياة الحديثة إلى زيادة هذه الضغوط، إذ تتجاوز الأعباء قدرات الفرد على التكيف، مما ينعكس سلباً على الصحة الجسدية والنفسية والعقلية (رسلان، 2012). من أبرز مظاهر التأثير بهذه الضغوط حالة الاحتراق النفسي (Burnout)، التي تتميز بانخفاض الدافعية، وقلة الاهتمام، وضعف القدرة على الابتكار، وقد تبدأ بالإحباط والقلق وتنتهي بالإرهاق النفسي (عسكر، 1998).

تعد المهن الخدمية، وخصوصاً التطوعية منها، أكثر عرضة للضغوط النفسية بسبب

تعدد المهام، غموض الدور المهني، صراع الأدوار، ونقص التقدير المادي، مما يؤثر على الأداء الوظيفي ورفاهية الأفراد. وفي ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة، يصبح الحفاظ على الرفاهية النفسية تحديًا كبيرًا.

نظرًا للتأثيرات السلبية المتعددة للضغوط النفسية، يزداد الاهتمام بالبحث عن وسائل للوقاية وإدارتها. وقد أظهرت الدراسات أن النشاط البدني، مثل ممارسة اليوغا، يخفف التوتر النفسي ويحسن الصحة البدنية والنفسية من خلال الجمع بين التمارين البدنية والتركيز الذهني والتأمل (Brown & Ryan, 2003 ; schucke et al., 2015). ومن هنا جاءت فكرة هذا البحث لتقييم أثر ممارسة اليوغا على الحد من الضغوط النفسية لدى المتطوعات في "جمعية المرأة الدرزية".

تلعب متطوعات "جمعية المرأة الدرزية" دورًا حيويًا في تقديم الخدمات المجتمعية، إلا أن تراكم الضغوط النفسية الناتجة عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية المتلاحقة وطبيعة العمل التطوعي قد أثر بشكل واضح على صحتهم النفسية وقدرتهم على الاستمرار بفعالية. تشمل هذه الضغوط الإجهاد النفسي المزمن، القلق، ضعف الدافعية، انخفاض الإنتاجية، الغياب المتكرر، إضافة إلى أعراض جسدية مثل الصداع والتوتر العضلي.

تتجلى المشكلة في مواجهة المتطوعات لتحديات مستمرة تتطلب مهارات عالية في التكيف النفسي والسلوكي، في ظل غياب أدوات عملية لإدارة هذه الضغوط، ما يؤدي إلى استنزاف طاقتهم وتأثير سلبي على جودة الخدمات المقدمة واستمرارية العمل التطوعي.

تتمثل إشكالية البحث في السؤال التالي:

ما مدى فاعلية برنامج قائم على الهاثا يوغا في خفض الضغوط النفسية وتسمية مهارات التكيف لدى متطوعات "جمعية المرأة الدرزية"؟

وتتفرع من هذا السؤال مجموعة أسئلة فرعية:

- كيف يمكن إدارة الضغوط النفسية بكفاءة لدى المتطوعات؟
- هل يساهم برنامج الهاثا يوغا في خفض مستويات الضغوط النفسية؟
- إلى أي مدى يمكن أن تساهم ممارسة الهاثا يوغا في تعزيز مهارات التكيف والثقة بالنفس؟
- ما هو تأثير تطوير مهارات التكيف على الأداء الوظيفي والتحفيز للإنجاز لدى المتطوعات؟

## 2. أهمية البحث

تبرز أهمية هذا البحث في كونه يقدم برنامجاً تدريبياً قائماً على اليوغا لإدارة الضغوط النفسية لدى متطوعات "جمعية المرأة الدرزية"، استناداً إلى الملاحظات المباشرة والدراسات الاستطلاعية التي رصدت تراكم الضغوط الناتجة عن الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وطبيعة العمل التطوعي. ويكتسب البحث أهميته من تأثير الضغوط النفسية على الصحة الجسدية والنفسية للمتطوعات، ما ينعكس على جودة أدائهن واستمراريتهن في تقديم الخدمات المجتمعية.

الأهمية النظرية: يسهم البحث في توضيح طبيعة الضغوط النفسية، مظاهرها، آثارها، وسبل إدارتها، ويعزز فهمنا للفئة المستهدفة التي تواجه مواقف ضاغطة تتطلب التكيف النفسي والسلوكي المستمر. كما يسد جزءاً من الفجوة البحثية العربية المتعلقة باليوغا كوسيلة فعالة للتخفيف من الضغوط النفسية، ويشكل أساساً لإجراء مزيد من الدراسات المستقبلية في هذا المجال.

الأهمية التطبيقية: يوفر البحث برنامجاً تطبيقياً يعتمد اليوغا، يمكن المتطوعات من تطوير مهارات إدارة الضغوط، التأمل، والوعي الذاتي، مما ينعكس إيجاباً على أدائهن الوظيفي وصحتهن النفسية. كما يمكن الاستفادة من نتائج البحث في تصميم ورش عمل وبرامج تدريبية تهدف إلى تحسين الكفاءة الذاتية، تعزيز الثقة بالنفس، وتنمية القدرة على مواجهة الضغوط اليومية، مع إحداث أثر إيجابي طويل الأمد على نوعية الحياة ونمط العمل التطوعي.

## 3. فرضيات البحث

انطلاقاً من إشكالية البحث وأهمية دراسة تأثير برنامج الهاثا يوغا على المتطوعات في "جمعية المرأة الدرزية"، صيغت الفرضيات التالية:

— هناك فروق ذات دلالة إحصائية في مستويات الضغوط النفسية لدى المتطوعات قبل وبعد تطبيق برنامج الهاثا يوغا.

— يسهم برنامج الهاثا يوغا في تعزيز مهارات التكيف النفسي لدى المتطوعات.

— يساهم البرنامج في خفض مؤشرات القلق والإرهاق النفسي المرتبطين بالعمل التطوعي.

تمثل هذه الفرضيات الإطار الأساسي لتقييم فعالية برنامج الهاثا يوغا كاستراتيجية عملية لإدارة الضغوط النفسية وتحسين الأداء النفسي والسلوكي للمتطوعات.

### أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تقديم برنامج تدريبي قائم على تقنيات الهاثا يوغا كأداة عمليّة لخفض الضغوط النفسية لدى متطوعات "جمعية المرأة الدرزية"، مع تعزيز الصحة النفسية والجسدية للفرد.

### الهدف الرئيسي:

يتمثل في تقليل مستويات الضغوط النفسية لدى المتطوعات من خلال تنمية مهارات إدارة الضغوط وتقديم استراتيجيات للتكيف النفسي الفعال، مع تحديد السلوكيات غير التكيفية واستبدالها بأخرى أكثر فعالية عبر تقنيات اليوغا والتأمل الواعي.

### الأهداف الفرعية:

تقييم مستويات الضغوط النفسية لدى المتطوعات قبل وبعد تطبيق البرنامج وقياس أثره. تعزيز الوعي الجسدي والإنفعالي لدى المتطوعات كعامل مساعد في إدارة الضغوط. تنمية مهارات ضبط النفس والتكيف النفسي وتقديم أدوات عملية للتعامل مع المواقف الضاغطة.

تحسين الدافعية والأداء الوظيفي للمتطوعات من خلال زيادة القدرة على التكيف النفسي والسلوكي.

تقديم توصيات عملية للأخصائيين النفسيين حول إمكانية اعتماد البرنامج في سياقات مشابهة لدعم الصحة النفسية للأفراد العاملين في القطاع التطوعي.

### المراجعة النظرية

يهدف هذا القسم إلى استعراض الركائز النظرية للدراسة، مع التركيز على الضغوط النفسية وتقنية اليوغا كأداة تدخل.

### أولاً: الضغوط النفسية (Psychological Stress)

تعد الضغوط جزءاً حتمياً من التجربة الإنسانية ومحفزاً للتفاعل مع البيئة، إلا أن تفاقمها يفرز تكاليف باهظة للفرد والمجتمع، ويرتبط بظهور اضطرابات «نفسجسدية» كالقلق والاكتئاب وسوء التكيف.

المنظور المعرفي (Lazarus & Folkman, 1984): يعتمد تأثير الضغط على علاقة الفرد ببيئته وكيفية تقييمه للموقف؛ فإما أن يُدرك كـ «تهديد» يعيق الأداء، أو كـ «تحدي» يحفز النمو.

المنظور الفسيولوجي (Selye, 1975): عرّف «سيلبي» الضغط كاستجابة جسدية غير محددة للمثيرات، تؤدي لاستنزاف الموارد واختلال التوازن الانفعالي. المنظور الخارجي (الطريزي، 1994): يركز على العوامل الخارجية التي تسبب التوتر وتعيق التوازن وتكامل الشخصية.

## تصنيفات الضغوط النفسية

المعيار	الأنواع	الخصائص
طبيعة التأثير (Lazarus)	سلبي (Distress) / إيجابي (Eustress)	السلبي يضعف الأداء، والإيجابي يحفز الإنجاز والثقة.
المصدر (Moor)	عادية / نمائية / أزمات	تراكمات يومية، تحولات حياتية، أو كوارث طارئة (الجبلي، ٢٠٠٦).
الديمومة (APA)	مؤقتة / مستمرة / مزمنة	تتراوح من مواقف عابرة إلى ضغوط تمتد لسنوات (الحמיד، ٢٠٠٨).
الحدة والنوع (Selye)	حادة / عرضية / مزمنة	تبدأ باستجابات فورية (قلق، تسارع قلب) وتصل إلى أمراض مزمنة (Se-lye, 1956).

## ثانياً: اليوغا (Yoga) كأداة تدخل

اليوغا تقليد هندي قديم (منذ 3000 عام) يعني «الاتحاد»، ويصنف حالياً كطب تكميلي يهدف لتحقيق التوازن بين العقل والجسم (Institutes of National Health).

## عناصر اليوغا الأساسية

1. التنفس العميق (برانايااما): لتنظيم الطاقة وتهدئة الأعصاب.
2. التأمل (دايانا): لتركيز الانتباه وتحسين اليقظة الذهنية.
3. الأوضاع الجسدية (آسانا): لتحسين المرونة وتفريغ التوتر العضلي.
4. الاسترخاء العميق: للوصول إلى السكينة الداخلية.

## المسارات الثمانية (Eight Limbs of Yoga)

تشكل نظاماً شاملاً يشمل الأخلاقيات (ياما)، الانضباط الذاتي (نياما)، والتركيز

(دهارانا)، وصولاً إلى التنوير (سامادي). وتركز هذه الدراسة حصراً على “الهاتا يوغا” (المسار البدني) الذي يدمج الوضعيات والتنفس والتأمل، بعيداً عن الأبعاد العقدية (Collins, 1998).

#### الأثر الفسيولوجي والنفسي

- تعمل اليوغا كألية مضادة لاستجابة “الكر والفر” (Fight or Flight)؛ حيث تؤدي إلى:
- خفض مستويات الكورتيزول وضغط الدم ومعدل ضربات القلب.
  - تحويل التوازن من الجهاز العصبي «السمبثاوي» إلى «البراسمبثاوي» (استجابة الاسترخاء) (McCall et al., 2013).
  - تحسين جودة الحياة وتخفيف أعراض الاكتئاب والقلق المرتبطة بالضغط (Atkinson, 2009).

#### 4. الدراسات السابقة

تناولت العديد من الدراسات العربية والأجنبية العلاقة بين ممارسة اليوغا والمتغيرات النفسية، ويمكن تلخيص أهم توجهاتها فيما يلي:

1. فاعلية اليوغا في خفض الضغوط والقلق  
أجمعت الدراسات على أن اليوغا تُعد مدخلاً غير دوائي فعال في تحسين الصحة النفسية. أثبتت الدراسات الأجنبية (Van der Kolk, 2014; McCall et al., 2013) دورها في تنظيم الاستجابات الفسيولوجية للتوتر وتحسين جودة الحياة. وعربياً، أكدت دراسات (حليمة، 2018؛ منى يحيى، 2014) دور تمارين التنفس والاسترخاء في خفض القلق وتحسين التوازن الانفعالي.
2. اليوغا وتنمية مهارات التكيف والتفكير الإيجابي  
أشارت النتائج إلى أن اليوغا لا تكتفي بخفض التوتر، بل تمتد لتنمية مهارات المواجهة؛ فقد كشفت دراسة (حمود وقحطان، 2020) دورها في تقليل التفكير السلبي، بينما أكدت دراسة (ميادة، 2007) أن الجمع بين التمارين الهوائية واليوغا يعزز قدرة الأفراد على مواجهة الضغوط.

#### 3. التأثير على الفئات المتنوعة

شملت الدراسات السابقة عينات متنوعة، منها:

- طلاب الجامعات: الذين أظهروا تحسناً في مهارات التكيف وخفض الاكتئاب (سليمان، 2021؛ Das, 2019).
- الموظفون والملاعبون: حيث ساهمت البرامج الممتدة في خفض إجهاد العمل وتحسين الأداء البدني (Maddux et al., 2018؛ منى يحيى، 2014).
- المرضى: أثبتت اليوغا كفاءتها في التعامل مع اضطراب ما بعد الصدمة والاكتئاب (Saeidi Asl & Robati, 2021).

## 5. منهج البحث

اعتمد هذا البحث المنهج الإجمالي التفاعلي (Action Research) ( ) لملاءمته معالجة المشكلات الواقعية داخل المؤسسات، ولقدرته على التفاعل المباشر مع البيئة المستهدفة. ويصنف البحث كبحث تطبيقي ميداني، نُفذ ضمن بيئة "جمعية المرأة الدرزية" بالتعاون مع المتطوعات وفريق العمل.

- مجتمع البحث: متطوعات جمعية المرأة الدرزية.

- أداة البحث: برنامج تدريبي قائم على تقنيات الهاثا يوغا.

- إجراءات التطبيق: جلسات منتظمة تشمل تمارين جسدية، تمارين تنفس، وتقنيات التأمل. تم اختيار المنهج الإجمالي التفاعلي نظراً لوجود مشكلة واقعية تتمثل في الضغوط النفسية التي تواجه المتطوعات، والتي تؤثر على أدائهن الوظيفي ورفاهيتهن النفسية. ويتيح هذا المنهج التفاعل المباشر مع البيئة وتطبيق حلول عملية لمعالجة المشكلة، بما في ذلك تنمية مهارات إدارة الضغوط وتحسين الأداء الوظيفي.

من حيث أهداف التدخل، يعد البحث تشخيصياً، إذ يركز على تحديد طبيعة الضغوط النفسية وأبعادها ومصادرها، من خلال جمع البيانات وتحليلها بدقة لتطوير استراتيجيات مناسبة للتعامل معها. ومن حيث طبيعة التنفيذ، فهو بحث تطبيقي ميداني يمكن الباحث من ملاحظة المشكلة على أرض الواقع وجمع البيانات مباشرة لضمان فعالية الحلول المقترحة.

كما يندرج البحث ضمن الدراسات التشاركية، إذ تم التعاون مع المعنيين في الجمعية لضمان التفاعل المباشر والمساهمة الجماعية في تطوير حلول عملية ومستدامة للضغوط النفسية، بما يدعم تحسين بيئة العمل واستمرارية الأداء الوظيفي للمتطوعات.

قدمت هذه الدراسة مساهمة نظرية ومنهجية حول دور ممارسة «اليوغا» كأداة لدعم

التوازن النفسي والجسدي لدى المتطوعات. اعتمد التدخل على خطة فردية وجماعية تهدف إلى تعزيز المرونة النفسية وإدارة الضغوط من خلال تقنيات تجمع بين الجانب المعرفي والنشاط البدني. تتبنى المنهجية نهج البحث الوصفي التشاركي، حيث تم دمج فنون اليوغا مع فنيات العلاج المعرفي السلوكي (TCC)، مع مراعاة السياق الثقافي والاجتماعي للمشاركات. يتم تحليل النتائج كمياً وكيفياً لقياس مدى التطور في مستويات القلق والتوتر، مع رصد التحولات النوعية في الوعي بالذات.

### 5.1. المشاركون بشكل عام

تطلب تطبيق البرنامج اندماجاً عملياً وأخلاقياً داخل الجمعية، حيث تم الحصول على الموافقات المؤسسية اللازمة. شمل العمل تعاوناً وثيقاً مع المدربين والمتطوعين لضمان مواءمة بروتوكول اليوغا مع احتياجات المشاركات اللواتي يعانين من ضغوط مهنية أو حياتية، مما ضمن واقعية التطبيق وفعاليتها.

### 5.2. المشاركون المستهدفون

تكونت عينة الدراسة من مجموعة من المتطوعات اللواتي أبدين رغبة في تحسين جودة حياتهن النفسية. تم اختيار العينة بناءً على معايير أهلية محددة لضمان صلاحية الدراسة، وهي:

- الجنس: إناث.
- الفئة العمرية: شابات وبالغات.
- الموقع الجغرافي: مقيمات في لبنان.
- المعايير النفسية: وجود مؤشرات لضغوط نفسية أو قلق ناتج عن العمل التطوعي أو الظروف المعيشية.
- الالتزام: القدرة على حضور الجلسات الأسبوعية وتطبيق الأنشطة المنزلية.

### 5.3. المخطط والبرنامج التدخل

تم تقسيم البرنامج إلى مراحل تبدأ بالتقييم الأولي، تليها مرحلة التنفيذ التي امتدت عبر جلسات أسبوعية، وختاماً بالتقييم النهائي. اعتمد البرنامج تقنية الجلسة المزدوجة (40 دقيقة للفنيات العلاجية و60 دقيقة لتمارين اليوغا).

هيكلية التدخل:

- المرحلة التحضيرية: بناء التحالف العلاجي وتحديد التوقعات.

- مرحلة التوعية والتقنيات: شملت psychoeducation حول الضغوط والقلق، وتدريبات على «التنفس الواعي»، «سجل الأفكار»، و«دائرة التحكم».
- مرحلة العمل على القيم: استخدام «استعارة الحافلة» و«خطاب الستين» لتحديد الأهداف الحياتية.
- مرحلة الدمج البدني (اليوغا): تطبيق وضعيات (الأسانا) التي تشمل الإحماء (تحية الشمس)، التمدد، القوة، والتوازن، وصولاً إلى الاسترخاء النهائي (شباباسانا).

#### 5.4. الأدوات والمقاييس المستخدمة

لتعزيز مصداقية النتائج، تم استخدام أدوات مختلطة:

1. الملاحظة التشاركية: لجمع بيانات حول التفاعل الجسدي والنفسي أثناء التمارين.
2. المقاييس النفسية: استخدام «مقياس الضغوط النفسية» و«مقياس تايلور للقلق» لقياس الفروق قبل وبعد التدخل.
3. الأدوات المعرفية: سجل الأفكار (جدول بيك)، تقنية «المكان الآمن»، واستعارات القبول والالتزام (ACT).
4. تقنيات اليوغا: استخدام وضعيات جسدية محددة لخفض الاستثارة الفسيولوجية المرتبطة بالقلق.
- 5.

#### 5.5. فعالية البرنامج المقترح والمنهجية

انطلقت الدراسة من فرضية أن دمج رياضة اليوغا كأداة علاجية سيؤدي إلى خفض طردي في مستويات التوتر والقلق. تم تطبيق البرنامج على عينة مؤلفة من 8 متطوعات من جمعية المرأة الدرزية، معتمدين على تصميم القياس المتكرر (Pre-posttest). أدوات القياس المستخدمة:

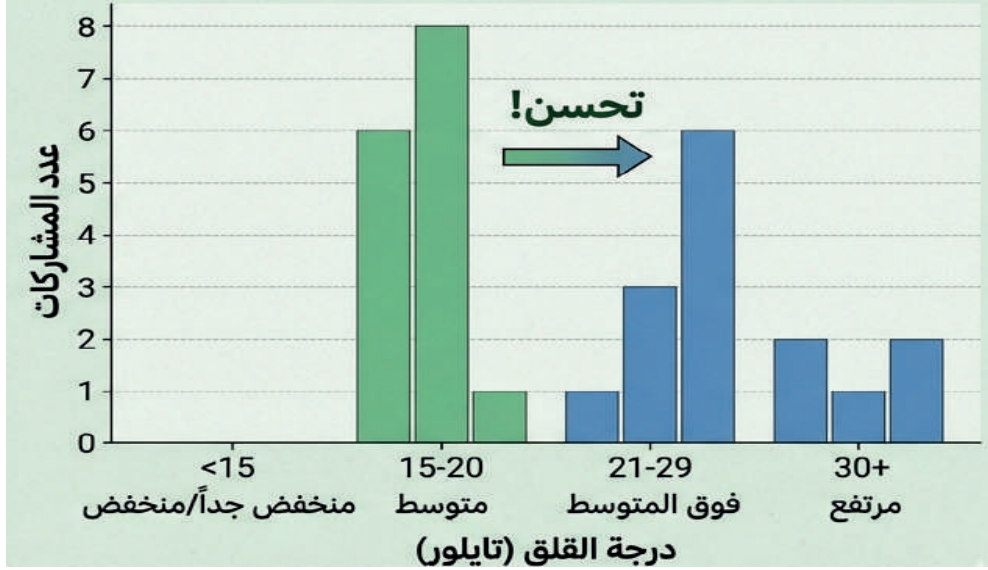
1. مقياس إدراك الضغوط النفسية: (حيث يشير 1 إلى أعلى درجة ضغط و0 إلى انعدام الضغط).
2. مقياس تايلور للقلق: (مقياس رقمي يحدد حدة القلق النفسي).

## 5.6. نتائج الرقمية والبيانات

أثبتت النتائج انخفاضاً قطعياً في كافة المؤشرات لدى المشاركات. يوضح الجدول التالي الفروقات بين النتائج القبليّة والنتائج البعديّة.

الرقم	الحالة	الدرجة على القياس القبلي	التشخيص القبلي	الدرجة على القياس البعدي	التشخيص البعدي
1	J	0.71	ضغط مرتفع	0.42	ضغط منخفض
2	Z	0.56	ضغط مرتفع	0.28	ضغط منخفض
3	M	0.69	ضغط مرتفع	0.41	ضغط منخفض
4	R	0.65	ضغط مرتفع	0.39	ضغط منخفض
5	A	0.56	ضغط مرتفع	0.44	ضغط منخفض
6	C	0.64	ضغط مرتفع	0.42	ضغط منخفض
7	S	0.7	ضغط مرتفع	0.41	ضغط منخفض
8	H	0.71	ضغط مرتفع	0.39	ضغط منخفض

- الضغوط النفسية: انتقلت جميع الحالات من فئة «ضغط مرتفع» (بمعدلات بين 0.56 و 0.71) إلى فئة «ضغط منخفض» (بمعدلات بين 0.28 و 0.44).



- مستوى القلق: انخفضت درجات مقياس تاييلور بمقدار يتراوح بين 8 إلى 12 درجة، حيث وصلت الدرجات في القياس البعدي إلى 20 أو أقل.
- 5.7. تقييم نتائج العمل
- إدارة الضغوط: نجح البرنامج في دمج تقنيات التأمل، التنفس العميق، ووضعية الجسم لتعزيز الاسترخاء والوعي الذاتي.
- تنمية المهارات: لم يقتصر التأثير على خفض الضغوط، بل امتد لتنمية مهارات التكيف، تعزيز الثقة بالذات، وتحسين الدافعية للإنجاز.
- 5.8. مؤشرات نجاح برنامج اليوغا
- تعتبر اليوغا برنامجاً علاجياً حديثاً وفعالاً؛ حيث أظهرت المؤشرات نجاحاً ملموساً في تحقيق الأهداف المخطط لها، وهو ما ثبت من خلال المقارنة الإحصائية التي أكدت انخفاض مستويات التوتر والقلق بشكل ملحوظ.
- 5.9. تحليل البيانات الإحصائية
- قبل التدخل: كانت مستويات القلق تتوزع بين «فوق المتوسط» (25-29 درجة)

و«المرتفع» (30 فأكثر) وفق تصنيف تايلور.

- بعد التدخل: أظهرت الرسوم البيانية تحولاً جذرياً، حيث تراجعت مستويات الضغط النفسي إلى أقل من 0.5، وتحسن مستوى القلق ليصل إلى المستوى «المتوسط». بناءً على نتائج الدراسة، لم تكن النتائج رقمية فقط، بل شملت تحسناً ملحوظاً في الأداء السلوكي للمتطوعات، ونقوم بتوضيح ذلك بالتفصيل في الجدول أدناه:

المهارة	دور اليوغا في تنميتها	النتيجة الملموسة
إدارة الضغوط	التنفس العميق والتأمل	زيادة القدرة على الاسترخاء الفوري عند مواجهة أزمة.
الثقة بالذات	السيطرة على وضعيات الجسم	تحسن الوعي الذاتي وصورة الجسم الإيجابية.
مهارات التكيف	المرونة الجسدية والذهنية	اكتساب إستراتيجيات جديدة لمواجهة المواقف الضاغطة.
الدافعية للإنجاز	تصفية الذهن	زيادة التركيز والقدرة على العطاء داخل الجمعية.

أظهرت النتائج انتقالاً كاملاً للمشاركات من منطقة «الخطر النفسي» إلى منطقة «الاستقرار».

## 5.10. التقييم النهائي والاستنتاج

تؤكد الدراسة أن النجاح لم يأت من ممارسة الرياضة فحسب، بل من جودة التصميم البرنامج الذي شمل:

- الدعم اللوجستي: توفير فيديوهات ومقالات تعليمية عززت الفهم النظري.
  - الدعم الإنساني: كفاءة المدربة في خلق بيئة آمنة للمتطوعات، مما حفز الاستجابة النفسية السريعة.
  - الاستدامة: تزويد المتطوعات بمهارات «إدارة ذاتية» تمكنهن من الاستمرار في ممارسة التقنيات دون الحاجة لإشراف دائم.
- أثبت البرنامج أن اليوغا ليست مجرد تمرين بدني، بل هي منظومة متكاملة قادرة على إحداث تغيير جذري في «جودة الحياة النفسية» للعاملين في القطاع التطوعي.

## 6. الخلاصة والتوصيات

تعدّ الضغوط النفسية من أكثر التحديات انتشاراً في مجتمعنا المعاصر، ونظراً لتأثيرها المباشر على التوازن النفسي والجسدي، وصعوبة إقصائها بشكل كلي من الحياة اليومية، بات من الضروري البحث عن أساليب مبتكرة لمواجهتها والحد من وطأتها. انطلقت هذه الدراسة من تساؤل جوهري حول كيفية خفض الضغوط النفسية وتمتية مهارات إدارتها لدى المتطوعات في «جمعية المرأة الدرزية».

وقد خلصت النتائج إلى أن البرنامج التداخلي القائم على الهاثا يوغا أظهر فاعلية ملموسة في خفض مستويات الضغوط النفسية، كما أسهم في تعزيز مهارات التكيف النفسي والشعور بالكفاءة الذاتية. وتشير هذه الخلاصات إلى أن التدخلات النفس-جسدية، حين تُصاغ ضمن إطار علمي منظم، تشكل أداة حيوية لدعم الصحة النفسية في البيئات التطوعية المعرضة لضغوط مستمرة.

وعلى الصعيد المعرفي، ترفد هذه الدراسة الأدبيات النفسية العربية بدليل علمي يدعم فاعلية اليوغا كمدخل تكاملي غير دوائي، مما يوسع فهمنا للعلاقة بين الممارسات الجسدية الواعية والتكيف النفسي لدى فئة المتطوعات. أما تطبيقياً، فتبرز أهمية اعتماد هذه البرامج في المؤسسات المجتمعية كوسيلة منخفضة الكلفة لتعزيز الرفاهية ودعم استمرارية العمل التطوعي.

بناءً على ما تقدم من نتائج، تقترح الدراسة التوصيات التالية:

1. **على الصعيد المؤسسي:** إدراج تقنيات اليوغا والوعي الجسدي كجزء أساسي من برامج الدعم النفسي للمتطوعين في الجمعيات الأهلية لضمان استدامتها وحمايتهم من الاحتراق النفسي.

2. **على الصعيد التدريبي:** تنظيم ورش عمل دورية للمتطوعات تهدف إلى تمكينهن من مهارات التفريغ الانفعالي وإدارة الضغوط من خلال أساليب «اليوغا» والهاثا يوغا.

3. **على الصعيد البحثي:** إجراء دراسات تتبعية (Longitudinal Studies) لرصد الأثر طويل الأمد لهذه التدخلات، والتأكد من مدى استمرارية التحسن في الصحة النفسية بعد انتهاء البرنامج التداخلي.

4. **على الصعيد التوعوي:** نشر الوعي بأهمية الربط بين النشاط البدني الواعي والتوازن النفسي عبر حملات إعلامية تستهدف العاملين في القطاعات الخدمية.

انطلاقاً من الحدود التي واجهت الدراسة الحالية، يبقى التساؤل القائم للبحوث المستقبلية

هو: "إلى أي مدى يمكن لدمج تقنيات اليوغا مع المقاربات النفسية التحليلية التقليدية أن يساهم في بناء نموذج وقائي متكامل يعزز المرونة النفسية لدى العاملين في المهن المساندة على المدى الطويل؟"

## 7. المصادر والمراجع

### المراجع العربية

- الجبلي، أ.ع. (2006). المساندة الاجتماعية وعلاقتها بالضغوط النفسية لدى طلبة كلية العلوم والصحة بجامعة صنعاء) رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة صنعاء.
- الحميد، أ. ص. (2008). الضغوط النفسية وعلاقتها بوجهتي الضبط لدى الأطفال ساكني القبور) رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة عين شمس.
- الشمري، م. ب. م.، هندية، م. ع.، مشرف، ع. م.، فهمي علي، س. م.، & عبد الخالق، س. ع. (2014). الضغوط النفسية وعلاقتها بالصلابة النفسية لدى المصابين ببعض الأمراض السيكوسوماتية. مجلة الدراسات النفسية والطبية، 9(4)، 45-68.
- الطريزي، ع. ب. س. (1994). الضغط النفسي: مفهومه وتشخيصه وطرق علاجه ومقاومته. جامعة الإمارات العربية المتحدة.
- عبد الحميد، م. ي. ع. (2014). تأثير تدريبات اليوغا على الإجهاد العصبي وبعض المتغيرات البدنية ومستوى الأداء المهاري لدى لاعبات الجمباز. مجلة العلوم الرياضية، 7(1)، 77-94.
- عسكر، ع. (1998). ضغوط الحياة وأساليب مواجهتها. دار الكتاب الحديث.
- علي، م. م. (2007). فاعلية برنامج التمرينات الهوائية وبرنامج اليوغا على الاسترخاء ومواجهة الضغوط النفسية. مجلة التربية الرياضية للبنات، 3(2)، 15-30.
- الهادي، س. م. (2021). مصادر الضغوط النفسية وأساليب مواجهتها لدى طلاب جامعة حائل بالمملكة العربية السعودية. مجلة العلوم التربوية، 12(2)، 45-60.
- حمود، م. ي.، & قحطان، م. ن. (2020). تطبيق تمرينات اليوغا أثناء الحجر المنزلي وتأثيرها على التفكير السلبي والإيجابي لدى طلاب قسم التربية البدنية وعلوم الرياضة. مجلة كلية المعارف الجامعية، 8(1)، 33-50.
- رسلان، ش. ع. (2012). الاسترخاء مفتاح الحياة الصحية. دار غريب.
- المصباحين، و.، عبد العزيز، ن.، بيومي، ع.، & أبو رحمن، ر. (2019). الضغوط

النفسية التي تواجه طلبة الجامعات والأساليب الفعّالة لمواجهتها. المجلة العربية للعلوم النفسية، 6(3)، 101-125.  
- مفيّح، ح. (2018). اليوغا والتوازن الصحي: مقابلة مع متدريّات يوغا بمنطقة تلمسان. مجلة الصحة النفسية والرياضية، 5(2)، 22-37.

#### المراجع الأجنبية

- American Psychological Association. (2013). The road to resilience. American Psychological Association.
- American Psychological Association. (2020). Stress in America: The state of our nation. <https://www.apa.org/news/press/releases/stress>
- American Yoga Association. (2024). Benefits of yoga. <https://www.americanyogaassociation.org/benefits>
- Arora, S., & Bhattacharjee, J. (2008). Modulation of immune responses in stress by yoga. *International Journal of Yoga*, 1(2), 55.
- Brown, K. W., & Ryan, R. M. (2003). The benefits of being present: Mindfulness and its role in psychological well-being. *Journal of Personality and Social Psychology*, 84(4), 822-848. <https://doi.org/10.1037/0022-3514.84.4.822>.
- Carver, C. S., & Scheier, M. F. (1998). On the self-regulation of behavior. Cambridge University Press.
- Cohen, S. (2004). Social relationships and health. *American Psychologist*, 59(8), 676-684. <https://doi.org/10.1037/0003-066X.59.8.676>
- Collins, C. (1998). Yoga: Intuition, preventive medicine, and treatment. *Journal of Obstetric, Gynecologic & Neonatal Nursing*.
- Fromm, E. (2013). The sane society. Routledge Classics.
- Harkess, K. N. (2016). The effect of a hatha yoga practice on factors related to chronic stress (Doctoral dissertation, University of Adelaide). University of Adelaide. <https://hdl.handle.net/2440/103470>
- Lazarus, R. S., & Folkman, S. (1984). Psychological stress and the coping process. Springer.
- Maddux, R. E., Daukantaitė, D., & Tellhed, U. (2018). The effects of yoga on stress and psychological health among employees: An 8- and 16-week intervention study. *Anxiety, Stress, & Coping*, 31(2), 121-134. <https://doi.org/10.1080/10615806.2017.1405261>

- McCall, M. C., Ward, A., Roberts, N. W., & Heneghan, C. (2013). Yoga as a therapeutic intervention for adults with acute and chronic health conditions. *Evidence-Based Complementary and Alternative Medicine*, 2013, 1–18. <https://doi.org/10.1155/2013/945895>
- Permuth-Levine, R., & Atkinson, N. L. (2009). Benefits, barriers, and cues to action of yoga practice. *American Journal of Health Behavior*, 33(1). <https://doi.org/10.5993/AJHB.33.1.1>
- Saeidi Asl, S., & Robati, F. S. (2021). The effectiveness of yoga therapy on early maladaptive schemas and emotional distress of depressed women. *Avicenna Journal of Nursing and Midwifery Care*.
- Selye, H. (1956). *The stress of life*. McGraw-Hill.
- Selye, H. (1974). *Stress without distress*. McGraw-Hill.
- Van der Kolk, B. A. (2014). *The body keeps the score: Brain, mind, and body in the healing of trauma*. Penguin Books.
- Zschucke, E., Renneberg, B., Dimeo, F., Wüstenberg, T., & Ströhle, A. (2015). The stress-buffering effect of actual exercise. *Psychoneuroendocrinology*, 60, 95–105. <https://doi.org/10.1016/j.psyneuen.2015.06.001>



# التمائل البنيوي في «عرائس المروج» لجبران خليل جبران

د. سامية السلوم

تمهيد:

بنى جبران باكورة أعماله القصصية «عرائس المروج» وفق بنية عامة متماثلة في القصاص الثلاث المكونة للمجموعة «رماد الأجيال والنار الخالدة» (1) و«مرتا البانية» (2) و«يوحنا المجنون» (3)؛ وعلى الرغم مما يبدو من اختلاف أو تباعد بينها إلا أنها تتدرج جميعها تحت العنوان العام «عرائس المروج». ويمكن النظر إلى كل منها على تمايز/ تعارض بين قطبين دلاليين يمثل أولهما القطب السلبي المرتبط بالحياة المادية الفانية (مظاهر الترف الإنساني الفانية، الماديات المرتبطة بالفرائز وبالظلم وبالتسلط...)، ويمثل ثانيهما القطب الإيجابي المرتبط بالحياة الروحية الخالدة، ويتمثل القطب الإيجابي بالمحبة (تكون المحبة في الروحانيات والطبيعة وإظهار الحق...); وعلى ذلك نقرأ في العنوان العام أنّ العرائس الدالة على فرح الإنسان في حياة جديدة اقترنت بالمروج، لتكون تلك العرائس عرائس المروج في ترفّعها عن ماديات الحياة، ولجوئها إلى الطبيعة.

القصة الأولى (رماد الأجيال والنار الخالدة):

في هذه القصة يُظهر الكاتب التناقض بين حياة المادة الفانية وحياة الروح الخالدة، فيصور الشقاء في الحياة المادية المترفة مع روحانية عالية للحبيين، كما يصور الهناء في الحياة البسيطة الروحانية للحبيين؛ فيساوي بين

حائزة على الجائزة  
الأولى فئة الشعر  
في كلية الآداب  
الجامعة اللبنانية  
في مهرجان  
بيروت عاصمة  
الثقافة العربية  
وبيروت عاصمة  
عالمية للكتاب  
أستاذ مساعد في  
الجامعة اللبنانية  
أستاذة محاضرة  
في مركز اللغات  
والترجمة وكلية  
التربية

المتناقضات، كمساواته بين الغنى والفقر أمام تفضيله حياة المحبة الروحية، وربطها بالخلود، على حياة لا ترتبط بالمحبة، بل بأمجاد العالم المادية، فتكون فانية («لأول مرة في حياته عرف أو كاد يعرف أسباب المجاعة الروحية الملاحقة شبيبته. تلك المجاعة التي توحد بين حلاوة الحياة ومرارتها. ذلك الظمأ الجامع بين تأوّه الحنين وسكينة الاستكفاء. ذلك الشوق الذي لا تزيله أمجاد العالم ولا تثنيه مجاري العمر»)(4). على ذلك نجد أنّ الكاتب قسم قصته إلى قسمين، القسم الأول بدأه بوصف رائع للثراء المادي للمكان («الهيكل العظيمة»، «الأعمدة الرخامية المنتصبة كالجبارة»، «المذبح المصفّح برقوق العاج والذهب»)(5)، وربط المكان بالأسى إذ جاء ناثنان يسترحم الإلهة ويشكو حاله («من عينيه الدموع تستدر الدموع»، «بصوت تخفضه الفصات الأليمة وتقطعه اللوعة القاسية»، «انسحاق قلبي»، «توجع عواطفي»، «تضعضت أحلامي يا عشتروت المقدسة»، «ذابت حشاشتي»، «مات قلبي»، «التهبت دموعي»)(6). وفي أجواء الترف المادي الذي لم يمنع التعاسة والشقاء، ولم يقدم للبطل ناثنان السعادة والنعيم، ظهر البطل يطلب من الإلهة عشتروت، إنقاذ حبيبته من أظفار الموت وعلل طلبه بتقديم الماديات أمام تمثال الإلهة، فيقول: «أنقذها من بين أظفار الموت فنتهج بأغاني مدائحك، مقدّمين المحروقات لمجد اسمك، ناحرين الضحايا على مذبحك، مائنين بالخمير القديمة والزيت المطيب أنية خزائنك، فارشين بالورود والياسمين رواق هيكلك، محرقين البخور والعود الذكي الرائحة أمام تماثلك»)(7). ويكون تقديم الماديات مقترناً بالصلاة والتضرعات، والمطلوب لقاء ذلك إنقاذ الحبيبة ليفرح الحبيبان بأسرار محبة الإلهة ويسعدان بجمال الشبيبة المعلنة خفايا مجدها(8)، أي لاستمرار الحياة السعيدة في عيش غنى الحياة الروحية التي تباركها الإلهة على الأرض. وبدا أنّ البطلين يعيشان حالة من الغنى المادي، فالبطل يعيش في قصر هو قصر كاهن عشتروت(9) وعنده عبيد لخدمته وخدمة حبيبته(10)....، وحبيبته مستلقية وقد نادتها الآلهة وكان وجهها غارقاً «بين المساند الحريية»(11). وعند موت الحبيبة وصل الألم إلى ذروته في ذلك المكان وجواره، حين امتد إلى الراقدين ونساء الحي حتى إلى أرواح الأطفال («في هدوء ذلك الليل ارتجفت أجفان الراقدين وجزعت نساء الحي وذعرت أرواح الأطفال إذ تبطنت ملابس الدجى بنواح موجع وبكاء مرّ وعويل أليم متصاعد من جوانب قصر كاهن عشتروت»)(12). وبعد موت الحبيبة بأيام «جاءت قافلة من المشرق أخبر زعيمها أنه رأى ناثنان تأهّيا في

البرية البعيدة هائماً مع أسراب الغزلان»<sup>(13)</sup>، وهذا يشير إلى مكانة ناثان العالية وشهرته الشخصية البعيدة المدى بين القوافل البعيدة.

وأمام الموت تغيب الماديات مهما كانت قوية، فالترف المادي والسلطة والشهرة لم تتفح ناثان في حضور الموت. وقد بدت بوضوح قوة حضور الموت لإنهاء قصة الحب مقابل عجز مادية القوى البشرية عن الإنقاذ، ولم يستسلم البطلان، حيث «نبت أعاصير الأطباء ومساحيقهم، وباطلاً ضاعت تعازيم الكهان والعرافين»<sup>(14)</sup>، وفي المقابل كان الحل المرجو بطلب تدخل إلهي؛ يتواجه فيه معتقدان أحدهما أنّ الموت هو نهاية المرض المطلوب الشفاء منه، وهو مثله مثل المرض خاضع لقوى سحرية حاسدة هي «عرائس الجان»<sup>(15)</sup>، والثاني هو أنّ الموت هو في يد الإلهة عشتروت وهي إلهة الموت والمحبة، فإذا كانت قوى الشر السلبية تريد فصل الحبيبين بالمرض والموت، فإنّ قوة الخير الإيجابية الإلهية، أي الأعلى مرتبة وقدرة، هي من ستمنع فصل الحبيبين بشكل نهائي، وستعيدهما ليعيشا المحبة، وعلى ذلك لم يعد الموت نهاية، بل هو حلقة من حلقات الارتقاء الروحي والتسليم بقدرة الإلهة، على التحكم بالأجساد والأرواح، على أنّ الروح هي الخالدة وهي ممكن أن تنفصل عن الجسد وتعود إلى الحياة في جسدٍ آخر، وتبقى حافظة ذاكرتها. وجبران هنا يستثمر عقيدة التقمص<sup>(16)</sup>، لكنه يجعل تحققها مشروطاً المحبة، وهو في ذلك ينصر الإيجابية على السلبية في الممارسات الحياتية لتكون الإيجابية هي ما يستحق الإنسان المكافأة عليه لو ساءت ظروف معيشته، وعلى ذلك نفهم «أنا راحلة يا حبيبي إلى مسarach الأرواح وسوف أعود إلى هذا العالم لأنّ عشتروت العظيمة ترجع إلى هذه الحياة أرواح المحبّين الذين ذهبوا إلى الأبدية قبل أن يتمتّعوا بملذّات الحبّ وغبطة الشبيبة»<sup>(17)</sup> وكل ما سبق يُظهر ضعف الحالة المادية لحل المأساة، ويُظهر القوة الروحية في المقابل حيث الإلهة تحمل الخلاص، وقد ماتت الحبيبة وهي تخبر حبيبها أنّ أملها في عيش حبهما ستحققه الإلهة.

وفي القسم الثاني من القصة أظهر جبران أنّ الموت قد غلب الحياة المادية التي أظهرها قد انقلبت رأساً على عقب، فالهيكل قد صار خراباً، وسقطت الأعمدة التي كانت تنتصب كالجبابرة وهي تخضر المكان («خرائب الهيكل»، «الأعمدة الساقطة كأنها أضلع جندي متروك مزقتها الهيجاء وجردهتها العناصر»، «الهيكل المهدوم»، بقايا المذبح المخدشة»، «الأعمدة المرتمية»، «الجدران المتداعية»، «الحجارة المتقوضه»، «تمثال مهشم ملقى على الحضيض»<sup>(18)</sup>) وقد علل الكاتب أطلال المكان بعنف الأجيال تحت سلطة الآلهة الجديدة التي حلت محل الآلهة القديمة، وقد قدّم معطى أنّ تغيير الممارسات المجسدة للقيم الروحية القائمة على

المحبة سوف يؤدي إلى تشويه المادة («مرّت الأجيال ساحقة بأقدامها الخفيّة أعمال الأجيال، وبعدت الآلهة عن البلد وحلّ مكانها آلهة غضوب يلذّ لها الهدم ويبهجها التخريب»)<sup>(19)</sup> لكن رغم التخريب المادي بقي الجوهر وبقيت المادّة تُذكّر به («دُكّت هياكل مدينة الشمس الفخمة وتقوّضت قصورها الجميلة وبيست حدائقها النضرة، وأجذبت حقولها الخصبة، ولم يبق في تلك البقعة غير طللٍ بالٍ يعيد للذاكرة أشباح الأمس فيؤلمها، ويرجع للنفس صدى تهاليل المجد القديم فيحزنها»)<sup>(20)</sup>. وقد تبعت المادة الروح في الهيكل وفي ذلك انتصار للروح على المادة («شعر عليّ الحسيني بعاطفة غريبة أيقظتها خرائب الهيكل...»)<sup>(21)</sup> ومع تغير الزمان تغير المكان وصار خرائب وتغير الأشخاص فأضحى البطل راعي غنم، والبطلة فتاة فقيرة عارية القدمين تحمل جرّتها الفخارية لتملأها بالماء من النبع<sup>(22)</sup>... ومع أنّ البطل والبطلة قد تحولا إلى إنسانين فقيرين إلا أنّ غناهما الروحي كان قد انتصر، وتابعا حياتهما وانتصرا على الموت بفرصة حياة جديدة تبدأ من لقاءهما في المروج، وهذه الحياة هي العرس الذي انتظره الحبيبان فكانا عروسي المروج. وعلى ذلك تكون الحالة الروحية نقيض الحالة المادية، وقد بدا ذلك من خلال بقايا الهيكل حين «عاد علي الحسيني أمام قطيعه نحو خرائب الهيكل»<sup>(23)</sup>. وبما أنه «عاد» فقد كان موجوداً سابقاً ومن السياق نجد أنّ عليّاً هو ناثنان نفسه. وناثنان عندما عرّف بنفسه للإلهة عشتروت ذكر أنّ ناثنان ابن الكاهن حيرام الذي وقف عمره على خدمتها في مذبحة الإلهي<sup>(24)</sup>، وبناءً لخدمة الإلهة طلب منها إنقاذ تجربة المحبة لعبادها. وقد جعل الكاتب المادة مجرد شكل ظاهر وجعل الروح هي المعنى الباطن المقصود بالاهتمام وبالقيمة العالية («أيّتها الروح الجميلة الحائمة في فضاء حلمي... دعيني أراك إن كنت لابسة من المادة ثوباً...»)<sup>(25)</sup>، وعلى ذلك نظر إلى علاقته بحبيبته نظرة بعيدة عن المادة فقال «اختارتها نفسي بمشيئتك»<sup>(26)</sup>، والحبيبة قالت: «نادتني الآلهة يا عريس نفسي»<sup>(27)</sup>

- وقد كان تأريخ القسم الأول في /خريف سنة 116 قبل الميلاد، والخريف حمل معه حدث موت الحبيبين، أمّا تأريخ القسم الثاني ففي ربيع سنة 1890 لمجيء يسوع الناصري، والربيع حمل معه عودة الحبيبين لعيش حياة المحبة الربيعية، حيث كان لقاء الحبيبين في حياة ثانية، وارتقاء روحي يتابع الارتقاء الروحي الذي كان في القسم الأول. وكان القسم الأول في زمن تعدد الآلهة وفق النص، حيث دخل ناثنان هيكل الإلهة عشتروت؛ وهي إلهة الخصوبة والحب والحرب عند الفينيقيين والكنعانيين<sup>(28)</sup>، وقد قال ناثنان للإلهة عشتروت حين تصرّع لها لإنقاذ حبيبته «رحماك يا عشتروت العظيمة، رحماك يا

ربة الحب والجمال»<sup>(29)</sup>، وجعلها أيضاً ربة المعجزات والمحبة والموت، خلافاً للأصل، فقال «خَلصينا يا رَبَّةَ المعجزات ودعي المحبَّة تغلب الموت، فأنت رَبَّةَ الموت والمحبَّة»<sup>(30)</sup>. وتغييره رمزية الإلهة عشتروت يوحي بأنَّ المحبة هي الجوهر الإلهي المطلوب رغم اختلاف تسميات الآلهة.

وقد جمع جبران انتماءات دينية عديدة ولم يجعل نصة منتمياً إلى فئة دينية معينة؛ بمعنى أنه لم يتبنَّ في نصه معتقداً يضعه إطاراً دينياً محدداً للنص، فجمع بين الوثنية والتوحيد، فقد اختار عشتروت إلهة يصلي لها، وفي الوقت ذاته جعل التماثل غير مقصود بذاته، حين قال لها «أمام تماثلك»<sup>(31)</sup>؛ فالتماثل، كما في المسيحية، هو رمز، وليس مقصوداً لذاته كما في الوثنية. كما أنَّ طلب العودة إلى الحياة (التناسخ) قد لبَّته الإلهة عشتروت، رغم أنَّ الزمن كان ما بعد الميلاد، وحتى بعد الإسلام وفق اسم البطل علي الحسيني، يعني في زمن الإله الواحد (قد أعادت عشتروت روحينا إلى هذه الحياة كيلا نُحرم ملذات الحبِّ، ومجد الشبيبة يا حبيبي!)<sup>(32)</sup>. وعلى ذلك نجد أنَّ جوهر الإله هو المطلوب وليس الاسم العرضي.

وفي التوحيد؛ جمع الكاتب اليهودية، والمسيحية والإسلام؛ فمن اليهودية جمع الكاتب في تركيبة اسم ناثن ابن الكاهن حيرام اسمين عبريين، هما ناثن<sup>(33)</sup> الذي هو من أسماء أجداد السيد المسيح وفق إنجيل لوقا (ناثن بن داود)<sup>(34)</sup>، وحيرام الذي كان ملك صور وعاش في زمن الملك داود<sup>(35)</sup>، فالاسمان من الأسماء العبرية الواردة في الكتاب المقدس، ومن المسيحية أرَّخ الكاتب الزمن نسبة إلى ميلاد يسوع الناصري، ومن الإسلام نسب الكاتبُ البطلَ، الذي عاد إلى الحياة، إلى المسلمين من خلال اسم علي الحسيني.

وقد استثمر جبران فكرة تناسخ الأرواح أي انتقالها من جسد بشري إلى آخر، أو عيشها حيوات مختلفة، ثم اتحداها بالله الخالق في نهاية المطاف («مزَّقِي هذا النقاب الحاجب كَلِّيتي واهدمي هذا البناء الساتر ألوهيتي»)<sup>(36)</sup>، وبفكرة التناسخ أو التقمص أظهر تطور الإنسان من خلال إعادته إلى الحياة لا من خلال استمرار الفكر والجسد؛ أي ليس على أنَّ الإنسان هو استمرار أبويه وأفكارهما التي ربياه عليها. وهو بذلك ينتصر للروح على المادة. وقد اعتمد فكرة التناسخ ليمنح العلاقة بين المادة والروح بعداً زمنياً يبدو معه تفضيله الغنى الروحي على الغنى المادي بشكل جليّ، على أنَّ الجسد مادة فانية، والمرض والموت محصوران بالجسد وحده («...نفثن في جسدها اللطيف لهاث علَّة غريبة، ثم بعثن رسول المنايا»)<sup>(37)</sup>، «كأنه يريد أن ينفخ في جسدها السقيم حياة جديدة من حياته»<sup>(38)</sup>، «ظهر على شفيتها خيال ابتسامة هي بقية الحياة في جسدها اللطيف»<sup>(39)</sup>.

أمّا الروح فهي خالدة؛ حيث يموت الجسد أمّا الروح فتُرجعها الإلهة («عشثروت ترجع إلى هذه الحياة أرواح المحبين...»<sup>(40)</sup>). والروح من الإله، وهي راقية على المادة التي هي من الإنسان («نسي ذاته المقتبسة والتقى بذاته المعنوية الخفية المضغمة بالحلم المترقعة عن شرائع الإنسان وتعاليمه»<sup>(41)</sup>).

وللهدف نفسه أي الانتصار للروح على المادة استثمر فكرة وحدة الشعلة عند افلاطون التي تطورت إلى ما يُعرف بتوأم الشعلة. ويرتبط مفهوم توأم الشعلة بتقاليد روحانية قديمة، مثل الفلسفة الأفلاطونية التي اقترحت أن كل روح كانت يوماً ما موحدة مع أخرى قبل أن تنفصل<sup>(42)</sup>؛ أي إن النفس تظهر في جسمين يعملان معاً لاستكمال تجربة الحياة. والغاية الوجودية هي أن توأم الشعلة يتصل ساعياً لتحقيق هدف أكبر يرتبط بالنمو الروحي وبالتناغم الكوني<sup>(43)</sup>. وبدا ذلك جلياً عند جبران في قوله «أبقي شطر نفسي حياً بجانبني، لنفرح بأسرار محبتك»<sup>(44)</sup>، فالحبيبان من نفس واحدة، وعلى ذلك نجد البطل قد «شعر بوحدة جارحة وبعاد متلف فاصل بين روحه وروح جميلة كانت بقربه قبل مجيئه إلى هذه الحياة. شعر بأن جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدمة فصلها الإله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر»<sup>(45)</sup>، وعلى ذلك يناجي حبيبته، في خطوة متقدمة على الشعور، فيقول: «من أنت أيتها القريبة من قلبي، البعيدة عن ناظري، الفاصلة بيني وبينني، الموثقة حاضري بأزمنة بعيدة منسية»<sup>(46)</sup>. وفي خطوة لربط ماضي الحبيين بحاضرهما في حياتهما الجديدة، صارت «نفسه تتركه وتسبح حوله ثم تعود إليه كأنها تبحث بين تلك الخرائب عن ضائع عزيز»<sup>(47)</sup>. وبعد اللقاء كان تقارب الروحين الذي قرب المسافة بين الجسدين الجديدين للحبيين («حتى إذا ما تمّ التفاهم وتكامل التعارف بين الروحين عبر عليّ الجدول مجذوباً بقوة خفية»<sup>(48)</sup>). وبعد ذلك وصل الحبيبان إلى الهدف الأسمى من العلاقة الروحية بينهما وكذلك من العلاقة التي تربطهما بالإله المحب («مشى الحبيبان بين أشجار الصفصاف ووحداً كليهما لسان ناطق بتوحيدهما، ومسمع منصت لوعي المحبة، وعين مبصرة مجد السعادة»<sup>(49)</sup>).

ويصل جبران إلى ذروة الانتصار الروحي على المادي في وصف شعور علي الحسيني تجاه حبيبته قد وحدهما الحب المطلق غير المشروط بالعقل المادي، بل هو في خلفية التفكير، فهو الطريق والحق، ذلك الحب المنتصر على الموت، الذي شعر به علي («شعر بالحبّ القوي العظيم يشمل قلبه ويمتلك أنفاسه، ذلك الحبّ الذي يبيح مكونات النفس للنفس ويفصل بتفاعيله بين العقل وعالم المقاييس والكمية»<sup>(50)</sup>).

وذلك الحب هو الكلمة، التي نسمعها في السكينة والتأمل، أساس الحياة («ذلك الحب الذي نسمعه متكلمًا عندما تخرس ألسنة الحياة»)<sup>(51)</sup>، وقد عبّرت، عن السكينة، حبيبة ناثنان في نظرتها التي خاطبت فيها روحه، بعيدًا عن ماديّات الحياة التي رمز إليها الكاتب بأجساد الألفاظ، ذلك حين «نظرت إلى عينيه نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر بجانب السكينة - لغة الأرواح - نظرة من لا يرضى بأن يكون الحب روحًا في أجساد من الألفاظ»<sup>(52)</sup>. وذلك الحب هو نور العالم («ونراه منتصبًا كعمود النور عندما تحجب الظلمة كل الأشياء»)<sup>(53)</sup>

وذلك الحب الروحاني يرتقي إلى السيد المسيح الإله الهابط من السماء، في الفكر المسيحي، وهنا الحب الإله قد هبط وبارك نفس المحبّ وأيقظ العواطف التي كانت نائمة. ذلك الحب يساوي بين المتناقضات لا يميل إلى طرف منها لأنه للجميع في الحياة («ذلك الحب، ذلك الإله قد هبط في تلك الساعة الهادئة على نفس عليّ الحسيني»)<sup>(54)</sup> وأيقظ فيها عواطف حلوة ومرّة مثلما تستنبت الشمس الزهور بجانب الأشواك»<sup>(55)</sup>. وبناء على ما سبق رأينا كيف انتصر جبران للروح على المادة حين فضّل الروحانيات على الماديّات، وحين ساوى بين المتناقضات تحت عنوان الفرح الروحي المطلوب في كل الأحوال.

#### القصة الثانية: مرتا البانية

في هذه القصة أظهر الكاتب التناقض الأساسي بين الموت والحياة من خلال قطبين؛ أولهما سلبي يمثّل الموت، هو الانحدار في التفكير المادي المتمثّل ببشاعة الواقع السيئ، وبالغرائز الحيوانية وبظلم الإنسان وقسوته وبقيود المجتمع، وبتقييم الإنسان من خلال الظاهر...، وثانيهما إيجابي يمثّل الحياة، هو الارتقاء الروحي المتمثّل بإدراك جمال الباطن وجمال المحبة والحق والحرية والعدل الخفي... وانتصر جبران للقطب الإيجابي على السلبي.

وقد قسم جبران نصه إلى قسمين: القسم الأول قدّم فيه الظاهر البشع للوضع الحياتي الذي تعيشه مرتا ونمت فيه، ونما فيها، في المقابل، قدّم الباطن الذي يتهيأ لإدراك جمال الحياة. ووضع جبران الحياة المدنية الاصطناعية مقابل حياة القرى والمزارع الطبيعية، وأتى بمثل مادي عن شاب من المدينة ظاهره جميل وباطنه بشع، وفي المقابل أتى بمثل من الطبيعة كان البطلنة مرتا التي دخلت متأثرة بجمال الظاهر، وتركت القرية وذهبت مع الشاب إلى المدينة.

وفي القسم الثاني قدّم جبران هدفه من القصة وهو إظهار التناقض بين الواقع القائم على

المادة الذي ليس فيه رقي للإنسان، وبين الإنسانية الروحانية التي تُعنى بالجوهر، ووصل إلى أن اكتساب المعرفة المدرسية من الكتب هو مرفوض، لأنَّ فيه قسوة، والقسوة تمثل الجهل لا العلم، وطرح في المقابل أن يكون الإنسان تلميذ الطبيعة في مدرسة الحياة، وهي تعلّمه الإنسانية. وأعاد تقييم قصة مرتا وما حدث لها ليصل إلى انتصار الروح على المادة، وبذلك انتصر الكاتب للطرف الإيجابي الممثل للحياة على الطرف السلبي الممثل للموت. وسنرى ذلك في شيء من التفصيل:

بدأ جبران نصه بوصف حال مرتا الفاقدة الأمان العاطفي، العائلي، المجتمعي، المادي («مات والدها وهي في المهد»، «ماتت أمها قبل بلوغها العاشرة»، «باتت غريبة في أرض مولدها»، «وحيدة»، «تسير كل يوم عارية القدمين رثة الثوب وراء بقرة حلوب...»، «حاسدة البقرة على وفرة المأكّل»، «تمام متنهدة متمنية لو كانت الحياة كلها نومًا عميقًا لا تقطعه الأحلام ولا تليه اليقظة»، «عند مجيء الفجر ينتهرها وليها»، «تهب من رقابها مرتعدة خائفة...»<sup>(56)</sup>.

ومقابل الوضع المادي المزري السيئ البشع في ظاهره الذي كانت تعيشه مرتا أظهر جبران الباطن الروحاني الجميل الذي بدأ في تكوينها، وهي لا تعلم بوجوده، فقد مرت الأعوام ونمت مرتا وكانت «تتولد في قلبها العواطف على غير معرفة منها مثلما يتولد العطر في أعماق الزهرة، وتتأبها الأحلام والهواجس مثلما تتأب القطعان مجاري المياه»<sup>(57)</sup>. وهذا تمهيد للتجربة التي ستمرّ بها مرتا، والاختبار القاسي الذي ستشهده، وسيظهر انتصارها ومثيالتها وأمثالها في الحياة («صارت صبية ذات فكرة تشابه تربة جيدة عذراء لم تلق بها المعرفة بذوراً ولا مشت عليها أقدام الاختبار»)<sup>(58)</sup>. وهكذا وضع الكاتب مرتا في وضع مميز استحضّر فيه مثل الزارع الذي قدّمه السيد المسيح ويبيّن فيه أهمية تربة الإنسان في تلقي كلمة الله التي جسدها بالبذور<sup>(59)</sup>، مع ما يعنيه ذلك من ارتقاء روحي حتمي منتظر.

ووضع مرتا في بيئة الطبيعة، التي تمثل منفى لا وطنًا، وذكر أنّ فيها طهرًا («ذات نفس كبيرة طاهرة منفية بحكم القدر إلى تلك المزرعة»)<sup>(60)</sup>، وجعلها تتماهى بالطبيعة الأمّ في تقلبات حياتها مع الفصول وهذه التقلبات حتمية خاضعة للقدر، مما يوحي بأنّ أحداث الحياة غير قابلة للتغيير، لكن الفضل يكون بطريقة التفاعل معها («حيث تتقلب الحياة مع فصول السنة كأنها ظلّ إله غير معروف جالس بين الأرض والشمس»)<sup>(61)</sup>

ثم قارن بين المدينة والريف من خلال تقديم نظرة أهل المدن لأهل القرى على أنه هو ممن قضوا عمرهم في المدن وهو الناطق باسمهم؛ وذلك ليوحي بأنّ نظرتة موضوعية في

تفضيل الآخر على الذات من خلال التجربة والمعرفة («نحن الذين صرفوا معظم العمر في المدن الأهله نكاد لا نعرف شيئاً عن معيشة سكان القرى والمزارع المنزوية في لبنان»)<sup>(62)</sup> وكانت نتيجة المقارنة هي أهل المدن قد ابتعدوا عن الحياة الإيجابية على عكس أهل القرى والمزارع («قد سرنا مع تيار المدنية الحديثة حتى نسينا أو تناسينا فلسفة تلك الحياة الجميلة البسيطة المملوءة طهراً ونقاوة»)<sup>(63)</sup>

وأوضح جبران، بمقارنة مباشرة، مادية أهل المدن السلبية، على عكس أهل القرى غير الماديين، لأنهم أبناء البساطة الروحانية الإيجابية («نحن أكثر من القرويين مألًا وهم أشرف منا نفوسًا. نحن نزرع كثيرًا ولا نحصد شيئًا، أما هم فيحصدون ما يزرعون. نحن عبيد مطامعنا وهم أبناء قناعتهم. نحن نشرب كأس الحياة ممزوجة بمرارة اليأس والخوف والملل، وهم يرتشفونها صافية»)<sup>(64)</sup>

وبعد أن قدّم صورة مادية للمدينة وصورة غير مادية لأهل القرى، الذين يتماهون بالطبيعة في مراحل حياتهم («تلك الحياة التي إذا ما تأملناها وجدناها مبتسمة في الربيع، مثقلة في الصيف، مستغلة في الخريف، مرتاحة في الشتاء، متشبهة بأما الطبيعة في كل أدوارها»)<sup>(65)</sup> قدّم مرتا على أنّها انعكاس للطبيعة، وجمع بين مرتا والطبيعة الحزينة الخريفية؛ فمن جهة مرتا بلغت السادسة عشرة من عمرها «وصارت نفسها مثل مرآة صقيلة تعكس محاسن الحقول وقلبها شبيهاً بخلايا الوادي يُرجع صدى كل الأصوات»<sup>(66)</sup>، ومن جهة أخرى كانت الطبيعة في يوم خريفي في حالة بأئسة («تأوه الطبيعة»، «تأمل باضطراب أوراق الأشجار المصفرة»، «الزهور... ذبلت وبيست قلوبها...»، «ألم فراق الصيف...»)<sup>(67)</sup>. في هذه الأجواء الممهدة لمأساة حدث أن وصل فارس يمثل المدينة «دلت ملامحه وملابسه على ترف وكياسة»<sup>(68)</sup>، وسأل مرتا عن الطريق المؤدية إلى الساحل، وهو لا ينتظر جوابًا، بل كان يتحجج بالسؤال، ولذلك ما وافق على سؤال وليها أو غيره، فقد كان يريد أن يوقع بها، وكان يراها شكلاً جميلاً («بيتسم لها بلطف سحري يكاد يبكيها لعذوبته وينظر بمودة ويميل إلى قدميها العاريتين ومعصميهما الجميلين وعنقها الملس وشعرها الكثيف الناعم ويتأمل بافتتان وشغف كيف لوحث الشمس بشرتها وقوت الطبيعة ساعديها»)<sup>(69)</sup>؛ فقد كان ينظر إلى جمالها الخارجي، ولم يلتفت إلى جمالها الداخلي، كما بدا. وليصطادها أظهر لها لطفًا لم تعهده، وكانت تحتاج إليه لينقذها من قسوة الحياة عليها («قد خاطبني بلطف ورقّة وقال لي إني جميلة وإنه قد أحبني فلا يتركني، وإن البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى»)<sup>(70)</sup>.

كان الفارس يغري مرتا بظاهرٍ مادي يقدّمه على أنه يحمل في باطنه الجمال المتجلي

بالأمان المنشود ليتيمة متروكة تحلم بدفاء العائلة («ألوى عليّ وضمني إلى صدره وقبّلني، وكنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأنني كنت يتيمة متروكة. أردفني على ظهر جواده وجاء بي إلى بيت جميل منفرد. ثم أتى بالملابس الحريرية والعطور الزكية والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة»)(71)

ومرنا في المقابل سلمته أمرها، منذ البداية، حيث «كانت مُطرقة خجلاً لا تريد الانصراف ولا تقوى على الكلام لأسباب لا تدركها»(72). وبعد أن رافقته، وهي قاصر وقد غرّ بها، إلى بيروت وعرفته جيداً، رأت أنه «فعل كل ذلك مبتسماً وساتراً بشاعة ميوله وحيوانية مرامه بالكلام اللطيف والإشارات المستحبة»(73)، أدركت أنّ ظاهر الأمور المادي الجميل يخفي خلفه باطناً بشعاً، وأنّ الفارس الجميل كان «الحيوان المختبئ في الإنسان»(74)، وذلك «الحيوان» قد ترك وراءه ضحيتين مرثا وطفلها من دون معين («وبعد أن أشبع شهواته من جسدي وأثقل بالذل نفسي غادرني تاركاً في أحشائي شعلة حية ملتهبة تغذت من كبدي ونمت بسرعة ثم خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع ومرارة العويل»)(75).

وصعد جبران إظهار بشاعة الأمور المادية من خلال ابن مرثا الذي زاد حاجتها إلى المال لتعيّله، ورفاق الحيوان الذين علموا بمكان مرثا لتصير الوحشية جماعية في تحويل جسد مرثا إلى سلعة («وعلم رفاقه بمكاني وعرفوا بعوزي وضعفي فجاء الواحد بعد الآخر وكل يبتغي ابتياع العرض بالمال وإعطاء الخبز لقاء شرف الجسد»)(76)

وأظهر بشاعة النظرة المادية في النظر إلى ابن مرثا («مثل أترابه الفقراء لم يتعود غير خشن الكلام من أولئك الذين ينظرون غالباً إلى صبية الأزقة كأشياء قذرة لا شأن لها، وليس كنفوس صغيرة مكلومة بأسهم الدهر»)(77)

وقد أبرز ازدياد معاناة مرثا بسبب عدم تمكنها من إنهاء حياتها التي يملكها طفلها معها، وذلك أظهر شطرين لحياتها أحدهما ينتمي إلى عالم المادة الضعيف كانت تريد التخلص منه والثاني روعي ينتمي إلى الفضاء الواسع («قسمت حياتي إلى شطرين: شطر ضعيف متألم، وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالباً الرجوع إلى الفضاء الواسع»)(78)

فمرثا لم تكن تحيا من أجل تمتعها بحياتها الخاصة، بل كانت حياتها معذبة وكانت ترغب بإنهائها لإنهاء الألم، لكنها أبقت عليها من أجل ابنها الصغير الضعيف. فمرثا هي الأم التي تعيش من أجل ابنها، لا الزانية، التي تعيش من أجل رغباتها المادية في الحياة. وجبران لا يقدم الموقف المادي لذاته بل لإظهار كيفية قراءته روحياً لإظهار جمالية الباطن المغطاة بظاهر بشع بدءاً من ردّ فعله ومحاورته الضحية لتتبني رأيه لا رأي المجتمع المنتج لهذه العلاقات...

وقد كان وجود المتكلم، في النص، سبباً في إفهام مرتا أهمية عمقها الروحي، حيث كانت ضحية مظلومة وليست ظالمة وأنها زهرة الطبيعة المسحوقة تحت أقدام الحضارة التي استغلتها («أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية»، «تعزي يا مرتا بكونك زهرة مسحوقة ولست قدماً ساحقة»، «نعم أنا مظلومة، أنا شهيدة الحيوان المختبئ في الإنسان، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام»)(<sup>79</sup>)

وأظهر، في مقابل بشاعة الإدانة، الإدراك الروحي، بالنظر بعواطف النفس الذي بدا من خلال وصف الصبي («تأملت عينيه المكحولتين بأخيلة التعاسة والفاقة، وفمه المفتوح قليلاً كأنه جرح عميق في صدر متوجع... وقامته الصغيرة المهزولة المنحنية على طبق الزهور كأنها غصن من الورد الأصفر الذابل بين الأعشاب النضرة»)(<sup>80</sup>)

وأظهر، من خلال وصفه نفسه في تأمله الصبي، جمال نظرة عواطف النفس المحبة، تلك النظرة التي لا تدين بل تحتضن الآخر («تأملت كل هذه الأشياء بلمحة مظهرًا شفقتي بابتسامات هي أمر من الدموع، تلك الابتسامات التي تنشق من أعماق قلوبنا وتظهر على شفاهنا ولو تركناها وشأنها لتصاعدت وانسكبت من مآقينا»)(<sup>81</sup>)،

وقد كبر جبران صورة التعاطف الجميل من خلال جعل الفتى رمزاً لطبقة الفقراء المهمشة، وجعل التعاطف معه تواصلًا وتعاطفًا مع ما يرمز إليه عملياً، من جهة، وجعل التعبير المادي بالتعاطف وسيلةً، من خلال شرائه بعض زهوره، والغاية هي التواصل الأرقى الذي تمثل بابتياح المحادثة لتسليط الضوء على الوجد الذي تعيشه الضحية («ابتعت بعض زهوره وبغيتي ابتياح محادثته لأنني شعرت بأن من وراء نظراته المحزنة قلباً صغيراً ينطوي على فصل من مأساة الفقراء الدائم تمثيلها على ملعب الأيام، وقل من يهتم بمشاهدتها لأنها موجهة»)(<sup>82</sup>)

ووصل إلى غاية التواصل العاطفي حين صوّر استيعابه لحالة مرتا أم الصبي من خلال سؤال الصبي عن أمه، وجوابه إنها مرتا البانية وإنها مريضة؛ وهو تفاعل بمحبة («تجرعت مسامعي هذه الكلمات القليلة من فم الصبي وامتصتها عواطفني مبتدعة صوراً وأشباحاً غريبة محزنة»)(<sup>83</sup>)، وعلل تعاطفه وألمه لحال مرتا بالتأثر بالبيئة، واضعاً بيئة الطبيعة الحاضنة في مقام أهم من بيئة الحضارة الإنسانية الفاسدة القاسية («تلك الصبية التي كانت بالأمس مستأمنة بين أشجار الأودية هي اليوم في المدينة تعاني ممرض الفقر والأوجاع، تلك اليتيمة التي صرفت شببيتها على أكف الطبيعة ترعى البقر في الحقول الجميلة قد انحدرت مع جرف نهر المدينة الفاسدة وصارت فريسة بين أظفار التعاسة والشقاء»)(<sup>84</sup>)

وأظهر جبران الصورة السلبية للمدينة الحضارة الإنسانية التي حاولت تشويه الصورة

الإيجابية للقرية من خلال أذية أبناء الطبيعة؛ فالفتاة مرتا هي ابنة المروج التي اختلفت حياتها بين الأمس واليوم؛ ففي الأمس كانت مرتا في القرية، وهناك فقدت أسرته، وعاشت في بيت جيرانها ضمن عائلة كانت تحبها (بكت عليها زوجة وليها)<sup>(85)</sup>. وكانت حياتها قاسية في القرية في ظاهرها، حيث كانت (القرية) بناسها وطبيعتها آمنة على أبنائها، فمرتا كانت تعيش مع جيرانها، وهي طفلة بدون عائلة، وكبرت في بيت الجيران فهي مستأمنة بين الناس وفي الطبيعة (رغم الفقر كانت مرتا ابنة المروج، بالأمس، «مستأمنة بين أشجار الأودية»)<sup>(86)</sup>، وفي اليوم، باتت مرتا في المدينة التي اختارت (مرتاً) ابنها، أي ابن المدينة، ليعوضها عن الحياة العائلية وعن الحب العائلي الحقيقي الذي خسرت بموت والديها. فكانت صورة المدينة في الظاهر تعويضاً عن قساوة حياة القرية، لكنها في باطنها حملت غدراً وشقاءً بات ظاهراً.

وقد قدّم جبران نموذجاً للتعاطي الإنساني المطلوب الاحتذاء به للبدء بعلاج المأساة بمساندة الضحية، من خلال ابتلاع محادثة الطفل والذهاب معه إلى أمه مرتا وقوله لها «أنا لم أجد إليك كحيوان جائع بل كإنسان متوجّع. أنا لبناني عشت زمناً في تلك الأودية والقرى القريبة من غابة الأرز...»<sup>(87)</sup>. وفي هذا القول برز الإنسان المتوجّع الذي أراح مرتا بالتعاطف معها وعدم إدانتها. وهذا الإنسان هو ابن القرية الذي عاش في تلك الأودية، قريباً من غابة الأرز، وهو يقابل ابن المدينة الذي مثل الحيوان ذا الغريزة غير المشبعة، والذي حاول أن يُشبع غريزته بالتعدي على القاصر والغدر بها في غابة الحضارة التي تنافي بأخلاقياتها أخلاق غابة الأرز والأودية القريبة والقرى...

وأظهر جبران صورة المرأة المظلومة التي يدينها المجتمع الذي ربّأها على مفاهيم العار والندس المغلوطة التي تدين المرأة دون الرجل، ولو كانت غير راشدة ومخدوعة باسم الزواج من رجل حضاري في الظاهر جميل الشكل والكلام... وقد بدا ذلك من خلال الحوار بين المتكلّم في النص ومرتا التي هاجمته بعبارات قاسية تلخّص مأساتها ورفضها الاستمرار في حياة فيها هذه المأساة («ماذا تريد أيها الرجل؟ هل جئت لتبتاع حياتي الأخيرة وتجعلها دنسة بشهواتك؟ اذهب عني فالأزقة مشحونة بالنساء اللواتي يبعنك أجسادهن ونفوسهن بأبخس الأثمان. أما أنا فلم يبق لي ما أبيع غير فضلات أنفاس متقطعة، عما قريب يشترها الموت براحة القبر!»)<sup>(88)</sup>. ولم يكتفِ المتكلّم باستيعاب ما قالت، بدون إدانة، بل تواصل معها مطمئناً إياها باحترام وود («فاقتربت من سريرها وقد آلمت كلماتها قلبي لأنها مختصر حكايتها العسة... وقلت متمنياً لو كانت عواظي تسيل مع الكلام لا تخافي مني يا مرتا...»)<sup>(89)</sup>

وكبّر جبران صورة الظلم المجتمعي، ووضع فوقه العدل الإلهي الحاضر، حين جعل مرتاً جزءاً من المظلومين، من أرامل ویتامی وفقراء، وقد داستها الحياة بالنعال، رمزاً مختصراً لتعاطي الحضارة مع الطبيعة، وفي المقابل ظهر مصدر العدل والرحمة الذي تصاعد نحوه العطر، مع تصاعد النواح والصراخ والتنهيدات («قد داستك تلك النعال بقسوة لكنها لم تخفِ عطرك المتصاعد مع نواح الأرامل وصراخ الیتامی وتنهيدات الفقراء نحو السماء مصدر العدل والرحمة»)<sup>(90)</sup>

وأظهر جبران، من خلال الحوار، أنّ الشاب المقابل لرمز الشرّ (ابن المدينة/ والد ابن مرتا) هو الشاب المتكلم ابن المدينة الذي يحيا في المدينة ولكنه عاش في القرية، ويفضّل القرية على المدينة، ويتمسك بعادات القرى في الوقوف مع الضعيف، ويستنكر من عالم القرى الفكر الذكوري الذي يدين المرأة في حياتها الجنسية خارج إطار الزواج ولو أكرهت، مثل مرتا القاصر في ما حدث لها مع الشاب الفارس ورفاقه من بعده.

ومهد لاستنكاره بكلام مرتا التي تعبّر عن امتنانها له («جئت محسناً مشفقاً فلتجزك السماء عني إن كان الإحسان على الخطأة برّاً والشفقة على المرذولين صلاحاً»)<sup>(91)</sup>، وتطلب منه العودة من حيث أتى قبل أن يراه أحد («لكني أطلب إليك أن تعود من حيث أتيت لأن ووقوفك في هذا المكان يكسبك عاراً ومذمة، وحنانك عليّ يثمر لك عيباً ومهانة. ارجع قبل أن يراك أحد...»)<sup>(92)</sup>. وتعلل طلبها ذهابه بأنّ بقاءه يضره ولا يفيدها، فهي في حالة يأس لا يشفى إلاّ بالموت («إذا ذكرتني قل قد ماتت مرتا البانية ولا تقل غير ذلك»)<sup>(93)</sup>، وهي تقول ذلك لأنها تجد صفاتها من منظور المجتمع أنها من الخطأة والمرذولين، وهي كالأبرص الساكن بين القبور... وكانعجة الجرباء)<sup>(94)</sup>. ومن المنظور نفسه تبدو صورة ابنها ليس على أنه ابن الحياة بل هو في نظر الناس موضع سخرية واحتقار «ثمرة الإثم... ابن مرتا الزانية... ابن العار... ابن الصدف...»<sup>(95)</sup>. وهذه الصورة تسهم في إبراز صورة المجتمع الظالم الأعمى الجاهل المكتفي بنظرته القاسية التي تظلم امرأة ضعيفة وطفلها الذي «طهرت طفولته بأوجاعها ودموعها، وكفرت عن حياته بتعاستها وشقائها»<sup>(96)</sup>.

وكبّر جبران صورة الغدر الحضاري للطبيعة من خلال افتتاح المدينة بجمالها الظاهر وغدرها الباطن بوجهها الذكوري عالم القرية بوجهها الأنثوي الضعيف، ومن خلال ذوبان القرية في المدينة التي غدرتها برمز فردي وجماعي. وابن مرتا هو ثمرة زواج النقيضين الظالم القوي الغادر الحيوان المعتدي... والمظلومة الضعيفة المغدورة الإنسان النقية... وهذا الابن ممكن أن يتابع ظلم أبيه أو ينتقم لأمه المظلومة، ويواجه أخطار الحياة الحقيقية المفروضة عليه، عندما يكبر...

وقد كان الخطر الحقيقي (وفق جبران) من الحيوان المختبئ في الإنسان المدني الذي كان في ظاهره لطيفاً («خاطبني بلطف ورقة وقال لي إني جميلة وإنه قد أحبني، وإنّ البرية مملوءة وحشة والأودية هي مساكن الطيور وبنات أوى»<sup>(97)</sup>).

وكذلك كان الخطر في تبني المنظومة المجتمعية قيم العار للمرأة الضحية (القاصر، اليتيمة، الفقيرة، الثائبة عن ذنب لم تقترفه بوعيها... ابنة القرية والمروج)، وعدم تجريم الجاني (الراشد، المخطط، المتماذي في الخطيئة/ الجريمة في حق قاصر من خلال الإيقاع بها وتخليه عنها ودعوة رفقاءه لمتابعة ما بدأه...، ابن المدينة الغني الذي جعل المرأة سلعة اشتراها بالعواطف الزائفة وربما للقيم الذكورية البالية...)

ومواجهة الخطر ظهرت في احتمال التغيير الذي لم ينته بموت مرتا الأنثى، لأنها تركت خلفها ضحية ذكراً يمكنه المواجهة، وهو ينتمي إليها ولا يعرف والده («أنا ابن مرتا البانية»، «هز رأسه الصغير كمن يجهل معنى الوالد»<sup>(98)</sup>).

والمواجهة هنا بين نقيضين أولهما الناس الناظرين بجهلهم إلى ابن مرتا، وثانيهما هو ابن مرتا الطفل الوحيد اليتيم بدون عائلة حاضنة أو حتى بيت حاضن. والمواجهة تكون عندما يكبر الصبي، ويكون الانتصار للظلم متمثلاً بالطرف الأول/ الناس إن خجل ابن مرتا بأمه المظلومة، وكان ضعيفاً جباناً خاملاً، ويكون الانتصار للعدل إن عاش الصبي وكان قوياً شجاعاً في المواجهة التي يمثل انتصاره فيها انتصار قيم السماء العليا على قيم الأرض الدنيا، وتنتهي المواجهة إن مات الصبي، لكن لا تكون نهاية، بل لقاء بأمه بعد الموت «حيث النور والراحة»<sup>(99)</sup>، من جهة، ومن جهة أخرى ينتصر جبران للعدل على الظلم في طرحه أنّ الذين رفضتهم قوانين البشر في دار الفناء باتوا في رعاية الإله إلى الأبد في دار البقاء، حيث فصل بين حياة الجسد التي تتشبه بحياة الطبيعة، وبينما حياة الروح تبقى مؤقتاً على الأرض، وهي منفية من عالمها السماوي، كما ورد في النص («ذات نفس كبيرة طاهرة منفية بحكم القدر إلى تلك المزرعة»<sup>(100)</sup>)، «النفس يا مرتا هي حلقة ذهبية مفروطة من سلسلة الألوهية...»<sup>(101)</sup>، «ولدي الذي أبعدته السماء عنها إلى هذه الحياة»<sup>(102)</sup>، «أبانا الذي في السموات...»<sup>(103)</sup>.

وفي النهاية بعد إظهار كيفية قراءة حياة المظلومين بالطريقة الصحيحة التي قدّمها جبران نموذجاً للعلم الحقيقي، تموت البطلة وهي تصلي وتتواصل مع الغيب الذي يريحها من عبء الحياة المادية. ورغم موت مرتا ورفض القيمين دفنها في مقابر يخضرها الصليب، إلا أنّ إله مرتا الذي استودعته ابنها لم ينسها، بل حقق طلبها أن يتسلّم روحها ويرعى ولدها، فقد انتهت القصة عند دفن مرتا، حيث رافقها في حضن الطبيعة البعيدة عن الحضارة

القاسية. وكان المشهد الأخير يُظهر بداية رعاية الله لابن مرتا من خلال نقد القيمين على الأمور الدينية الذين رفضوا دفن مرتا بين أتباع المسيح، وإدخال شخصية جديدة إلى المشهد، هي فتى يرافق ابن مرتا («لم يشيعها غير ابنها وفتى آخر كانت مصائب هذه الحياة قد علمته الشفقة»)<sup>(104)</sup>. وهذا الفتى قد يمثل اسمراً لنهج جبران<sup>(105)</sup> أو ربّما يمثل جيلاً جديداً ممن يمثلهم جبران في النص، يتابع ما بدأه جبران باحتضان الضعاف المظلومين بالشفقة عليهم والدفاع عنهم بالقول والفعل، على مدار النص.

فقسوة الناس الظالمة في النهاية لم تنتصر، بل انتصر الحق من خلال تقديم صورة للمرأة المظلومة في الحياة بين الناس الذين يمثلون السماء وهم بعيدون عن إرادة السماء، وهنا انتقاد لمادية الشعائر البعيدة عن روح الشرائع، وبذلك انتصر الطرف الإيجابي على السلبي.

#### القصة الثالثة (يوحنا المجنون):

في هذه القصة أظهر الكاتب التناقض بين قطبين دلاليين؛ القطب الأول سلبي يمثّل الموت، ويبدو من خلال الظاهر الفاسد المتجسد بمؤسسة السلطة الروحية (رجال الدين) والسلطة الزمنية (الشرطة، الأسرة، المجتمع)؛ ويتألف السلطتين قُدست عبودية الإنسان وقُدس خضوعه. ويمثّل هذا القطب الحياة الحضارية المشوهة الضيقة المحدودة بالجدران عقلياً وروحياً ومادياً. والقطب الثاني إيجابي يمثّل الحياة في الباطن المثالي، كما ورد في كتاب العهد الجديد، ويتمثّل بالجنون المتمرد على العقل الخاضع وعلى مسلمات الظاهر الفاسد ويتجسد بالطبيعة ممثلة جمال الحياة وحرية الكائنات في الحياة الطبيعية الواسعة خارج الجدران...

وينتصر الكاتب للطرف الإيجابي على السلبي من خلال إظهار سلبية المادة/ الظاهر، المرئيين... وإظهار إيجابيات الروح/ الجوهر الباطن، الطبيعة، ومن خلال إظهار حتمية انتصار الحقيقة والحق وجعل المسألة مسألة وقت.

في القسم الأول مهّد الكاتب ليقظة يوحنا التي جعلها متلازمة مع يقظة الطبيعة في الربيع، وقد أورد التمهيد عن يوحنا وعلاقته بالطبيعة وبالناس من خلال الصيف والشتاء، وذلك ضمن ثنائية ضدية تغفل تتالي الفصول لتكرس تقلبات الطبيعة بين فصلين، يشكل اليوم مثلاً لكل الأيام في كل فصل منهما، مما يقدّم صورة نموذجية متبلورة بشكلها النهائي لشخصية يوحنا، قبل ربيع الطبيعة.

في الصيف: برزت صفة الالتزام عند يوحنا («في أيام الصيف كان يوحنا يسير كلّ صباح

إلى الحقل سائقاً ثيرانه وعجوله... وفي المساء... كان يعود إلى البيت...<sup>(106)</sup>، وبرزت الطيبة الإنسانية تجاه الحيوانات («حاملًا محراثه على كتفيه... يأكل زاده تاركاً على الأعشاب ما بقي من الخبز للعصافير»)<sup>(107)</sup>. واتصف أيضاً بالتأمل الصامت والإصغاء، فقد كان في الطبيعة «مصغياً لتغايريد الشحارير وحفيف أوراق الأغصان»<sup>(108)</sup>، وفي البيت كان «يجلس بسكينة مع والديه الشيخين مصغياً لأحاديثهما...»<sup>(109)</sup>؛ وقد بدا يوحنا نشيطاً طيلة النهار في الطبيعة، ولا يشكو من التعب، لكنه كان يجد الراحة بالنوم في البيت («دنوّ النعاس والراحة معاً»)<sup>(110)</sup>، وبذلك يظهر أنّ يوحنا يجد راحته بين يقظته في الطبيعة ونومه في البيت في الصيف.

وفي الشتاء: بدا يوحنا متأملاً، وقد أظهر جبران ذلك من خلال تقسيمه الوقت بين الأيام، بمعنى النهارات، وبين الليالي، وذكره أن يوحنا كان يقضي وقته في البيت («البيت الحقيق المشرف على المزارع والقرى في شمالي لبنان»)<sup>(111)</sup>، ورغم فقر حاله كان «مستدفئاً بقرب النار»<sup>(112)</sup>، فلم يكن يشكو شخصياً من قسوة الطقس، لكنه كان يقف موقف العاجز من حماية المكان الطبيعي خارج البيت؛ فيوحنا ظلّ يتأمل الطبيعة ويشعر بأنها حزينة («سامعاً تأوه الأرياح وندب العناصر»)<sup>(113)</sup>، ويراهما مستضعفة أمام البرد القارس والرياح الشديدة («ناظراً من الكوة الصغيرة نحو الأودية المكتسية بالثلوج، والأشجار العارية من الأوراق كأنها جماعة من الفقراء تركوا خارجاً بين أظفار البرد القارس والرياح الشديدة»)<sup>(114)</sup>.

ورغم عجز يوحنا كان «يتفكر بتتابع الفصول»<sup>(115)</sup> وهذا يوحي بأنّه اتصف بالتفكير بالتغيير بحكم الطبيعة.

في ليالي الشتاء الطويلة: لم يجد يوحنا راحته في النوم رغم طول الليالي، بل وجده في اليقظة؛ وقد بدا مثابراً على الانتظار بهدوء، ليحقق هدفه بقراءة الإنجيل، لأنّ ليالي الشتاء كلها طويلة، وهو فيها «يبقى ساهراً حتى ينام والده ثم يفتح الخزانة الخشبية ويأتي بكتاب العهد الجديد، ويقرأ منه سراً على نور مسرجة ضعيفة»<sup>(116)</sup>. وهو يستثمر وقته في غفلة سلطة الأب المراقبة ليوحنا مباشرة الخاضعة لسلطة رجال الدين التي تمنع أمثال يوحنا من الاطلاع لتحافظ على تسلطها، وهو يبقى «متلفتاً بتحذر بين الأونة والأخرى نحو والده النائم الذي منعه عن تلاوة ذلك الكتاب لأن الكهنة ينهون بسطاء القلب عن استطلاع خفايا تعاليم يسوع ويحرمونهم من «نعم الكنيسة» إذا فعلوا»<sup>(117)</sup>. فهو رغم ضعف الإمكانيات المتجسدة بمسرجة ضعيفة النور، ورغم العرقلة المتجسدة بيقظة مفاجئة للأب ممكنة الحدوث في أي لحظة من لحظات الليالي الشتوية الطويلة،

بقي مواجهًا مواجهة غير معلنة وقادرًا على الوصول إلى هدفه. ويؤكد جبران صفات يوحنا (الهدوء، الإصغاء، التأمل...)، من خلال التعميم الزمني على الإيجابي في حياة يوحنا وعلى السلبي فيها («هكذا صرف يوحنا شببيته بين الحقل المملوء بالمحاسن والعجائب وكتاب يسوع المضمم بالنور والروح»)<sup>(118)</sup>. وهنا وضع جبران الثنائية التي يرى من خلالها تكامل النقيضين الإيجابيين في حياة يوحنا، فالجمال والعجائب في الطبيعة، بينما النور والروح فهما من الثقافة الدينية الصحيحة.

وقد أكد جبران تلقي يوحنا للغة، وليس إنتاجها، فقد «كان سكوتاً كثير التأملات يصغى لأحاديث والديه ولا يجيب بكلمة»<sup>(119)</sup>، وكذلك كان الأمر أيضاً مع أترابه الفتيان «يجالسهم صامتاً ناظراً إلى البعيد حيث يلتقي الشفق بازرقاق السماء»<sup>(120)</sup>. ولم يذكر جبران مشاركة يوحنا في الحديث، بل أبقاه خارجاً عن الأحاديث، في البيت حيث وجد الراحة بالنوم، في ليالي الصيف، وبالسهر مع كتاب يسوع في ليالي الشتاء، وخارج البيت بتأمل المنظر الطبيعي البعيد، وهذا يُعبّر عن رفض صامت للمجتمع ويُظهر انعزال يوحنا عن محيطه. ويبدأ إعلان الرفض في قلبه عند ذهابه إلى الكنيسة («وإذا ما ذهب إلى الكنيسة عاد مكتئباً، لأن التعاليم التي يسمعونها من على المنابر والمذابح هي غير التي يقرأها في الإنجيل، وحياة المؤمنين مع رؤسائهم هي غير الحياة الجميلة التي تكلم عنها يسوع الناصري»)<sup>(121)</sup>، فهو يرفض سلبية السلطة الكنسية التي تناقض إيجابية يسوع بأقوالها وأفعالها.

لقد مهد جبران للربيع بالنقيضين الشتاء والصيف وما حملاه من غفلة الطبيعة التي تليها بطبيعة الحياة يقظة ربيعية، فالساقية كانت موجودة تتراكم في المنخفضات في المروج الخضراء في الصيف كانت تسقي ما حولها من مروج<sup>(122)</sup>، والأودية كانت مكتسية بالثلوج في الشتاء، وغير مكسوّة، يعني فعلها ذاتي مطاوع لأزمة الخارج<sup>(123)</sup>، وبدا التغيير الربيعي الحي كمًا ونوعًا انطلاقًا من معطيات الطبيعة الداخلية، وليس من خارجها («اضمحلث الثلوج في الحقول والمروج، وأصبحت بقاياها في أعالي الجبال تذوب وتسير جداول في منعطفات الأودية، وتجتمع أنهاراً غزيرة تتكلم بهديرها عن يقظة الطبيعة»)<sup>(124)</sup>. وباتت الطبيعة بمكوناتها الصامتة تنطق بالحياة («فأزهرت أشجار اللوز والنفاح، وأورقت قضبان الحور والصفصاف، وأنبتت الروابي أعشابها وأزهارها»)<sup>(125)</sup>.

وانفتاح الطبيعة مثل السعة مع وفرة الطعام بالنسبة إلى العجول («عرف (يوحنا) أن عجوله قد ملت ضيق المرايض، واشتاقت إلى المراعي الخضراء، لأن مخازن التبن قد شحت، وزنابل الشعير قد نفذت»)<sup>(126)</sup>، بينما مثل الراحة عند يوحنا، في وقتٍ مثل الموقد والجدران والرقابة على قراءته كتاب يسوع تعبًا يتطلّب راحة («تعب يوحنا من

الحياة بجانب المواقد... وسار أمامها (عجوله) إلى البرية ساتراً بعباءته كتاب العهد الجديد كيلا يراه أحد، حتى بلغ المرجة المنبسطة على كتف الوادي (127)؛ وإذا كان يوحنا في الصيف يسير سائماً قطيعه، أي يدفع القطيع أمامه، وكان حمله ثقيلاً؛ إذ يحمل المحراث على كتفيه ظاهراً معلناً... فهو في الربيع يسير هو أمام العجول ويحمل كتاب العهد الجديد تحت عباءته فرحاً ونوراً غير ظاهر. ويصل إلى «المرجة المنبسطة على كتف الوادي بقرب حقول الدير القائم كالبرج الهائل بين تلك الهضاب» (128)، وهنا يجمع جبران بين سعة الطبيعة وغنى جمالها، من جهة، وضخامة الحضارة الممثلة للسلطة الدينية وهول ارتفاعها، من جهة أخرى، إشارة إلى البذخ المادي.

جمع جبران بين مصدرى راحة يوحنا (كتاب يسوع والطبيعة)، وذلك يستدعي عدم الانتباه إلى العجول التي تفرقت في المرعى الواسع، بينما يوحنا «جلس مستنداً إلى صخرة يتأمل تارة بجمال الوادي وطوراً بسطور كتابه المتكلمة عن ملكوت السموات» (129)، فكان فكره يوحد الوجود فيجمع بين جنة الأرض وجنة السماء مما يجعل الحياة والموت في عينيه. حدد جبران بعد ذلك زمان الحدث «ذلك النهار من أواخر أيام الصوم» (130)، وذلك يستحضر نوعين من الصوم أحدهما صوم ناس تلك القرى وهو صوم مادي يستعجل الفصح للسماح بأكل اللحوم، والآخر هو صوم يوحنا ومثله جميع المزارعين الفقراء الذين يعيشون حياتهم الطبيعية ملتزمين بذلك الصوم، فعند يوحنا («العمر كله كان صوماً طويلاً...، وقوته لم يتجاوز قط الخبز المعجون بعرق الجبين، والثمار المبتاعة بدم القلب، فالانقطاع عن اللحوم والمأكولات الشهية كان طبيعياً») (131)، وصومه كان معنوياً روحياً («مشتهيات الصوم لم تكن في جسده بل في عواطفه، لأنها تعيد إلى نفسه ذكرى مأساة «ابن البشر» ونهاية حياته على الأرض») (132)

وحدد المكان في المروج حيث انسجام كائنات الطبيعة مع بعضها البعض حوله، بينما هو داخل المشهد جسداً، أما وجوده الفعلي فهو مع المسيح في الألم والمجد («تسبح نفسه فوق أشلاء الأجيال إلى أورشليم القديمة متبعة أقدام يسوع في الشوارع... مرت الساعة ويوحنا يتألم مع الله الإنسان بالجسد، ويتمجد معه بالروح») (133).

أما الأحداث فكانت بين واقع المروج الحاضر قرب الدير وخيال الماضي في أورشليم؛ وبينما كان يوحنا مع المسيح وصلت عجوله إلى الدير، حيث الناطقين باسم المسيح على الأرض أوثقوها بالحبال وجلدوها... وعندما انتبه يوحنا إلى اختفائها في المروج السهلة قصد الدير وعاملوه كمجرم وقبضوا عليه؛ لأنه المسؤول عنها. وقد بدت قسوة رجال الدين متزايدة على البهائم والشباب الفقير يوحنا، وفي المقابل بدا تذلل يوحنا أمامهم

واستحلافهم بالمقدسات («إنني لا أملك بارة واحدة يا أبتاه. فأشفق علي وارحم فقري») (134)، وبدا تعهده بالتوبة عن غفلته، حتى الوعد بعدم العودة إلى المروج التي لا يملكها الدير وليس فقط إلى حقل الدير («هي بهائم لا عقل لها يا أبتاه، وأنا فقير لا أملك غير قوى ساعدي وهذه العجول، فاتركني أقودها وأسير واعداً إياك بأن لا أجيء إلى هذه المروج مرة أخرى») (135)... وكل ذلك لم يمنع رجال الدين من طلب فدية لا يمكن ليوحنا دفعها؛ وبعد أن استرحمهم يوحنا واستعطفهم واستحلفهم بالمقدسات مظهرًا ضعفه مقابل قوتهم ماديًا ومعنويًا تجنّبوا عليه وهددوه بخسارة الجنة («اذهب وبع قسمًا من حقلك وعد بثلاثة دنانير، فخير لك أن تدخل السماء بلا حقل من أن تكتسب غضب أليشاع العظيم باحتجاجك أمام مذبحه، وتهبط في الآخرة إلى الجحيم حيث النار المؤبدة») (136)

كلام رجال الدين لم يخف يوحنا ويجعله يتراجع، بل زاده عزمًا قوة، حيث «تبدلت لوائح الاسترحام بلمح القوة والإرادة، فقال بصوت متمزج فيه نغمة المعرفة بعزم الشبيبة: «هل يبيع الفقير حقله منبت خبزه ومورد حياته ليضيف ثمنه إلى خزائن الدير المفعمة بالذهب والفضة؟ أمن العدل أن يزداد الفقير فقرًا ويموت المسكين جوعاً كما يغفر أليشاع العظيم ذنوب بهائم جائعة؟»» (137) وهذا يشير إلى استناد يوحنا إلى غفران المسيح لصالحه لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون (138)، وهذا يشير إلى أن رجال الدين يخالفون المسيح من أجل مصلحتهم.

وردّ رئيس الدير على يوحنا مستكبرًا مزورًا تفسير كلام المسيح لتقديس فساد سلطة رجال الدير، إذ قال «هكذا يقول يسوع المسيح «من له يُعطى ويُزاد، ومن ليس له يؤخذ منه»» (139)، ويفسرهما رئيس الدير بما يناسب الجشع المادي (140)، وهو بذلك يخالف، صراحةً، السيد المسيح الذي قصد أن استجابة الإنسان لنعم الله وعطاياه الروحية (الوزنات، الإيمان، الوعي) باستثمارها بالعمل الصالح تنمو الحياة الروحية فيعطى ويزاد، ومن يهمل النعم الروحية ويدفن وزناته ولا يستثمر بها في الناس، فإنه يؤخذ منه.

واجههم يوحنا متسلحًا بالإنجيل بأنهم مراؤون يتلاعبون بكتاب يسوع، وهددهم بغضب يسوع عليهم لأنهم تجار الهيكل الذين يظهرون أتباع يسوع وهم في العمق نفوسهم متمردة على الله. أظهر جبران ما فعله رجال الدين من مخالفات ليسوع في تصرفهم مع يوحنا (141)، حيث قال «قدموني بخبائه إلى هذا المكان المملوء بأثامكم، وكمجرم قبضتم علي من أجل قليل من الزرع تستنبتة الشمس لي ولكم على السواء. ولما استعطفنكم باسم يسوع واستحلفنكم بأيام حزنه وأوجاعه استهزأتم بي كأنني لم أتكلم بغير الحمافة والجهالة. وصعد في إظهار مخالفتهم متحدثًا إياهم («خذوا وابحثوا في هذا الكتاب وأروني متى

لم يكن يسوع غفوراً»<sup>(142)</sup>، مستنداً إلى أمثلة من حياة يسوع عن غفرانه ورحمته، كما وردت في الإنجيل المقدس («أخبروني أين تكلم بغير الرحمة والرأفة، أفي موعظته في الجبل، أم في تعاليمه في الهيكل أمام مضطهدي تلك الزانية المسكينة، أم على الجلجلة عندما بسط ذراعيه على الصليب ليضمّ الجنس البشري»<sup>(143)</sup>)، واصفاً الناس الذين تحت سلطة رجال الدير كيف يعيشون حياة قاسية («انظروا يا قساة القلوب إلى هذه المدن والقرى الفقيرة، ففي منازلها يتلوى المرضى على أسرة الأوجاع، وفي حبوسها تفتنى أيام البائسين، وأمام أبوابها يتضرع المتسولون، وعلى طرقها ينام الغرباء، وفي مقابرها تنوح الأرامل واليتامى»<sup>(144)</sup>)، واصلاً في تصعيده بالمقارنة بين الشعب والسلطة إلى الدينونة، مستنداً إلى الإنجيل<sup>(145)</sup> في قوله: «أنتم ههنا تتمتعون براحة التواني والكسل، وتتلذذون بثمار الحقول وخمور الكروم. فلم تزوروا مريضاً، ولم تفتقدوا سجيناً، ولم تطعموا جائعاً، ولم تؤووا غريباً، ولم تعزوا حزيناً»<sup>(146)</sup>. ويصعد في مواجهتهم بأنهم لم يكتفوا بفعل ما يوذي بهم إلى النار وفق المسيح في الدينونة، بأنهم لا يساعدون الناس المحتاجين على مختلف فئاتهم، بل يستمرون بالاستيلاء على مال الفقراء مستغلين سلطتهم المستمدة من المسيح كونهم رهنوا حياتهم ليمثلوه على الأرض، ويغالون في ذلك فيقول لهم يوحنا «وليتكم تكتفون بما لديكم وتقنعون بما اغتصبتم من جدودنا باحتيالكم، فأنتم تمدون أيديكم كما تمد الأفاعي رؤوسها، وتقبضون بشدة على ما وفرته الأرملة من عمل يديها وما أبقاه الفلاح لأيام شيخوخته»<sup>(147)</sup>.

بعد إظهار مخالفات رجال الدين الصريحة ليسوع أنهى يوحنا قوله بأنه رغم أنه وحده في مواجهتهم وهم أكثر، لكن الحقيقة سوف تظهر مع الوقت، مهما غالوا في ظلمهم؛ فإن الليل ظلم سيأتي بعده فجر وستطلع شمس تكشف حقيقة الظلم.

وفي تسلسل تصاعدي أظهر جبران على لسان الراوي مدى غضب رجال الدير من كلمة الحق حتى أنهم تكاثروا عليه من موقع أنه مجدف عليهم وأنهم هم مختارون من الله، وقد أمرهم رئيسهم أن يجروا يوحنا إلى غرفة مظلمة من الدير بسبب تجديفه على مختاري الله، «فهجم الرهبان على يوحنا هجوم الكواسر على الفريسة وقادوه مكتوفاً إلى حجرة ضيقة وأقفلوا عليه بعد أن نهكوا جسده بخشونة أكفهم ورفس أرجلهم»<sup>(148)</sup>، وذلك يُظهر انتصار غلبة يوحنا عليهم عملياً، لذلك تكاثروا عليه وحاولوا تعنيفه لإخافته. فتهلل وجهه وشعر بلذة روحية تعانق نفسه وطمأنينة مستعذبة تملك عواطفه، فيظهر واقع حالهم بأنهم يخالفون تعاليم السيد المسيح.

بدا انتصار يوحنا المعنوي على السلطة القائمة مجسدة برجال الدين («في تلك الغرفة

وقف يوحنا وقفة المنتصر الذي توفق العدو لأسره»<sup>(149)</sup>، وبقيت علاقة يوحنا بالمروج كما كانت، فالحُجرة التي حبسه الرهبان فيها كانت مظلمة لكنها تطل على الوادي المملوء بنور النهار («نظر من الكوة المطلّة على الوادي المملوء بنور النهار»)<sup>(150)</sup>، وهي «لم تسجن غير جسده. أما نفسه فكانت حرة تتموج مع النسيم بين الطلول والمروج»<sup>(151)</sup>. وهكذا حُصر الألم بعد التعذيب بالجسد المادي وحبسه، وبالتالي انتصار الخصم هو شكلي أما الانتصار الحقيقي الروحي فهو ليوحنا لأن الألم الجسدي المادي ليس ذا شأن في حال الراحة الروحية مع يسوع («أيدي الرهبان التي ألّمت أعضائه لم تمس عواطفه المستأمنة بجوار يسوع الناصري...»)<sup>(152)</sup>.

وبشكل عامّ فإنّ يوحنا كان منتصراً لأنه كان مرتاح الضمير عادلاً واقفاً بجانب الحق، والمرء لا تعذبه الاضطهادات إذا كان عادلاً، ولا تفنيه المظالم إذا كان بجانب الحق، فسقراط شرب السم مبتسماً، ويولس رُجم فارحاً. ولكن هو الضمير الخفي نخالفة فيوجعنا، ونخونه فيقضي علينا»<sup>(153)</sup>

بعد إظهار حقيقة انتصار يوحنا على الرهبان يتابع جبران السرد باستحضار العائلة الحاضرة، فيُظهر ألم الأم مع ابنها، وخضوعها لرئيس الدير الذي تجبّر وتابع تشويه تعاليم المسيح مقدماً نفسه منقذاً للعائلة من غضب يسوع، فرغم المواجهة التي أبدأها يوحنا، فإن ذلك لم يؤثر على سلوك رئيس الدير، بل بقي الرئيس على كلامه وطلبه التعويض المادي الهائل من أسرة فقيرة، بحيث استولى على قلادة لم تملك الأم غيرها، وهي هدية زواجها، وهي من أمها»<sup>(154)</sup>

ومقابل التعذيب الجسدي وهزيمة يوحنا الظاهرية، بعد أن جعل رئيس الدير نفسه أكثر غفراً من يسوع نفسه جعل يوحنا طائشاً مجنوناً؛ وقد قلب رئيس الدير المعطيات لصالحه، فقدم يوحنا على أنه عكس مضمون الآيات، فقال إنّ آيات الكتاب قد انعكست وأصبح «الأبناء يأكلون الحصرم والأباء يضرسون»<sup>(155)</sup>، وهنا إشارة إلى عكس ما ورد في العهد القديم للآية القائلة بأنّ «في تلك الأيام لا يقولون بعد: الأباء أكلوا حصرماً وأسنان الأبناء ضرس، بل كلّ واحد يموت بذنبه، كلّ إنسان يأكل الحصرم تضرس أسنانه»<sup>(156)</sup>، وذلك دليل عن عدم تأثر الأبناء بخطايا الأباء أي توارث الخطيئة، ودليل معاكسة أفكار السيد المسيح الذي جعل كلّ شخص مسؤولاً عن نفسه ولا يتحمل أخطاء غيره. وهنا رئيس الدير حملّ الأم المسؤولية بالفعل حين أخذ منها القلادة وبالصلاة لتوصل بين ابنها والسماء، وقد طلب منها الصلاة من أجل ابنها «المجنون لتشفيه السماء وتعيد إليه صوابه»<sup>(157)</sup>. وهنا لم يكتفِ رئيس الدير بتنفيذ خطته الطامعة القاسية في

حق يوحنا، فرغم ما سمعه من كلام الإنجيل من فم يوحنا لم يقف عند حدّه، بل وصف يوحنا بالجنون لبعده عن السماء، وبأنه يحتاج إلى صلاة أمّه ليعود إلى رشده. وهذا يدل على انتصار ظاهري لصاحب السلطة مقابل يوحنا، وخاصة أنّ الانتصار هو انتصار مادي في باطنه مزيف، لأنّه غيّر من روحانية الإنجيل.

وبعد المواجهة عاد يوحنا إلى روتين حياته، كما كان مسؤولاً متأملاً؛ إذ خرج مع أمه ببطء، لأنها عجوز تستند إلى عكازين وهو لا يسبقها بل يرافقها، وسار أمام العجول، وعندما اقترب من الكوخ «قاد العجول إلى معانفها وجلس بسكينة قرب النافذة يتأمل اضمحلال نور النهار»<sup>(158)</sup> وهذا يعيد إلى الذهن أنّ يوحنا يتأمل بهدوء، والهدوء هنا كان قبل سماع «والده يهمس في أذن أمّه. ونلاحظ أن جبران ميّز بين الوالد والأم، فالوالد يختلف عن الأب بأنه فقط أتى الأولاد إلى الحياة من خلاله ولا ينتمون إليه في حياتهم بالضرورة لذلك استخدم كلمة والد مقابل كلمة أم، الأم التي من صفاتها التضحية وحماية أبنائها؛ كذلك بدت أم يوحنا إذ دافعت عن ابنها أمام رئيس الدير رغم خضوعها له، وقد كانت تدافع عنه وتعارض والده. وهذا يوحي بأنّ الأمور تصعدت فصارت تدافع عنه من دون معارضة للسلطة المقدسة («كم عارضتني يا سارة عندما أقول لك إن ولدنا مختل الشعور، والآن أراك لا تعترضين لأن أعماله قد حققت كلامي ورئيس الدير الوقور قد قال لك اليوم ما قلته أنا منذ سنين»)<sup>(159)</sup>. سمع همس والده لأمه الذي يظهر طبيعة العلاقة بين الأب والابن، ويظهر يوحنا محافظاً على هدوئه رغم اتضاح رأي والده الممثل لسلطة الأسرة، فهو يتحلّى بالمسؤولية التي تجعله لا يردّ على عجوز ضعيف، ولا يُحاول أن يكسبه ويخسر نفسه الواعية، وبدا تأمله الغيوم التي تلونها الشمس خروجاً من ضغط البيت إلى الطبيعة البعيدة المفتوحة من جهة، وربطها بالحقيقة الظاهرة من خلف المشهد؛ فالشمس هي الأساس ولو غطتها الغيوم المتلبدة<sup>(160)</sup>.

في القسم الثاني جاء عيد الفصح. ومعه مشهد فريقين متناقضين، الفريق الأول من يمثلون الدير الذي كصرح أمير وكان في حالة فرح واحتفالات فيها بذخ مادي مبالغ فيه، مع أنها لتكريس أسقف، يعني زيادة عدد رجال الدين الذين رهنوا حياتهم لخدمة المسيح («... ارتدى الملابس الحبرية الموشاة بالذهب، ولبس التاج المرصع بالجواهر، وتقلد عصا الرعاية المنمقة بالنقوش البديعة والحجارة الكريمة...»)<sup>(161)</sup>، والفريق الثاني الرعايا سكان الأكواخ من رعاة وزارعين فقراء ومساكين ومنهم يوحنا الذي كان حزيناً بين المبتهجين «يتأمل بعينه الحزنتين هذا المشهد، ويتهد بمرارة ويتأوه بغصات موجعة»<sup>(162)</sup>، وذلك لأنّه يرى عمق مسافة الامتيازات بين طبقة الأغنياء وطبقة الفقراء؛

فالأغنياء «فئة قوية غنية تمثل الدين بالتنعيم والتعزيم... رؤساء وزعماء لهم من سلطتهم حياة أشبه شيء بأشجار السرو ذات الاخضرار الأبدي»<sup>(163)</sup>، بينما الفقراء «شعب ضعيف محتقر يفرح سرّاً بقيامة يسوع من بين الأموات ويصلي بسكينة هامساً في مسامع الأثير تهديدات حارة صادرة من أعماق القلوب الكسيرة... بؤساء وزارعون لهم من خضوعهم حياة تشابه سفينة، ربانها الموت وقد كسرت الأمواج دفتها، ومزقت الرياح شراعها، فأمست في هبوط وصعود، بين غضب اللجة وهول العاصفة»<sup>(164)</sup>، وقد اختصر العلاقة بين الفريقين بأنّ فئة الأغنياء هي الاستبداد القاسي وفي المقابل الفقراء الخضوع الأعمى، وطرح جدلية العلاقة بين النقيضين اللذين يوئد أحدهما الآخر وتأمّل «هل الاستبداد شجرة قوية لا تثبت في غير التربة المنخفضة، أم هو الخضوع حقل مهجور لا تعيش فيه غير الأشواك؟»<sup>(165)</sup>، وهذا يحيلنا إلى مثل الزارع الذي يتطلّب زرع كلمة الله في تربة القلوب<sup>(166)</sup>

وبهذه التأمّلات القاسية انتهى الحفل، وهمّ الجمع بالانصراف، ولم يرد يوحنا أن يبقى الحال على ما هو عليه، ويبدو أنه رأى عبثية مخاطبة رجال الدين بمعزل عن الرعايا، من خلال تجربته مع الدير في وقت الصوم الذي كان مقتصرًا على المأكّل وبعده الفصح، حيث «تبدّل الانقطاع عن المأكّل بالإكثار من المشتبهات»<sup>(167)</sup>؛ فلا حلّ من خلال الطرف الأول، والحل هو زرع كلمة الله في الحقل المهجور، ولذلك رفع يوحنا صوته لاجئاً إلى السماء لتغيّر ما على الأرض، يخاطب يسوع بصوت يسمعه الحضور، ويطلب مساعدة يسوع في تصحيح ما فعله من تاجروا باسمه بمن تبعوه في قلوبهم، مثل الطرف الثاني وكان صوته عظيمًا «يستدعي المسامع ويستوقف النواظر»<sup>(168)</sup>، وهذا يحيل إلى قول يسوع الشهير «من له أذنان للسمع فليسمع»<sup>(169)</sup> الذي يدعو إلى تجاوز السمع الجسدي إلى الإنصات الروحي، وكذلك يستحضر قول يسوع المسيح لتلاميذه «طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولأذانكم لأنها تسمع»<sup>(170)</sup>

أظهر الخطاب كيف تستغل السلطة اسم يسوع لتؤذي أتباعه بدأ الخطاب بالتذكير بمنزلة يسوع وبكونه حاضرًا («... الجالس في قلب دائرة النور الأعلى. انظر من وراء القبة الزرقاء إلى هذه الأرض التي لبست بالأمس من عناصرها رداء. انظر أيها الحارس الأمين») <sup>(171)</sup>، وذلك يستحضر خوف المستقوي وأمان الضعيف. بدأ يُسمع الحاضرين حقيقة العلاقة بينهم وبين يسوع من جهة، وحقيقة العلاقة المشوّهة التي تجمعهم تحت سلطته العليا من جهة أخرى، حيث يقضي القويّ الشريرُ على الضعيف («خنقت أشواك الوعر أعناق الزهور التي أنعشت بذورها بعرق جبينك... نهشت مخالب الوحوش ضلوع الحمل الضعيف الذي حملته على منكبيك») <sup>(172)</sup>.

وأظهر كيف ذهبت دماء المسيح ودموعه بين تربة الأرض وتربة القلوب، وكيف أثر فكر الموت/ الجفاف والقحط مجسداً برياح الصحراء على فكر الحياة الربيعي («انظر فدماءك الزكية قد غارت في بطن الأرض، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر، وأنفاسك الحارة قد تضعضعت أمام رياح الصحراء»)(173)

وعلى ذلك أظهر أنّ القويّ يقضي على الضعيف («أصبح هذا الحقل الذي قدسته قدماك ساحة قتال تسحق فيها حوافر الأقوياء ضلوع المنطرحين، وتنتزع أكف الظالمين أرواح الضعفاء»)(174). وأظهر أنّ المتكلمين باسم المسيح لا ينصرون الضعفاء («صراخ البائسين المتصاعد من جوانب هذه الظلمة لا يسمعه الجالسون باسمك على العروش، ونواح المحزونين لا تعيه أذان المتكلمين بتعاليمك فوق المنابر»)(175)، بل يتعاملون بوحشية مع أتباع يسوع («فالخراف التي بعثتها من أجل كلمة الحياة قد انقلبت كواسر تمزق بأنيابها أجنحة الخراف التي ضممته بذراعيك، وكلمة الحياة التي أنزلتها من صدر الله قد توارت في بطون الكتب وقام مقامها ضجيج مخيف ترتعد من هوله النفوس»)(176)، وهنا إشارة إلى قول المسيح «ها أنا أرسلكم كفنم في وسط ذئاب»(177)، وقوله «أذهبوا ها أنا أرسلكم مثل حملان بين ذئاب»(178).

وأظهر أنّ رجال الدين هم تجار الهيكل الذين تاجروا بالناس، وعملوا لمجدهم لا لمجد الرب («أقاموا يا يسوع لمجد أسمائهم كنائس ومعابد كسوها بالحريز المنسوج والذهب المذوّب، وتركوا أجساد مختاريك الفقراء عارية في الأزقة الباردة، وملأوا الفضاء بدخان البخور ولهب الشموع، وتركوا بطون المؤمنين بألوهيتك خالية من الخبز، وأفعموا الهواء بالتراتيل والتسابيح، فلم يسمعو نداء اليتامى وتهديدات الأرامل»)(179)

وبعد كلّ ذلك طلب عودة يسوع ليطرد باعة الهيكل أي ليطهر الهيكل من المستغلين الناس، كما ورد في الإنجيل(180) إشارة إلى القادة الروحيين («تعال ثانية يا يسوع الحي واطرد باعة الدين من هياكلك، فقد جعلوها مغاور تتلوى فيها أفاعي روغهم واحتيالهم»)(181).

وكذلك طالب يسوع بالعودة ليحاسب القادة الزمنيين، إشارة إلى مخالفة يسوع في طلب فصل السلطتين الزمنية والروحية في قوله «أعطوا إذاً مال قيصر لقيصر وما لله لله»(182)، قال: «تعال وحاسب هؤلاء القياصرة، فقد اغتصبوا من الضعفاء ما لهم وما لله»(183).

وكذلك ليرى كيف انقلبت حال الكرمة الحقيقية التي أصلها محبة يسوع والتلمذة على التضحية في سبيل الآخرين، استناداً إلى قول المسيح «أنا الكرمة وأنتم الأغصان... من ثبت فيّ وأنا فيه يثمر كثيراً... إذا عملتم بوصاياي تثبتوا بمحبتتي... هذه هي وصيتي أحبوا بعضكم بعضاً مثلما أحببتكم. ما من حب أعظم من هذا: أن يضحي الإنسان بنفسه في

سبيل أحبائه...»<sup>(184)</sup>، قال: «تعال وانظر الكرمة التي غرستها يمينك، فقد أكلت جذوعها الديدان، وسحقت عناقيدها أقدام ابن السبيل»<sup>(185)</sup>.

ويدعو المسيح ليرى حال من أئتمنتهم على السلم، ووهبهم سلاماً داخلياً ليوحدهم، بقوله: «سَلاماً أترُكُ لكم. سلامي أُعطيكم»<sup>(186)</sup>، وقد انقسموا على ذواتهم، وتحولوا بفعل مخالفتهم وصية المسيح بالمحبة إلى منقسمين فاقدى الأمان والوحدة التي نادى بها الإنجيل، مع أن المسيح أعطاهم سلامه وحذّرهم من الانقسام في قوله «كلّ مملكة منقسمة على ذاتها تخرب»<sup>(187)</sup>، ولذلك قال يوحنا «تعال وانظر الذين ائتمنتهم على السلم، فقد انقسموا على ذواتهم وتخاصموا وتحاربوا، ولم تكن أشلاء حروبهم غير نفوسنا المحزونة وقلوبنا المضنكة»<sup>(188)</sup>

وانتقل يوحنا إلى واقع الأعياد، وعرض كيف تناقضت صلاة المؤتمنين على الرعية مع واقع حال الرعية، بشكل فيه مخالافات صريحة للمسيح، حيث تعرضت الرعية للظلم والقسوة وعمول الرعايا كالعبيد، وهذا مخالف تماماً لجوهر المسيحية؛ لأن المسيحية ترى المسيحيين أبناء لله لا عبيداً<sup>(189)</sup>؛ وهم أمامهم أحد حلين، إما السكوت والبقاء عبيداً بالنفس وبالجسد للقيمين على الأمور («نسكت ونبقى عبيداً بالنفس والجسد لمن يدهشون أعيننا بلمعان ذهب أوسمتهم وبريق حجارتهم وأطالس ملبسهم»)<sup>(190)</sup>، أو الصراخ والتنديد ما يستتبع سحق الأجساد («نصرخ متظلمين منددين فيبعثوا إلينا بأتباعهم حاملين علينا بسيوفهم وسنابك خيولهم فتسحق أجساد نساتنا وصغارنا وتسكّر الأرض من مجاري دمائنا»)<sup>(191)</sup>، واستعمال العنف وبحرفية الكلمة استعمال السيف قد ورد مبدأً غمد السيف، في لحظة القبض على يسوع المسيح، حين قال لبطرس: «رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون»<sup>(192)</sup>.

الطلب من يسوع أن يمدّ يده؛ وهذا الطلب يُظهر أنّ يسوع سمع الكلام السابق وحضر، فمناداة يسوع «تعال»، توحى بأنّ يسوع كان بعيداً، أمّا طلب «امد يدك» فتتطلب الحضور. وحضور المسيح ليس ليحاسب الظالمين، بل ليرسل الموت إلى المظلومين لأنّ الموت أرحم من حياتهم القاسية («لأنّ الحياة ليست حياة عندنا»)<sup>(193)</sup>، والحقول ليست منجاة من المجتمع إلاّ محبة بالبقاء («تقودنا محبة البقاء إلى الحقول»)<sup>(194)</sup>، أي ليست الطبيعة بديلاً للهروب واللجوء إليها، من جهة، ومن جهة أخرى الحلّ هو في الموت حتى المجيء الثاني للمسيح لينقذهم («ترأف يا يسوع بهذه الجموع المنضمة باسمك في يوم قيامتك من بين الأموات وارحم ذلتهم وضعفهم»)<sup>(195)</sup>، وهذا يضع الظالمين في خصام مع المسيح، وفي ذلك انتصار الظالمين في الظاهر المادي القاسي مقابل

انتصار المظلومين الضعاف المذلولين، في الباطن، لأنهم الأقرب إلى يسوع روحياً، فهم المنضمون باسم يسوع.

بعد خطاب يوحنا انقسم الجمهور بين مؤيد ومعارض، وتساوى الطرفان لأنهما أصدرتا أصواتاً متصاعدة من دون مواقف داعمة، فضاعت الأصوات، والفعل كان للظالمين، إذ «جاء أحد الكهنة وقبض على يوحنا وأسلمه للشرطة فقاده إلى دار الحاكم»<sup>(196)</sup>

أمّا يوحنا الذي تمثّل بيسوع في مواجهة رجال الدين المتسلطين فقد تمثّل به أيضاً بسكوته أمام مضطهديه، وعندما سجنوه بقي محافظاً حتى على هدوئه الداخلي حتى في نومه («ولما استنطقوه لم يجب بكلمة لأنه تذكر أن يسوع كان سكوتاً أمام مضطهديه، فأنزله إلى سجن مظلم حيث نام بسكينة متكئاً على الحائط الحجري»)<sup>(197)</sup>

وقد وصلت القطيعة بينه وبين محيطه إلى اتحادهم بالعقل ووحدته في الجنون بالنسبة إليهم، فقد خرج من السجن ليس لأنّ قضيته عادلة بل بقي الحال على ما هو عليه من الظلم، لكنّ والد يوحنا أقرّ بجنون ابنه الوحيد، وفسّر سلوكه الانعزالي التأمليّ الصبور بالجنون، كما فسّر غضبه على الظالمين بالجنون أيضاً («في صباح النهار التالي جاء والد يوحنا وشهد أمام الحاكم بجنون وحيد... طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي... سل فتیان الحي... سل أمه... سل رهبان الدير فقد خاصمهم بالأمس محتقراً تسكهم وتعبدهم، كافرأ بقداسة معيشتهم...»)<sup>(198)</sup>

وقد أقرّت السلطة جنونه وتطاوله عليها، وكان حنؤه على والديه العجوزين هو حجة خروجه من السجن، وليس ليعيش حياته حرّاً، من جهة، ومن جهة أخرى بقي هو المذنب بحق السلطة، وبقيت السلطة هي المطالبة بالرأفة والغفران («هو مجنون يا سيدي، ولكنه شفق عليّ وعلى أمه، فهو يعولنا في أيام الشيخوخة ويذرف عرق جبينه من أجل الحصول على حاجتنا، فترأف به برأفتك بنا، واغتفر جنونه باعتبارك حنوّ الوالدين»)<sup>(199)</sup>، وبالمطالبة بالغفران رفع الوالد السلطة إلى مستوى الإله الغفور.

جاء الإفراج عن يوحنا مصاحباً شيوع جنونه، وذلك أبعد عن تأثيره بالناس الذين انقسموا بين شباب ساخرين بأقواله، وبالتالي لم تصل أقواله إلى قلوبهم، بل العكس، وبين فتيات آسفات على أنّ يوحنا جميل ولطيف في الظاهر، لكنه في الباطن مختل الشعور ونفسه مريضة ومظلمة<sup>(200)</sup>

في نهاية النص نجد تكراراً لما قاله يوحنا في آخر مواجهته الأولى مع رجال الدين أنّه وحده وهم كثار...<sup>(201)</sup>، مع فارق أنّه هنا بعيداً عن المجتمع الإنساني لاجئاً إلى الطبيعة وحزين («بين تلك المروج والروابي الموشاة بالأعشاب والزهور، كان يوحنا يجلس بقرب

عجوله المنصرفه عن متاعب ابن آدم بطيب المرعى، وينظر بعينين دامعتين نحو القرى والمزارع المنتشرة على كتفي الوادي»<sup>(202)</sup>، ومع فارق أنه في المواجهة الأولى «رفع رأسه بفخر وقال بهدوء «أنتم كثار وأنا وحدي. افعلوا ما شئتم، فالذئاب تفترس النعجة في ظلمة الليل، لكن آثار دماؤها تبقى على حصباء الوادي حتى يجيء الفجر وتطلع الشمس»<sup>(203)</sup>، وذلك يوحي بأنهم مهما فعلوا به جسدياً فهو غير أبه بهم. أما هنا فقد كان مردداً هذه الكلمات بتهديدات عميقة، وليس فخوراً بل كأنه يتحسر على تغيير كان ممكناً، ومع ذلك ردد القول معدلاً فيه «فقولوا عني ما شئتم، وافعلوا بي ما أردتم»<sup>(204)</sup>، وهذا يعني أنهم لن يؤثروا فيه، وهو هنا انتقل من دور الضحية جسدياً إلى دور الثائر المتمرد الروحي على المؤسسات المادية من دينية واجتماعية جامدة، وهو يراهن على الوقت بعد مواجهتهم له بالقول وبالفعل، يراهن على الحقيقة التي سوف تظهر في الناس ولن يسترها ليل الظلم إلا إلى حين، يأتي فيه الفجر وتطلع الشمس وتظهر الحقيقة.

وهكذا أنهى جبران قصة العروس الثالثة يوحنا/ النعجة التي لو افترستها الذئاب، في المروج، فإنّ الوحشية ستظهرها المروج، بحصاها تظهر الوحشية، وتبقى الدماء شاهدة عليها، عكس ما حصل، في الحضارة الإنسانية، مع الحمل الضعيف الذي حمله يسوع على منكبيه، فقد نهشت مخالب الوحوش ضلوعه، وكما أنّ المسيح لم يبق له أثر في ظلّ رعاية رجال السلطة الحالية («...انظر فدماءؤك الزكية قد غارت في بطن الأرض، ودموعك السخينة قد جفت في قلوب البشر...»)<sup>(205)</sup>

وهكذا اكتمل المشهد بوجهين للسلطة؛ الوجه الإلهي الغفور والناطق باسم الله على الأرض، المستغل الناس، والناس يتباركون برجاله، والوجه الذي أظهره يوحنا وهو الوجه غير القابل للنقاش أو المعارضة، ورغم بطشه وظلمه هو الناطق الرسمي باسم الله؛ لكنه مخالف لجوهر تعاليم الله. وبعرض طرفي الصراع على هذه الصورة وصل جبران إلى غاية التركيز على محور الصراع بين الخير والشر، وانتصار الشر باسم الخير، ذلك أنّ رجال الدين الذين يقصدون مصالحهم هم مثل ذئاب في لباس حملان، وهم يتحدثون باسم السيد المسيح الذي أرسلهم كغنم في وسط ذئاب، ولكنهم باتوا ذئاباً بثياب حملان، كما أظهر جبران على لسان يوحنا. ولكن المسألة كما وردت سوف تنتهي حتماً، وينتصر فكر يوحنا المأخوذ من فكر السيد المسيح. وتقديم الظاهر الذي يفترس الباطن لا يجعل ظاهر القشور المادي يستمر، وسينتهي الليل حتماً بفجر جديد يضيء الأمور، ويظهر الحقيقة الجوهرية للعلاقة بين السلطة المقدسة الممثلة للراعي الصالح وبين الخراف التي تحيا في كنف هذه السلطة المنتظرة التي يقدم فيها الراعي الصالح نفسه

في سبيل قطيعه، منتصرًا بذلك على واقع الاستغلال المادي بالواقع المرتجى. وبذلك يظهر اتجاه الأمور نحو نقيضها، فانتصار الشر هو مؤقت بحكم الطبيعة، وانتصار الخير هو حتمية زمنية.

وهنا وصل جبران بيوحنا إلى ذروة الانتصار الروحي على تقديس مادية السلطة، وهكذا انتصر القطب الإيجابي على القطب السلبي.

وهكذا رأينا كيف قدّم جبران خليل جبران مجموعته «عرائس المروج» في ثلاثة نصوص ضمن بنية واحدة ينتصر فيها المعنوي الجوهري على المادي الظاهر العارض، على اختلاف زوايا النظر، على أنّ الحياة والموت والمدينة والريف والغنى والفقر والعائلة والتشرد والذكر والأنثى... كلها متناقضات تبرز معها الروح منتصرة على المادة، والمادة هي صنيعه الإنسان أمّا الروح فهي صنيعه الخالق التي تجد مداها الأرحب في المروج.

1 - جبران خليل جبران: الموسيقى عرائس المروج، بيروت، دار نظير عبود، ط6: ص 17-29

2 - م. ن: ص 30-41

3 - م. ن: ص 42-54

4 - م. ن: ص 23

5 - م. ن: ص 19

6 - م. ن: ص 19-20

7 - م. ن: ص 19

8 - م. ن: ص 20

9 - م. ن: ص 22

10 - م. ن: "دخل إذ ذاك عبد من عبيده... لقد فتحت عينيها... فجئت لأدعوك إليها": ص 20، 21

11 - م. ن: ص 21

12 - م. ن: ص 22

13 - م. ن: ص 22

14 - م. ن: ص 20

15 - م. ن: ص 20

16 - يقول ميخائيل نعيمة "كان فن القصة في الأوج عند الفرنجة وجنيناً عندنا أيام انبرى له جبران": م. ن: ص 8، ويرى أنّ "من التسامح أن ندعو هذه التخيلات قصة، فغاية جبران منها ما

كانت إلا التدليل على عقيدة تناسخ الأرواح التي اتصلت إليه إما عن طريق المطالعة وإما من أفواه بعض معارفه. والعقيدة أقدم من أن نحدد لها بداية” : م. ن: ص7، ونحن في بحثنا لا نتبنى هذا الرأي لأن جبران يستثمر التقمص للتدليل على انتصار الروح على المادة، والتقمص هنا وسيلة لا غاية، كما سيظهر ذلك في البحث مفصلاً.

17 - م. ن: ص21

18 - م. ن: ص23-24

19 - م. ن: ص22

20 - م. ن: ص22

21 - م. ن: ص23

22 - م. ن: ص28

23 - م. ن: ص23

24 - م. ن: ص20

25 - م. ن: ص26

26 - م. ن: ص20

27 - م. ن: ص21

28 - Mark S. Smith: the early history of God: second edition published 2002 by William. B. Eerdmans Publishing Co, Grand Rapids, Michigan Cambridge, UK.page 129

29 - جبران خليل جبران م. س: ص19-20

30 - م. ن: ص20

31 - م. ن: ص20

32 - م. ن: ص29

33 - ناثان اسم عبري بمعنى هدية، عطية وهبة. وهو اسم علم مذكر ويوجد مركباً بصيغة ناثان إيل بمعنى عطية الله أو هبة الله: معجم الأسماء (أكبر موسوعة للأسماء العربية والأجنبية): arabicnames.hawramani.com

34 - الكتاب المقدس، إنجيل لوقا (3: 31)

35 - الكتاب المقدس: سفر الملوك، الإصحاح الخامس (تكليف الملك سليمان بن داود حيرام ملك صور ببناء الهيكل)

36 - جبران خليل جبران: م. س: ص26

- 37 - م. ن: ص 20
- 38 - م. ن: ص 21
- 39 - م. ن: ص 21
- 40 - م. ن: ص 21
- 41 - م. ن: ص 23
- 42 - را: مقالة "فلسفة توأم الشعلة" في الموقع الرسمي للباحث سامر إسلامبولي:  
samerislamboli.com
- 43 - م. ن
- 44 - جبران خليل جبران: م. س: ص 20
- 45 - م. ن: ص 25
- 46 - م. ن: ص 26
- 47 - م. ن: ص 27
- 48 - م. ن: ص 28
- 49 - م. ن: ص 29
- 50 - م. ن: ص 25
- 51 - م. ن: ص 25
- 52 - م. ن: ص 29
- 53 - م. ن: ص 25
- 54 - وصايا يسوع كانت عن المحبة للنفس كما للآخر حتى للعدو وهو قال "مَنْ تَلَقَّى وَصَايَايَ وَحَفِظَهَا فَذَلِكَ الَّذِي يُحِبُّنِي وَالَّذِي يُحِبُّنِي أَبِي وَأَنَا أَيْضاً أُحِبُّهُ فَأُظْهِرُ لَهُ نَفْسِي" (يوحنا 14: 21)
- 55 - جبران خليل جبران: م. س: ص 25
- 56 - م. ن: ص 30
- 57 - م. ن: ص 30-31
- 58 - م. ن: ص 31
- 59 - الكتاب المقدس: متى (13: 9-3)، ومرقس (4: 9-3)، ولوقا (8: 8-5)
- 60 - جبران خليل جبران: م. س: ص 31
- 61 - م. ن: ص 31
- 62 - م. ن: ص 31

- 63 - م. ن: ص 31  
64 - م. ن: ص 31  
65 - م. ن: ص 31  
66 - م. ن: ص 31  
67 - م. ن: ص 31-32  
68 - م. ن: ص 32  
69 - م. ن: ص 32  
70 - م. ن: ص 40  
71 - م. ن: ص 40  
72 - م. ن: ص 32  
73 - م. ن: ص 40  
74 - م. ن: ص 40  
75 - م. ن: ص 40  
76 - م. ن: ص 40  
77 - م. ن: ص 35  
78 - م. ن: ص 40  
79 - م. ن: ص 39  
80 - م. ن: ص 34  
81 - م. ن: ص 34-35  
82 - م. ن: ص 35  
83 - م. ن: ص 35  
84 - م. ن: ص 36  
85 - م. ن: ص 32  
86 - م. ن: ص 36  
87 - م. ن: ص 36  
88 - م. ن: ص 37  
89 - م. ن: ص 37  
90 - م. ن: ص 39

- 91 - م. ن: ص 37-38
- 92 - م. ن: ص 38
- 93 - م. ن: ص 38
- 94 - م. ن: ص 38
- 95 - م. ن: ص 38
- 96 - م. ن: ص 38
- 97 - م. ن: ص 40
- 98 - م. ن: ص 35
- 99 - م. ن: ص 38
- 100 - م. ن: ص 31
- 101 - م. ن: ص 39
- 102 - م. ن: ص 40
- 103 - م. ن: ص 41
- 104 - م. ن: ص 41
- 105 - "مظهرًا شفقتي بابتسامات هي أمرّ من الدموع": م. ن: ص 35
- 106 - م. ن: ص 42
- 107 - م. ن: ص 42
- 108 - م. ن: ص 42
- 109 - م. ن: ص 42
- 110 - م. ن: ص 42
- 111 - م. ن: ص 42
- 112 - م. ن: ص 42
- 113 - م. ن: ص 42
- 114 - م. ن: ص 42
- 115 - م. ن: ص 42
- 116 - م. ن: ص 42
- 117 - م. ن: ص 42
- 118 - م. ن: ص 43

- 119 - م. ن: ص43
- 120 - م. ن: ص43
- 121 - م. ن: ص43
- 122 - م. ن: ص42
- 123 - م. ن: ص42
- 124 - م. ن: ص43
- 125 - م. ن: ص43
- 126 - م. ن: ص43
- 127 - م. ن: ص43
- 128 - م. ن: ص43
- 129 - م. ن: ص43
- 130 - م. ن: ص43
- 131 - م. ن: ص44
- 132 - م. ن: ص44
- 133 - م. ن: ص44
- 134 - م. ن: ص46
- 135 - م. ن: ص45
- 136 - م. ن: ص46
- 137 - م. ن: ص46
- 138 - الكتاب المقدس: إنجيل لوقا (23، 34)
- 139 - الكتاب المقدس: إنجيل متى (12، 13) وإنجيل مرقس (4، 25) وإنجيل لوقا (8، 18)
- 140 - جبران خليل جبران: م. س: ص46
- 141 - الكتاب المقدس: إنجيل مرقس (15: 28) "أحصي مع الأئمة"، وإنجيل لوقا (22: 37) "أحصي مع المجرمين"
- 142 - جبران خليل جبران: م. س: ص47
- 143 - م. ن: ص47
- 144 - م. ن: ص47
- 145 - الكتاب المقدس: متى (25: 31-46)

- 146 - م. ن: ص47
- 147 - م. ن: ص47
- 148 - م. ن: ص48
- 149 - م. ن: ص48
- 150 - م. ن: ص48
- 151 - م. ن: ص48
- 152 - م. ن: ص48
- 153 - م. ن: ص48
- 154 - م. ن: ص49
- 155 - م. ن: ص49
- 156 - الكتاب المقدس: سفر أرميا (31: 30-29)، وسفر حزقيال (18، 3-2-1): ” وكان إلى كلام الرب قائلًا 2 ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرسست<sup>3</sup> حي أنا، يقول السيد الرب، لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل ”
- 157 - جبران خليل جبران: م. س: ص49
- 158 - م. ن: ص49
- 159 - م. ن: ص49
- 160 - م. ن: ص49
- 161 - م. ن: ص50
- 162 - م. ن: ص50
- 163 - م. ن: ص50
- 164 - م. ن: ص50
- 165 - م. ن: ص51
- 166 - م. ن: ص51
- 167 - م. ن: ص50
- 168 - م. ن: ص51
- 169 - إنجيل متى: الإصحاح 11 الآية 15، الإصحاح 13 الآية 9 والآية 43. إنجيل مرقس: الإصحاح 4 الآية 9 والآية 23، الإصحاح 7 الآية 16.

- إنجيل لوقا: الإصحاح 8 الآية 8، الإصحاح 14 الآية 35.
- 170 - الكتاب المقدس، إنجيل متى (16: 13)
- 171 - م. ن: ص 51
- 172 - م. ن: ص 51
- 173 - م. ن: ص 51
- 174 - م. ن: ص 51
- 175 - م. ن: ص 51
- 176 - م. ن: ص 51-52
- 177 - الكتاب المقدس: متى (10: 16)
- 178 - م. ن: لوقا (10: 3)
- 179 - جبران خليل جبران م. س: ص 52
- 180 - وردت حادثة تطهير الهيكل في الأناجيل الأربعة (متى (12:21)، مرقش (15:11)، لوقا (45:19)، يوحنا (15:2))
- 181 - م. س: ص 52
- 182 - الكتاب المقدس: إنجيل متى (21:22)، إنجيل مرقس (17:12)، إنجيل لوقا (25:20)
- 183 - م. س: ص 52
- 184 - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (15: 14-1)
- 185 - م. س: ص 52
- 186 - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (14: 27)
- 187 - الكتاب المقدس: إنجيل متى (12: 25)
- 188 - جبران خليل جبران م. س: ص 52
- 189 - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (1: 12) و(15:15)، رسالة رومية (8: 15)، رسالة غلاطية (4: 7)
- 190 - م. س: ص 52
- 191 - م. ن: ص 53-52
- 192 - الكتاب المقدس: إنجيل متى (26: 52)
- 193 - م. س: ص 53
- 194 - م. ن: ص 53

195 - م. ن: ص 53

196 - م. ن: ص 53

197 - م. ن: ص 53

198 - م. ن: ص 53- 54

199 - م. ن: ص 54

200 - م. ن: ص 54

201 - م. ن: ص 48

202 - م. ن: ص 54

203 - م. ن: ص 48

204 - م. ن: ص 54

205 - م. ن: ص 51

# البيوت الترابية في جبل عامل جنوب لبنان من خلال كتابات أدوارد روبنسون

مباحث أجنبية في تاريخ لبنان 1838 – 1852  
يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا

د. سلام ضاهر

مدخل:

إن التراث العمراني والحضاري لأي شعب من الشعوب هو نتاج تراكم خبرات عبر الزمن ضمن تجارب الجدود الأول، يعكس البيئة الحضارية. والأخيرة هي استجابة للتفاعلات الموجودة في منطقة الحدث الذي ورثه الأحياء عن القدماء. كما هو معلوم أن الحضارة تقوم على أساس التحدي والاستجابة وأساس التحدي الجغرافيا والبيئة، فكل الشعوب دفعتها تحديات العوامل الطبيعية من الجبال إلى السهول إلى الصحاري إلى



توفير الماء إلى ندرته، وحالات تقلب المناخ إلى الاستجابة بوضع الحلول التي تؤهلهم لتكيف مع الواقع وإنشاء العمران وبسبب ذلك كانت لهم حضارتهم لأن العمران يرتبط بالزمان والمكان ويشمل الثقافة والعقيدة والتقليد والروابط الاجتماعية والاقتصادية. من هنا وقع الاختيار على أحد النماذج العمرانية التي عرفها الناس في لبنان ألا وهي البيوت الترابية في جبل عامل في جنوب لبنان كما شرحها أدوارد روبنسون المبشر الأمريكي في كتاباته «يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا» عندما زار فلسطين والأقاليم المجاورة ومن ضمنها جبل عامل في جنوب لبنان<sup>(206)</sup>.

من هو أدوارد روبنسون؟

ولد أدوارد روبنسون في سو ثغتن كونيتيكت في الولايات المتحدة الأمريكية في العاشر من نيسان 1794م، وتخرج من كلية هملتون عام 1816م. درس في أوروبا في جامعتي هالة وبرلين بين عامي 1826 - 1830م. عُيّن أستاذاً فوق العادة للأدب والدراسات المقدسة في معهد أندوفر اللاهوتي 1830 - 1832م، ثم عُرض عليه منصب أستاذ الأدب الكتابي في مدرسة الاتحاد اللاهوتية الجديدة في مدينة نيويورك. Union - the ological seminary In Newyork عام 1837م. أطلق عليه البعض لقب «أب علم الآثار الكتابي ومؤسس علم الدراسات الفلسطينية الحديث».

أما على صعيد إنجازاته العلمية فقد كان روبنسون أول أمريكي يحصل على الميدالية الذهبية للجمعية الجغرافية الملكية Royal Geographical Society في لندن في العام 1842م. وأشاد بإنجازاته العديد من العلماء والجغرافيين وعلماء الكتاب المقدس ورجال الدين، وتجاوز عمله بمراحل كثيرة الأهداف التبشيرية لإثبات صحة الكتاب المقدس، وأسس مشروعاً علمياً ودينياً وسياسياً جديداً بالكامل في الأراضي المقدسة، فولد للتو مجال علم الآثار الكتابي.

صدر لأدوارد روبنسون عدد كبير من المؤلفات منها: «البحث عن الأراضي المقدسة» في ثلاثة أجزاء عام 1814م و«جغرافيا الكتاب المقدس»، و«المكتبة المقدسة» و«معجم الكتاب المقدس»، و«معجم العهد الجديد» باللغتين الإنكليزية واليونانية، و«اتفاق الأناجيل»، و«صرف ونحو اللغة اليونانية» باللغة اليونانية، و«بحث توراتي عن فلسطين والأقاليم المجاورة»، وتاريخ لبنان وجغرافيته في قلب هذه الدراسة، حيث أفرد له فصلاً تحت عنوان «يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا»، في ثلاثة أجزاء، ترجم بعض أجزائه إلى اللغة العربية أسد شيخاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجديدة، 1951-1949م.

من الأهمية بمكان القول: إن مؤلفه الأخير المشار إليه أعلاه وثّقه عندما زار فلسطين والأقاليم المجاورة وفي القلب منها لبنان، ودوّن يومياته ومشاهداته حول المنطقة عن طريق الملاحظة بالمشاركة المباشرة.

#### ما أهمية مؤلف روبنسون فيما يتعلق بمضمون البحث؟

يُعد مؤلف المبشر الأمريكي روبنسون الذي يقع ضمن ثلاثة مجلدات من المراجع الهامة التي تكشف جزءاً من المعطيات حول تاريخ لبنان وجغرافيته، وتفاصيل شبه غائبة عن الحياة في المجتمع اللبناني من عادات وتقاليد وأعراف ومؤسسات دينية وسياسية وسكانية وغيرها، في القرن التاسع عشر، أثناء رحلته إلى المنطقة ومنها جبل عامل جنوب لبنان. ما يستوقف القارئ في كتابات الباحث عدة ملاحظات في سياق كلامه حول المنطقة منها على سبيل المثال لا الحصر، أنه جمع المادة عن طريق الملاحظة والمشاهدة من بينها ما له صلة بالتراث، في مقدمتها البيوت الترابية هدف الدراسة، الأمر الذي ساهم في توفير مادة للباحثين والدارسين بشيء من التفصيل. هذا ما سيتم شرحه وهو في سياق البحث.

#### الإشكالية:

تعتبر الثقافة العامة حول موضوع العمارة في لبنان فقيرة جداً، وهذا يفسر جزءاً كبيراً من فوضى المفاهيم والأحكام حول كل ما له علاقة بالعمارة بمعناها المحصور الذي يتناول البناء بذاته، وبمعناها العام الذي يتناول جميع المباني وعلاقتها المعقدة مع بعضها، وتشكيلها معاً النسيج العمراني وهوية البلد. فكيف إذا كان هذا العمران بيوت من التراب. ما هي هذه البيوت؟ هل أدت وظائفها لدى ساكنيها؟ ما مدى ارتباطها بالفراغ الداخلي والخارجي، وبالتقنيات وبالإنشاءات والأداء الوظيفي والتكويني والاجتماعي والثقافي وبالبيئة المحيطة والتاريخ إلى غير ذلك من التأثيرات النفسية والتطلعات المستقبلية.

#### الفرضية:

انطلاقاً من القناعة التي تقول بأن الأسباب بتعدد أنواعها وطبيعتها هي التي تقرر النتائج كان العرض والتشريح لهذا النموذج كما قدّم له روبنسون أثناء رحلته إلى المنطقة هو الطريقة المفيدة لاكتشاف الواقع والاستفادة منه في سبيل المبتغى. إضافة إلى ذلك كانت رحلة البحث عن نموذج من هذا البناء كدليل حيّ يعكس الواقع.

## أهداف البحث:

- لما كانت ثقافة المجتمع حول العمارة في لبنان بشكل عام والباحث بشكل خاص متواضعة، ولأن المكتبات تقتصر إلى المراجع التي تبحث في الميدان العمراني. جاءت هذه المحاولة الموجزة لتسلط الضوء على البيوت الترابية أحد النماذج العمرانية التي انتشرت في جبل عامل جنوبي لبنان. ذلك النموذج الذي شكّل حلقة في سلسلة تطور العمارة في تاريخ لبنان.

- التعرف على حقبة زمنية (1838 - 1852م) تميّزت حياة معاصريها بالبساطة.
- إغناء المكتبة العربية بأبحاث تثبت هوية المجتمع في جنوب لبنان.
- إرفاق البحث بصور فعلية من داخل أحد البيوت الذي ما زال قائماً حتى اليوم في بلدة كفر كلا إحدى قرى جبل عامل.

## المقدمة:

البيوت الترابية في جبل عامل جنوب لبنان أثرية أم ترابية؟  
للحديث عن البيوت الترابية، لا بد من الوقوف على الفرق بين الآثار والتراب؛ فالآثار هي أي شيء منقول أو غير منقول، أنشأه أو صنعه أو نقشه أو بناه أو اكتشفه الإنسان قبل عام 1700م. حيث مضى عليه مدة من الزمن وترك بقصدٍ أو غير قصد. وتشمل تلك الآثار بعض مخلفات الحضارات القديمة والأحافير والموميات والسجلات والكتابات القديمة والتي تحمل دلالات ومعاني مختلفة. تشكّل هذه الآثار رافداً مهماً في إغناء المعلومات عن المجتمعات القديمة التي تركت سجلات مكتوبة.

أما التراث، هو نتاج الحضارة في ميادين النشاط الإنساني المختلفة من علم وفكر وأدب وفن. هذا التراث سجله الأجداد والآباء وتناقلته الأجيال من بعدهم.

يتمثل التراث الشعبي في الرقص الشعبي والأناشيد والأمثال الشعبية والحكايات. أما التراث الاقتصادي والاجتماعي هو ما يُعرف بالعادات التي كان يعيشها أجدادنا وآباؤنا والتي تعتمد في أساسها على البساطة كأنواع الملابس والأكلات الشعبية التي سادت في أيامهم وطرق كسبهم العيش.

ويتضمن التراث العمراني: المساجد، والقلاع، والحصون، والقصور، والبيوت التراثية، منها على سبيل المثال لا الحصر البيوت الترابية، تلك المساكن التي سكنتها العامة من الناس. والسؤال الذي يُطرح، ما علاقة هذا النموذج من العمارة بالتاريخ؟ سيتم الإجابة على هذا السؤال في سياق البحث.

## المبحث الأول

### مفهوم البيوت الترابية

تعتبر البيوت الترابية إحدى النماذج العمرانية التي عرفتها منطقة جبل عامل في جنوب لبنان، وقد سلط الضوء عليها المبشر الأمريكي إدوارد روبنسون أثناء رحلته إلى مصر وبلاد الشام، تلك البيوت التي لم ترهق كاهل أصحابها في بنائها، وفي حفر الأرض ودق أسياخ الحديد، وصب كتل الإسمنت فيها، بل كانت تلك البيوت تعتمد في بنائها على الطين المُضاف إليه القش لزيادة صلابة البناء وتماسكه. شكّلت هذه البيوت حلقة في سلسلة تطور العمارة وارتبطت بأنماط زراعية وحرفية وبعادات وتقاليد ومستوى تحضر واستقرار. يكتشف الناظر إليها منزلاً ذا وظائف معقدة، يجمع بين المهجع والمخزن والمطبخ والتور. منازل مربعة الشكل يعلوها سقف من جذوع الأشجار والتراب المحدول<sup>(207)</sup>. فيما يلي سيتم شرح ما تقدّم أعلاه بشيء من الإيجاز لا يخل بالمضمون، وعرض ما أورده روبنسون من معلومات حول هذا الموضوع.

## المبحث الثاني

### المواد المستخدمة في البيوت الترابية

استخدم الإنسان في إنشاء هذا الأ نموذج من العمارة، المواد المتوافرة في مكانها وهي:

#### 1- التراب والتبن:

استعمل الإنسان مادة التراب منذ القدم، وأصبحت الأخيرة تشكّل له في ذلك الوقت أحد أهم مواد البناء الأساسية لا سيما بعد خلطها مع مادة التبن أي القش، وهي مادة تخرج من حصاد القمح أو الشعير، حيث يتم طحنها وخلطها مع التراب لزيادة قوة البناء وتماسكه لتضفي عليه الملمس الناعم وقوة التحمل، وقد ساعده على ذلك إجراء عملية الصيانة لها، خلال فصول السنة المختلفة خاصة في موسم الأمطار حيث يتم حذلها حتى تقسو، والحداثة تعاد مراراً ولا سيما بعد المطر منعاً للوكف<sup>(208)</sup>... ويستحضرون محذلة حجرية تترك على السطح الذي كثيراً ما ينبت عليه العشب، حتى تؤدي هذه البيوت الغرض المنشود منها. هذا ما وثّقه إدوارد روبنسون بنفسه في كتاباته "يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا"، ووصفه بدقة أثناء تجواله في منطقة جبل عامل<sup>(209)</sup>.

ما هو جدير بالذكر أن التراب المستخدم في البناء هو التراب الدلغاني<sup>(210)</sup>، وهو تراب أبيض أو أصفر قابل للرص<sup>(211)</sup>.

## 2- أخشاب وأغصان الأشجار:

استعمل الإنسان في إنشاء هذه البيوت المواد التي وفّرتها الطبيعة، بأقل كلفة وأقل مجهود، فعمل على تسقيف مسكنه بالجسور وأغصان الأشجار الموجودة في المكان، كالصنوبر والشربين والحدود والعفص والسنديان ونبات القصب وغيرها. واستخدم الروافد الخشنة كاللزان والأشذاب<sup>(212)</sup> وبعض أنواع العليق والبلان كفرشة تفصل بين التراب الدلغاني المحدول والمخلوط بالتبن الذي يغطي السطوح، عن الجوائز<sup>(213)</sup> (الجسور أو العوارض أو الكمرّة) التي تحمل الكل لحماية البيت من عوامل الطبيعة الخارجية كالشمس والمطر<sup>(214)</sup>.

## 3- الحوَار:

استخدم الناس الحوَار أو الطباشور في إعداد مادة الريح<sup>(215)</sup>، وكان يتم ذلك وفق طريقة بدائية معروفة؛ فبعد جلب كميات مناسبة من مادة الحوار، كان الأفراد يقومون بغرلة هذه المادة للحصول على مسحوق أبيض ناعم، ومن ثم خلطه بالماء جيداً والبدء بعمليات البناء، أو عمليات الصيانة السنوية للمساكن المبنية أساساً من التراب والحجارة، حيث كان صاحب البيت يقوم بطرش الجدران الداخلية للدار بالحوار يدوياً وذلك بعد نزع القديم منها<sup>(216)</sup>.

## المبحث الثالث

### العناصر الإنشائية في البيوت الترابية

شكّل البيت الترابي وحدة سكنية متكاملة متعددة الوظائف مترابطة ببعضها البعض، فإذا بالمسكن يحتوي على عناصر إنشائية لتأدية الانتفاع، تربط الفراغ الحجمي بالربط بين العناصر تبعاً للمساحات المطلوبة.

فيما يلي عرض لأبرز هذه العناصر:

1- السقف: من العناصر الرئيسية في إنشاء البيوت الترابية، وهي مصنفة على الشكل التالي:

- سقف مرفوع على ركائس<sup>(217)</sup> أي أعمدة خشبية غليظة، تنشر في أنحاء الغرفة أو عمود واحد، لدعم السقف.
  - سقف محمول على أعمدة، يتكوّن من قبوة أو قبوات متقاطعة إما نصف أسطوانية بنتيت فيها ثلاث قناطر أو مدببة.
  - سقف من جذوع الأشجار بشكل جسور، ومحمول على مجموعة من القناطر أو البواكي<sup>(218)</sup>.
- 2- أرض البيت: يوضع عليها مزيجاً من الطفال والقش والنشارة. فتتصلب ثم تصقل في الصيف بحجر أملس ولكنها تهمل في الشتاء، فتبدو قذرة وتكثر فيها الحفر<sup>(219)</sup>.
  - 3- الجدران أو الحوائط: تبنى جدران البيوت الترابية من المواد الطبيعية. أي التراب والقش، وغالباً ما تُضاف إليها الحجارة أو الحصى الصغيرة، وتتميز هذه الجدران بخصائصها العازلة للحرارة والبرودة والرطوبة.
  - 4- الأبواب: من الخشب، صغيرة الحجم وقد راعت التوازن ما بين الإضاءة والتهوئة<sup>(220)</sup>.
  - 5- النوافذ أو الشبائيك: عبارة عن ألواح خشبية متصلة مع بعضها يوضع عليها شبك حديدي لحمايتها، يتم التحكم بفتحها وإغلاقها من خلال قضيب من الحديد الخفيف يُسمى «الشنكل» حيث يوفر لها نوع من الحماية وهي ذات حجم صغير، وفي بعض الأحيان تكون الغرفة خالية من النوافذ<sup>(221)</sup>.
  - 6- مكان المنامة: غالباً ما تكون «مراحاً» متلائم مع عدد أفراد العائلة، يتم تقسيمه بستائر من القماش تحجب النظر فقط.
  - 7- المطواة: تحتوي هذه البيوت على مكان خاص يسمى «المطواة» وفيه يتم ترتيب الفراش العربي الذي يصنع من صوف الغنم، إضافة إلى اللحف التي تصنع من المادة نفسها، زد على ذلك السجاجيد والمساند والبسط التي تصنع من شعر الماعز، والأخيرة تستخدم لفرش الأرضية في أوقات الشتاء<sup>(222)</sup>.
  - 8- الطواقي: توجد في جدران البيت الخارجية، وهي عبارة عن فتحات، تستخدم لتربية الحمام<sup>(223)</sup>.
  - 9- التوابيت: وهي إهراءات في جدران هذه البيوت، مفتوحة من الأعلى، وفيها فتحة سفلية تسحب منها الحبوب بشكل عام<sup>(224)</sup>.
  - 10- اليوك والداكونة الخرسانية: تشبه الخزانة، هي في أسفل الجدران، تستخدم كذلك لتخزين الحبوب والمواد الغذائية التي تصنع يدوياً كاللبن واللبننة والجبنة والسمن البلدي

- والكشك والخيز... واستخدمت كذلك لحفظ النقود التي يحصل عليها الفلاح أو المزارع من غلة الصيف بعد فترة الحصاد في ذلك الوقت<sup>(225)</sup>.
- 11- الكباكة: أو ما يعرف قديماً بـ براد زمان، وهو قفص يُعلّق في الشجرة للأكل، يوضع فيه الأكل والزبيب وغيرها.
- 12- أطباق دودة القز: تستخدم لتربية يرقة دودة القز المنزلية (بومبيكس موري) لتنسج شرانقها الحريرية وتتم العملية بدءاً من البيض وتغذية اليرقات بأوراق شجر التوت ثم تحفيزها لنسج الشرنقة التي يستخرج منها خيط الحرير عن طريق غسلها بالماء الساخن<sup>(226)</sup>.
- 13- الكواير: هي بناء لخزن الحبوب على شكل مستطيل، في حوشة البيت الخارجية. يبلغ ارتفاعها أكثر من مترين، المواد المستخدمة لبناء الكواير هي نفسها المستخدمة في بناء البيت الترابي.
- تتميز الكواير بأنها مقسمة إلى أكثر من غرفة، يتم بها حفظ أنواع الحبوب المختلفة من قمح وشعير وذرة ومحصول الكرسنة الذي يستخدم لإطعام الدواب المختلفة<sup>(227)</sup>.
- 14- التور: عبارة عن حفرة في الأرض مغطاة بالفخار، تضرم فيه النار فيحمو، بعد ذلك يلصق العجين على جوانبه ويخبز<sup>(228)</sup>.
- 15- الطابون: يعتبر الطابون من العناصر الرئيسية في البيوت الترابية، وهي عبارة عن فرن من الطين يشبه الفخار في صلابته، حيث يُستخدم فيه الجلة وهي مخلفات الحيوانات ويتم إشعالها فيه ليلاً. وعند الصباح يكون قد اكتسب درجة حرارة عالية، حيث يتم تنظيفه ومن ثم الخبز فيه. إضافة إلى استخدام الصاج، الذي يستخدم لإنتاج الشراك<sup>(229)</sup>.
- 16- الموقد: عبارة عن حفرة في الأرض تشبه المقلاة أو الحوض لحفظ الرماد، على جهة منه توضع حجارة على شكل نعلة فرس مفتوحة من الأمام. يوضع عليها وعاء لغلي الماء. ليس له مكان معين بل يكون في أية جهة من الغرفة. لا يوجد داخنة في هذه البيوت لذا يتسرب دخان الموقد إلى الخارج من الأبواب أو النوافذ<sup>(230)</sup>.
- 17- علاقات الأنية النحاسية المبيضة ورفوف السلع وحواياتها والأباريق<sup>(231)</sup> وأوعية لغلي الماء<sup>(232)</sup>.
- 18- الخابية: وهي جرة لبيرة، يتم تثبيتها على ارتفاع من سطح الأرض في زاوية البيت، وتستخدم للأغراض المنزلية كالشرب<sup>(233)</sup>.
- 19- بئر الماء: تحتوي البيوت الترابية على بئر ماء يتم بناؤه داخل الساحة الخارجية

للبيت، تجمع فيه مياه الأمطار من خلال الساحة عن طريق قناة طويلة موصلة مع البئر. 20- الخان أو الحظيرة أو الزربية (المراح): وهي عبارة عن فسحة كبيرة تحيط بها جدران من الحجر أشبه بالبيت... يغطي قسماً منها سطح منبسط<sup>(234)</sup>، استخدمت لتربية الماشية لا سيما البقر، الجمال، الطيور (الدجاج البلدي) والماز والغنم... 21- الاسطبل الصغير: مربوط للأحصنة والأفراس مع معالفها وحوايات العلف المقدّس والذي يكفي لسنة<sup>(235)</sup>.

بعد هذا ا لعرض، من الأهمية بمكان القول إن كل ذلك منسق حسب الوظائف المذكورة إذ تتجمع الغرف التابعة لوظيفة واحدة حول حوش أو أكثر<sup>(236)</sup>.

## المبحث الرابع

### مميزات وخصائص البيوت الترابية

#### 1- مميزات البيوت الترابية:

كشفت الدراسات حول تاريخ البيت الترابي، توارثه من بلاد ما بين النهرين. هو ظاهرة موجودة في كل العالم العربي مغربه ومشرقه، وفي القلب منه جبل عامل في جنوب لبنان- من أبرز ميزاته:

#### 1-1- قابليته للتكيف مع المناخ المتبدل وذلك للأسباب التالية:

1-1-1- سماكة الجدران: لعبت هذه الميزة دور العازل للحرارة، الأمر الذي جعلها محافظة دائماً على حرارتها الداخلية؛ فإذا كان هناك برودة في الخارج تجد الدفء في الداخل، وإذا كان الطقس حاراً في الخارج تجد البرودة في الداخل.

1-1-2- السقف: يصنع من التراب الدلغاني ويطرش بمادة الحوار كما تقدم وكذلك من أخشاب وأغصان الأشجار والأشذاب ونبات القصب، وفرشة من العليق أو البلان، واللزان وغيرها وكلها مواد طبيعية مستحضرة من المكان نفسه وليس من مكان بعيد.

1-1-3- طريقة التنقل في الداخل: مقسمة إلى قسمين، قسم خاص بالنهار وآخر لليل بطريقة بسيطة جداً وبطريقة تهوئة بسيطة، فكل الأقسام حتى الصغيرة تحصل على تهوئة هذا الشكل الكامل من الطين جدراناً وسقفاً كان يعطي جواً صحياً.

## 1- خصائص البيوت الترابية:

تتميز البيوت الترابية بعدد من الخصائص منها:

1-1- ارتكزت هذه البيوت عند إنشائها على معطيات الحيز الجغرافي، فالطقس معطى مهم تعاملت معه تلك البيوت بذكاء، فسُمكت الجدران حيث يلزم لتلعب دور العازل للحرارة، وصغّرت النوافذ والأبواب حيث تقتضي الضرورة للتوازن بين الإضاءة والتهوئة، وغطيت السطوح بالتراب المخلوط مع القش ليمنع تسرب المياه وانتقال الحرارة الخارجية إلى الداخل.

أما حركة الشمس فهي معطى آخر، بحيث شكّل تركيز اتجاه المبنى بالنسبة لها قياس مهم لجودة ذا التركيز كذلك الأمر بالنسبة لاتجاه الرياح، حيث شكّلت أيضاً عنصراً مؤثراً على هذا التركيز.

والأمر نفسه ظهر في التعاطي مع طبيعة الحيز الجغرافي ذي الأرض المنحدرة، فلا جرف عشوائي للأرض المنحدرة، ولا مسالك تغتصب طبيعة الانحدارات والارتفاعات، فتخلق تشويهاً في المنظر العام، بل بنيت على الأرض بتجانس ولم ترهق كاهل أصحابها في بنائها.

1-2- تميزت هذه البيوت بأنها ذات شكل هندسي مكعب، يعلوها سقف من جذوع الأشجار والتراب المحدول.

1-3- بنيت البيوت الترابية على الطرز الرومانية، حيث العقود (الأقواس والقناطر)<sup>(237)</sup>.

1-4- تميزت هذه البيوت باختلاف ارتفاع سقفها من الداخل<sup>(238)</sup>.

1-5- صممت الأبواب والنوافذ على شكل أقواس، وذلك للتخفيف من الضغط على الباب والنوافذ بسبب عدم استخدام الحديد في ذلك البناء.

1-6- تميز هذه البيوت بأن الواجهات الأربعة لها مكشوفة للهواء والشمس.

1-7- ارتبط تصميم هذه الدور بنمط زراعي، حرفي وتقليدي، وقد راعى هذا التصميم تعدد الوظائف المعقدة والمتعددة، بحيث أنها نسّقت تلك الوظائف بمعرفة ودقة صقلها قرون من الخبرة والاستعمال.

1-8- كُسيّت هذه المساكن باللون الأبيض من الداخل، وتم ذلك عن طريق قطع نوع من الحجارة والصخور الطرية ذات اللون الأبيض (الحوار)، ومن ثم طحنها على حجارة الصوان ونقعها بالماء لمدة معينة من الزمن، ومن ثم دهن البيت بها باستخدام نبات يُسمى «المكانس» ويُستخدم هذا النوع من النباتات في تبييض البيوت وتطهيرها أيضاً.

تجدد الإشارة إلى أن كسي أو طرش الجدران بمادة الحوار لها فوائد كثيرة، فهي مادة ملساء تعرقل حركة الأفاعي على الجدران، وتمنع دخول الحشرات بسبب رائحتها الطاردة لها، إضافة إلى ذلك فإن اللون الأبيض الذي يوفره الحوار يساهم في خلق إضاءة أكثر للغرف<sup>(239)</sup>.

### المبحث الخامس أهمية البيوت الترابية

تكمُن أهمية البيوت الترابية في عدة جوانب أهمها:

1- التعبير عن الهوية الثقافية والبيئة الاجتماعية التي سادت حيث عاش الآباء والأجداد حياة بسيطة تميزت بالألفة والمحبة بين مختلف أفراد القرية، فكان من أهم مظاهر هذه الحياة نقل القيم والعادات والتقاليد من جيل إلى جيل، ومنها على سبيل المثال لا الحصر التعاون، الذي ساعدهم على إنجاز متطلبات الاستمرار كبناء البيوت، والتلاحم في كل ما يهم القرية. إضافة إلى الاحترام، فللجار احترامه، والأمر نفسه للضيف<sup>(240)</sup>، هذا ما أثبتته روبنسون بنفسه في كتاباته، فحين ينزل في أي بيت من بيوت جبل عامل كان يلقي الاهتمام، فكان يحظى بالترحاب وحسن الاستقبال<sup>(241)</sup>، وتأمين الطعام وهو عبارة عن مأكولات عادية (الزيتون والعدس والعنب والبرغل والخبز والجبن واللبن والزبد...). زد على ذلك توفير الراحة والترفيه والمنامة<sup>(242)</sup>، ومرافقتهم للضيف عند الانتقال من منطقة إلى أخرى، أي أنهم عملوا أدلاء، ومرافقين لضيفهم<sup>(243)</sup>. هذه السمات من أبرز وأسمى العلاقات الاجتماعية السائدة في ذلك الوقت<sup>(244)</sup>. بمعنى أن علاقة الجيرة والتعاقد والتسامح والمحبة هي التي كانت تميز سكان تلك المنازل في ظل شح الماء والكهرباء وعدم وجود المدارس والتعليم إلا بشكل خجول وليس في كل القرى؛ فكان التعاون في قطف ثمار الأشجار وحراسة حقول الحنطة<sup>(245)</sup> والمشاركة في مناسبات العزاء والأفراح والسمر<sup>(246)</sup> والتكاتف الاجتماعي في مناسبات أخرى مثل شهر رمضان والأعياد ومناسبات الزواج وإقامة حلقات الدبكة (فرخة وديك) أي شاب وصبية يداً بيد ومساعدة المحتاجين وحل المشكلات والخلافات بطرق ودية. هذه العلاقات نمت وترعرعت وكانت عامرة بالحياة والبهجة تفوح بالذكريات وأجمل المواقف والحكايات التي لا تنسى خاصة أن هذه المساكن عندما بنيت، تمّ إنشاؤها

بمشقة كبيرة وجهد متواصل وتعاون من قبل أهل القرية. لذلك ما زال الكثير من الناس يحافظون عليها رغم ندرتها، في ظل تعلق الإنسان في وطنه وأرضه. ففي المجتمعات القروية يعتبر بيع الأرض والمنازل أمر غير مقبول اجتماعياً، إلا إذا كانت هناك أسباب مقنعة ومنطقية للبيع، في أغلب الأحيان لا يلجأ لها الناس.

علاوة على ذلك تعزز البيوت الترابية الترابط الأسري فتساهم في لم شمل الأسرة والتماسك الاجتماعي. فعلاقة الأفراد في هذا الأسر هي علاقة حميمية جسديتها روابط مميزة، حيث أن النمط التقليدي للأسرة التي تحرص على بناء هذه المنازل بشكل مرن، قادر على التكيف والتوسع عند الضرورة، بحيث أن الابن كان يضيف عند الزواج غرفة واحدة إلى السكن الأصلي، فيلتف النساء والأولاد حول رب الأسرة<sup>(247)</sup>. بذلك يتم لم شمل الأسرة في هذه البيوت، ويطلق عليها اسم الأسرة الممتدة التي تجمع ثلاثة أجيال، الجد والجددة، الأب، الأم والأحفاد<sup>(248)</sup>.

استناداً على ما تقدم يمكن القول: إن هذا التراث يُعد مصدراً مهماً لمعرفة حقبة (1838 - 1853م)، تميزت بهذا النموذج العمراني ودليلاً حيوياً على مراحل تطورها. كما يوضح للقارئ واقع الأمة الاجتماعي والاقتصادي الذي تميز بالبساطة، ومؤشر تقدمها الحضاري في ذلك الوقت. بل إن أهميتها تمتد إلى أكثر من ذلك حيث تُعتبر ذاكرة الأمة، فالتراث روحها، فإذا فقد شعب من الشعوب شيئاً من تاريخه المكتوب أو حدث ليس في تدوين هذا التاريخ، لجأ إلى الجوانب التراثية السائدة، وذلك للكشف عن البعد الاجتماعي والاقتصادي والتاريخي لذلك الشعب.

#### الخاتمة:

على الرغم من تعدد أهداف روبرنسون إلا أن اللوحة العمرانية (البيوت الترابية) ذات الصلة بالتراث تميزت بقيمة توثيقية مهمة وذلك للأسباب التالية:

1- حفظت جزءاً مهماً من التراث المعماري، وأرخت لتاريخ العمارة والنماذج العمرانية التي عرفتها منطقة جبل عامل، قبل اختراع التصوير الفوتوغرافي، كما كانت شاهدة على عمائر جبل عامل.

2- قدّم وصفاً دقيقاً لمساكن قد اندثر معظمها أو تغيّر الأمر الذي ساعد على تتبع تاريخها وتفاصيلها المعمارية.

3- قدّم توثيقاً بصرياً لأحد النماذج العمرانية التي عرفت في القرن التاسع عشر، وهو

ما يعتبر مصدراً رئيسياً للمؤرخين والمهندسين المعماريين لدراسة أوضاع المباني وقتها. 4- قدّم فهماً أعمق للحياة الثقافية: وفّرت هذه المعطيات فهماً أعمق للحياة الثقافية في تلك الفترة، حيث عكست العمارة القيم والممارسات الاجتماعية.

5- ساهم في حفظ التراث المادي، ساعد توثيق روبنسون للبيوت الترابية في حفظ صورة لمباني قد اندثرت أو تغيرت عبر الزمن، مما حفظ جزءاً من الهوية والتاريخ المعماري.

6- جمع بين الفن والتاريخ: إن الوصف الدقيق والمفصّل الذي قدّمه روبنسون للمنازل جعله مصدراً غنياً ومتعدد الأوجه للدراسة.

7- يعتبر عمل روبنسون بمثابة مرجع أساسي، ونقطة انطلاق للدراسات اللاحقة، يمكن للباحثين الاعتماد عليها في دراسة تاريخ العمارة، وتتبع التغيرات التي طرأت عليها عبر الزمن. من الأهمية بمكان القول أن يعلم كل باحث أهمية ومكانة العلوم التراثية التي حتى اليوم من أكثر العلوم تضرعاً، وأن عملية التاريخ لكل ما وجد من أثر لكل قديم هو أمر جداً متعب ودقيق ولا يتبع نظام أو علم محدد، بل إن من المهم على كل باحث في علم التراث أن يعلم أن التراث هو شيء يشبه تلك الأفكار التي من المستحيل أن تستطيع التخمين. هل شعورك به صحيح وحقيقي.

انطلاقاً من ذلك كانت رحلة البحث عن بيت ترابي في جبل عامل لإثبات بعض ما شرحه المبشر الأمريكي روبنسون بشيء من التفصيل، فكان العثور على منزل ترابي ما زال قائماً حتى اليوم لإحدى السيدات في بلدة كفر كلا تدعى خديجة جميل فواز يعود تاريخ بنائه لأكثر من مئة وعشرين عاماً، كانت قد ورثته عن والدها وتم التقاط بعض الصور لهذا النموذج العمراني كدليل حي لما تمّ عرضه وإضافته إلى البحث.



فهرس المصادر والمراجع:

فهرس المصادر:

مقابلات: منزل السيدة خديجة جميل فواز - كفر كلا - جنوب لبنان.

فهرس المراجع:

1- روبنسون، أدوارد: مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا، ترجمة أسد شيخاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، ط1، بيروت، 1949 - 1950 - 1951.

دوريات:

- 1- جريدة الأخبار، بيروت، 2 تشرين الأول 2014.
- 2- جريدة الشرق الأوسط، بيروت، 5 أيلول 2009.
- 3- مجلة المهندس، بيروت، العدد 27، تموز 2011.

وسائل إعلام:

قناة الميادين: لبنان، بيروت، برنامج أجراس المشرق، 2018-8-11.

Endnotes

- ١) - جبران خليل جبران: الموسيقى عرائس المروج، بيروت، دار نظير عبود، ط٦: ص١٧- ٢٩
- ٢ - م. ن: ص٣٠- ٤١
- ٣ - م. ن: ص٤٢- ٥٤
- ٤ - م. ن: ص٢٣
- ٥ - م. ن: ص١٩
- ٦ - م. ن: ص١٩- ٢٠
- ٧ - م. ن: ص١٩
- ٨ - م. ن: ص٢٠
- ٩ - م. ن: ص٢٢
- ١٠ - م. ن: «دخل إذ ذاك عبد من عبيده... لقد فتحت عينيها... فجنّت لأدعوك إليها»:  
ص٢٠، ٢١
- ١١ - م. ن: ص٢١
- ١٢ - م. ن: ص٢٢
- ١٣ - م. ن: ص٢٢
- ١٤ - م. ن: ص٢٠
- ١٥ - م. ن: ص٢٠
- ١٦ - يقول ميخائيل نعيمة «كان فن القصة في الأوج عند الفرنجة وجنيناً عندنا أيام انبرى له جبران»: م. ن: ص٨، ويرى أنّ «من التسامح أن ندعو هذه التخيلات قصة، فغاية جبران منها ما كانت إلا التبدليل على عقيدة تناسخ الأرواح التي اتصلت إليه إما عن طريق المطالعة وإما من أفواه بعض معارفه. والعقيدة أقدم من أن نحدد لها بداية»: م. ن: ص٧، ونحن في بحثنا لا نتبنى هذا الرأي لأنّ جبران يستثمر التقمص للتبدليل على انتصار الروح على المادة، والتقمص هنا وسيلة لا غاية، كما سيظهر ذلك في البحث مفصلاً.
- ١٧ - م. ن: ص٢١
- ١٨ - م. ن: ص٢٣- ٢٤
- ١٩ - م. ن: ص٢٢
- ٢٠ - م. ن: ص٢٢
- ٢١ - م. ن: ص٢٣
- ٢٢ - م. ن: ص٢٨
- ٢٣ - م. ن: ص٢٣
- ٢٤ - م. ن: ص٢٠
- ٢٥ - م. ن: ص٢٦
- ٢٦ - م. ن: ص٢٠
- ٢٧ - م. ن: ص٢١
- ٢٨ - Mark S. Smith: the early history of God: second edition published -  
2002 by William. B. Eerdmans Publishing Co, Grand Rapids, Michigan Cam-  
bridge, UK.page 129
- ٢٩ - جبران خليل جبران م. س: ص١٩- ٢٠

- ٣٠ - م. ن: ص ٢٠
- ٣١ - م. ن: ص 20
- ٣٢ - م. ن: ص 29
- ٣٣ - ناثان اسم عبري بمعنى هدية، عطية وهبة. وهو اسم علم مذكر ويوجد مركباً بصيغة ناثان إيل بمعنى عطية الله أو هبة الله: معجم الأسماء (أكبر موسوعة للأسماء العربية والأجنبية): arabicnames.hawramani.com
- ٣٤ - الكتاب المقدس، إنجيل لوقا (3: 31)
- ٣٥ - الكتاب المقدس: سفر الملوك، الإصحاح الخامس (تكليف الملك سليمان بن داود حيرام ملك صور ببناء الهيكل)
- ٣٦ - جبران خليل جبران: م. س: ص 26
- ٣٧ - م. ن: ص ٢٠
- ٣٨ - م. ن: ص 21
- ٣٩ - م. ن: ص 21
- ٤٠ - م. ن: ص 21
- ٤١ - م. ن: ص 23
- ٤٢ - را: مقالة «فلسفة توأم الشعلة» في الموقع الرسمي للباحث سامر إسلامبولي: samer-islamboli.com
- ٤٣ - م. ن
- ٤٤ - جبران خليل جبران: م. س: ص 20
- ٤٥ - م. ن: ص 25
- ٤٦ - م. ن: ص 26
- ٤٧ - م. ن: ص 27
- ٤٨ - م. ن: ص 28
- ٤٩ - م. ن: ص 29
- ٥٠ - م. ن: ص 25
- ٥١ - م. ن: ص 25
- ٥٢ - م. ن: ص 29
- ٥٣ - م. ن: ص 25
- ٥٤ - وصايا يسوع كانت عن المحبة للنفس كما للأخر حتى للعدو وهو قال «مَنْ تَلَقَّى وَصَايَايَ وَحَفَظَهَا فِذَالِكَ الَّذِي يُحِبُّنِي وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أَيْضاً أُحِبُّهُ فَأُظْهِرُ لَهُ نَفْسِي» (يوحنا ١٤ : ٢١)
- ٥٥ - جبران خليل جبران: م. س: ص 25
- ٥٦ - م. ن: ص 30
- ٥٧ - م. ن: ص 30-31
- ٥٨ - م. ن: ص 31
- ٥٩ - الكتاب المقدس: متى (13: 9-3)، ومرقس (4: 9-3)، ولوقا (8: 8-5)
- ٦٠ - جبران خليل جبران: م. س: ص ٣١
- ٦١ - م. ن: ص ٣١

م. ن: ص ٣١	٦٢
م. ن: ص ٣١	٦٣
م. ن: ص ٣١	٦٤
م. ن: ص ٣١	٦٥
م. ن: ص ٣١	٦٦
م. ن: ص ٣١-٣٢	٦٧
م. ن: ص ٣٢	٦٨
م. ن: ص ٣٢	٦٩
م. ن: ص ٤٠	٧٠
م. ن: ص ٤٠	٧١
م. ن: ص ٣٢	٧٢
م. ن: ص ٤٠	٧٣
م. ن: ص ٤٠	٧٤
م. ن: ص ٤٠	٧٥
م. ن: ص ٤٠	٧٦
م. ن: ص ٣٥	٧٧
م. ن: ص ٤٠	٧٨
م. ن: ص ٣٩	٧٩
م. ن: ص ٣٤	٨٠
م. ن: ص ٣٥-٣٤	٨١
م. ن: ص ٣٥	٨٢
م. ن: ص ٣٥	٨٣
م. ن: ص ٣٦	٨٤
م. ن: ص ٣٢	٨٥
م. ن: ص ٣٦	٨٦
م. ن: ص ٣٦	٨٧
م. ن: ص ٣٧	٨٨
م. ن: ص ٣٧	٨٩
م. ن: ص ٣٩	٩٠
م. ن: ص ٣٧-٣٨	٩١
م. ن: ص ٣٨	٩٢
م. ن: ص ٣٨	٩٣
م. ن: ص ٣٨	٩٤
م. ن: ص ٣٨	٩٥
م. ن: ص ٣٨	٩٦
م. ن: ص ٤٠	٩٧
م. ن: ص ٣٥	٩٨
م. ن: ص ٣٨	٩٩

١٠٠	- م. ن: ص ٣١
١٠١	- م. ن: ص ٣٩
١٠٢	- م. ن: ص ٤٠
١٠٣	- م. ن: ص ٤١
١٠٤	- م. ن: ص ٤١
١٠٥	- "مظهرًا شفقتي بابتسامات هي أمرٌ من الدموع": م. ن: ص 35
١٠٦	- م. ن: ص 42
١٠٧	- م. ن: ص 42
١٠٨	- م. ن: ص 42
١٠٩	- م. ن: ص 42
١١٠	- م. ن: ص 42
١١١	- م. ن: ص 42
١١٢	- م. ن: ص 42
١١٣	- م. ن: ص 42
١١٤	- م. ن: ص 42
١١٥	- م. ن: ص 42
١١٦	- م. ن: ص 42
١١٧	- م. ن: ص 42
١١٨	- م. ن: ص 43
١١٩	- م. ن: ص 43
١٢٠	- م. ن: ص 43
١٢١	- م. ن: ص 43
١٢٢	- م. ن: ص 42
١٢٣	- م. ن: ص 42
١٢٤	- م. ن: ص 43
١٢٥	- م. ن: ص 43
١٢٦	- م. ن: ص 43
١٢٧	- م. ن: ص 43
١٢٨	- م. ن: ص 43
١٢٩	- م. ن: ص 43
١٣٠	- م. ن: ص 43
١٣١	- م. ن: ص 44
١٣٢	- م. ن: ص 44
١٣٣	- م. ن: ص 44
١٣٤	- م. ن: ص 46
١٣٥	- م. ن: ص 45
١٣٦	- م. ن: ص 46
١٣٧	- م. ن: ص 46

- ١٣٨ - الكتاب المقدس: إنجيل لوقا (٢٣، ٣٤)
- ١٣٩ - الكتاب المقدس: إنجيل متى (١٢، ١٣) وإنجيل مرقس (٤، ٢٥) وإنجيل لوقا (١٨، ٨)
- ١٤٠ - جبران خليل جبران: م. س: ص 46
- ١٤١ - الكتاب المقدس: إنجيل مرقس (15: 28) "أحصي مع الأثمة"، وإنجيل لوقا (22):  
 (37) "أحصي مع المجرمين"
- ١٤٢ - جبران خليل جبران: م. س: ص ٤٧
- ١٤٣ - م. ن: ص 47
- ١٤٤ - م. ن: ص 47
- ١٤٥ - الكتاب المقدس: متى (25: 31-46)
- ١٤٦ - م. ن: ص 47
- ١٤٧ - م. ن: ص 47
- ١٤٨ - م. ن: ص 48
- ١٤٩ - م. ن: ص 48
- ١٥٠ - م. ن: ص 48
- ١٥١ - م. ن: ص 48
- ١٥٢ - م. ن: ص 48
- ١٥٣ - م. ن: ص 48
- ١٥٤ - م. ن: ص 49
- ١٥٥ - م. ن: ص 49
- ١٥٦ - الكتاب المقدس: سفر أرميا (٣١: ٢٩-٣٠)، وسفر حزقيال (١٨، ١-٢-٣): «وكان إلى كلام الرب قائلاً ٢١ ما لكم أنتم تضربون هذا المثل على أرض إسرائيل، قائلين: الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأبناء ضرست ٢ حي أنا، يقول السيد الرب، لا يكون لكم من بعد أن تضربوا هذا المثل في إسرائيل»
- ١٥٧ - جبران خليل جبران: م. س: ص ٤٩
- ١٥٨ - م. ن: ص 49
- ١٥٩ - م. ن: ص 49
- ١٦٠ - م. ن: ص 49
- ١٦١ - م. ن: ص 50
- ١٦٢ - م. ن: ص 50
- ١٦٣ - م. ن: ص 50
- ١٦٤ - م. ن: ص 50
- ١٦٥ - م. ن: ص 51
- ١٦٦ - م. ن: ص 51
- ١٦٧ - م. ن: ص 50
- ١٦٨ - م. ن: ص 51
- ١٦٩ - إنجيل متى: الإصحاح ١١ الآية ١٥، الإصحاح ١٣ الآية ٩ والآية ٤٣.  
 إنجيل مرقس: الإصحاح 4 الآية 9 والآية 23، الإصحاح 7 الآية 16.  
 إنجيل لوقا: الإصحاح 8 الآية 8، الإصحاح 14 الآية 35.

- ١٧٠ - الكتاب المقدس، إنجيل متى (١٣: ١٦)
- ١٧١ - م. ن: ص 51
- ١٧٢ - م. ن: ص 51
- ١٧٣ - م. ن: ص 51
- ١٧٤ - م. ن: ص 51
- ١٧٥ - م. ن: ص 51
- ١٧٦ - م. ن: ص 51-52
- ١٧٧ - الكتاب المقدس: متى (10: 16)
- ١٧٨ - م. ن: لوقا (10: 3)
- ١٧٩ - جبران خليل جبران م. س: ص 52
- ١٨٠ - وردت حادثة تطهير الهيكل في الأناجيل الأربعة (متى (٢١: ١٢)، مرقس (١١: ١٥)، لوقا (١٩: ٤٥)، يوحنا (٢: ١٥))
- ١٨١ - م. س: ص 52
- ١٨٢ - الكتاب المقدس: إنجيل متى (٢٢: ٢١)، إنجيل مرقس (١٢: ١٧)، إنجيل لوقا (٢٥: ٢٠)
- ١٨٣ - م. س: ص 52
- ١٨٤ - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (١٥: ١-١٤)
- ١٨٥ - م. س: ص 52
- ١٨٦ - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (١٤: ٢٧)
- ١٨٧ - الكتاب المقدس: إنجيل متى (١٢: ٢٥)
- ١٨٨ - جبران خليل جبران م. س: ص ٥٢
- ١٨٩ - الكتاب المقدس: إنجيل يوحنا (١: ١٢) و(١٥: ١٥)، رسالة رومية (٨: ١٥)، رسالة غلاطية (٤: ٧)
- ١٩٠ - م. س: ص 52
- ١٩١ - م. ن: ص 52-53
- ١٩٢ - الكتاب المقدس: إنجيل متى (٢٦: ٥٢)
- ١٩٣ - م. س: ص 53
- ١٩٤ - م. ن: ص 53
- ١٩٥ - م. ن: ص 53
- ١٩٦ - م. ن: ص 53
- ١٩٧ - م. ن: ص 53
- ١٩٨ - م. ن: ص 53-54
- ١٩٩ - م. ن: ص 54
- ٢٠٠ - م. ن: ص 54
- ٢٠١ - م. ن: ص 48
- ٢٠٢ - م. ن: ص 54
- ٢٠٣ - م. ن: ص 48
- ٢٠٤ - م. ن: ص 54
- ٢٠٥ - م. ن: ص 51

- (206) روبنسون، أدوارد: مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا، ترجمة أسد شيخاني، منشورات وزارة القومية الوطنية والفنون الجميلة، ط1، بيروت، 1949 - 1950، ج1، ص 110.
- (207) أنطوان، لحدود، في مقابلة على قناة الميادين بتاريخ 2018-8-11. والأخير حائز على دبلوم الدراسات العليا في الهندسة في الجامعة اللبنانية عام 1981. وعلى ماستر في الترميم من جامعة نانسي في فرنسا عام 1990. وعلى ماستر ثاني في الترميم في الجامعة اللبنانية عام 2000م. وهو أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية الأمريكية منذ عام 1990.
- (208) الكوكف: السيلان، النزول ببطء، المنجد في اللغة والأعلام، ط21، المطبعة الكاثوليكية، دار المشرق، بيروت، 1973، ص 916.
- (209) روبنسون، أدوارد، مباحث أجنبية في تاريخ لبنان، يوميات في لبنان تاريخ وجغرافيا، ترجمة أسد شيخاني، منشورات وزارة التربية الوطنية والفنون الجميلة، ط1، بيروت، 1949 - 1950 - 1951، ج1، ص 175.
- (210) المرجع السابق، ج1، ص 132.
- (211) مارون، عبود، جريدة الشرق الأوسط 2009-9-9، أمان، خليل، جريدة الأخبار 2014-1-5.
- (212) الأشذاب: جمع الشذب: العيدان المتفرقة، المنجد في اللغة والأعلام، ص 379. ملاحظة: أشذاب: نبات شجيري عطري من الفصيلة الشذابية، يتميز بأوراقه الخضراء المائلة للزرقة وزهوره الصغيرة الصفراء. ويُعرف أيضاً بقدرته على طرد الحشرات وتزيين المنازل. روبنسون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 135 - 168.
- (213) الجائز: هو عنصر هيكلية له بُعد سائد (الطول)، يستخدم لنقل الثقل إلى محوره الهندسي الطولي، بهدف الحفاظ على التوازن الخارجي، بمقطع عرض على شكل حرف تي T.
- (214) روبنسون، إدوارد، مرجع سابق، ج1، ص 135، 168، 192؛ أمل العكر، مجلة المهندس، العدد س7، تموز، 2011، ص 37.
- (215) الريح: نوع من الخشاب أو الألواح المستخدمة في بناء الأسقف أو الجدران أو الأبواب. وتعرف أيضاً بالألواح المضلّة.
- توثيق....
- (216) من الجدير بالذكر أن مادة الحوّار كانت تستعمل كبودرة للأطفال؛ فالنساء كنّ يجلبن هذه المادة ويحتفظن بها خلال فصل الصيف بكميات كبيرة ويعملن على تخزينها بعيداً عن

- الرطوبة لاستعمالها على مدار العام. وذلك بعد أن تغربل بغربال محلي يُسمى أيلك، للحصول على البودرة. والأخيرة كانت بودرة طبيعية فعّالة للقضاء على بلل الأطفال وعلى إحمرار الجلد بسبب التعرّق أو تأخر الحمام وغير ذلك من الالتهابات والحكة.
- من الاستعمالات الأخرى للحوار هو استخدامه في إعداد الأغذية كدبس العنب وغيرها. نضال، يوسف؛ موقع esytia 2 تشرين الثاني، 2014.
- (217) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 136.
- (218) المرجع السابق، ج1، ص 142، 168، 182.
- (219) المرجع السابق، ج1، ص 135.
- (220) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 135، 142، 182، أمل العكر: مجلة المهندس، العدد 23، تموز، 2011، ص 36.
- (221) المرجع السابق، ج1، ص 182.
- (222) المرجع السابق، ج1، ص 135.
- (223) المرجع السابق، ج1، ص 169.
- (224) المرجع السابق، ج1، ص 135 – 136، 142.
- (225) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 135 – 136، 182.
- (226) المرجع السابق، ج1، ص 142، 145.
- (227) المرجع السابق، ج1، ص 135، 142، 168.
- (228) المرجع السابق، ج1، ص 142.
- (229) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 142.
- (230) المرجع السابق، ج1، ص 135، 142، 182.
- (231) من أسماء الأواني على سبيل المثال لا الحصر: القصعية، الوسطية، الجسطرة، الزعنونة، البدنية، المقلّى. أما الأباريق فمن أسمائها: الكوز، الإبريق، الإبريق الطبازي، الدورق، والشربة، والحُقّ وعبارة عن جرة صغيرة، والمنشل، والجرة، والبقسية، والخضاضية (لصنع الألبان والأجبان)، أمال، خليل، جريدة الأخبار، 2 تشرين الأول 2014.
- (232) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 135.
- (233) المرجع السابق، ج1، ص 135.
- (234) المرجع السابق، ج1، ص 134، 183.
- (235) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 107، 135، 142، 168، 182.

- (236) المرجع السابق، ج1، ص 168؛ أمل العكر، مجلة المهندس، العدد 27، تموز، 2011، ص 37.
- (237) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 168.
- (238) المرجع السابق، ج1، ص 142، 168.
- (239) نضال، يوسف، مرجع سابق.
- (240) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج1، ص 135، 139، 142، 162، 164، 168، 182-183.
- (241) المرجع السابق، ج1، ص 17 - 18.
- (242) المرجع السابق، ج1، ص 136 - 169.
- (243) المرجع السابق، ج1، ص 187.
- (244) المرجع السابق، ج1، ص 56، 182، 201.
- (245) روبنصون، إدوارد: مرجع سابق، ج3، ص 176.
- (246) المرجع السابق، ج1، ص 168.
- (247) المرجع السابق، ج1، ص 182.
- (248) المرجع السابق، ج1، ص 182.
- ٢٤٩ رأسمالية المراقبة (Surveillance Capitalism): مفهوم بلورته الباحثة الأمريكية شوشانا زوبوف في كتابها بالعنوان نفسه (٢٠١٩)، يصف نمطاً اقتصادياً جديداً يقوم على استخراج الخبرة الإنسانية بوصفها مادة خام مجانية، وتحويلها إلى بيانات سلوكية تُستخدم في التنبؤ بسلوك المستخدمين والتأثير فيه.



# التنافس الدولي على الممرات البحرية الاستراتيجية وأبعاده الاقتصادية

د. مطانس ديب وهبه

## ملخص الدراسة

تتناول هذه الدراسة التنافس الدولي على الممرات البحرية الاستراتيجية بوصفها أحد أبرز مظاهر التفاعل بين الجغرافيا السياسية والاقتصاد العالمي في القرن الحادي والعشرين. وتنطلق من فرضية أن الممرات البحرية لم تعد مجرد مسارات للنقل والتجارة، بل تحولت إلى فضاءات جيوسياسية حيوية تتقاطع فيها مصالح القوى الكبرى والإقليمية، نظراً لدورها المحوري في حركة التجارة الدولية وتدفقات الطاقة وسلاسل الإمداد العالمية. وتبرز أهمية هذه الممرات من خلال سيطرتها على نقاط الاختناق البحرية الرئيسية، مثل مضيق هرمز، وباب المندب، وملقا، وقناة السويس، التي تمر عبرها نسبة كبيرة من التجارة العالمية والنفط والغاز.

وتوضح الدراسة أن السيطرة على هذه الممرات تمنح الدول نفوذاً اقتصادياً واستراتيجياً مزدوجاً، ما يفسر تصاعد التنافس بين الولايات المتحدة والصين وروسيا، إلى جانب القوى الإقليمية كإيران وتركيا ومصر ودول الخليج. ويتجلى هذا التنافس في أشكال متعددة تشمل الانتشار العسكري، وإنشاء القواعد البحرية، والتحالفات الأمنية، إضافة إلى توظيف الأدوات الاقتصادية والقانونية لحماية المصالح البحرية وتعزيز النفوذ الجيوسياسي.

ومن الناحية الاقتصادية، تؤكد الدراسة أن استقرار الممرات

البحرية يشكل شرطاً أساسياً لاستقرار الاقتصاد العالمي، إذ إن أي اضطراب فيها يؤدي إلى ارتفاع تكاليف النقل والتأمين، وتعطيل سلاسل التوريد، وتقلب أسعار الطاقة والسلع. كما تبرز دراسة حالة مضيق باب المندب نموذجاً واضحاً لتأثير الأزمات الإقليمية في حركة التجارة الدولية، حيث أظهرت التطورات الأخيرة مدى حساسية الاقتصاد العالمي تجاه التهديدات التي تطال الممرات البحرية الحيوية.

وتخلص الدراسة إلى أن الممرات البحرية الاستراتيجية ستظل إحدى أهم أدوات القوة في النظام الدولي المعاصر، وأن التنافس عليها مرشح للتصاعد مع تنامي الطلب العالمي على الطاقة وتزايد الاعتماد على التجارة البحرية. وعليه، فإن تعزيز الأمن البحري والتعاون الدولي وحماية حرية الملاحة تمثل متطلبات أساسية لضمان استقرار الاقتصاد العالمي والحفاظ على توازنات القوة في النظام الدولي.

## International Competition over Strategic Maritime Chokepoints and Its Economic Dimensions

### Abstract

This study examines international competition over strategic maritime chokepoints as one of the most significant manifestations of the interaction between geopolitics and the global economy in the twenty-first century. It is based on the premise that maritime routes are no longer merely channels for transportation and trade; rather, they have become vital geopolitical spaces where the interests of major and regional powers intersect due to their central role in international trade, energy flows, and global supply chains. The importance of these routes stems from their control over key maritime chokepoints, such as the Strait of Hormuz, Bab el-Mandeb Strait, the Strait of Malacca, and the Suez Canal, through which a substantial share of global trade, oil, and natural gas passes.

The study argues that control over these maritime passages provides states with both economic and strategic advantages, which explains the intensifying competition among the United States, China, and Russia, as well as regional powers such as Iran, Türkiye, Egypt, and the Gulf states. This competition is reflected in various forms, including military deployment, the establishment of naval bases, security alliances, and the use of economic and legal instruments to safeguard maritime interests and enhance geopolitical influence.

From an economic perspective, the study emphasizes that the stability of maritime chokepoints is a fundamental prerequisite for global economic stability.

Any disruption in these routes leads to higher transportation and insurance costs, interruptions in supply chains, and fluctuations in energy and commodity prices. The case study of the Bab el-Mandeb Strait demonstrates the impact of regional crises on international trade, highlighting the sensitivity of the global economy to threats affecting critical maritime routes.

The study concludes that strategic maritime chokepoints will remain among the most important instruments of power in the contemporary international system and that competition over them is likely to intensify as global energy demand increases and dependence on maritime trade continues to grow. Therefore, strengthening maritime security, enhancing international cooperation, and safeguarding freedom of navigation are essential requirements for ensuring global economic stability and maintaining the balance of power within the international system.

#### الكلمات المفتاحية:

الممرات البحرية الاستراتيجية، التنافس الدولي، الجغرافيا السياسية البحرية، نقاط الاختناق البحرية، التجارة العالمية، أمن الطاقة، سلاسل الإمداد العالمية، مضيق هرمز، مضيق باب المندب، مضيق ملقا، قناة السويس، الأمن البحري، النفوذ الجيوسياسي، القوى الكبرى، الاقتصاد العالمي.

#### المقدمة

تعدّ الممرات البحرية الاستراتيجية أحد الأعمدة الأساسية التي يقوم عليها النظام الاقتصادي العالمي المعاصر، إذ تمثل الشرايين الحيوية لحركة التجارة الدولية وتدفق السلع والطاقة بين مختلف مناطق العالم. فمنذ تطور التجارة العالمية واتساع نطاق العولمة الاقتصادية، ازدادت أهمية البحار والمحيطات بوصفها فضاءً رئيسياً يربط بين مراكز الإنتاج والاستهلاك، ويضمن استمرارية سلاسل التوريد الدولية. وفي هذا السياق، لم تعد الممرات البحرية مجرد مسارات ملاحية، بل تحولت إلى فضاءات جيوسياسية ذات أهمية استراتيجية عالية، تتداخل فيها الاعتبارات الاقتصادية مع الحسابات الأمنية والعسكرية والسياسية.

ويبرز الواقع المعاصر أن أكثر من 80% من حجم التجارة العالمية المنقولة يتم عبر النقل البحري، وهو ما يعكس الدور المحوري الذي تلعبه الممرات البحرية في دعم الاقتصاد العالمي. (United Nations Conference on Trade and Devel— opment [UNCTAD], 2024) كما أن نسبة كبيرة من الطاقة العالمية، وخاصة

النفط والغاز الطبيعي المسال، تمر عبر مضائق وممرات محددة مثل مضيق هرمز، باب المندب، وقناة السويس، مما يجعل هذه النقاط الجغرافية المحدودة ذات تأثير بالغ على استقرار الأسواق العالمية. وبالتالي فإن أي اضطراب أو تهديد لهذه الممرات لا ينعكس فقط على الدول المطلة عليها، بل يمتد أثره ليشمل الاقتصاد العالمي بأسره، من خلال ارتفاع تكاليف الشحن، وتعطل سلاسل الإمداد، وتقلب أسعار الطاقة.

#### الإشكالية:

في ظل هذا الوضع، تبرز إشكالية البحث المركزية والمتمثلة في: كيف يؤثر التنافس الدولي على الممرات البحرية الاستراتيجية في إعادة تشكيل الاقتصاد العالمي وتوازنات القوة؟

وتتبع أهمية هذه الإشكالية من كون الممرات البحرية أصبحت مجالاً للتنافس بين القوى الكبرى والإقليمية، حيث تسعى كل دولة إلى تأمين مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية عبر ضمان حرية الملاحة أو فرض النفوذ على نقاط العبور الحيوية. وقد أدى هذا التنافس إلى إعادة صياغة موازين القوة في النظام الدولي، بحيث لم تعد السيطرة البرية وحدها كافية لتحقيق النفوذ، بل أصبح التحكم في البحار والممرات أحد أبرز مؤشرات القوة الجيوسياسية. (Rodrigue, 2020)

#### الفرضيات:

وانطلاقاً من هذه الإشكالية، يمكن طرح مجموعة من الفرضيات العلمية التي يسعى البحث إلى اختبارها وتحليلها. تتمثل الفرضية الأولى في أن ازدياد حدة التنافس الدولي على الممرات البحرية يؤدي إلى تصاعد مظاهر العسكرة في هذه المناطق، سواء من خلال زيادة الوجود العسكري أو إنشاء قواعد بحرية أو تعزيز عمليات حماية الملاحة. أما الفرضية الثانية فتتمثل في أن السيطرة أو النفوذ على الممرات البحرية الاستراتيجية يمنح الدول تفوقاً مزدوجاً، اقتصادياً وجيوسياسياً، باعتبارها تتحكم في شرايين التجارة العالمية وتؤثر في حركة الاقتصاد الدولي وأسعار الطاقة. وتستند هذه الفرضيات إلى مقارنة جيوسياسية تعتبر البحر مجالاً للصراع والتفاعل بين القوى وليس مجرد فضاء جغرافي محايد.

#### أهداف الدراسة:

أما أهداف هذا البحث فتتمثل في ثلاثة محاور رئيسية. أولاً، تحليل أهم الممرات البحرية الاستراتيجية في العالم من حيث موقعها الجغرافي ووظيفتها الاقتصادية ودورها في

التجارة الدولية. ثانياً، دراسة أبعاد التنافس الدولي عليها من خلال تتبع أنماط الصراع والتعاون بين القوى الكبرى والإقليمية في هذه المناطق الحيوية. ثالثاً، توضيح الانعكاسات الاقتصادية لهذا التنافس على مستوى التجارة العالمية، وأسعار الطاقة، واستقرار سلاسل الإمداد، مع إبراز مدى حساسية الاقتصاد العالمي لأي اضطراب في هذه الممرات. (الدباغ، 2016).

وفيما يتعلق بمنهجية البحث، يعتمد هذا العمل على المنهج الوصفي-التحليلي الذي يسمح بتوصيف الظاهرة موضوع الدراسة من حيث أبعادها الجغرافية والاقتصادية والسياسية، مع تحليل العلاقات القائمة بين مختلف الفاعلين الدوليين. كما يتم توظيف المنهج الجيوسياسي بوصفه إطاراً تفسيرياً يساعد على فهم منطلق التنافس الدولي على الفضاءات البحرية، من خلال التركيز على علاقة الجغرافيا بالقوة، وكيف تتحول المواقع الاستراتيجية إلى عناصر حاسمة في تشكيل النفوذ الدولي. ويساعد هذا الدمج المنهجي على تقديم قراءة شاملة تتجاوز التفسير الاقتصادي البحت، لتصل إلى فهم أعمق للبنية الصراعية التي تحكم الممرات البحرية في النظام العالمي المعاصر.

#### الفصل الأول: الإطار النظري: الجغرافيا السياسية للممرات البحرية

تعدّ الممرات البحرية أحد المفاهيم المحورية في الدراسات الجيوسياسية والاقتصادية المعاصرة، إذ تمثل نقاط اختناق استراتيجية تتحكم في حركة التجارة العالمية وتدقق الطاقة بين القارات (الحيالي، 2017). وقد تطور الاهتمام بها بشكل متزايد مع تعمق العولمة الاقتصادية وتزايد الاعتماد على النقل البحري كوسيلة رئيسية للتبادل التجاري الدولي. (Rodrigue)2020).

#### أولاً: تعريف الممرات البحرية الاستراتيجية

يمكن تعريف الممرات البحرية الاستراتيجية بأنها مناطق مائية طبيعية أو صناعية ضيقة نسبياً، تربط بين بحار أو محيطات أو مناطق اقتصادية مختلفة، وتعدّ مسارات حيوية لعبور السفن التجارية وناقلات الطاقة. وتكتسب هذه الممرات طابعها «الاستراتيجي» من حجم الأهمية الاقتصادية والعسكرية والسياسية المرتبطة بها، وليس فقط من خصائصها الجغرافية. (Stopford, 2009).

وتتمثل أهم خصائصها في كونها نقاط عبور إجبارية أو شبه إجبارية لحركة التجارة الدولية، مما يجعلها عرضة للتأثيرات الجيوسياسية والصراعات الدولية. ومن أبرز الأمثلة على ذلك مضيق هرمز، مضيق باب المندب، قناة السويس، ومضيق ملقا، حيث تمر

عبرها نسب كبيرة من تجارة النفط والغاز والبضائع المصنعة، وهو ما يمنحها قيمة استراتيجية تفوق بكثير مساحتها الجغرافية المحدودة.

ثانياً: مفهوم الجغرافيا السياسية للبحار

تُعرّف الجغرافيا السياسية للبحار بأنها فرع من الجغرافيا السياسية يهتم بدراسة العلاقة بين الفضاءات البحرية وتوزيع القوة في النظام الدولي، مع التركيز على كيفية توظيف الدول للبحار والمحيطات والممرات البحرية لتعزيز نفوذها الاقتصادي والاستراتيجي. (Black, 2018)

ويقوم هذا المفهوم على فكرة أساسية مفادها أن البحر ليس فضاءً محايداً، بل هو مجال للتنافس والصراع بين القوى الدولية، حيث تسعى الدول إلى السيطرة على الممرات البحرية أو تأمينها لضمان مصالحها الحيوية. كما تشمل الجغرافيا السياسية البحرية دراسة القواعد العسكرية البحرية، وخطوط الملاحة، ومناطق النفوذ البحري، وأمن الطاقة، والتجارة العالمية. (Kaplan, 2010)

وفي هذا الإطار، أصبحت الممرات البحرية تُنظر إليها كـ«عقد جيوسياسية» تتحكم في تدفق القوة الاقتصادية، مما يجعلها جزءاً أساسياً من استراتيجيات الأمن القومي للدول الكبرى.

ثالثاً: أهمية المضائق والممرات في الاقتصاد العالمي

تلعب المضائق والممرات البحرية دوراً حاسماً في تنظيم الاقتصاد العالمي المعاصر، إذ تعتمد عليها حركة التجارة الدولية بشكل كبير، خاصة في ظل هيمنة النقل البحري على عمليات التبادل التجاري. وتشير التقديرات إلى أن الجزء الأكبر من التجارة العالمية، بما في ذلك السلع الأساسية والطاقة، يمر عبر هذه النقاط الاستراتيجية.

وتكمن أهميتها الاقتصادية في عدة مستويات:

1- ضمان استمرارية سلاسل الإمداد العالمية: إذ تربط بين مراكز الإنتاج في آسيا ومراكز الاستهلاك في أوروبا وأمريكا.

2- تأثيرها المباشر على أسعار الطاقة: حيث إن أي اضطراب في مضيق حيوي مثل هرمز يؤدي إلى ارتفاع فوري في أسعار النفط العالمية، مع ما يعني ذلك من تأثير على الاقتصاد العالمي ورفع الاسعار.

3- خفض تكاليف النقل والتجارة: إذ توفر الطرق البحرية عبر الممرات المختصرة بدائل اقتصادية مقارنة بالمسارات البرية أو الجوية.

4- تعزيز مكانة الدول المشرفة عليها: حيث تحقق هذه الدول عوائد اقتصادية كبيرة من خلال الرسوم، والخدمات اللوجستية، والموانئ. (قاسم، 2017). وبالتالي، فإن هذه الممرات لا تمثل مجرد مسارات عبور، بل تُعدّ عناصر فاعلة في تشكيل البنية الاقتصادية العالمية.

رابعاً: نظريات السيطرة البحرية (ماهان وماكيندر بشكل مبسط)

شهد الفكر الجيوسياسي تطوراً مهماً في تفسير أهمية البحار والممرات البحرية من خلال عدد من النظريات الكلاسيكية، من أبرزها نظرية ألفرد ثاير ماهان ونظرية هالفورد ماكيندر

يرى ماهان أن القوة البحرية تُعدّ أساس التفوق الدولي، حيث اعتبر أن من يسيطر على البحار والممرات الحيوية يسيطر بالتالي على التجارة العالمية ويحقق تفوقاً اقتصادياً وعسكرياً. وقد ركز على أهمية الأساطيل البحرية، والموانئ الاستراتيجية، ونقاط التحكم البحرية في تعزيز قوة الدول، وهو ما يفسر الاهتمام الكبير الذي توليه القوى الكبرى اليوم بالممرات البحرية. (Mahan, 1890)

أما ماكيندر، ورغم تركيزه على قلب الأرض (Heartland) في أوراسيا، فإنه أشار بشكل غير مباشر إلى أهمية البحار باعتبارها فضاءات تطويق وموازنة للقوى البرية. وقد ساهمت أفكاره في إبراز العلاقة التفاعلية بين القوة البرية والقوة البحرية، حيث لم يعد التفوق الجيوسياسي محصوراً في السيطرة على اليابسة فقط، بل أصبح مرتبطاً أيضاً بالقدرة على التحكم في المنافذ البحرية المحيطة بها. (Mackinder, 1904)

وانطلاقاً من هاتين النظريتين، تطورت مقاربات حديثة في الجغرافيا السياسية تؤكد أن السيطرة على الممرات البحرية تمثل أحد أهم عناصر القوة الشاملة للدول، نظراً لدورها في التحكم في التجارة العالمية، وأمن الطاقة، وحركة الاقتصاد الدولي.

وبذلك يتضح أن الممرات البحرية ليست مجرد معابر جغرافية، بل هي فضاءات جيوسياسية واقتصادية مركبة، تتداخل فيها اعتبارات القوة والنفوذ مع متطلبات التجارة العالمية، وهو ما يجعلها محورياً أساسياً في فهم بنية النظام الدولي المعاصر (Till, 2018).

الفصل الثاني: أهم الممرات البحرية الاستراتيجية في العالم

تُشكّل الممرات البحرية الاستراتيجية عقداً جيوسياسية حاسمة في النظام الدولي المعاصر، إذ تتحكم في تدفقات التجارة العالمية والطاقة بين المراكز الاقتصادية الكبرى. وتكتسب هذه الممرات أهميتها من كونها نقاط اختناق (Chokepoints) تمر

عبرها نسب مرتفعة من حركة الشحن البحري، مما يجعلها عناصر حساسة في استقرار الاقتصاد العالمي وأمنه. وفيما يلي عرض تحليلي لأبرز هذه الممرات البحرية ودورها الاستراتيجي. (السامرائي، 2019)

### 1- مضيق ملقا

يقع مضيق ملقا بين شبه جزيرة ماليزيا وجزيرة سومطرة الإندونيسية، ويربط بين المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي والمحيط الهادئ حيث تطل عليه كل من أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة



مضيق ملقا يربط المحيط الهادي (في الشرق) بالمحيط الهندي (في الغرب)

مستند رقم 1: عمل الباحث من أطلس العالم - مطبعة بدران 2001

يُعد هذا المضيق من أكثر الممرات البحرية ازدحاماً في العالم، نظراً لكونه الممر الرئيسي للتجارة بين شرق آسيا وبقية العالم، خاصة الصين واليابان وكوريا الجنوبية، التي تعتمد عليه في استيراد الطاقة وتصدير السلع الصناعية. (Kaplan, 2010). مضيق ملقا (Malacca Strait) هو أحد أهم الممرات البحرية في العالم، ويُعد الشريان الرئيسي الذي يربط بين المحيط الهندي والمحيط الهادئ. يقع بين جزيرة

سومطرة من الغرب وشبه جزيرة ماليزيا من الشرق، وينتهي جنوباً عند سنغافورة. يبلغ طول مضيق ملقا حوالي 800 كيلومتر، وعرضه من جهة الشمال يصل إلى نحو 250 كيلومتراً، ويضيق تدريجياً حتى يصل في أضيق نقطة (قناة فيليبس قرب سنغافورة) إلى نحو 2.7-2.8 كيلومتر فقط. أما عمقه ففي بعض المقاطع لا يتجاوز 25-27 متراً، لذلك لا تستطيع بعض ناقلات النفط العملاقة المرور وهي محملة بالكامل. أما من الناحية الاقتصادية، فيشكل المضيق شرياناً حيوياً للتجارة العالمية، إذ يمر عبره ما يقارب 27 إلى 33% من التجارة البحرية العالمية، بالإضافة إلى جزء كبير من واردات النفط المتجهة إلى شرق آسيا. كما يُعد مضيق ملقا محوراً استراتيجياً في التنافس الجيوسياسي بين الولايات المتحدة والصين، نظراً لاعتماد الاقتصاد الصيني بشكل كبير على هذا الممر، مما يدفع بكين إلى تطوير بدائل بحرية وبرية ضمن مبادرة الحزام والطريق. (Brewster, 2018)

2- مضيق هرمز

يقع مضيق هرمز بين سلطنة عُمان من الغرب وإيران من الشرق، ويربط الخليج العربي بخليج عُمان ثم بحر العرب، وهو المنفذ البحري الوحيد لدول الخليج العربي والعراق نحو المحيطات المفتوحة. (U.S. Energy Information Administration [EIA], 2024)

يبلغ طول المضيق 167 كلم، وأضيق نقطة فيه حوالي 33 كلم و97 كلم في أوسع نقطة، بينما لا يتجاوز عرض ممر الملاحة التجاري لكل اتجاه حوالي 3.2 كم، وبينهما منطقة فصل مماثلة العرض، ويتراوح عمق مياهه بين 40 و170 متراً، الأعماق تزداد باتجاه ساحل مسندم العُماني وتتناقص تدريجياً باتجاه الساحل الإيرانية، توجد مناطق ضحلة قرب بعض الجزر والسواحل، لكن الممرات الرئيسية آمنة للملاحة الدولية. معظم الجزر المهمة تقع في الجزء الشمالي للمضيق تحت السيادة الإيرانية وهي جزيرة قشم أكبر جزيرة في الخليج، مساحتها نحو 1491 كم<sup>2</sup>، وهي تشكل حاجزاً طبيعياً كبيراً على الجانب الإيراني للمضيق، أما جزيرة هرمز وهي تقع عند مدخل المضيق، مشهورة بتربتها وصخورها الملونة التي أعطت اسمها للمضيق نفسه. وجزيرة لارك التي تقع قرب أضيق نقطة في المضيق وتتمتع بموقع استراتيجي يطل على الممرات البحرية وجزيرة هنجام المعروفة بالحياة البحرية والدلافين والسواحل الهادئة.

أما الجزر والمناطق العُمانية فهي شبه جزيرة مسندم وتعتبر أهم معلم طبيعي على الجانب الجنوبي، وتتميز بخليجان عميقة تشبه الفيوردات النرويجية وتشكل حاجزاً صخرياً يتحكم

طبيعياً بالمدخل الجنوبي للمضيق. وجزيرة خصب وهي المدينة الرئيسية في مسندم. تتبع أهميته الاقتصادية من كونه أحد أهم ممرات الطاقة في العالم، إذ تمر عبره كميات ضخمة من النفط الخام أكثر من 20 بالمئة من الانتاج النفطي العالمي وحوالي 27 % من تجارة النفط العالمية، وأكثر من 21 بالمئة من الغاز الطبيعي المسال في العالم، هذه النسبة الكبيرة من الطاقة القادمة خصوصاً من السعودية والعراق والإمارات والكويت وقطر. ويُعد المضيق شرياناً أساسياً لأمن الطاقة العالمي، خاصة بالنسبة للأسواق الآسيوية التي تعتمد بشكل كبير على نفط الخليج. 80% من النفط الذي يمر عبر هرمز. (International Energy Agency [IEA], 2024).

حجم التدفقات الطاقوية هذا يجعل من مضيق هرمز أحد أكثر نقاط الاختناق حساسية في العالم. وبالتالي فإن أي تهديد للملاحة فيه ينعكس فوراً على أسعار الطاقة العالمية واستقرار الأسواق. (العزاوي، 2021)، وهذا ما ظهر بعد اندلاع الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الاميركية واسرائيل على ايران في 28 شباط 2026، حيث قامت ايران باستعمال أهم الاسلحة لديها وهو سلاح إغلاق مضيق هرمز وما كان لهذا الاغلاق من تأثير سلبي على أسعار الطاقة العالمية وبالتالي على الاقتصاد العالمي. ما أكد أهمية هذه الممرات البحرية على الأمن الاقتصادي العالمي.

مستند رقم: 2 - خريطة تُظهر موقع مضيقي هرمز وباب المندب



### من عمل الباحث عن خريطة العالم - أطلس العالم - مطبعة بدران 2001

#### 3- مضيق باب المندب

يقع مضيق باب المندب بين اليمن في شبه الجزيرة العربية شمالاً وشرقاً وكل من جيبوتي غرباً وإريتريا إلى الشمال الغربي في القرن الإفريقي، وهو يربط بين البحر الأحمر شمالاً وخليج عدن والمحيط الهندي جنوباً. يتراوح طوله بين 110 و115 كلم، وأضيق عرض له بين 26 و32 كلم ويتراوح عمق مياهه بين 30 و50 متراً في القناة الشرقية و200 و310 متراً في القناة الغربية.

أهم جزره جزيرة بريم (ميون) وتبلغ مساحتها نحو 13 كم<sup>2</sup> وهي جزيرة بركانية، تقسم المضيق إلى قناتين ملاحيتين، وجزر الإخوة السبعة قرب الساحل الجيبوتي وهي عبارة عن جزر بركانية صغيرة، وتشكل نقاط مراقبة طبيعية للملاحة، وجزر حنيش شمال باب المندب داخل البحر الأحمر. يقسم جزيرة بريم المضيق إلى قناتين:

القناة الشرقية (باب إسكندر) قريبة من الساحل اليمني أقل عمقاً والتي يبلغ عرضها نحو 3-5 كم، والقناة الغربية (دقت الميون) أعمق من الشرقية ويبلغ عرضها نحو 20-26 كم، وتمر عبرها معظم السفن التجارية العملاقة. كما يُعد باب المندب أكثر ازدحاماً بالقواعد الأجنبية من هرمز. ففي جيبوتي توجد قواعد عسكرية لقوى كبرى منها: الولايات المتحدة (قاعدة كامب ليمونيه) - فرنسا - الصين - اليابان - تركيا - إيطاليا. في جزيرة ميون اليمنية أنشئت مرافق عسكرية ومدج طيران خلال السنوات الأخيرة. موقعها يسمح بمراقبة كامل المضيق تقريباً. في إريتريا توجد موانئ وقواعد استخدمت عسكرياً في فترات مختلفة بسبب قربها من المضيق.

تتمثل أهمية مضيق باب المندب الجغرافية في كونه حلقة وصل استراتيجية في الطريق البحري بين آسيا وأوروبا، خاصة عبر قناة السويس وهو منفذها الوحيد. كما يُعد ممراً رئيسياً لناقلات النفط القادمة من الخليج العربي والمتجهة نحو البحر المتوسط والأسواق الأوروبية. اقتصادياً، يشكل باب المندب جزءاً من أحد أهم الممرات التجارية العالمية، إذ تمر عبره نسبة كبيرة من تجارة الحاويات والنفط العالمية. وتشير التقديرات إلى مرور ما يقارب 10% من التجارة البحرية العالمية عبر هذا المسار المتصل بقناة السويس.

كما أن هذا المضيق يتميز بحساسية أمنية مرتفعة نتيجة الاضطرابات السياسية في اليمن، ووجود تهديدات القرصنة في محيط القرن الإفريقي، مما دفع القوى الدولية إلى تعزيز وجودها البحري لضمان أمن الملاحة.

## 4- قناة السويس

تقع قناة السويس في جمهورية مصر العربية، وهي ممر مائي صناعي يربط البحر الأحمر بالبحر المتوسط، ما يجعلها أقصر طريق بحري بين آسيا وأوروبا دون الحاجة إلى الالتفاف حول إفريقيا. (حسين، 2021). طولها حوالي 193 كم، وعرضها حوالي 300 متر.

وتعد القناة ذات أهمية اقتصادية استثنائية التي تم افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل في سنة 1867، إذ تمر عبرها نسبة كبيرة من التجارة العالمية، بما في ذلك الحاويات، النفط، والغاز الطبيعي. كما تمثل مصدراً رئيسياً للعملة الصعبة بالنسبة لمصر من خلال رسوم العبور والخدمات اللوجستية المرتبطة بها والتي تقدر سنوياً بـ 10 مليار دولار أميركي تقريباً. (Rodrigue, 2020)

من حيث حجم التدفقات، تمر عبر القناة حوالي 12 إلى 15% من التجارة العالمية البحرية، إضافة إلى نسبة مهمة من شحنات الطاقة والسلع الاستراتيجية. وقد كشفت الأزمات، مثل حادثة جنوح سفينة «إيفرغيفن»، عن مدى تأثير أي تعطيل للقناة على الاقتصاد العالمي وسلاسل الإمداد الدولية. (UNCTAD, 2024).

## 5- مضيق جبل طارق

يقع مضيق جبل طارق بين جنوب إسبانيا وشمال المغرب، ويربط البحر المتوسط بالمحيط الأطلسي.

تتبع أهميته الجغرافية من كونه البوابة الغربية للبحر المتوسط، مما يجعله ممراً أساسياً لحركة السفن بين أوروبا والأطلسي، وكذلك بين إفريقيا وأوروبا.

اقتصادياً، يُعد المضيق ممراً مهماً لتجارة السلع والطاقة، إضافة إلى كونه نقطة عبور للسفن التجارية والعسكرية على حد سواء. كما أن موقعه الاستراتيجي جعله محورياً للوجود العسكري البحري الأوروبي والأطلسي.

من حيث حجم التدفقات، يمر عبره جزء معتبر من التجارة العالمية المرتبطة بأوروبا الغربية، وإن كان أقل من مضائق مثل ملقا أو هرمز، إلا أن أهميته تكمن في موقعه الجيوسياسي الحاكم للبوابة الغربية للمتوسط.

مستند رقم 3 : خريطة تظهر مضيق جبل طارق



من عمل الكاتب عن أطلس العالم - مطبعة بدران 2001

#### 6- قناة بنما

تقع قناة بنما في دولة بنما بأمريكا الوسطى، وهي ممر صناعي يربط بين المحيط الأطلسي (عبر البحر الكاريبي) والمحيط الهادئ.

تتمثل أهميتها في تقليص المسافات البحرية بشكل كبير بين شرق وغرب الأمريكتين، وكذلك بين آسيا والساحل الشرقي لأمريكا الشمالية، مما يساهم في خفض تكاليف النقل وزمن الشحن بشكل ملحوظ.

اقتصادياً، تعد القناة من أهم الممرات البحرية في نصف الكرة الغربي، إذ تمر عبرها نسبة مهمة من التجارة الدولية، خاصة تجارة الحاويات والسلع الاستهلاكية. كما تشكل مصدر دخل رئيسياً لدولة بنما.

من حيث حجم التدفقات، تمر عبر القناة حوالي 5 إلى 6% من التجارة البحرية العالمية، مع تركيز كبير على التجارة الأمريكية-الآسيوية. وقد أدت توسعات القناة

في السنوات الأخيرة إلى زيادة قدرتها الاستيعابية للسفن العملاقة، مما عزز دورها في التجارة العالمية.

ويتضح من خلال دراسة هذه الممرات أن أهميتها لا ترتبط فقط بموقعها الجغرافي، بل بوظيفتها الحيوية في النظام الاقتصادي العالمي. فهي تمثل نقاط اختناق تتحكم في تدفق التجارة والطاقة، وتؤثر بشكل مباشر على استقرار الأسواق العالمية. كما أن تفاوت نسب مرور التجارة عبرها يعكس اختلاف أدوارها داخل الشبكة البحرية العالمية، حيث تنصدر ممرات مثل ملقا وهرمز قائمة الأكثر حساسية، بينما تحتفظ ممرات مثل جبل طارق وبنما بأهمية استراتيجية مرتبطة بالمواقع الجيوسياسية للقارات.

### الفصل الثالث: أطراف التنافس الدولي على الممرات البحرية

يشهد النظام الدولي المعاصر تنافساً متزايداً حول الممرات البحرية الاستراتيجية بوصفها نقاط ارتكاز في الاقتصاد العالمي ومفاصل حيوية في أمن الطاقة وسلاسل الإمداد. ولا يقتصر هذا التنافس على القوى الكبرى فحسب، بل يمتد ليشمل قوى إقليمية تسعى إلى تعزيز أدوارها الجيوسياسية عبر التحكم في عقد الملاحة البحرية أو التأثير عليها. ويمكن فهم هذا التنافس من خلال تحليل مواقف أبرز الفاعلين الدوليين والإقليميين.

#### أولاً: الولايات المتحدة الأمريكية – السيطرة على طرق التجارة العالمية

تعد الولايات المتحدة أحد أبرز الفاعلين في المجال البحري العالمي، (هلال، 2016). إذ تستند استراتيجيتها الجيوسياسية إلى مفهوم «حرية الملاحة» وتأمين طرق التجارة الدولية باعتبارها جزءاً من الأمن القومي الأمريكي. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عملت واشنطن على بناء شبكة واسعة من القواعد البحرية والتحالفات العسكرية التي تمتد عبر المحيطات الرئيسية والممرات الحيوية. (Gray, 1992)

تتمثل الأهمية الاستراتيجية للممرات البحرية في السياسة الأمريكية في كونها أداة لضمان التفوق الاقتصادي والعسكري العالمي، حيث تعتمد التجارة العالمية، بما فيها تجارة الولايات المتحدة ذاتها، على انسيابية هذه الممرات دون تعطيل. لذلك، تتخبط البحرية الأمريكية بشكل مباشر في تأمين مضائق مثل هرمز وباب المندب وملقا، عبر عمليات دوريات وتحالفات بحرية متعددة الجنسيات. (Brzezinski, 1997)

كما تسعى الولايات المتحدة إلى منع أي قوة منافسة من احتكار هذه الممرات، خصوصاً الصين وروسيا، وذلك ضمن إطار أوسع من التنافس على شكل النظام الدولي.

#### ثانياً: الصين – مبادرة الحزام والطريق وتأمين طرق الطاقة

تمثل الصين أحد أبرز القوى الصاعدة التي أعادت تشكيل الجغرافيا الاقتصادية العالمية، من خلال مبادرة الحزام والطريق التي تهدف إلى تعزيز الربط التجاري بين آسيا وأفريقيا وأوروبا. (السيد، 2018).

تعتمد الصين بشكل كبير على الممرات البحرية، خاصة مضيق ملقا، الذي يُعد نقطة اختناق رئيسية لوارداتها من الطاقة وصادراتها الصناعية. ولذلك، تتبنى بكين استراتيجية مزدوجة تقوم على تنويع طرق الإمداد من جهة، وتعزيز حضورها البحري من جهة أخرى. (Brewster, 2018).

يشمل ذلك الاستثمار في الموانئ الاستراتيجية في المحيط الهندي والبحر الأحمر، وتطوير «سلسلة الجواهر البحرية» التي تمتد من سواحل الصين إلى إفريقيا، بهدف تأمين خطوط التجارة والطاقة. كما تعمل الصين على تقليل هشاشة اعتمادها على الممرات التي قد تخضع لنفوذ أمريكي، عبر إنشاء طرق بديلة برية وبحرية.

وبذلك، فإن التنافس الصيني في الممرات البحرية ليس عسكرياً مباشراً فقط، بل اقتصادياً—لوجستياً طويل الأمد يعيد تشكيل خرائط التجارة العالمية. (Ehteshami & Horesh, 2017)

ثالثاً: روسيا— المنافذ البحرية الدافئة وأمن صادرات الطاقة (الزبيدي، 2020)  
تُعد روسيا قوة بحرية—قارية تسعى تاريخياً إلى الوصول إلى «المياه الدافئة» التي لا تتجمد في الشتاء، وهو ما يجعل الممرات البحرية ذات أهمية استراتيجية قصوى في سياستها الخارجية.

يرتكز الاهتمام الروسي على تأمين منافذ تصدير الطاقة، خاصة النفط والغاز، إلى الأسواق العالمية عبر البحر الأسود والبحر المتوسط والقطب الشمالي. وتُعد المضائق المرتبطة بالبحر الأسود، مثل البوسفور والدردينيل، ذات أهمية حيوية في هذا السياق. (Black, 2018)

كما تعمل روسيا على تعزيز قدراتها البحرية في القطب الشمالي، حيث تفتح التغيرات المناخية مسارات بحرية جديدة تقلل من زمن النقل إلى آسيا وأوروبا. وفي المقابل، تواجه روسيا قيوداً جيوسياسية نتيجة التوتر مع الدول الغربية، ما يجعل تأمين الممرات البحرية جزءاً أساسياً من استراتيجيتها لموازنة الضغوط الاقتصادية.

رابعاً: الاتحاد الأوروبي— أمن الإمدادات والتجارة

يمثل الاتحاد الأوروبي كتلة اقتصادية تعتمد بشكل كبير على التجارة البحرية واستيراد

الطاقة، ما يجعل أمن الممرات البحرية مسألة حيوية لاستقراره الاقتصادي. (World Bank, 2024)

يركز الاتحاد الأوروبي على حماية سلاسل الإمداد البحرية، خاصة عبر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي والبحر الأحمر، نظراً لاعتماده على واردات النفط والغاز والمواد الخام من مناطق متعددة. كما يشارك في عمليات بحرية دولية لمكافحة القرصنة في القرن الإفريقي وتأمين الملاحة في باب المندب وخليج عدن.

ورغم أنه لا يمتلك قوة بحرية موحدة مثل الولايات المتحدة، إلا أن دوله الرئيسية مثل فرنسا وإيطاليا وألمانيا تلعب أدواراً منفردة أو ضمن إطار الناتو لضمان أمن الطرق البحرية. وبالتالي، فإن مقارنة الاتحاد الأوروبي للممرات البحرية تركز على الاستقرار الاقتصادي أكثر من التوسع الجيوسياسي.

**خامساً: القوى الإقليمية (تركيا، إيران، مصر، دول الخليج)**

تلعب القوى الإقليمية دوراً متزايد الأهمية في التنافس على الممرات البحرية، نظراً لتمرکز العديد من هذه الممرات في مناطقها الجغرافية المباشرة.

تركيا تتحكم بشكل غير مباشر في أحد أهم الممرات العالمية عبر إشرافها على مضيق البوسفور والدردينل، مما يمنحها ورقة جيوسياسية مهمة في البحر الأسود وشرق المتوسط، ويعزز دورها في التوازنات بين روسيا وأوروبا.

أما إيران فتتمتع بموقع استراتيجي على مضيق هرمز، وتستخدم هذا الموقع كورقة ضغط جيوسياسية في مواجهة القوى الغربية ودول الخليج، نظراً لأهمية المضيق في صادرات الطاقة العالمية.

في المقابل، تُعد مصر لاعباً محورياً من خلال سيطرتها على قناة السويس، التي تمثل أحد أهم شرايين التجارة العالمية، مما يمنحها وزناً اقتصادياً وجيوسياسياً كبيراً رغم محدودية قوتها العسكرية مقارنة بالقوى الكبرى.

أما دول الخليج العربي، فهي ليست فقط مصدراً رئيسياً للطاقة التي تمر عبر الممرات البحرية، بل تسعى أيضاً إلى تأمين طرق التصدير عبر تطوير قدراتها البحرية والتحالف مع القوى الدولية لضمان استقرار مضيق هرمز وباب المندب.

وهكذا يتضح لنا من تحليل هذه الأطراف أن التنافس على الممرات البحرية لا يتم في إطار واحد، بل ضمن منظومة معقدة تتداخل فيها المصالح الاقتصادية مع الاعتبارات الجيوسياسية والأمنية. فالقوى الكبرى تسعى إلى ضمان حرية الملاحة ومنع احتكار

المنافسين للممرات الحيوية، بينما تعمل القوى الصاعدة على إعادة توزيع النفوذ عبر الاستثمار في الموانئ وسلاسل الإمداد، في حين تركّز القوى الإقليمية على توظيف موقعها الجغرافي لتعزيز مكانتها في النظام الدولي. وبذلك تصبح الممرات البحرية مسرحاً مركزياً لإعادة تشكيل توازنات القوة في العالم المعاصر.

#### الفصل الرابع: أشكال التنافس الجيوسياسي في الممرات البحرية

يأخذ التنافس الدولي على الممرات البحرية الاستراتيجية أشكالاً متعددة تتجاوز البعد العسكري المباشر، ليشمل أدوات أمنية واقتصادية وقانونية ولوجستية متداخلة. ويعكس هذا التعدد في الأشكال طبيعة الممرات البحرية بوصفها فضاءات جيوسياسية حساسة ترتبط مباشرة بحركة التجارة العالمية وأمن الطاقة. ويمكن تحديد أبرز هذه الأشكال في خمسة محاور رئيسية مترابطة. (Booth, 2014).

#### أولاً: الوجود العسكري والقواعد البحرية

يمثل الوجود العسكري أحد أبرز مظاهر التنافس الجيوسياسي في الممرات البحرية، حيث تسعى الدول الكبرى إلى نشر قوات بحرية أو إنشاء قواعد عسكرية بالقرب من نقاط الاختناق البحرية الاستراتيجية لضمان حرية الملاحة وحماية مصالحها الحيوية. (العزاوي، 2021)

وتكتسب هذه القواعد أهمية خاصة في مناطق مثل مضيق هرمز وباب المندب ومضيق ملقا، حيث تتمركز قوات بحرية تابعة للولايات المتحدة وقوى دولية أخرى لضمان أمن خطوط التجارة العالمية. كما تعمل بعض الدول على إنشاء قواعد خارج حدودها الجغرافية التقليدية، مثل التوسع الصيني في موانئ المحيط الهندي والقرن الإفريقي، بما يتيح لها تعزيز حضورها في محيطها البحري البعيد. (Till, 2018)

ويعكس هذا التوجه تحول البحر إلى مجال عسكري-استراتيجي مفتوح، حيث لم يعد مجرد فضاء للتجارة، بل أصبح جزءاً من منظومة الردع والتوازنات الدولية.

#### ثانياً: القرصنة والأمن البحري

تعد القرصنة البحرية أحد أبرز التحديات الأمنية التي ساهمت في إعادة تشكيل الاهتمام الدولي بالممرات البحرية، خاصة في مناطق مثل القرن الإفريقي وخليج عدن ومضيق باب المندب.

وقد أدت ظاهرة القرصنة إلى تهديد مباشر لحركة التجارة الدولية وارتفاع تكاليف الشحن والتأمين، مما دفع القوى الدولية إلى تنظيم عمليات بحرية مشتركة لمكافحة هذه

الظاهرة. وتشمل هذه العمليات دوريات بحرية متعددة الجنسيات تهدف إلى تأمين السفن التجارية وحماية الممرات الحيوية. (Murphy, 2013)

كما أن الأمن البحري لم يعد مقتصرًا على القرصنة التقليدية، بل توسع ليشمل تهديدات حديثة مثل الإرهاب البحري، تهريب الأسلحة، والهجمات على ناقلات النفط، مما يعزز الطابع المعقد للأمن في الممرات البحرية.

#### ثالثاً: التحالفات البحرية (تحالفات حماية الملاحة)

شهدت العقود الأخيرة تصاعداً في أهمية التحالفات البحرية متعددة الأطراف، التي تهدف إلى حماية حرية الملاحة وضمان استقرار الممرات البحرية الاستراتيجية. تتجلى هذه التحالفات في أطر مثل العمليات المشتركة في المحيط الهندي وخليج عدن، أو التحالفات التي تقودها قوى كبرى لتأمين مضيق هرمز وباب المندب. وتعكس هذه التحالفات تداخلاً بين الأمن الجماعي والمصالح الاقتصادية، حيث تسعى الدول إلى تقاسم أعباء حماية الطرق البحرية الحيوية. (Kraska & Pedrozo, 2013)

كما أن هذه التحالفات تحمل أبعاداً جيوسياسية غير مباشرة، إذ تُستخدم أيضاً كأدوات نفوذ وتوازن قوى، من خلال تعزيز الحضور العسكري في مناطق استراتيجية دون الحاجة إلى السيطرة المباشرة عليها.

#### رابعاً: الصراعات الإقليمية حول المضائق

تُعد الممرات البحرية مسرحاً دائماً للصراعات الإقليمية، نظراً لارتباطها المباشر بسيادة الدول ومصالحها الاقتصادية والأمنية.

ففي بعض الحالات، تتحول المضائق إلى نقاط توتر بين دول متجاورة أو قوى إقليمية متنافسة، كما هو الحال في مضيق هرمز بين إيران ودول الخليج، أو في باب المندب المرتبط بالصراع في اليمن والقرن الإفريقي، أو في شرق المتوسط حيث تتداخل المصالح البحرية بين عدة دول. (قاسم، 2017).

وتتميز هذه الصراعات بأنها لا تبقى محلية، بل تمتد آثارها إلى النظام الدولي بسبب ارتباط هذه المضائق بسلاسل الإمداد العالمية وأسواق الطاقة، مما يجعل أي توتر فيها قابلاً للتحويل إلى أزمة اقتصادية عالمية.

#### خامساً: الحرب الاقتصادية غير المباشرة (التأمين، الرسوم، العقوبات)

إلى جانب الأبعاد العسكرية، يظهر شكل أكثر تعقيداً من التنافس يتمثل في «الحرب الاقتصادية غير المباشرة»، والتي تُمارس عبر أدوات مالية وقانونية ولوجستية.

فمن ناحية، يؤدي التوتر في الممرات البحرية إلى ارتفاع تكاليف التأمين البحري، مما يزيد من كلفة التجارة العالمية ويؤثر على أسعار السلع والطاقة. ومن ناحية أخرى، تستخدم بعض الدول الرسوم البحرية وضرائب العبور كأداة لتعزيز مواردها الاقتصادية أو لفرض نفوذها الجيوسياسي، كما هو الحال في الممرات التي تتحكم بها دول ذات موقع استراتيجي. (عبد الحميد، 2022).

كما تُستخدم العقوبات الاقتصادية كأداة ضغط غير مباشر تؤثر على استخدام الممرات البحرية، من خلال تقييد حركة السفن أو منع بعض الدول من الاستفادة من شبكات النقل البحري العالمية. وهذا الشكل من التنافس يعكس تحول الاقتصاد إلى ساحة صراع جيوسياسي غير مباشر، حيث تصبح الأسواق والتجارة أدوات ضغط استراتيجية. إذاً يتضح لنا من خلال هذه الأشكال أن التنافس الجيوسياسي في الممرات البحرية لا يقتصر على البعد العسكري التقليدي، بل يتخذ طابعاً مركباً يجمع بين القوة الصلبة (العسكرية) والقوة الناعمة (الاقتصادية والقانونية). فالقواعد العسكرية والتحالفات البحرية تعكس البعد الأمني، بينما تمثل القرصنة والصراعات الإقليمية تحديات ميدانية مباشرة، في حين تكشف أدوات التأمين والرسوم والعقوبات عن مستوى أعمق من التنافس الاقتصادي غير المرئي. وبذلك تتحول الممرات البحرية إلى فضاءات صراع متعددة الأبعاد، تؤثر بشكل مباشر في توازنات النظام الدولي واستقرار الاقتصاد العالمي.

#### الفصل الخامس: الأبعاد الاقتصادية للتنافس على الممرات البحرية الاستراتيجية

تعدّ الممرات البحرية الاستراتيجية أحد المرتكزات الأساسية للاقتصاد العالمي المعاصر، نظراً لدورها الحيوي في ضمان انسياب التجارة الدولية وتدفقات الطاقة والمواد الأولية بين مختلف القارات. ومع تزايد الاعتماد على العولمة الاقتصادية وتشابك الأسواق العالمية، أصبحت هذه الممرات أكثر من مجرد مسارات للنقل البحري، إذ تحولت إلى أصول جيوسياسية واقتصادية ذات قيمة استراتيجية عالية. ومن هذا المنطلق، فإن التنافس الدولي على الممرات البحرية لا يرتبط فقط بالرغبة في تعزيز النفوذ السياسي أو العسكري، بل يعكس أيضاً سعي الدول والقوى الاقتصادية الكبرى إلى حماية مصالحها الاقتصادية وتأمين موقعها داخل النظام الاقتصادي العالمي. وتتجلى الأبعاد الاقتصادية لهذا التنافس في عدد من المحاور الأساسية.

### أولاً: تأثير السيطرة على الممرات البحرية في أسعار الطاقة

ترتبط أسواق الطاقة العالمية ارتباطاً وثيقاً بالممرات البحرية الاستراتيجية، نظراً لأن الجزء الأكبر من تجارة النفط والغاز الطبيعي يتم نقله بحراً عبر مضائق وقنوات محددة. ولذلك فإن أي دولة تمتلك القدرة على التأثير في هذه الممرات أو التحكم بها تكتسب نفوذاً غير مباشر على أسواق الطاقة العالمية. (الزيبيدي، 2020).

وتعد المضائق البحرية، وفي مقدمتها مضيق هرمز وباب المندب وقناة السويس، شرايين رئيسية لنقل النفط والغاز من مناطق الإنتاج إلى الأسواق الاستهلاكية. وعندما تتعرض هذه الممرات لتهديدات أمنية أو توترات سياسية، ترتفع المخاوف بشأن استمرارية الإمدادات، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع الأسعار في الأسواق العالمية حتى قبل وقوع أي تعطيل فعلي.

ويفسر ذلك حساسية أسواق الطاقة تجاه الأحداث الجيوسياسية المرتبطة بالممرات البحرية، حيث غالباً ما تتفاعل الأسواق مع التهديدات والتصريحات السياسية بنفس القدر الذي تتفاعل به مع الوقائع الميدانية. فاحتمال إغلاق أحد المضائق أو تعطل الملاحة فيه يؤدي إلى زيادة تكاليف النقل والتأمين، وينعكس مباشرة على أسعار النفط والغاز، الأمر الذي يؤثر بدوره في معدلات التضخم والنمو الاقتصادي على المستوى العالمي. (IEA, 2024).

ومن ثم، فإن السيطرة على الممرات البحرية أو التأثير في أمنها يمثل أداة اقتصادية ذات أهمية كبيرة، تسمح للدول بتعزيز مكانتها ضمن معادلات الطاقة الدولية.

### ثانياً: الممرات البحرية وأمن سلاسل التوريد العالمية

أدى توسع العولمة الاقتصادية إلى نشوء سلاسل توريد عالمية مترابطة تعتمد على النقل البحري بوصفه الوسيلة الأكثر كفاءة لنقل البضائع والمواد الخام بين القارات. وفي هذا السياق أصبحت الممرات البحرية نقاطاً حيوية لاستمرار النشاط الاقتصادي العالمي.

فالشركات متعددة الجنسيات تعتمد على التدفق المنتظم للمواد الأولية والمنتجات الوسيطة والسلع النهائية عبر الممرات البحرية. وأي اضطراب في هذه الطرق يؤدي إلى تأخير عمليات الإنتاج والتوزيع، مما ينعكس سلباً على مختلف القطاعات الاقتصادية.

وقد أبرزت الأزمات الدولية الحديثة مدى هشاشة سلاسل التوريد أمام التهديدات التي تواجه الممرات البحرية، حيث أدى تعطل بعض الطرق البحرية إلى نقص في الإمدادات وارتفاع أسعار السلع في العديد من الأسواق. ومن هنا أصبح مفهوم «أمن سلاسل التوريد»

جزءاً أساسياً من استراتيجيات الأمن الاقتصادي للدول والشركات الكبرى على حد سواء. وبالتالي، فإن التنافس على الممرات البحرية يرتبط ارتباطاً مباشراً بالسعي إلى ضمان تدفق السلع والخدمات دون انقطاع، بما يحافظ على استقرار الإنتاج والتجارة العالمية. (السامرائي، 2019)

#### ثالثاً: دور الممرات البحرية في التجارة الدولية

تمثل الممرات البحرية العمود الفقري للتجارة الدولية، إذ تعتمد غالبية المبادلات التجارية العالمية على النقل البحري بسبب انخفاض تكلفته مقارنة بوسائل النقل الأخرى وقدرته على استيعاب كميات ضخمة من البضائع.

وتكتسب الممرات البحرية أهمية خاصة لكونها تختصر المسافات بين القارات وتخفف تكاليف الشحن، وهو ما ينعكس مباشرة على أسعار السلع في الأسواق العالمية. فالتقنيات والمضائق الاستراتيجية لا تقتصر وظيفتها على تسهيل الحركة التجارية فحسب، بل تسهم أيضاً في رفع كفاءة الاقتصاد العالمي من خلال تقليل الزمن والتكاليف المرتبطة بالنقل. (Stopford, M. (2009)

كما أن الممرات البحرية تمثل نقاط اتصال بين المراكز الاقتصادية الكبرى في العالم، حيث تربط اقتصادات شرق آسيا الصناعية بأسواق أوروبا وأمريكا الشمالية، وتسمح بتدفق المواد الخام من إفريقيا والشرق الأوسط إلى مناطق التصنيع والاستهلاك. وفي ضوء هذا الدور، أصبحت الممرات البحرية أحد العناصر الأساسية في التنافس الاقتصادي الدولي، حيث تسعى الدول إلى ضمان حرية الملاحة فيها والحفاظ على استقرارها بما يخدم مصالحها التجارية والاستثمارية.

#### رابعاً: تأثير الاضطرابات البحرية في الاقتصاد العالمي (السيد، 2018).

تعد الممرات البحرية من أكثر عناصر الاقتصاد العالمي حساسية تجاه الأزمات السياسية والأمنية، نظراً لأن أي اضطراب فيها يمكن أن يؤدي إلى آثار اقتصادية تتجاوز الحدود الإقليمية لتشمل الاقتصاد الدولي بأكمله.

وتتخذ هذه الاضطرابات أشكالاً متعددة، مثل إغلاق المضائق، أو الحروب الإقليمية، أو الهجمات على السفن التجارية، أو الحوادث الملاحية. وعندما يحدث أي تعطيل في أحد الممرات الحيوية، تضطر السفن إلى استخدام طرق بديلة أطول وأكثر تكلفة، مما يؤدي إلى زيادة تكاليف النقل والتأمين وتأخير عمليات التسليم.

كما تؤدي هذه الاضطرابات إلى تقلبات حادة في الأسواق المالية وأسواق الطاقة، وتؤثر في

أسعار السلع الاستراتيجية والغذائية. وتزداد خطورة هذه التأثيرات في ظل الاعتماد المتبادل بين الاقتصادات الوطنية، حيث تنتقل آثار الأزمة بسرعة عبر شبكات التجارة العالمية. وبذلك، فإن استقرار الممرات البحرية لم يعد مسألة تخص الدول المشرفة عليها فقط، بل أصبح قضية ترتبط بالأمن الاقتصادي العالمي ككل.

#### خامساً: المداخل الاقتصادية للدول المسيطرة على الممرات البحرية

تمنح الممرات البحرية الدول التي تقع ضمن نطاقها الجغرافي مزايا اقتصادية مهمة، تتمثل في العوائد المالية الناتجة عن رسوم العبور والخدمات اللوجستية المرتبطة بالنقل البحري.

وتعد قناة السويس نموذجاً بارزاً في هذا المجال، حيث تشكل أحد أهم مصادر الإيرادات السيادية للدولة المصرية. وتحقق القناة عوائد كبيرة من رسوم مرور السفن، فضلاً عن الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بها مثل خدمات الإرشاد البحري والتموين والصيانة والموانئ. (العاني، 2019)

ولا تقتصر الفوائد الاقتصادية على الإيرادات المباشرة فقط، بل تشمل أيضاً تنشيط الاستثمارات في المناطق اللوجستية والصناعية المحيطة بالممرات البحرية، وتعزيز مكانة الدولة كمركز إقليمي للتجارة والنقل.

ولهذا السبب تسعى العديد من الدول إلى تطوير بنيتها التحتية البحرية والمينائية بهدف تعظيم الاستفادة الاقتصادية من موقعها الجغرافي، وتحويله إلى مصدر قوة اقتصادية مستدامة.

#### سادساً: إعادة توجيه الطرق البحرية واستراتيجيات الشركات الكبرى

أدت المخاطر الجيوسياسية المتزايدة في بعض الممرات البحرية إلى دفع الدول والشركات الكبرى نحو البحث عن بدائل تقلل من درجة الاعتماد على نقاط الاختناق التقليدية.

وتشمل هذه الاستراتيجيات تنويع طرق النقل، وإنشاء ممرات بحرية وبرية بديلة، والاستثمار في الموانئ ومراكز التخزين في مناطق متعددة. كما تعمل الشركات العالمية على تطوير خطط لإدارة المخاطر تتضمن إعادة توزيع سلاسل الإمداد واستخدام مسارات أكثر أمناً عند الضرورة (Levinson, M. 2016).

وقد أسهمت التطورات التكنولوجية والتحول الجيوسياسية في تعزيز هذا التوجه، حيث أصبحت المرونة اللوجستية عاملاً أساسياً في القدرة التنافسية للشركات. كما دفعت المنافسة الدولية إلى ظهور مشاريع استراتيجية كبرى تهدف إلى إعادة رسم خرائط التجارة العالمية وربط الأسواق بطرق جديدة تقلل من تأثير الأزمات البحرية المحتملة.

ومن ثم، فإن التنافس على الممرات البحرية لا يقتصر على السعي للسيطرة عليها، بل يمتد إلى محاولة إيجاد بدائل استراتيجية لها، بما يعكس الطبيعة الديناميكية للاقتصاد العالمي المعاصر.

فالممرات البحرية الاستراتيجية تمثل ركائز أساسية في الاقتصاد العالمي، وأن التنافس عليها يرتبط بمجموعة واسعة من المصالح الاقتصادية المرتبطة بالطاقة والتجارة وسلاسل التوريد والاستثمارات اللوجستية. فالسيطرة على هذه الممرات أو التأثير في أمنها يمنح الدول والقوى الاقتصادية أدوات مهمة لتعزيز نفوذها ومكانتها الدولية. وفي المقابل، فإن أي اضطراب يصيب هذه الممرات ينعكس بصورة مباشرة على الأسواق العالمية واستقرار الاقتصاد الدولي. ولذلك أصبحت الممرات البحرية في القرن الحادي والعشرين فضاءات تتقاطع فيها الجغرافيا السياسية مع الاقتصاد العالمي، بما يجعلها أحد أبرز محددات القوة والنفوذ في النظام الدولي المعاصر.

#### الفصل السادس: دراسة حالة

مضيق باب المندب - الأهمية الجيوسياسية والاقتصادية في ظل الأزمات الإقليمية يُعدّ مضيق باب المندب واحداً من أهم الممرات البحرية الاستراتيجية في العالم، نظراً لموقعه الجغرافي الذي يربط بين البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، ويشكّل بالتالي البوابة الجنوبية لقناة السويس. وقد اكتسب المضيق خلال العقد الأخير أهمية متزايدة في الأدبيات الجيوسياسية والاقتصادية نتيجة تداخل الصراعات الإقليمية مع المصالح الدولية في منطقة البحر الأحمر والقرن الإفريقي. وتبرز أهمية باب المندب من كونه نقطة اختناق بحرية حيوية تمر عبرها نسبة مهمة من التجارة العالمية وإمدادات الطاقة المتجهة من آسيا والخليج العربي نحو أوروبا وأمريكا الشمالية. ( شلبي، 2020 )

أولاً: اليمن والقرن الإفريقي وأهمية الموقع الجيوسياسي للمضيق

يقع المضيق بين الساحل الغربي لليمن من جهة، وسواحل جيبوتي وإريتريا من جهة أخرى، ويبلغ عرضه نحو 26 كيلومتراً في أضيق نقاطه. ويمنحه هذا الموقع أهمية استثنائية باعتباره حلقة الوصل بين المحيط الهندي والبحر المتوسط عبر قناة السويس. وتنبع الأهمية الجيوسياسية للمضيق من وقوعه في منطقة تشهد تفاعلات أمنية معقدة، تشمل الحرب في اليمن، والتنافس الإقليمي بين القوى الخليجية وإيران، فضلاً عن التنافس الدولي على النفوذ في القرن الإفريقي. وقد أدى ذلك إلى تزايد الوجود العسكري

الأجنبي في المنطقة، حيث تستضيف جيوتي قواعد عسكرية تابعة للولايات المتحدة والصين وفرنسا ودول أخرى، في مؤشر واضح على الأهمية الاستراتيجية للمضيق. (شليبي، 2020)

كما أن باب المندب يمثل شرياناً أساسياً لتجارة الطاقة القادمة من الخليج العربي نحو الأسواق الأوروبية. ولذلك فإن أي اضطراب في أمنه ينعكس مباشرة على حركة الملاحة العالمية وعلى تكلفة التجارة الدولية.

#### ثانياً: القرصنة والتدخلات الدولية لحماية الملاحة

شهد باب المندب وخليج عدن خلال العقدين الماضيين تصاعداً ملحوظاً في التهديدات الأمنية المرتبطة بالقرصنة البحرية، خاصة انطلاقاً من السواحل الصومالية. وقد دفعت هذه التهديدات المجتمع الدولي إلى إطلاق عمليات بحرية متعددة الجنسيات لحماية السفن التجارية وضمان أمن الملاحة. (World Bank. 2024).

غير أن التحدي الأكبر خلال السنوات الأخيرة لم يعد مقتصرًا على القرصنة التقليدية، بل ارتبط أيضاً بالهجمات التي استهدفت السفن التجارية في البحر الأحمر منذ أواخر عام 2023. وقد أدت هذه الهجمات إلى تراجع حاد في حركة السفن العابرة للمضيق، وإلى ارتفاع تكاليف التأمين والشحن البحري. وتشير بيانات إدارة معلومات الطاقة الأمريكية إلى أن حجم تدفقات النفط والمنتجات النفطية عبر باب المندب انخفض من 8.7 ملايين برميل يومياً عام 2023 إلى نحو 4 ملايين برميل يومياً خلال الأشهر الثمانية الأولى من عام 2024، أي بانخفاض تجاوز 50%، بالإضافة إلى أن إيران وبعد الحرب الأميركية الإسرائيلية عليها وإغلاق مضيق هرمز تهدد بإغلاق وعبر حلفائها الحوثيين في اليمن تهدد بإغلاق مضيق باب المندب مما يشكل خطراً كبيراً على الاقتصاد وسلاسل التوريد العالمية.

وأمام هذه التطورات، عززت الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية والآسيوية انتشارها البحري في المنطقة، وأطلقت عمليات أمنية لحماية السفن التجارية وضمان استمرار الملاحة الدولية. ويعكس ذلك مدى ارتباط أمن المضيق بالأمن الاقتصادي العالمي.

#### ثالثاً: أثر المضيق على التجارة الأوروبية

تعد أوروبا من أكثر المناطق الاقتصادية اعتماداً على استقرار الملاحة في باب المندب، نظراً لارتباطه المباشر بقناة السويس التي تمثل أقصر طريق بحري بين آسيا وأوروبا. وتشير التقديرات إلى أن الطريق البحري الممتد عبر باب المندب وقناة السويس يستوعب

في الظروف الطبيعية نحو 15% من حجم التجارة البحرية العالمية. وعندما تعرضت الملاحة في البحر الأحمر للاضطرابات خلال عام 2024، انخفضت حركة التجارة عبر قناة السويس بنسبة قاربت 50% مقارنة بالفترة نفسها من العام السابق، واضطرت العديد من شركات الشحن العالمية إلى تحويل مساراتها حول رأس الرجاء الصالح جنوب إفريقيا. وقد ترتب على هذا التحول زيادة زمن الرحلات البحرية بين آسيا وأوروبا بما يتراوح بين 10 و15 يوماً في المتوسط، فضلاً عن ارتفاع تكاليف الوقود والتأمين والشحن. كما سجلت بعض القطاعات الأوروبية نقصاً في المكونات الصناعية والمواد الأولية نتيجة تأخر عمليات التسليم. وأظهرت دراسات اقتصادية أن تكاليف الشحن لبعض الخطوط البحرية ارتفعت عدة أضعاف خلال ذروة الأزمة، الأمر الذي انعكس على أسعار السلع النهائية ومعدلات التضخم في عدد من الاقتصادات الأوروبية.

ومن جهة أخرى، تكبدت مصر خسائر كبيرة نتيجة تراجع حركة العبور في قناة السويس، وهو ما يؤكد الترابط الوثيق بين باب المندب وقناة السويس باعتبارهما جزءاً من منظومة بحرية واحدة تؤثر بصورة مباشرة في الاقتصاد العالمي.

وهكذا فإن حالة مضيق باب المندب تكشف عن التداخل العميق بين الجغرافيا السياسية والاقتصاد العالمي في القرن الحادي والعشرين. فالمضيق لا يمثل مجرد معبر بحري إقليمي، بل يُعدّ أحد أهم مراكز الثقل في شبكة التجارة والطاقة الدولية. وقد أظهرت التطورات الأخيرة أن أي اضطراب أمني في هذه المنطقة قادر على إحداث تأثيرات واسعة النطاق تمتد من أسواق الطاقة إلى سلاسل التوريد العالمية والتجارة الأوروبية. ومن ثم، فإن باب المندب يجسد نموذجاً واضحاً لكيفية تحول الممرات البحرية الاستراتيجية إلى فضاءات للتنافس الدولي ومحددات رئيسية لاستقرار الاقتصاد العالمي.

وتلخص هذه الدراسة إلى أن الممرات البحرية الاستراتيجية تمثل أحد أهم المرتكزات الجيوسياسية والاقتصادية التي يقوم عليها النظام الدولي المعاصر، نظراً لدورها الحيوي في ضمان استمرارية حركة التجارة العالمية وتدفقات الطاقة وسلاسل الإمداد بين مختلف القارات. وقد أظهرت الدراسة أن الأهمية الاستراتيجية لهذه الممرات لا ترتبط فقط بخصائصها الجغرافية، وإنما أيضاً بوظيفتها الاقتصادية باعتبارها نقاط اختناق بحرية تتحكم في جزء كبير من المبادلات التجارية العالمية. فمضائق مثل هرمز وباب المندب وملقا، وقنوات مثل السويس وبنما، أصبحت تشكل عقداً مركزية في شبكة الاقتصاد العالمي، الأمر الذي جعلها محوراً دائماً للتنافس بين القوى الكبرى والإقليمية.

كما بينت الدراسة أن التنافس الدولي على الممرات البحرية يتجاوز مفهوم السيطرة العسكرية التقليدية، ليشمل أبعاداً اقتصادية واستراتيجية أكثر تعقيداً. فالولايات المتحدة تسعى إلى الحفاظ على حرية الملاحة وحماية النظام البحري الذي دعم هيمنتها الاقتصادية لعقود طويلة، في حين تعمل الصين على تأمين طرق التجارة والطاقة المرتبطة بصعودها الاقتصادي العالمي، بينما تركز روسيا على ضمان منافذها البحرية وتعزيز أمن صادراتها من الطاقة. وفي المقابل، تحاول القوى الإقليمية توظيف مواقعها الجغرافية لتعزيز أدوارها السياسية والاقتصادية داخل النظام الدولي.

وأظهرت الدراسة أيضاً أن الممرات البحرية أصبحت مسرحاً لأشكال متعددة من التنافس الجيوسياسي، تشمل الانتشار العسكري، وإنشاء القواعد البحرية، وتشكيل التحالفات الأمنية، فضلاً عن الصراعات الإقليمية والحروب الاقتصادية غير المباشرة. وقد أدى ذلك إلى تزايد أهمية الأمن البحري باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر الأمن القومي للدول والأمن الاقتصادي العالمي في آن واحد.. (International Energy Agency (IEA) ومن الناحية الاقتصادية، أكدت الدراسة أن استقرار الممرات البحرية يشكل شرطاً أساسياً لاستقرار الاقتصاد العالمي. فسلامة الملاحة في هذه الممرات تضمن تدفق الطاقة والسلع والمواد الأولية إلى الأسواق الدولية، بينما يؤدي أي اضطراب فيها إلى ارتفاع تكاليف النقل والتأمين، وإرباك سلاسل التوريد، وارتفاع أسعار الطاقة والسلع الأساسية. كما تبين أن الدول التي تتحكم في الممرات البحرية أو تشرف عليها تستفيد من عوائد اقتصادية مباشرة وغير مباشرة، تشمل رسوم العبور والخدمات اللوجستية والاستثمارات المرتبطة بالنقل البحري.

أما فيما يتعلق بمستقبل التنافس الدولي على الممرات البحرية، فإن المؤشرات الراهنة تدل على استمرار هذا التنافس وربما تصاعده خلال العقود المقبلة. ويعود ذلك إلى عدة عوامل، أبرزها تنامي الطلب العالمي على الطاقة، وتزايد أهمية التجارة البحرية، وتصاعد التنافس بين القوى الكبرى، وخاصة بين الولايات المتحدة والصين. كما أن التحولات الجيوسياسية والتكنولوجية، بما في ذلك مشاريع الممرات الاقتصادية الجديدة، والتغيرات المناخية التي قد تفتح طرقاً بحرية بديلة، ستسهم في إعادة تشكيل خريطة الممرات الاستراتيجية العالمية، دون أن تلغي أهمية الممرات التقليدية التي ستبقى محورية في الاقتصاد الدولي.

وفي ضوء هذه النتائج، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات التي قد تسهم في تعزيز

أمن الممرات البحرية واستقرارها. أولاً، ضرورة تطوير آليات التعاون الدولي في مجال الأمن البحري من خلال تعزيز التنسيق بين الدول والمنظمات الدولية لمواجهة التهديدات المشتركة، مثل القرصنة والإرهاب البحري واستهداف السفن التجارية. ثانياً، تشجيع الحلول الدبلوماسية للنزاعات الإقليمية المرتبطة بالمضائق والممرات البحرية، لما لها من تأثير مباشر على الاقتصاد العالمي. ثالثاً، دعم الاستثمارات في البنية التحتية البحرية والموانئ وشبكات النقل اللوجستي، بما يساهم في رفع كفاءة التجارة الدولية وتقليل المخاطر المرتبطة بالاختناقات البحرية. رابعاً، تعزيز مرونة سلاسل التوريد العالمية من خلال تنوع طرق النقل ومصادر الإمداد، بما يحد من التأثيرات السلبية الناجمة عن الأزمات الجيوسياسية. وأخيراً، ضرورة ترسيخ مبدأ حرية الملاحة باعتباره أحد الأسس الجوهرية لاستقرار الاقتصاد العالمي واستدامة التنمية الاقتصادية الدولية. وبناءً على ما سبق، يمكن القول إن الممرات البحرية الاستراتيجية ستظل في المستقبل المنظور إحدى أهم أدوات القوة والنفوذ في العلاقات الدولية، كما ستبقى عنصراً حاسماً في التفاعل بين الجغرافيا السياسية والاقتصاد العالمي. ومن ثم فإن فهم ديناميات التنافس حولها يمثل مدخلاً أساسياً لفهم طبيعة النظام الدولي المعاصر والتحول التي يشهدها في القرن الحادي والعشرين.

#### المصادر والمراجع:

1. أحمد، جمال عبد الله. 2018. الجغرافيا السياسية المعاصرة. القاهرة: دار الفكر العربي.
2. بدوي، أحمد زكي (2015). العلاقات الدولية والنظام العالمي الجديد. القاهرة: دار النهضة العربية.
3. الحياي، وليد عبد الحي 2017. الجغرافيا السياسية: الأسس والنظريات والتطبيقات. عمّان: دار صفاء للنشر والتوزيع.
4. الدباغ، عبد الرزاق 2016. الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا. عمّان: دار اليازوري العلمية.
5. الزبيدي، محمد علي 2020 أمن الطاقة والتنافس الدولي في الشرق الأوسط. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
6. السامرائي، إبراهيم خليل 2019. الجغرافيا الاقتصادية والتجارة الدولية. عمّان: دار المسيرة.
7. السيد، محمد عبد السلام. 2018. الاقتصاد السياسي للعلاقات الدولية. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

8. العزاوي، قيس جواد. 2021. الممرات البحرية الاستراتيجية وأثرها في الأمن الدولي. بغداد: دار الدكتور للعلوم الإدارية والاقتصادية.
9. قاسم، جمال محمد. 2017. الصراعات الجيوسياسية في القرن الحادي والعشرين. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
10. هلال، علي الدين 2016 النظام الدولي والتحولت العالمية. القاهرة: دار الشروق.
11. شلبي، عبد الحليم. 2020. أهمية مضيق باب المندب في الأمن القومي العربي. المجلة العربية للعلوم السياسية، 65(2)، 115-142.
12. حسين، عبد الكريم. 2021. قناة السويس والتجارة الدولية في ظل التحولات الجيوسياسية. مجلة الدراسات الاقتصادية العربية، 13(1)، 77-101.
13. العاني، سعدون. 2019. التنافس الدولي على الممرات البحرية وأثره في الأمن الاقتصادي العالمي. مجلة العلوم السياسية، 58(4)، 45-70.
14. عبد الحميد، محمود. (2022). مضيق هرمز وأمن الطاقة العالمي. مجلة المستقبل العربي، 517(1)، 88-110.
15. Black, J. (2018). *Geopolitics and the quest for dominance*. Bloomington, IN: Indiana University Press.
16. Booth, K. (2014). *Navies and foreign policy*. London, England: Routledge.
17. Brewster, D. (2018). *India and China at sea: Competition for naval dominance in the Indian Ocean*. Oxford, England: Oxford University Press.
18. Brzezinski, Z. (1997). *The grand chessboard: American primacy and its geostrategic imperatives*. New York, NY: Basic Books.
19. Gray, C. S. (1992). *The leverage of sea power: The strategic advantage of navies in war*. New York, NY: Free Press.
20. Kaplan, R. D. (2010). *Monsoon: The Indian Ocean and the future of American power*. New York, NY: Random House.
21. Kraska, J., & Pedrozo, R. A. (2013). *International maritime security law*. Leiden, Netherlands: Martinus Nijhoff Publishers.
22. Levinson, M. (2016). *The box: How the shipping container made the world smaller and the world economy bigger* (2nd ed.). Princeton, NJ: Princeton University Press.
23. Mahan, A. T. (1890). *The influence of sea power upon history, 1660-1783*. Boston, MA: Little, Brown and Company.
24. Mackinder, H. J. (1904). *The geographical pivot of history*. *The Geographical Journal*, 23(4), 421-437.

25. Murphy, M. N. (2013). Somali piracy and maritime security in the Indian Ocean. *Orbis*, 57(1), 95–110.
26. Rodrigue, J. P. (2020). *The geography of transport systems* (5th ed.). New York, NY: Routledge.
27. Stopford, M. (2009). *Maritime economics* (3rd ed.). London, England: Routledge.
28. Till, G. (2018). *Seapower: A guide for the twenty-first century* (4th ed.). London, England: Routledge.

#### مصادر وتقارير دولية يمكن إضافتها في قائمة المصادر

- United Nations Conference on Trade and Development (UNCTAD). (2024). *Review of Maritime Transport 2024*. Geneva: United Nations.
- International Energy Agency (IEA). (2024). *World Energy Outlook 2024*. Paris: IEA.
- U.S. Energy Information Administration (EIA). (2024). *World Oil Transit Chokepoints*. Washington, DC: U.S. Department of Energy.
- International Maritime Organization (IMO). (2023). *Annual Report 2023*. London: IMO.
- World Bank. (2024). *Global Economic Prospects*. Washington, DC: World Bank.



# التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد نحو نظرية اتصالية في الدورة المغلقة للاعتماد الرقمي

نجوى طه

باحثة وطالبة  
دكتوراه في  
المعهد العالي  
للدكتوراه والعلوم  
الإنسانية — كلية  
الإعلام والتوثيق-  
الجامعة اللبنانية

## الملخص

تسعى هذه المقالة إلى تقديم إطار نظري أصيل في حقل دراسات الإعلام والاتصال، يُعيد قراءة مفهوم التبعية الإعلامية في ضوء التحوّلات البنيوية التي أحدثتها الخوارزميات في العلاقة بين المتلقي والمنصّات الرقمية. تتطّلق المقالة من نقد مفصّل لنظرية التبعية الإعلامية التي صاغها بول-روكيتش وديفلور عام 1976، مُبيّنة أنّ افتراضاتها الأساسية — وفي مقدّمها أنّ الفرد يأتي إلى الوسيلة الإعلامية بحاجة مُسبقة يبحث عن إشباعها — لم تعد تصمد أمام واقع البيئة الخوارزمية حيث باتت الخوارزمية ذاتها تُولّد الحاجات وتُصنّعها قبل أن تُقدّم نفسها كحلّ وحيد لها. وتقدّم المقالة نظرية «التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد» القائمة على أربعة مفاهيم مركزية: الحاجة المُصطنعة، والاعتماد الدائري، والتبعية المُقنّعة بالاستقلالية، والتراكم اللاعبي. وتُجادل بأنّ هذه النظرية تُفسّر ظاهرة لم تستطع النظريات القائمة تفسيرها تفسيراً كافياً: لماذا يشعر مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي بأنهم أحرار تماماً في بيئة هم فيها أكثر تبعية من أيّ وقت مضى في تاريخ الاتصال البشري.

الكلمات المفتاحية: التبعية الخوارزمية، نظرية التبعية الإعلامية، الاستقلالية الاتصالية، الدورة المغلقة، الحاجة المُصطنعة، وسائل التواصل الاجتماعي، الخوارزميات.

## مقدمة

لعلّ أكثر المفارقات إثارة للحيرة في المشهد الاتصالي المعاصر أنّ العصر الذي مُنح فيه المتلقي أكبر قدر من «الحرية» الظاهرية في اختيار مصادره الإعلامية هو ذاته العصر الذي فقد فيه أكبر قدر من الاستقلالية الحقيقية في تحديد ما يراه ويعرفه ويهتمّ به. ففي عالم يتصفّح فيه المستخدم هاتفه الذكي وهو يظنّ أنه يختار بملء إرادته ما يُشاهده على تيك توك أو ما يقرأه على فيسبوك أو ما يستمع إليه على يوتيوب، ثمّة نظام خوارزمي بالغ التعقيد يعمل خلف الكواليس، لا لتلبية حاجاته فحسب، بل لتوليد حاجات جديدة لم تكن في حسبانها، ثمّ تقديم نفسه كملبّ وحيد لها. وقد عبّرت شوشانا زوبوف Shoshana Zuboff عن جوهر هذا التحوّل بقولها: «إنّ رأسمالية المراقبة»<sup>249</sup> تستحوذ من جانب واحد على الخبرة الإنسانية بوصفها مادّة خام مجانية تُترجم إلى بيانات سلوكية... ثمّ يُعلن عن هذه البيانات بوصفها فائضاً سلوكياً مملوكاً، يُدخل في عمليات تصنيع متقدّمة تُعرف باسم «الذكاء الآلي»، ويُحوّل إلى منتجات تنبؤيّة» (Zuboff, 2019, p. 8). فما يجري ليس مجرد جمع للبيانات بل تحويل للخبرة الإنسانية ذاتها إلى مادّة خام تُتداول في «أسواق المستقبل السلوكية» التي تُراهن على التنبؤ بسلوك المستخدمين وتوجيهه قبل وقوعه.

هذه الظاهرة لا تجد تفسيراً كافياً في النظريات الاتصالية القائمة. فنظرية الاستخدامات والإشباع (Katz, 1973, Blumler, & Gurevitch) تفترض جمهوراً نشطاً يعرف ما يريد ويختار الوسيلة التي تُلبّي حاجاته — وهو افتراض يتصدّع حين تكون الوسيلة ذاتها هي التي تُشكّل هذه الحاجات. ونظرية التبعية الإعلامية (Ball-Rokeach & DeFleur, 1976) تفترض علاقة تبعية واعية بين الفرد والنظام الإعلامي تتعمّق في أوقات الأزمات والغموض — لكنها لا تُفسّر تبعية تتعمّق في أوقات الرخاء والاستقرار أيضاً، ولا تُفسّر تبعية لا يشعر بها المتلقي أصلاً. وحتى المحاولات الأحدث لتوسيع هذه النظريات، كنموذج التبعية العاطفية لوسائل التواصل الاجتماعي (Jung et al., 2025)، تظلّ أسيرة المنطق الخطّي ذاته: الفرد يشعر بحاجة، فيلجأ إلى الوسيلة، لتتعمّق التبعية.

تتطلب هذه الفجوة النظرية إطاراً مفاهيمياً جديداً يتجاوز منطق السببية الخطية نحو فهم التبعية الإعلامية الرقمية بوصفها نظاماً دائرياً مغلقاً لا يمكن تحديد نقطة بدايته ولا فصل أسبابه عن نتائجه. وهذا ما تسعى هذه المقالة إلى تقديمه من خلال صياغة نظرية

«التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد» التي تقوم على أطروحة مركزية مفادها أن الخوارزميات الرقمية لا تكفي بتلبية حاجات المتلقي ولا حتى بتعميق اعتماده على الوسيلة، بل إنها تولّد الحاجات ذاتها وتُصنّعها، ثم تُقنّع هذه التبعية بغلاف من الاستقلالية الزائفة، فينتج نظام تبعية دائري مغلق يُعيد إنتاج نفسه تلقائيًا دون أن يعي المتلقي أنه خاضع له. تنتظم المقالة في خمسة محاور، يتناول الأول التأسيس النظري لمفهوم التبعية الإعلامية وتطوّراته، ويُقدّم الثاني نقدًا منهجيًا لقصور النظريات القائمة أمام الواقع الخوارزمي، ويصوغ الثالث البنية المفاهيمية للنظرية المقترحة بمفاهيمها الأربعة المركزية، ويعرض الرابع النموذج التفسيري للتبعية ذاتية التوليد ويُقارنه بالنماذج السابقة، فيما يُناقش الخامس الأبعاد الأخلاقية والتنظيمية للنظرية وأفاقها البحثية المستقبلية.

#### المحور الأول: التأسيس النظري لمفهوم التبعية الإعلامية

##### 1- جذور المفهوم: من لوين إلى بول-روكيتش

لا يمكن فهم التبعية الخوارزمية دون العودة إلى جذور مفهوم التبعية الإعلامية ذاته وتتبع مساره التاريخي. فقد نشأ هذا المفهوم في سياق فكري محدّد كان يبحث عن تفسير للعلاقة بين الفرد ووسائل الإعلام الجماهيرية بعيدًا عن الطروحات المتطرّفة التي سادت منتصف القرن العشرين، سواء طرح التأثير القوي والمباشر لوسائل الإعلام أو طرح التأثير المحدود الذي ساد بعد ذلك.

في عام 1976، قدّمت ساندرنا بول-روكيتش Sandra J. Ball-Rokeach وملفين ديفلور Melvin L. DeFleur نموذج التبعية الإعلامية (De-Media System pendency – MSD) في مقالتهما المؤسّسة المنشورة في مجلة Communica-tion Research. وقد انطلقا من مقارنة منظومية (Systems Approach) ترى أن العلاقة بين الفرد ووسائل الإعلام لا يمكن فهمها بمعزل عن النظام الاجتماعي الأوسع الذي يحتضنها (Ball-Rokeach & DeFleur, 1976). وقد حدّدًا ثلاث حاجات أساسية تدفع الفرد إلى الاعتماد على وسائل الإعلام: حاجة الفهم أي استيعاب ما يجري في العالم، وحاجة التوجّه أي معرفة كيفية التصرّف في مواقف بعينها، وحاجة التسلية أي الترفيه عن النفس والهروب من التوتر. وكلّما ازدادت حاجة الفرد إلى هذه الوظائف، ازداد اعتماده على وسائل الإعلام، وبالتالي ازداد تأثره بها.

والأهمّ من ذلك أن النظرية ربطت بين مستوى التبعية والسياق الاجتماعي، إذ أكّدت أن

التبعية تتعمق في أوقات الغموض والأزمات والتغير الاجتماعي، حين يعجز الفرد عن فهم بيئته اعتماداً على تجربته المباشرة فيلجأ إلى الوسيلة الإعلامية بوصفها مصدرًا لا غنى عنه للمعلومات (Ball-Rokeach, 1985). وقد أكدت دراسات لاحقة هذا الربط في سياقات متعددة، إذ أشار ويليام لوغيز (William E. Loges, 1994) إلى أن إدراك التهديد يُعمق علاقات التبعية الإعلامية، فيما وثقت دراسات أخرى ارتفاع مستويات التبعية خلال الأحداث الكبرى كهجمات الحادي عشر من أيلول وجائحة كوفيد-19.

## 2- التطورات اللاحقة: من البنية التحتية الاتصالية إلى الاعتماد الرقمي

لم تبقَ نظرية التبعية جامدة، بل عرفت تطورات مهمة حاولت مواكبة التغيرات في البيئة الإعلامية. ففي عام 2004، أعادت بول-روكيتش صياغة النظرية ضمن ما سمّته «البنية التحتية الاتصالية» ، موسّعةً مفهوم التبعية ليشمل ليس فقط العلاقة بين الفرد ووسيلة الإعلام، بل أيضاً العلاقة بين الفرد ومجموعة الموارد الاتصالية المتاحة في مجتمعه المحلي (Ball-Rokeach & Jung, 2004). وقد أتاح هذا التوسيع دراسة التبعية في سياقات أكثر تعقيداً تتجاوز العلاقة الثنائية البسيطة بين الفرد والوسيلة. ومع انتشار وسائل التواصل الاجتماعي، ظهرت محاولات لتطبيق النظرية على البيئة الرقمية. فقد أثبت يونغ-تشان كيم (Yong-Chan Kim) وجوي يونغ جونج (Joo-Young Jung) (Kim & Jung, 2017) أن التبعية على وسائل التواصل الاجتماعي تتعمق بشكل ملحوظ مقارنة بالوسائل التقليدية، وأضافا بُعداً رابعاً للحاجات هو «التعبير» — أي حاجة الفرد إلى التعبير عن ذاته والتفاعل مع الآخرين — وهو بُعد لم يكن متاحاً في الإعلام التقليدي أحادي الاتجاه. كما ظهرت مؤخراً محاولة لبناء نموذج «التبعية العاطفية لوسائل التواصل الاجتماعي» (Jung et al., 2025) يُدخل العواطف بوصفها متغيراً مُضخّماً للتبعية، مجادلاً بأنّ الحالات العاطفية المكثفة (كالقلق والغضب) تُعمق اعتماد الفرد على وسائل التواصل، وأنّ هذا الاعتماد بدوره يُضخمّ العواطف ذاتها في حلقة تغذية راجعة.

غير أنّ هذه التطورات جميعها، على أهميتها، ظلّت وفيّة لافتراض جوهرى واحد لم تُساءل له: أنّ الحاجة تسبق الاستخدام. أي أنّ الفرد يأتي إلى الوسيلة الإعلامية — تقليدية كانت أم رقمية — بحاجة مُسبقة (معرفية أو عاطفية أو اجتماعية) ثم يعتمد عليها

لتبليتها. هذا الافتراض هو بالتحديد ما تُساءله المقالة الحالية.

المحور الثاني: حدود النظريات القائمة أمام الواقع الخوارزمي

### 1- الافتراض الخطي: نقطة الضعف المشتركة

تشارك نظرية التبعية الإعلامية ونظرية الاستخدامات والإشباع، على اختلافهما، في بنية سببية خطية واحدة يمكن اختزالها كالأتي: يُدرك الفرد حاجة يبحث عن وسيلة تُلبّيها يعتمد عليها تتولّد تأثيرات. هذه البنية الخطية كانت منطقية تماماً في بيئة الإعلام التقليدي حيث كان الفرد يقرّر، بوعي ولو نسبي، أن يفتح التلفزيون أو يشتري صحيفة أو يستمع إلى محطة إذاعية. أمّا في البيئة الخوارزمية فإنّ هذا التسلسل يتفكك من أساسه، لأنّ لحظة «إدراك الحاجة» ذاتها أصبحت ملتبسة. فهل أنا أريد فعلاً مشاهدة هذا الفيديو عن السفر إلى اليونان، أم أنّ الخوارزمية التي عرضته عليّ هي التي أوجدت لديّ رغبة لم تكن موجودة قبل ثوانٍ؟

إنّ ما يُعقّد الأمر أنّ الخوارزمية لا تفرض محتوى فرضاً بالمعنى التقليدي. فالمستخدم يستطيع نظرياً تجاوز أيّ محتوى يظهر أمامه. لكنها تُعيد ترتيب بيئته المعلوماتية بأكملها بطريقة تجعل بعض الاحتمالات أكثر وروداً بكثير من غيرها. وهذا التحكم في «بنية الاحتمالات»<sup>2</sup> هو ما يُميّز التبعية الخوارزمية عن كل أشكال التبعية الإعلامية السابقة.

### 2- القصور المحدّد: ثلاث فجوات نظرية

يمكن تحديد ثلاث فجوات نظرية واضحة في الإطار القائم لا تملك النظريات الحالية أدوات كافية لمعالجتها.

الفجوة الأولى هي مصدر الحاجة. تفترض نظرية التبعية أنّ الحاجات نابعة من الفرد ومن بيئته الاجتماعية التي يلّفّها الغموض، والأزمات، والتغيّر، وأنّ الوسيلة الإعلامية هي الجواب لا السؤال. لكنّ الواقع الخوارزمي يبيّن أنّ المنصّة الرقمية لا تنتظر أن يأتيها الفرد بحاجته بل هي التي تذهب إليه عبر الإشعارات، والتوصيات، والمحتوى المُخصّص لتُخبره بما «ينبغي» أن يهتمّ به. وهذا يعني أنّ الوسيلة تحوّلت من مُلبّ للحاجة إلى مُولّد لها. وتمتدّ جذور هذه الإشكالية إلى نقد جون كينيث غالبريث John Kenneth Galbraith لما سمّاه «أثر التبعية»<sup>3</sup> Dependence Effect، إذ كتب: «إنّ الإنتاج لا يملأ سوى الفراغ الذي خلقه بنفسه» (Galbraith, 1958, p. 124)، مُجادلاً بأنّ المنظومة الاقتصادية الحديثة لم تعد تستجيب لحاجات سابقة عليها بل تُولّد الحاجات

التي تتولّى لاحقاً تلبيتها. غير أنّ الخوارزمية تُنجز هذا التوليد من دون قرار بشري واعٍ، وهو ما يُمثّل قفزة نوعية لا كميّة عمّا رصده غالبريث في الاقتصاد الاستهلاكي. أمّا الفجوة الثانية، فهي وعي المتلقي بتبعيته. يظهر في نموذج بول-روكيتش وديفلور، أنّ التبعية علاقة يمكن للفرد أن يدركها ولو بشكل ضمني. فالمشاهد يعرف أنه يعتمد على نشرة الأخبار لفهم ما يجري، والقارئ يعرف أنه يعتمد على الصحيفة لتوجيه رأيه. هذا الإدراك، ولو كان جزئياً، يُبقي مسافة نقدية بين المتلقي والوسيلة. أمّا في البيئة الخوارزمية، فإنّ تصميم المنصات يُنتج ما يُمكن وصفه بـ«وهم الاستقلالية»<sup>4</sup> حيث يشعر المستخدم بأنه هو المتحكّم بينما الخوارزمية هي التي تُشكّل خياراته. وقد أشارت ناتالي هيلبيرغر (Natali Helberger, 2019) إلى أنّ خوارزميات التوصية لا تكتفي بالتأثير في ما يقرأه المستخدم بل تُعيد تشكيل ما يستطيع أن يقرأه أصلاً، فتنتقله من موقع المُختار إلى موقع المُنتقى له. وهذا الغياب للوعي بالتبعية يجعلها أشدّ تأثيراً وأصعب مقاومةً.

هذا وتكمن الفجوة الثالثة في اتجاه العلاقة. إذ، حتى المحاولات الأحدث لتوسيع نظرية التبعية كنموذج التبعية العاطفية تظلّ أسيرة منطق «التغذية الراجعة» Feed-back Loop الذي يفترض وجود نقطة بداية يمكن تحديدها (الحالة العاطفية تسبق الاستخدام، والاستخدام يُعمّقها). لكنّ الواقع الخوارزمي يُظهر نظاماً دائرياً مغلقاً لا يمكن فيه الفصل بين السبب والنتيجة. فالخوارزمية تُؤدّ الاهتمام، والاهتمام يُنتج التفاعل، والتفاعل يُعيد تشكيل الخوارزمية، والخوارزمية المُعاد تشكيلها تُؤدّ اهتمامات جديدة، في تصاعد حلزوني لا خطّي بلا نقطة بداية يمكن تعيينها. وقد لَمَّح إلى بعض ملامح هذه الديناميكية إيلي باريسر (Eli Pariser) في مفهومه عن «فقاعة التصفية»<sup>5</sup> Filter Bubble، حين بيّن أنّ المستخدم لا يختار ما يدخل فقاعته، والأخطر أنه لا يرى ما تستبعده أصلاً (Pariser, 2011). غير أنّ مفهوم الفقاعة يبقى استعارة ساكنة تصف حالة من العزل المعلوماتي، فيما يُضيف مفهوم الاعتماد الدائري بُعد الحركة الذاتية للنظام. فالمسألة ليست مسألة عزلٍ، بل دورة تتغذى وتُعيد إنتاج نفسها بلا توقّف.

**المحور الثالث: البنية المفاهيمية لنظرية التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد**  
في ضوء الفجوات النظرية المُشخّصة أعلاه، تقترح هذه المقالة نظرية «التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد» بوصفها إطاراً مفاهيمياً يتجاوز المنطق الخطّي لنظريات التبعية التقليدية

نحو فهم العلاقة بين المتلقي والمنصّة الرقمية بوصفها نظامًا دائريًا مغلقًا يُعيد إنتاج نفسه تلقائيًا. وتقوم هذه النظرية على أربعة مفاهيم مركزية مترابطة.

### 1- الحاجة المُصطنعة

يُعدّ مفهوم «الحاجة المصطنعة» الركيزة الأولى<sup>6</sup> التي تقوم عليها النظرية، وهو يُجادل بأنّ الخوارزميات لا تكتفي بالاستجابة لحاجات المتلقي القائمة إنّما تُنتج حاجات جديدة لم تكن في وعيه قبل تعرّضه للمحتوى الخوارزمي. ويمتدّ هذا المفهوم إلى تقليد نقدي طويل في الفلسفة الاجتماعية، إذ سبق لهربرت ماركوز (Herbert Marcuse) أن مبيّر بين «الحاجات الحقيقية» و«الحاجات الزائفة»، حيث كتب: «إنّ الحاجات الزائفة هي تلك التي تفرضها على الفرد مصالح اجتماعية بعينها في قمعها: الحاجات التي تُديم الكدح والعدوان والبؤس والظلم» (Marcuse, 1964, p. 5). كما رصد تيودور أدورنو (Theodor W. Adorno) وماكس هوركهايمر (Max Horkheimer) الآلية ذاتها في تحليلهما لـ<sup>7</sup> «صناعة الثقافة» (Adorno & Horkheimer, 1944/2002)، مُبيّنين كيف تُحوّل المنظومة الإعلامية الجماهيرية المتلقّي إلى مستهلك تُعاد برمجة رغباته لخدمة منطق الإنتاج لا منطق الإنسان.

غير أنّ مفهوم الحاجة المُصطنعة الخوارزمية يختلف جذريًا عن مفاهيم النقد الاجتماعي الكلاسيكية وعن مفهوم «خلق الحاجة» في الأدبيات التسويقية. ففي التقليدين معًا، ثمة فاعل بشري واع (المُسوّق، أو منظومة صناعة الثقافة) يُصمّم رسالة مقصودة لإقناع المتلقي بأنّه يحتاج إلى منتج بعينه. أمّا في حالة الخوارزمية، فلا وجود لفاعل بشري واع يُقرّر خلق حاجة بعينها لدى مستخدم بعينه، بل إنّ النظام الخوارزمي يفعل ذلك تلقائيًا كنتيجة بنيوية لمنطق اشتغاله القائم على تعظيم التفاعل<sup>8</sup> (Engagement Maximization). فالْمُصطنع في صناعة الثقافة كان بشريًا ومقصودًا، أمّا في الخوارزمية فهو بنوي ولاواع، وهذا الفارق نوعي لا كمي.

وتعمل آلية تصنيع الحاجة عبر مسار يمكن وصفه كالتالي: تعرض الخوارزمية على المستخدم محتوى لم يطلبه ولم يكن يبحث عنه، لكنها تتوقّع، بناءً على نموذجها التنبؤي المبني على سلوكه السابق وسلوك مستخدمين مشابهين، أنّه سيتفاعل معه. وحين يتفاعل المستخدم فعلاً (بالمشاهدة أو التوقّف أو اللايك)، يتولّد لديه اهتمام لم يكن موجوداً قبل لحظات، ثمّ يتحوّل هذا الاهتمام إلى حاجة معلوماتية يبحث عن إشباعها. فتُقدّم له الخوارزمية مزيداً من المحتوى المشابه، فتتعمّق الحاجة، وهكذا. إنّ مفهوم الحاجة

المصطنعة يقلب المقولة الأساسية لنظرية الاستخدامات والإشباعات رأسًا على عقب. فلم يعد السؤال «ماذا يفعل الناس بالوسائل؟» بل بات «ماذا تفعل الوسائل بحاجات الناس؟».

## 2- الاعتماد الدائري

المفهوم الثاني في النظرية المقترحة هو «الاعتماد الدائري»<sup>9</sup>، وهو يصف بنية العلاقة بين المتلقي والخوارزمية بوصفها دورة مغلقة لا خطية لا يمكن تحديد نقطة بدايتها. يتجاوز هذا المفهوم «التغذية الراجعة»<sup>10</sup> (الذي يُستخدم في بعض الأدبيات الحديثة (Jung et al., 2025)، لأنّ التغذية الراجعة تفترض مسارًا يبدأ من نقطة معيّنة ثمّ يعود إليها معرّزًا. أي أنّ هناك «سببًا» و«نتيجة» يمكن التمييز بينهما ولو نظريًا. أمّا الاعتماد الدائري فيقول إنّ التمييز ذاته بين السبب والنتيجة ليس ممكنًا في البيئة الخوارزمية.

فمثلًا، حين يقضي المستخدم خمس عشرة دقيقة في تصفّح محتوى سياحي عن لبنان على إنستغرام، أو حين يجد طفلًا منغمسًا في سلسلة مقاطع متتالية على يوتيوب للأطفال، أو حين يكتشف المستخدم نفسه قد قرأ عشر مقالات إخبارية متعاقبة عن الموضوع عينه، يُطرح السؤال التالي: هل كانت لديه رغبة مسبقة دفعته إلى البحث فعرضت الخوارزمية عليه ما يُلبّيها؟ أم أنّ الخوارزمية عرضت عليه إغراءً ضمن تغذيته العامة فتولّدت لديه الرغبة فبحث عن المزيد؟ في الممارسة الفعلية، يستحيل الإجابة عن هذا السؤال لأنّ المسارين يتداخلان ويتغذيان بعضهما من بعض في كل لحظة. وعلى الرغم من أنّ بعض الدراسات الحديثة ليوذيت مولر (Judith Möller) وزملائها (Möller, Trilling, Helberger, & van Es, 2023) تُشير إلى أنّ التنوّع في المحتوى لا يتراجع بالضرورة بسبب الخوارزمية، فإنّ النظرية المقترحة تُجادل بأنّ المسألة ليست في تنوّع المحتوى بل في بنية الدورة ذاتها. فحتى المحتوى المتنوّع، حين يمرّ عبر دورة مغلقة، يُعاد تدويره ضمن منطلق التفاعل لا منطلق المعرفة. وهذه الاستحالة ليست مسألة منهجية، أي أنها ليست ناتجة عن ضعف أدوات القياس، إنما هي سمة بنيوية في النظام الخوارزمي ذاته. إنّ الاعتماد الدائري هو اعتماد بلا بداية وبلا نهاية، وهو بذلك يختلف نوعيًا، لا درجيًا، عن كل أشكال التبعية الإعلامية التي عرفتتها النظريات السابقة.

## 3- التبعية المُقنّعة بالاستقلالية

المفهوم الثالث، ولعلّه الأكثر خطورة من الناحية الأخلاقية، هو «التبعية المُقنّعة بالاستقلالية»<sup>11</sup>. ففي الإعلام التقليدي، كان المتلقي يُدرك أنه في موقع التلقّي: يعرف أنّ محرّرًا اختار الأخبار التي يقرأها، وأنّ مُنتجًا اختار البرامج التي يُشاهدها. هذا الإدراك،

حتى حين كان ضمناً، كان يُبقي لدى المتلقي هامشاً نقدياً يمنعه من المطابقة الكاملة بين ما تُقدّمه الوسيلة وبين «الواقع كما هو». أمّا في البيئة الخوارزمية، فإنّ تصميم المنصّات يقوم على مبدأ أساسي فحواه أن يشعر المستخدم بأنه الفاعل لا المفعول به. لتغدو واجهة الاستخدام Interface User مصمّمة بحيث تُوحى بالاختيار الحرّ: المستخدم «يتصفّح»، و«يختار»، و«يُعجب»، و«يُشارك» — وكل هذه أفعال نشطة تُعزّز الإحساس بالسيطرة.

لكنّ هذا الإحساس بالسيطرة هو بالتحديد ما يُقنّع التبعية ويجعلها غير مرئية. وقد أوضحت زوبوف هذه المفارقة بدقّة حين بيّنت أنّ تقنيات رأسمالية المراقبة لا تُنتزع من المستخدم قسراً، بل تُمنح له في صورة تعاقد طوعي يُخفي طبيعته الاستخراجية (Zuboff, 2019). فالمستخدم لا يعلم أنّ خياراته ذاتها هي مُنتج خوارزمي، أي أنّ ما يظهر أمامه في صفحة التغذية Feed ليس «كل ما هو موجود» بل انتقاء خوارزمي دقيق من بين ملايين الاحتمالات، وأنّ ترتيب هذا المحتوى غير عشوائي. فهو مُصمّم لتعظيم الاحتمالية بأن يتفاعل معه، وأنّ ما لا يراه، وهو الأكثر بكثير مما يراه، قد يكون أكثر أهمية لحياته وقراراته مما يراه فعلاً. يجعل هذا التقنّع التبعية الخوارزمية أصعب في المواجهة من أيّ شكل سابق من أشكال التبعية الإعلامية، لأنّ الشرط الأول لمقاومة أي سلطة هو الوعي بوجودها.

#### 4- التراكم اللاعبي

المفهوم الرابع والأخير هو «التراكم اللاعبي»<sup>12</sup>، وهو يصف الآلية الزمنية التي تتشكّل من خلالها التبعية الخوارزمية. ففي نظرية التبعية التقليدية، يمكن تحديد «لحظة» التبعية بوضوح نسبي. هي اللحظة التي يلجأ فيها الفرد إلى الوسيلة لتلبية حاجة واعية (كلحظة فتح التلفزيون في خلال أزمة أو حرب). أمّا التبعية الخوارزمية فلا تتشكّل في «لحظة» واحدة يمكن تعيينها، بل تتراكم عبر آلاف التفاعلات الصغيرة التي يقع كلّ واحد منها تحت عتبة الوعي.

فحين يُمضي المستخدم ثانيتين إضافيتين في النظر إلى صورة بعينها، أو يُعجب بمنشور من دون تفكير عميق، أو يتوقّف للحظة عابرة عند مقطع فيديو قبل أن يتجاوزه، كل واحد من هذه التفاعلات المجهرية يُغذّي النموذج الخوارزمي ببيانات تُعيد تشكيل «العالم المعلوماتي» الذي يعيش فيه المستخدم. ولأنّ كل تفاعل منفرد يبدو تافهاً ولا يستحقّ الانتباه، فإنّ المستخدم لا يدرك أنّ مجموع هذه التفاعلات «التافهة» يبني نظاماً مُحكماً

من التبعية. وعليه، يفسّر مفهوم التراكم اللاعبي لماذا يجد المستخدمون أنفسهم أسرى أنماط استهلاكية لم يخططوا لها ولا يعرفون متى بدأت: لأنها لم تبدأ في لحظة واحدة. إذ تراكمت تحت عتبة الوعي حتى أصبحت واقعًا قائمًا.

## المحور الرابع: النموذج التفسيري ومقارنته بال نماذج السابقة

### 1- بنية النموذج

يمكن تمثيل نظرية التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد بنموذج تفسيري دائري يتألف من أربع حلقات متداخلة ومتصاعدة. تبدأ الحلقة الأولى بالعرض الخوارزمي: تعرض الخوارزمية على المستخدم محتوى مُخصّصًا لم يطلبه، بناءً على نموذج تنبؤي مبني على بياناته السلوكية السابقة وبيانات مستخدمين مشابهين. وتنتقل إلى الحلقة الثانية وهي توليد الاهتمام، حيث تفاعل المستخدم مع جزء من هذا المحتوى، ولو بالتوقّف العابر، فيتولّد لديه اهتمام أو فضول لم يكن موجودًا. ثم تأتي الحلقة الثالثة وهي البحث النشط، فيتحوّل الاهتمام إلى حاجة معلوماتية واعية يبحث المستخدم عن إشباعها، مُعتقدًا أنّ هذا البحث نابع من ذاته. وأخيرًا الحلقة الرابعة وهي إعادة التشكيل الخوارزمي حيث يُغذّي سلوك البحث النشط النموذج الخوارزمي ببيانات جديدة تُعيد تشكيله ليُنتج محتوى أعمق وأكثر تخصصًا. فتعود الدورة إلى الحلقة الأولى لكن بمستوى أعلى من التخصص والعمق.

والسمة الجوهرية لهذا النموذج هي أنه لا يمكن الدخول إليه من نقطة واحدة ولا الخروج منه بسهولة. فالمستخدم الذي دخل الدورة يجد نفسه محاطًا ببيئة معلوماتية مُصمّمة خصيصًا له: بيئة تُعزّز اهتماماته القائمة وتُغلق أمامه نوافذ الاهتمامات البديلة. وكلّ محاولة «لتغيير» اهتماماته تُعامل من قبل الخوارزمية بوصفها بيانات جديدة تُدمج في النموذج التنبؤي وتُعيد تشكيله. وهذا ما رصده أكسل برونز (Axel Bruns, 2025) ضمن إطار «حراسة البوابات الخوارزمية»<sup>13</sup> Algorithmic Gatewatching، إذ يُلاحظ أنّ كلّ فعل من أفعال المستخدم — بما فيها أفعال الرفض والمقاومة — يُغذّي النظام الذي يحاول رفضه، فيُعيد إنتاج البوابة من الداخل. حتى «مقاومة» الخوارزمية تصبح جزءًا من مدخلاتها.

### 2- المقارنة مع النماذج السابقة

يتضح الفارق الجوهرى بين النموذج المقترح والنماذج السابقة عند المقارنة على أربعة

محاور رئيسية. ففيما يتعلّق بمصدر الحاجة، تفترض نظرية التبعية التقليدية لبول-روكيتش وديفلور أنّ الحاجات نابعة من الفرد وبيئته الاجتماعية، كما يفترض نموذج التبعية العاطفية لجونغ وزملائه أنّ الحاجات ناتجة عن حالة عاطفية يعيشها الفرد، في حين تُجادل النظرية المقترحة بأنّ الخوارزمية ذاتها تُصنّع الحاجات. أمّا فيما يخصّ اتجاه العلاقة، فنظرية التبعية التقليدية تصفها بأنها خطّية من الفرد إلى الوسيلة، ونموذج التبعية العاطفية يصفها بحلقة تغذية راجعة لها نقطة بداية محدّدة، بينما تصفها النظرية الحالية بدورة مغلقة بلا نقطة بداية يمكن تعيينها.

وعلى صعيد وعي المتلقي بتبعيته، ففي النموذج التقليدي يكون هذا الوعي موجوداً ولو ضمناً، وفي نموذج التبعية العاطفية يكون جزئياً، أمّا في النظرية المقترحة فإنّ التبعية مُقنّعة بالاستقلالية ولا يعيها المتلقي. وأخيراً بخصوص آلية التراكم، يحدث الاعتماد في النموذج التقليدي عبر قرار واعٍ في سياق اجتماعي محدّد، ويحدث في نموذج التبعية العاطفية عبر تصاعد عاطفي يمكن رصده، بينما يحدث في النظرية المقترحة عبر تراكم لاعبي لآلاف التفاعلات الصغيرة التي يقع كلّ منها تحت عتبة الوعي.

وبذلك، فإنّ النظرية المقترحة لا تنفي النظريات السابقة بل تتجاوزها، إذ تُفسّر ظواهر لا تملك تلك النظريات أدوات كافية لتفسيرها. فلماذا يقضي المستخدم ساعات على تيك توك وهو لم يفتح التطبيق بنية قضاء ساعات؟ ولماذا يشعر بأنه «اختار» كل ما شاهده بينما هو لم يختار شيئاً في الحقيقة سوى الضغط على أيقونة التطبيق؟ ولماذا يعجز عن تحديد اللحظة التي بدأ فيها اهتمامه بموضوع بعينه؟ هذه الأسئلة تجد إجابات متماسكة في إطار نظرية التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد، ولا تجدها في الأطر السابقة.

## المحور الخامس: الأبعاد الأخلاقية والتنظيمية وآفاق البحث

### 1- الأبعاد الأخلاقية

تطرح نظرية التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد إشكاليات أخلاقية عميقة تتجاوز النقاشات المعتادة حول الخصوصية والبيانات الشخصية. فالإشكالية المركزية هنا ليست أنّ المنصات تجمع بيانات المستخدمين — فهذا أمر معروف ومطروح بكثافة — بل أنّها تُعيد تشكيل بنية حاجاتهم ذاتها دون علمهم. وهذا يُثير سؤالاً أخلاقياً من طبيعة مختلفة: إذا كانت حاجاتي المعلوماتية — التي أظنّها نابعة من ذاتي — هي في جزء كبير منها مُنتج خوارزمي، فهل يمكنني القول إنني «أختار» بحرية؟ وهل يمكن الحديث عن «موافقة

مستنيرة» (Informed Consent) في بيئة يجهل فيها المستخدم أنّ حاجاته ذاتها ليست كلّها أصيلة؟

إنّ مفهوم التبعية المُقنّعة بالاستقلالية يكشف عن بُعد أخلاقي لم تتعامل معه أدبيات أخلاقيات الإعلام الرقمي بشكل كافٍ. فالْبُعد المتعلّق بـ«الاستقلالية المعرفية»<sup>14</sup> أي قدرة الفرد على تحديد ما يعرفه وما يهتمّ به وما يبحث عنه بشكل مستقلّ عن تدخّل خارجي غير مرئي. وقد تطوّر هذا المفهوم في الفلسفة السياسية المعاصرة بوصفه قدرة الفرد على تشكيل معتقداته بناءً على أدلّة يستطيع تقييمها بنفسه دون وساطة بنى رمزية تتحكّم في ما يصل إليه أصلاً (Nguyen, 2020; Goldberg, 2021). وهذه الاستقلالية ليست مسألة خصوصية بالمعنى القانوني، إنما هي شرط أساسي للفاعلية الاتصالية في المجتمعات الديمقراطية.

## 2- الآثار التنظيمية

على المستوى التنظيمي، يكشف مفهوم التراكم اللاعبي عن قصور جوهري في الأطر التنظيمية القائمة. فالتشريعات الحالية، كقانون الخدمات الرقمية في الاتحاد الأوروبي (Digital Services Act, 2022) وقانون الذكاء الاصطناعي (AI Act, 2024) — تُركّز على «شفافية الخوارزميات»<sup>15</sup> Algorithmic Transparency بوصفها حلّاً رئيسياً. لكنّ النظرية المقترحة تُشير إلى أنّ الشفافية وحدها قد لا تكفي، لأنّ المشكلة ليست فقط أنّ المستخدم لا يعرف كيف تعمل الخوارزمية، بل أنه لا يعرف أنّ حاجاته ذاتها قد تكون مُصطنعة. وقد أشار ديفندرا بوتنيس (Devendra Potnis, 2025) إلى أنّ الشفافية كآلية تنظيمية تفترض مستخدماً قادراً على فهم ما يُكشف له، وهو افتراض يتداعى أمام التعقيد البنيوي للأنظمة الحديثة. وحتى لو عرف المستخدم كيف تعمل الخوارزمية، فإنّ هذه المعرفة لا تُلغي تأثيرها، تماماً كما أنّ معرفة الفرد بآليات الإعلان لا تُلغي تأثير الإعلان عليه.

## 3- آفاق البحث المستقبلية

تفتح النظرية المقترحة آفاقاً بحثية متعدّدة تتطلّب عملاً تجريبياً وميدانياً لاختبارها وتطويرها. ففي المقام الأول، ثمة حاجة إلى تطوير أدوات قياس تستطيع رصد «الحاجات المصطنعة» وتمييزها عن الحاجات الأصيلة — وهو تحدّي منهجي كبير لأنّ المستخدم ذاته لا يستطيع التمييز بينها. وقد تُسهّم المنهجيات التجريبية التي تُقارن بين سلوك المستخدمين في بيئات خوارزمية وبيئات غير خوارزمية في الكشف عن حجم الحاجات

المصطنعة ونوعيتها.

كذلك تحتاج النظرية إلى اختبار في سياقات ثقافية متنوّعة، ولا سيّما في السياق العربي الذي يتّسم بخصوصيات ثقافية واتصالية قد تُعدّل من ديناميكيات التبعية الخوارزمية. فهل تعمل الدورة المغلقة بالطريقة ذاتها في مجتمعات تتّسم ببنى اتصالية مختلفة وأنماط استهلاك إعلامي مغايرة؟ وهل يختلف تأثير التراكم اللاعبي بحسب المستوى التعليمي والوعي الرقمي؟ هذه أسئلة تحتاج إلى دراسات ميدانية مقارنة.

وأخيراً، ثمة حاجة إلى استكشاف العلاقة بين التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد وظواهر إعلامية أخرى كالاستقطاب الرقمي والمعلومات المضلّلة والتطرّف عبر الإنترنت. فإذا كانت الخوارزميات تُصنّع الحاجات وتعيد تشكيل الاهتمامات في دورة مغلقة، فمن المرجّح أنّ هذه الدورة تلعب دوراً بنويّاً في تغذية هذه الظواهر — وهو ما يستحقّ بحثاً معمّقا مستقلاً.

#### خاتمة

سعت هذه المقالة إلى تقديم إطار نظري أصيل يُعيد قراءة مفهوم التبعية الإعلامية في ضوء التحوّلات الجذرية التي أحدثتها الخوارزميات في بنية العلاقة بين المتلقي والمنصّات الرقمية. وقد انطلقت من تشخيص ثلاث فجوات نظرية في الإطار القائم — تتعلّق بمصدر الحاجة، ووعي المتلقي بتبعيته، واتجاه العلاقة بين الفرد والوسيلة — لتقترح نظرية «التبعية الخوارزمية ذاتية التوليد» بمفاهيمها الأربعة المركزية: الحاجة المصطنعة، والاعتماد الدائري، والتبعية المُقنّعة بالاستقلالية، والتراكم اللاعبي. وما تطرحه هذه النظرية في جوهرها هو إعادة تأسيس مفاهيمية تقول إنّ طبيعة التبعية الإعلامية ذاتها قد تغيّرت تغيّراً نوعياً لا كمياً. فالفرق بين التبعية الإعلامية التقليدية والتبعية الخوارزمية ليس فرق درجة — أي ليس أنّ الأخيرة «أشدّ» أو «أعمق» — بل هو فرق نوع: التبعية التقليدية كانت واعية وخطّية ومشروطة بسياق اجتماعي، أمّا التبعية الخوارزمية فهي لاواعية ودائرية وذاتية التوليد.

ولعلّ أخطر ما تكشفه هذه النظرية هو أنّ «الحرية» التي يعتقد مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي أنهم يتمتّعون بها ليست نقيض التبعية بل هي قناعها الأكثر إحكاماً. وهذا ما يجعل التبعية الخوارزمية التحديّ الأكبر الذي يواجه ليس فقط نظريات الاتصال، بل أيضاً كل مشروع يسعى إلى بناء فضاء عام رقمي قائم على الاستقلالية المعرفية والتنوّع المعلوماتي.

## قائمة المراجع

- Adorno, T. W., & Horkheimer, M. (1944/2002). *Dialectic of Enlightenment* (E. Jephcott, Trans.). Stanford University Press.
- Bakshy, E., Messing, S., & Adamic, L. A. (2015). Exposure to ideologically diverse news and opinion on Facebook. *Science*, 348(6239), 1130-1132.
- Ball-Rokeach, S. J. (1985). The origins of individual media-system dependency: A sociological framework. *Communication Research*, 12(4), 485-510.
- Ball-Rokeach, S. J., & DeFleur, M. L. (1976). A dependency model of mass-media effects. *Communication Research*, 3(1), 3-21.
- Ball-Rokeach, S. J., & Jung, J.-Y. (2004). From media system dependency to communication infrastructure: A review on the evolution of MSD theory and proposals for a new concept. *Journal of International Communication*, 2, 9-12.
- Bruns, A. (2005). *Gatewatching: Collaborative online news production*. Peter Lang.
- Bruns, A. (2025). *Algorithmic gatewatching and its implications*. *New Media & Society*. Advance online publication. doi:10.1177/29768640251336597
- Diakopoulos, N. (2020). *Automating the news: How algorithms are rewriting the media*. Harvard University Press.
- Galbraith, J. K. (1958). *The Affluent Society*. Houghton Mifflin.
- Gillespie, T. (2018). *Custodians of the internet: Platforms, content moderation, and the hidden decisions that shape social media*. Yale University Press.
- Goldberg, S. C. (2021). *Epistemic autonomy and the role of testimony*. Routledge.
- Helberger, N. (2019). On the democratic role of news recommenders. *Digital Journalism*, 7(8), 993-1012.
- Jung, J.-Y., Kim, Y.-C., Lin, W.-Y., & Cheong, P. H. (2025). Proposing heightened emotions social media dependency model: Review and extension of media system dependency theory. *Annals of the International Communication Association*. Advance online publication. doi:10.1093/anncom/wlag005
- Katz, E., Blumler, J. G., & Gurevitch, M. (1973). Uses and gratifications research. *The Public Opinion Quarterly*, 37(4), 509-523.
- Kim, Y.-C., & Jung, J.-Y. (2017). SNS dependency and interpersonal storytelling: An extension of media system dependency theory. *New Media & Society*, 19(9), 1458-1475.
- Loges, W. E. (1994). Canaries in the coal mine: Perceptions of threat and media system dependency relations. *Communication Research*, 21(1), 5-23.
- Marcuse, H. (1964). *One-Dimensional Man: Studies in the Ideology of Ad-*

vanced Industrial Society. Beacon Press.

Möller, J., Trilling, D., Helberger, N., & van Es, B. (2023). Do not blame it on the algorithm: An empirical assessment of multiple recommender systems and their impact on content diversity. *Information, Communication & Society*, 21(7), 959-977.

Nguyen, C. T. (2020). Echo chambers and epistemic bubbles. *Episteme*, 17(2), 141-161.

Pariser, E. (2011). *The filter bubble: What the Internet is hiding from you*. Penguin Press.

Potnis, D. D. (2025). Negative consequences of information gatekeeping through algorithmic technologies: An ARIST paper. *Journal of the Association for Information Science and Technology*, 76(1), 262-288.

Shoemaker, P. J., & Vos, T. P. (2009). *Gatekeeping theory*. Routledge.

Singer, J. B. (2014). User-generated visibility: Secondary gatekeeping in a shared media space. *New Media & Society*, 16(1), 55-73.

Sunstein, C. R. (2018). *#Republic: Divided democracy in the age of social media*. Princeton University Press.

Wallace, J. (2018). Modelling contemporary gatekeeping: The rise of individuals, algorithms and platforms in digital news dissemination. *Digital Journalism*, 6(3), 274-293.

Webster, J. G., & Ksiazek, T. B. (2012). The dynamics of audience fragmentation: Public attention in an age of digital media. *Journal of Communication*, 62(1), 39-56.

Zuboff, S. (2019). *The age of surveillance capitalism: The fight for a human future at the new frontier of power*. PublicAffairs.

1. رأسمالية المراقبة (Surveillance Capitalism): مفهوم بلورته الباحثة الأمريكية شوشانا زوبوف في كتابها بالعنوان نفسه (2019)، يصف نمطًا اقتصاديًا جديدًا يقوم على استخراج الخبرة الإنسانية بوصفها مادةً خام مجانية، وتحويلها إلى بيانات سلوكية تُستخدم في التنبؤ بسلوك المستخدمين والتأثير فيه.

2. بنية الاحتمالات (Probability Architecture): تعبير يُشير إلى الكيفية التي تُعيد بها الخوارزمية ترتيب البيئة المعلوماتية للمستخدم بحيث تجعل بعض المحتويات أكثر ورودًا واحتمالًا للظهور من غيرها، حتى من دون فرضها بشكل قسري.

3. أثر التبعية (Dependence Effect): مفهوم صاغه الاقتصادي الكندي-الأمريكي جون كينيث غالبريث في كتابه «المجتمع الميسور» (1958)، ومفاده أن الإنتاج في المجتمع الاستهلاكي

الحديث لا يُلبّي حاجات سابقة عليه بل يُولّدها هو ذاته عبر الإعلان والتسويق، فيخلق ما يحتاج بعد ذلك إلى تلبيةه.

4. وهم الاستقلالية (Illusion of Autonomy): مفهوم يُشير إلى الإحساس الذي يخلقه تصميم المنصّات الرقمية لدى المستخدم بأنه هو الفاعل المتحكّم بخياراته، في حين أنّ الخوارزمية هي التي تُشكّل البنية المُتاحة لهذه الخيارات أصلاً.

5. فقاعة التصفية (Filter Bubble) : مفهوم صاغه الناشط والكاتب الأميركي إيلي باريسر في كتابه الشهير عام 2011، يُشير إلى الحالة المعلوماتية التي يجد المستخدم نفسه فيها داخل بيئة رقمية تُقدّم له فقط ما يتطابق مع اهتماماته السابقة، فيُعزّل عن وجهات النظر المغايرة دون أن يُدرك ذلك.

6. الحاجة المُصنّعة (Manufactured Need) : مفهوم أُصّل تقترحه النظرية المُقدّمة في هذه المقالة، يُشير إلى الحاجات التي تولّدها الخوارزمية لدى المستخدم بفعل تعرّضه للمحتوى المُخصّص، لا الحاجات الأصلية السابقة على هذا التعرّض. ويختلف عن «خلق الحاجة» في الأدبيات التسويقية بأنه يحدث بنيويًا ومن دون فاعل بشري واع يقصد إنشاءه.

7. صناعة الثقافة (Culture Industry) : مفهوم مركزي في الفلسفة النقدية لمدرسة فرانكفورت، بلوره أدورنو وهوركهايمر في «جدل التنوير» (1944)، يُحلّل الإعلام الجماهيري بوصفه آلية لتنميط الوعي وتحويل المتلقي إلى مستهلك تُعاد برمجة رغباته لخدمة منطلق الإنتاج الرأسمالي.

8. تعظيم التفاعل (Engagement Maximization) : المنطق التشغيلي الأساسي لمنصّات التواصل الاجتماعي، حيث تُصمّم خوارزميات التوصية لزيادة وقت بقاء المستخدم على المنصّة وتفاعله معها (مشاهدات، إعجابات، تعليقات، مشاركات) بصرف النظر عن جودة المحتوى أو فائدته للمستخدم.

9. الاعتماد الدائري (Circular Dependency) : مفهوم أُصّل في النظرية، يصف العلاقة بين المتلقي والخوارزمية بوصفها دورة مغلقة لا يمكن تحديد نقطة بدايتها، إذ يتداخل السبب والنتيجة فيستحيل الفصل بينهما. يتجاوز هذا المفهوم منطق «التغذية الراجعة» الذي يفترض نقطة بداية يمكن تعيينها.

10. التغذية الراجعة (Feedback Loop) : مفهوم مستعار من علم التحكّم الآلي (السيبرنطيقا)، يصف نظامًا تُغذّى مخرجاته كمدخلات جديدة في مساره فتتعرّز نتائجها ذاتيًا. يفترض هذا المفهوم وجود نقطة بداية يمكن تحديدها، وهو ما يميّزه عن مفهوم الاعتماد الدائري الذي تطرحه هذه النظرية.

11. التبعية المُقنّعة بالاستقلالية (Dependency Masked as Autonomy) : مفهوم أُصّل في النظرية، يصف الحالة التي يشعر فيها المستخدم بأنه فاعل ومختار بحرية في حين أنّ خياراته ذاتها هي مُنتج خوارزمي. ويُعدّ من أخطر المفاهيم الأخلاقية في النظرية لأنه يجعل التبعية غير

قابلة للوعي بها، وبالتالي غير قابلة للمقاومة.

12. التراكم اللاعتي (Sub-Threshold Accumulation) : مفهوم أصيل في النظرية، يصف الآلية الزمنية لتشكل التبعية الخوارزمية عبر آلاف التفاعلات المجهرية التي يقع كلٌّ منها تحت عتبة الوعي (كالتوقف الخاطف عند صورة، أو الإعجاب اللاواعي بمنشور). ولا يمكن تحديد «لحظة» التبعية في هذا النموذج لأنها ليست لحظة بل تراكم زمني غير ملحوظ.

13. حراسة البوابات الخوارزمية (Algorithmic Gatewatching) : مفهوم طوّره أكسل برونز امتداداً لمفهومه السابق «حراسة البوابات» (Gatewatching, 2005)، يصف الكيفية التي تتولّى فيها الخوارزميات وظيفة انتقاء المعلومات وتصنيفتها، وكيف يُعاد إنتاج هذه الوظيفة الرقابية حتى من خلال أفعال المستخدمين الراضية لها.

14. الاستقلالية المعرفية (Epistemic Autonomy): مفهوم في الفلسفة المعاصرة يُشير إلى قدرة الفرد على تشكيل معتقداته ومعارفه بناءً على تقييم ذاتي للأدلة، دون وساطة بنى رمزية خفية تتحكّم في ما يصل إليه أصلاً من معلومات. ويُعدّ شرطاً أساسياً للممارسة الديمقراطية الحرّة.

15. شفافية الخوارزميات (Algorithmic Transparency): مبدأ تنظيمي يستهدف إلزام منصات الإعلام الرقمي بالكشف عن آليات عمل خوارزمياتها للمستخدمين والجهات الرقابية، بهدف تمكين المساءلة العامة ومنع التلاعب الخفي.



# أهمية السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني لجهات السياحة اللبنانية في العصر الحديث

د. مطانس ديب وهبه

## المقدمة

يشهد العالم في العصر الحديث تطورًا متسارعًا في التكنولوجيا الرقمية ووسائل الاتصال، (قنديلجي، 2022؛ Gret-) zel et al.، 2015 الأمر الذي انعكس بصورة مباشرة على مختلف القطاعات الاقتصادية والخدمية، وفي مقدمتها القطاع السياحي. فقد أصبحت السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني من أبرز الأدوات الحديثة التي تعتمد عليها الدول والمؤسسات السياحية في الترويج لمقوماتها السياحية وجذب الزوار من مختلف أنحاء العالم، وذلك عبر استخدام الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي والمنصات الرقمية المتنوعة. ويُعد القطاع السياحي من القطاعات الحيوية في لبنان لما يمتلكه من مقومات طبيعية (وزارة السياحة اللبنانية، 2024) وثقافية وتاريخية متميزة، جعلته لسنوات طويلة وجهة سياحية بارزة في منطقة الشرق الأوسط. إلا أنّ الأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي شهدتها لبنان خلال السنوات الأخيرة أثّرت بشكل واضح على النشاط السياحي، مما دفع الجهات المعنية إلى البحث عن وسائل حديثة وفعالة لإعادة تنشيط القطاع واستعادة ثقة السياح.

وفي هذا الإطار، برز التسويق الإلكتروني كأداة أساسية للترويج للوجهات السياحية اللبنانية، من خلال استخدام المواقع الإلكترونية ومنصات التواصل الاجتماعي والحملات الرقمية التي تسهم في إيصال صورة إيجابية عن لبنان وإبراز معالمه السياحية والثقافية. كما ساهمت السياحة الرقمية في تسهيل وصول المعلومات والخدمات السياحية إلى المستخدمين، وإتاحة فرص أوسع للتفاعل المباشر مع السياح المحتملين. أبو النصر، م. (2021). الإدارة السياحية المعاصرة

ومن هنا تأتي أهمية هذا البحث في دراسة واقع السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني للوجهات اللبنانية، وتحليل مدى فعاليتها في دعم القطاع السياحي اللبناني في ظل التحديات الراهنة، إضافة إلى تسليط الضوء على أبرز المعوقات التي تحد من تطور هذا المجال، واقتراح بعض الحلول والتوصيات التي قد تسهم في تعزيز مكانة لبنان السياحية في البيئة الرقمية الحديثة.

#### إشكالية البحث

تتمثل إشكالية البحث في التساؤل الرئيس الآتي:

إلى أي مدى ساهمت السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني في الترويج للوجهات السياحية اللبنانية وتعزيز قدرتها على جذب السياح في ظل الأزمات والتطورات الحديثة؟ والذي يتفرع عنه عدد من الأسئلة الفرعية، منها:

1. ما المقصود بالسياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني السياحي؟
2. ما واقع استخدام الوسائل الرقمية في الترويج للسياحة في لبنان؟
3. ما أبرز التحديات التي تواجه التسويق الإلكتروني للوجهات اللبنانية؟
4. ما مدى تأثير وسائل التواصل الاجتماعي في تكوين الصورة السياحية عن لبنان؟
5. ما الحلول الممكنة لتطوير السياحة الرقمية في لبنان مستقبلاً؟

#### فرضيات البحث

يعتمد البحث على مجموعة من الفرضيات، أبرزها:

1. توجد علاقة إيجابية بين استخدام التسويق الإلكتروني وزيادة الترويج للوجهات السياحية اللبنانية
2. تسهم وسائل التواصل الاجتماعي بشكل فعّال في التأثير على القرار السياحي وجذب الزوار إلى لبنان.
3. تؤثر الأزمات الاقتصادية والسياسية سلباً على فعالية السياحة الرقمية في لبنان.

4. يساهم تطوير البنية الرقمية والتكنولوجية في تحسين القدرة التنافسية للقطاع السياحي اللبناني.

5. يؤدي اعتماد استراتيجيات تسويق إلكتروني حديثة إلى تعزيز صورة لبنان السياحية على المستوى الدولي.

#### أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى دراسة السياحة الرقمية بوصفها أحد المفاهيم الحديثة (أبورمان، أ. (2020). (التسويق الإلكتروني الحديث) التي برزت نتيجة التطور التكنولوجي والتحول الرقمي في قطاع السياحة، وذلك من خلال توضيح مفهومها وخصائصها وأهميتها في دعم النشاط السياحي المعاصر. كما يسعى البحث إلى تحليل دور التسويق الإلكتروني في الترويج للوجهات السياحية، وبيان مدى تأثير الوسائل الرقمية المختلفة، كوسائل التواصل الاجتماعي والمواقع الإلكترونية والمنصات التفاعلية، في جذب السياح وتعزيز الصورة السياحية للدول.

ويهدف البحث كذلك إلى تقييم واقع التسويق السياحي الإلكتروني في لبنان (المجلس الاقتصادي والاجتماعي 2023)، عبر دراسة الأساليب الرقمية المستخدمة في الترويج للوجهات السياحية اللبنانية، ومدى فعاليتها في ظل الأوضاع الاقتصادية والسياسية الراهنة. إضافة إلى ذلك، يعمل البحث على تحديد أبرز التحديات التي تواجه السياحة الرقمية في لبنان، سواء ما يتعلق بالبنية التحتية الرقمية أو بالأزمات الاقتصادية والإعلامية، مع تسليط الضوء على الفرص المستقبلية الممكنة لتطوير القطاع السياحي اللبناني وتعزيز حضوره في البيئة الرقمية الحديثة.

#### أهمية البحث

تتبع أهمية هذا البحث من الأهمية المتزايدة التي باتت تحظى بها السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني في تطوير القطاع السياحي وتعزيز قدرته التنافسية في ظل التحولات التكنولوجية المعاصرة. كما تتمثل أهمية البحث في جانبين رئيسيين: علمي، واقتصادي وسياحي.

#### أولاً: الأهمية العلمية

تكمن الأهمية العلمية للبحث في مساهمته في إثراء الدراسات الأكاديمية المتعلقة بالسياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني، باعتبارهما من الموضوعات الحديثة التي شهدت تطوراً ملحوظاً في السنوات الأخيرة. كما يسعى البحث إلى توضيح العلاقة بين التكنولوجيا الرقمية والقطاع السياحي، وبيان أثر الوسائل الإلكترونية في تطوير أساليب الترويج

السياسي الحديثة. إضافة إلى ذلك، يوفر البحث إطاراً نظرياً وتحليلياً يمكن الاستفادة منه في الدراسات المستقبلية المتعلقة بالسياحة الرقمية، ولا سيما في لبنان والدول العربية التي تشهد تحديات اقتصادية وسياحية متشابهة.

#### ثانياً: الأهمية الاقتصادية والسياحية

تتجلى الأهمية الاقتصادية والسياحية للبحث في إبراز الدور الحيوي الذي يؤديه التسويق الإلكتروني في تنشيط القطاع السياحي وزيادة قدرته على جذب السياح وتحفيز الاستثمارات السياحية. ويكتسب هذا الموضوع أهمية خاصة بالنسبة للبنان، نظراً لما يمثله القطاع السياحي من مصدر أساسي للدخل الوطني ودعم الاقتصاد المحلي. كما يسلط البحث الضوء على أهمية توظيف الوسائل الرقمية الحديثة في تحسين صورة لبنان السياحية وتعزيز حضوره على المستوى الإقليمي والدولي، الأمر الذي قد يساهم في دعم عملية التعافي الاقتصادي وتنشيط الحركة السياحية رغم التحديات والأزمات الراهنة.

#### منهجية البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي بوصفه من أكثر المناهج ملاءمةً لدراسة الظواهر الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، حيث يتيح وصف واقع السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني للوجهات السياحية في لبنان، وتحليل العوامل المؤثرة في تطورها وفعاليتها في ظل الأوضاع الراهنة. حيث يقوم هذا المنهج على جمع المعلومات والبيانات المتعلقة بموضوع البحث، ثم تفسيرها وتحليلها بصورة علمية بهدف الوصول إلى نتائج دقيقة تساهم في فهم واقع القطاع السياحي الرقمي وتحديد أبرز التحديات والفرص المرتبطة به.

كما يستند إلى مجموعة من المصادر العلمية والمراجع المتخصصة، تشمل الكتب الأكاديمية والمقالات العلمية والدراسات السابقة ذات الصلة بالسياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني، إضافة إلى التقارير الرسمية والإحصاءات الصادرة عن المؤسسات والهيئات المعنية بالقطاع السياحي. والاعتماد على هذه المصادر يهدف إلى توفير قاعدة علمية موثوقة تدعم التحليل الأكاديمي للبحث، وتساهم في بناء رؤية واضحة حول واقع التسويق السياحي الإلكتروني في لبنان وأفاق تطويره مستقبلاً. (الحربي، م. (2022). أثر التسويق الرقمي في تنمية القطاع السياحي

#### الفصل الأول: الإطار النظري للسياحة الرقمية

شهد العالم خلال العقود الأخيرة تطوراً متسارعاً في تكنولوجيا المعلومات والاتصالات

(قنديلجي، 2022)، الأمر الذي أدى إلى ظهور أنماط جديدة في مختلف القطاعات الاقتصادية والخدمية، وكان القطاع السياحي من أكثر القطاعات تأثراً بهذا التحول الرقمي. فقد ساهمت التقنيات الحديثة في تغيير طبيعة الخدمات السياحية وأساليب الترويج والتواصل مع السياح، مما أدى إلى بروز مفهوم السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني السياحي كأدوات أساسية في تنمية النشاط السياحي وتعزيز قدرته التنافسية على المستويين المحلي والدولي. ومن هنا تأتي أهمية دراسة الإطار النظري للسياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني لفهم طبيعة هذا التحول وآثاره على القطاع السياحي المعاصر.

**المبحث الأول: مفهوم السياحة الرقمية**

**أولاً: تعريف السياحة الرقمية (Buhalis، 2003)**

تُعرف السياحة الرقمية بأنها توظيف التكنولوجيا الرقمية ووسائل الاتصال الحديثة في تقديم الخدمات السياحية والترويج للوجهات المختلفة، بما يساهم في تسهيل عملية التخطيط للسفر والحجز والتواصل بين المؤسسات السياحية والسياح. وتشمل السياحة الرقمية استخدام الإنترنت، والتطبيقات الذكية، ومنصات التواصل الاجتماعي، والوسائط الإلكترونية المختلفة في إدارة النشاط السياحي وتطويره.

وقد أصبح مفهوم السياحة الرقمية مرتبطاً بشكل وثيق بالتحول الرقمي العالمي (Gret- zel et al.، 2015) الذي شمل مختلف القطاعات الاقتصادية، حيث لم تعد السياحة تعتمد فقط على الوسائل التقليدية في الترويج، بل أصبحت تعتمد بصورة أساسية على الوسائل الرقمية الحديثة التي تتيح الوصول إلى أعداد كبيرة من المستخدمين في مختلف أنحاء العالم خلال وقت قصير وبتكاليف أقل.

وتتمثل أهمية السياحة الرقمية في قدرتها على تحسين جودة الخدمات السياحية، وتسهيل وصول المعلومات إلى السياح، إضافة إلى تعزيز التفاعل المباشر بين السائح والمؤسسات السياحية، مما يساهم في رفع مستوى الثقة وتحسين تجربة السائح. كما ساعدت السياحة الرقمية في خلق بيئة تنافسية جديدة بين الوجهات السياحية العالمية، حيث أصبحت الصورة الرقمية للوجهة عنصراً أساسياً في جذب الزوار وتحفيزهم على اتخاذ قرار السفر.

**ثانياً: تطور السياحة الرقمية عالمياً**

شهدت السياحة الرقمية تطوراً ملحوظاً مع الانتشار الواسع لاستخدام الإنترنت منذ نهاية القرن العشرين (Buhalis & Law، 2008)، حيث بدأت المؤسسات السياحية تعتمد على المواقع الإلكترونية للترويج لخدماتها وعرض المعلومات المتعلقة بالرحلات

والفنادق والمواقع السياحية. ومع تطور التكنولوجيا الرقمية وظهور الهواتف الذكية، توسعت مجالات السياحة الرقمية لتشمل تطبيقات الحجز الإلكتروني، والخرائط الرقمية، والجولات الافتراضية، ومنصات تقييم الخدمات السياحية.

كما لعبت وسائل التواصل الاجتماعي دوراً كبيراً في تطور السياحة الرقمي (Xiang & Gretzel, 2010)، إذ أصبحت أداة فعّالة للتأثير على قرارات السياح من خلال الصور ومقاطع الفيديو والتجارب الشخصية التي ينشرها المستخدمون عبر هذه المنصات. وقد أدى ذلك إلى انتقال التسويق السياحي من النمط التقليدي القائم على الإعلانات المباشرة إلى التسويق التفاعلي القائم على المحتوى الرقمي والتواصل المستمر مع الجمهور. وساهمت التطورات التكنولوجية الحديثة، مثل الذكاء الاصطناعي وتحليل البيانات الضخمة، (Gretzel et al, 2015) في تعزيز كفاءة القطاع السياحي عالمياً، حيث أصبحت المؤسسات السياحية قادرة على تحليل اهتمامات العملاء وتقديم خدمات مخصصة تناسب مع احتياجاتهم. كما أتاحت التكنولوجيا الرقمية فرصاً جديدة للترويج للوجهات السياحية الناشئة وتعزيز قدرتها التنافسية في السوق السياحي العالمي.

#### المبحث الثاني: التسويق الإلكتروني السياحي

##### أولاً: مفهوم التسويق الإلكتروني السياحي

يُقصد بالتسويق الإلكتروني السياحي استخدام الوسائل والتقنيات الرقمية (العلاق، 2021) في الترويج للخدمات والمنتجات السياحية بهدف جذب السياح وتحفيزهم على زيارة الوجهات السياحية المختلفة. ويعتمد هذا النوع من التسويق على الإنترنت والمنصات الرقمية باعتبارها وسائل حديثة للتواصل مع الجمهور المستهدف، لما توفره من سرعة في نقل المعلومات، وانخفاض في التكاليف، وقدرة على الوصول إلى شرائح واسعة من المستخدمين.

ويُعد التسويق الإلكتروني من أهم الأدوات التي تعتمد عليها المؤسسات السياحية في العصر الحديث (Chaffey & Ellis-Chadwick, 2019)، نظراً لدوره في تحسين الصورة الذهنية للوجهات السياحية وزيادة قدرتها على المنافسة. كما يساهم في توفير معلومات دقيقة ومحدثة حول الخدمات السياحية، مثل الفنادق ووسائل النقل والمطاعم والمواقع الأثرية، الأمر الذي يساعد السائح على اتخاذ القرار المناسب بسهولة.

وتبرز أهمية التسويق الإلكتروني السياحي في كونه يتيح التفاعل المباشر مع السياح، (Hudson & Thal, 2013) من خلال التعليقات والتقييمات والاستفسارات الإلكترونية، مما يعزز من مستوى الثقة بين المؤسسات السياحية والعملاء. إضافة إلى ذلك، أصبح

التسويق الإلكتروني وسيلة أساسية لمواجهة الأزمات التي قد تؤثر على القطاع السياحي، من خلال تحسين الصورة الإعلامية للوجهات السياحية وإعادة الترويج لها بصورة إيجابية. ثانيًا: أدوات التسويق الإلكتروني السياحي

#### 1- مواقع الإنترنت

تعد المواقع الإلكترونية من أبرز أدوات التسويق الإلكتروني السياحي (Buhalis & Law، 2008)، حيث توفر معلومات شاملة حول الوجهات السياحية والخدمات المتاحة، إضافة إلى خدمات الحجز الإلكتروني وعرض الصور والبرامج السياحية. كما تسهم هذه المواقع في تسهيل التواصل بين السائح والمؤسسات السياحية وتوفير تجربة أكثر مرونة وسرعة للمستخدمين.

#### 2- وسائل التواصل الاجتماعي

أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي من أكثر الوسائل تأثيرًا في التسويق السياحي، نظرًا لقدرتها على الوصول إلى ملايين المستخدمين حول العالم. وتستخدم المؤسسات السياحية هذه المنصات لنشر المحتوى الترويجي والصور ومقاطع الفيديو المتعلقة بالوجهات السياحية، (Xiang & Gretzel، 2010؛ Leung et al.، 2013) إضافة إلى التفاعل المباشر مع الجمهور والرد على استفساراتهم. كما تؤثر تجارب المستخدمين المنشورة عبر هذه الوسائل بشكل كبير على قرارات السفر لدى الأفراد.

#### 3- الإعلانات الرقمية

تشكل الإعلانات الرقمية وسيلة فعّالة للترويج السياحي، حيث تتيح استهداف فئات محددة من الجمهور وفقًا لاهتماماتهم ومواقعهم الجغرافية. وتشمل هذه الإعلانات الإعلانات عبر محركات البحث، والإعلانات المصورة، ومقاطع الفيديو الترويجية التي تسهم في زيادة الوعي بالوجهات السياحية وتحفيز السياح على زيارتها. (Chaffey & Ellis، 2019)

#### 4- المؤثرون الرقميون

برز المؤثرون الرقميون كأحد العناصر الحديثة في التسويق الإلكتروني السياحي (Hudson & Thal، 2013؛ Sigala، 2018) حيث يعتمد عليهم العديد من المؤسسات السياحية للترويج للوجهات المختلفة من خلال مشاركة تجاربهم الشخصية مع المتابعين. ويؤدي هؤلاء المؤثرون دورًا مهمًا في تكوين صورة إيجابية عن الوجهات السياحية، نظرًا لما يتمتعون به من قدرة على التأثير في آراء الجمهور وسلوكهم السياحي.

ويتضح لنا من خلال هذا الفصل أن السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني أصبحا عنصرين أساسيين في تطوير القطاع السياحي وتعزيز تنافسيته في العصر الحديث. فقد ساهمت التكنولوجيا الرقمية في إحداث تحول جذري في طرق الترويج السياحي والتواصل مع السياح، الأمر الذي أدى إلى ظهور أساليب جديدة تعتمد على التفاعل والسرعة والانتشار الواسع. كما تبين أن أدوات التسويق الإلكتروني، بمختلف أشكالها، تؤدي دوراً محورياً في تحسين صورة الوجهات السياحية وزيادة قدرتها على جذب الزوار، وهو ما يهدد لدراسة واقع هذه الظاهرة في لبنان والتحديات المرتبطة بها في الفصول اللاحقة.

### الفصل الثاني: واقع التسويق السياحي الإلكتروني في لبنان

يُعد القطاع السياحي من الركائز الأساسية للاقتصاد في لبنان، نظراً لما يمتلكه البلد من تنوع جغرافي وثقافي وحضاري جعله وجهة سياحية مميزة في منطقة الشرق الأوسط. وقد ساهمت السياحة على مدى عقود في دعم الاقتصاد اللبناني من خلال توفير فرص العمل، وتنشيط الحركة التجارية، وزيادة الإيرادات الوطنية. إلا أن الأزمات الاقتصادية والسياسية التي شهدها لبنان خلال السنوات الأخيرة أثرت بصورة مباشرة على القطاع السياحي، مما دفع الجهات المعنية إلى الاعتماد بشكل متزايد على الوسائل الرقمية والتسويق الإلكتروني للترويج للوجهات السياحية اللبنانية واستعادة النشاط السياحي. ومن هنا تبرز أهمية دراسة واقع التسويق السياحي الإلكتروني في لبنان وتحليل أدواته وأثره في تعزيز صورة لبنان السياحية. (وزارة السياحة اللبنانية، 2024)

### المبحث الأول: القطاع السياحي اللبناني

#### أولاً: أهمية السياحة للاقتصاد اللبناني

يُعتبر القطاع السياحي من القطاعات الحيوية التي تؤدي دوراً مهماً في دعم الاقتصاد اللبناني، حيث يشكل مصدراً أساسياً للعملات الأجنبية ويساهم في تنشيط العديد من القطاعات المرتبطة به، مثل قطاع الفنادق والمطاعم والنقل والخدمات التجارية. كما يساهم القطاع السياحي في توفير فرص عمل مباشرة وغير مباشرة لفئات واسعة من المجتمع اللبناني، الأمر الذي يجعله عنصراً مهماً في تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية. (وزارة السياحة اللبنانية، 2024؛ WTTC، 2024)

وقد تميز لبنان تاريخياً بمكانته السياحية نتيجة موقعه الجغرافي وطبيعته المتنوعة ومناخه المعتدل، إضافة إلى غناه بالمواقع الأثرية والثقافية والدينية. وقد ساعد هذا التنوع في استقطاب السياح من مختلف الدول العربية والأجنبية، خاصة خلال الفترات

التي شهد فيها لبنان استقرارًا سياسيًا وأمنيًا نسبيًا. إلا أنّ الأزمات الاقتصادية والاضطرابات السياسية التي مر بها لبنان خلال السنوات الأخيرة أثرت بشكل سلبي على القطاع السياحي، حيث تراجعت أعداد السياح والاستثمارات السياحية بصورة ملحوظة. (مصرف لبنان، 2023؛ World Bank، 2024) كما ساهمت التغطيات الإعلامية السلبية للأوضاع الداخلية في التأثير على صورة لبنان السياحية على المستوى الخارجي. ومع ذلك، لا يزال القطاع السياحي يُعد من القطاعات القادرة على دعم عملية التعافي الاقتصادي في حال توفرت استراتيجيات فعالة للتطوير والتسويق. وفي هذا السياق، أصبح التسويق الإلكتروني والسياحة الرقمية من الوسائل الأساسية التي يمكن أن تسهم في إعادة تنشيط القطاع السياحي اللبناني، من خلال تحسين صورة لبنان الرقمية والترويج لمقوماته السياحية عبر المنصات الإلكترونية المختلفة.

#### ثانيًا: أبرز الوجهات السياحية اللبنانية

يمتلك لبنان مجموعة متنوعة من الوجهات السياحية التي تجمع بين الطابع الطبيعي والتاريخي والثقافي، مما يجعله من الدول الغنية بالمقومات السياحية رغم مساحته الجغرافية المحدودة. وتُعد مغارة جعيتا من أبرز المعالم الطبيعية والسياحية في لبنان حيث تستقطب أكبر عدد من الزوار سنويًا، وتدخل الى الدولة أكبر نسبة من المبالغ المالية التي تتقاضاها الدولة كرسوم من المؤسسات السياحية في لبنان، إضافة الى صخرة الروشة المعلم السياحي الطبيعي الأبرز في العاصمة بيروت، حيث تستقطب أعدادًا كبيرة من الزوار والسياح بفضل موقعها البحري المميز ومناظرها الطبيعية. وقد أصبحتا جعيتا والروشة عنصران أساسيان في الحملات الترويجية السياحية والصور الرقمية التي تُنشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي.

كما تُعد جبيل من أقدم المدن المأهولة في العالم، وتتميز بتاريخها العريق وأثارها الفينيقية والرومانية وأسواقها التقليدية. وقد ساهمت المكانة التاريخية والثقافية لمدينة جبيل في جعلها من أهم الوجهات السياحية اللبنانية التي يتم الترويج لها عبر المنصات الرقمية والمواقع الإلكترونية السياحية.

أما بعلبك فتُعرف بمعابدها الأثرية الضخمة التي تعود إلى الحقبة الرومانية، وتُعد من أبرز المواقع الأثرية في الشرق الأوسط. وتكتسب بعلبك أهمية سياحية وثقافية كبيرة نتيجة احتضانها للمهرجانات الفنية والثقافية التي ساهمت في تعزيز شهرتها عالميًا.

إضافة إلى ذلك، يضم لبنان العديد من المناطق السياحية الأخرى، مثل المناطق الجبلية

والشواطئ البحرية والمواقع الدينية والطبيعية، الأمر الذي يعكس التنوع السياحي الذي يمتلكه البلد، ويمنحه إمكانات واسعة للنمو والتطور إذا ما تم استثمارها وتسويقها بصورة فعالة.

### المبحث الثاني: استخدام الوسائل الرقمية في الترويج السياحي

#### أولاً: دور وسائل التواصل الاجتماعي

أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي من أهم الأدوات المستخدمة في التسويق السياحي الإلكتروني في العصر الحديث، نظرًا لقدرتها الكبيرة على الوصول إلى أعداد واسعة من المستخدمين في مختلف أنحاء العالم. وقد اعتمدت المؤسسات السياحية اللبنانية والجهات المعنية بالقطاع السياحي على منصات مثل فيسبوك وإنستغرام وتيك توك ويوتيوب للترويج للوجهات السياحية اللبنانية ونشر الصور ومقاطع الفيديو التي تُظهر جمال الطبيعة اللبنانية والمعالم الأثرية والثقافية.

وتؤدي وسائل التواصل الاجتماعي دورًا مهمًا في تكوين الصورة الذهنية لدى السياح (Xiang & Gretzel, 2010) حيث يعتمد العديد من الأفراد على المحتوى الرقمي المنشور عبر هذه المنصات لاتخاذ قرارات السفر واختيار الوجهات السياحية. كما تتيح هذه الوسائل إمكانية التفاعل المباشر بين المؤسسات السياحية والجمهور من خلال التعليقات والرسائل والاستفسارات، الأمر الذي يسهم في تعزيز الثقة وتحسين جودة التواصل. وقد ساهم انتشار المحتوى المرئي الرقمي والمتعلق بالوجهات اللبنانية، مثل صور شواطئ بيروت أو المواقع الأثرية في جيبيل وبعلبك، في جذب اهتمام العديد من المستخدمين وإبراز الجوانب الجمالية والثقافية للبنان رغم الظروف الصعبة التي يمر بها.

#### ثانيًا: الحملات الإلكترونية

تعد الحملات الإلكترونية من الوسائل الحديثة التي تعتمد عليها المؤسسات السياحية للترويج للوجهات والخدمات السياحية عبر الإنترنت. وتشمل هذه الحملات الإعلانات الرقمية، والمحتوى الترويجي، والفيديوهات القصيرة، إضافة إلى الحملات التي تُطلق عبر وسائل التواصل الاجتماعي بهدف الوصول إلى الجمهور المستهدف. (Hays et al., 2013) وقد ساهمت الحملات الإلكترونية في تعزيز الترويج السياحي للبنان من خلال التركيز على المقومات الطبيعية والثقافية التي يمتلكها البلد، ومحاولة تقديم صورة إيجابية عنه على المستوى الخارجي. كما أتاحت هذه الحملات إمكانية استهداف السياح المحتملين وفقًا لاهتماماتهم ومواقعهم الجغرافية، الأمر الذي يزيد من فعالية العملية التسويقية مقارنة بالوسائل التقليدية.

ومن جهة أخرى، لعبت الحملات الرقمية دوراً مهماً في تنشيط السياحة الداخلية خلال الفترات التي شهد فيها لبنان تراجعاً في أعداد السياح الأجانب، حيث ركزت العديد من الحملات على تشجيع المواطنين اللبنانيين على زيارة المناطق السياحية المحلية ودعم الاقتصاد الوطني (المجلس الاقتصادي والاجتماعي اللبناني، 2023).

### ثالثاً: دور الشركات السياحية والفنادق

أدركت الشركات السياحية والفنادق في لبنان أهمية التحول الرقمي في تطوير أعمالها وزيادة قدرتها التنافسية، لذلك اتجهت إلى استخدام الوسائل الإلكترونية المختلفة للترويج لخدماتها والتواصل مع العملاء. وقد عملت العديد من الفنادق والشركات السياحية على إنشاء مواقع إلكترونية خاصة بها تتيح خدمات الحجز الإلكتروني وعرض العروض السياحية والخدمات المتاحة.

كما تعتمد هذه المؤسسات على وسائل التواصل الاجتماعي للتفاعل مع الزبائن ونشر الصور ومقاطع الفيديو المتعلقة بالخدمات السياحية والفندقية. إضافة إلى ذلك، تلجأ بعض الشركات إلى التعاون مع المؤثرين الرقميين وصناع المحتوى السياحي للترويج للوجهات اللبنانية واستقطاب مزيد من الزوار.

ويسهم الاعتماد على التسويق الإلكتروني في تحسين القدرة التنافسية للمؤسسات السياحية اللبنانية، خاصة في ظل المنافسة الإقليمية المتزايدة والتغيرات المستمرة في سلوك السياح الذين أصبحوا يعتمدون بصورة كبيرة على الإنترنت في البحث عن المعلومات واتخاذ قرارات السفر.

وهكذا يتضح لنا من خلال هذا الفصل أنّ القطاع السياحي اللبناني يمتلك مقومات طبيعية وثقافية وتاريخية تجعله من القطاعات القادرة على دعم الاقتصاد الوطني وتحقيق التنمية السياحية. كما تبين أن التسويق الإلكتروني والوسائل الرقمية أصبحت من الأدوات الأساسية في الترويج للوجهات السياحية اللبنانية وتحسين صورتها على المستوى الإقليمي والدولي. ورغم التحديات الاقتصادية والسياسية التي يواجهها لبنان، فإن التحول نحو السياحة الرقمية يمثل فرصة مهمة لإعادة تنشيط القطاع السياحي وتعزيز قدرته على جذب السياح في المستقبل. (Kotler et al., 2017؛ Chaffey & Ellis-Chadwick, 2019)

### الفصل الثالث: التحديات والآفاق المستقبلية للسياحة الرقمية في لبنان

يشهد القطاع السياحي في لبنان مجموعة من التحديات المتشابكة التي أثرت بصورة

مباشرة على قدرته في استقطاب السياح والمحافظة على مكانته السياحية الإقليمية. وقد ازدادت هذه التحديات مع التطورات الاقتصادية والسياسية والإعلامية التي شهدها لبنان خلال السنوات الأخيرة، الأمر الذي انعكس على واقع التسويق السياحي الإلكتروني والسياحة الرقمية بصورة عامة. وفي المقابل، تبرز مجموعة من الفرص والأفاق المستقبلية التي يمكن أن تسهم في تطوير القطاع السياحي اللبناني إذا ما تم توظيف الوسائل الرقمية الحديثة ووضع استراتيجيات فعالة للتطوير والتسويق. ومن هنا تأتي أهمية دراسة أبرز التحديات التي تواجه السياحة الرقمية في لبنان، وتحليل الحلول الممكنة لتعزيز هذا القطاع مستقبلاً. (الإسكوا، 2023).

### المبحث الأول: التحديات التي تواجه السياحة الرقمية في لبنان

#### أولاً: الأزمة الاقتصادية

تعد الأزمة الاقتصادية من أبرز التحديات التي أثرت على القطاع السياحي اللبناني خلال السنوات الأخيرة، حيث أدت التدهورات المالية وارتفاع معدلات التضخم وانخفاض قيمة العملة الوطنية إلى تراجع الاستثمارات السياحية وضعف القدرة التشغيلية للعديد من المؤسسات السياحية والفندقية. كما انعكست الأزمة الاقتصادية بصورة مباشرة على جودة الخدمات السياحية، نتيجة ارتفاع تكاليف التشغيل والصعوبات التي تواجه المؤسسات في تأمين الموارد الأساسية.

وقد أثرت هذه الأزمة أيضاً على قدرة المؤسسات السياحية على تطوير أنظمتها الرقمية والاستثمار في أدوات التسويق الإلكتروني الحديثة، الأمر الذي حدّ من قدرتها على المنافسة في السوق السياحي الإقليمي والدولي. إضافة إلى ذلك، ساهمت الظروف الاقتصادية الصعبة في تراجع الإنفاق السياحي الداخلي والخارجي، مما أدى إلى انخفاض

الحركة السياحية بصورة ملحوظة. مصرف لبنان، 2023؛ World Bank، 2024

#### ثانياً: ضعف البنية الرقمية

يمثل ضعف البنية التحتية الرقمية أحد العوائق الأساسية أمام تطور السياحة الرقمية في لبنان، حيث يعاني القطاع من مشكلات تتعلق ببطء خدمات الإنترنت وضعف الاستقرار التقني والانقطاعات المتكررة في الكهرباء والاتصالات. وتؤثر هذه المشكلات بشكل مباشر على كفاءة الخدمات الإلكترونية التي تقدمها المؤسسات السياحية، مثل أنظمة الحجز

الإلكتروني والتواصل الرقمي مع العملاء. (الإسكوا، 2023؛ OECD، 2023)

كما أن محدودية الاستثمار في التكنولوجيا الرقمية والتطور التقني تؤدي إلى إضعاف قدرة

المؤسسات السياحية اللبنانية على مواكبة التحولات العالمية في مجال السياحة الرقمية، خاصة في ظل الاعتماد المتزايد للسياح على التطبيقات الذكية والمنصات الإلكترونية في تخطيط رحلاتهم واتخاذ قرارات السفر.

#### ثالثاً: الصورة الإعلامية السلبية

تلعب الصورة الإعلامية دوراً مهماً في التأثير على القطاع السياحي، إذ يعتمد العديد من السياح على وسائل الإعلام والمنصات الرقمية لتكوين صورة أولية عن الوجهات السياحية. وقد ساهمت التغطيات الإعلامية المرتبطة بالأزمات السياسية والاقتصادية والأمنية في لبنان في تكوين صورة سلبية لدى بعض السياح الأجانب، الأمر الذي أثر على ثقتهم بالوجهة السياحية اللبنانية. (Hays et al., 2013)

#### رابعاً: المنافسة الإقليمية

يواجه القطاع السياحي اللبناني منافسة قوية من العديد من الدول العربية والإقليمية التي نجحت في تطوير بنيتها السياحية والرقمية بصورة متقدمة. فقد عملت بعض الدول على استثمار موارد كبيرة في تطوير السياحة الرقمية وإطلاق حملات تسويق إلكتروني عالمية، مما عزز قدرتها على جذب السياح والاستثمارات السياحية. وفي ظل هذه المنافسة، يواجه لبنان تحدياً يتمثل في ضرورة تطوير خدماته السياحية وتحسين استراتيجياته الرقمية للحفاظ على مكانته السياحية. كما أن تطور البنية التحتية والخدمات الإلكترونية في الدول المنافسة يزيد من أهمية اعتماد لبنان على سياسات حديثة في التسويق الرقمي والتطوير السياحي. (World Eco-OECD, 2023) (nomic Forum, 2024)

#### المبحث الثاني: الحلول والآفاق المستقبلية

##### أولاً: تطوير البنية الرقمية

يُعد تطوير البنية التحتية الرقمية من الخطوات الأساسية لتعزيز السياحة الرقمية في لبنان، إذ يتطلب الأمر تحسين خدمات الإنترنت والاتصالات وتوفير بيئة تقنية مستقرة تدعم الخدمات السياحية الإلكترونية. كما ينبغي العمل على تطوير الأنظمة الرقمية الخاصة بالمؤسسات السياحية والفندقية، بما يساهم في تسهيل عمليات الحجز الإلكتروني وتحسين تجربة المستخدم.

ومن الضروري أيضاً تشجيع الاستثمار في التكنولوجيا الرقمية وتوفير برامج تدريبية للعاملين في القطاع السياحي بهدف تعزيز مهاراتهم في استخدام الوسائل الإلكترونية

الحديثة، الأمر الذي يساعد المؤسسات السياحية اللبنانية على مواكبة التطورات العالمية في هذا المجال (قنديلجي، 2022؛ OECD، 2023)

ثانياً: تحسين التسويق عبر المنصات الحديثة

يمثل التسويق عبر المنصات الرقمية الحديثة أحد أهم الوسائل القادرة على دعم القطاع السياحي اللبناني واستعادة حضوره الإقليمي والدولي. ويتطلب ذلك اعتماد استراتيجيات تسويق إلكتروني قائمة على إنتاج محتوى رقمي احترافي يعكس الجوانب الجمالية والثقافية والطبيعية للبنان. (Chaffey & Ellis-Chadwick، 2019؛ Sigala، 2018)

كما ينبغي تعزيز استخدام وسائل التواصل الاجتماعي ومنصات الفيديو القصير والتطبيقات الرقمية الحديثة للتواصل مع الجمهور المستهدف، إضافة إلى الاستفادة من المؤثرين الرقميين وصناع المحتوى السياحي في الترويج للوجهات اللبنانية. ويسهم التسويق الحديث في تحسين الصورة السياحية للبنان وزيادة انتشاره على المستوى العالمي.

ثالثاً: دعم السياحة الداخلية

تُعد السياحة الداخلية من الوسائل المهمة لدعم القطاع السياحي في ظل التحديات الاقتصادية وتراجع أعداد السياح الأجانب. وقد برزت أهمية هذا النوع من السياحة خلال السنوات الأخيرة، حيث ساهمت الحملات المحلية في تشجيع المواطنين اللبنانيين على زيارة المناطق السياحية ودعم الاقتصاد المحلي (Kotler et al.، 2017)

ويستلزم دعم السياحة الداخلية توفير عروض وخدمات سياحية تتناسب مع القدرة الشرائية للمواطنين، إضافة إلى تنظيم الفعاليات الثقافية والمهرجانات المحلية التي تسهم في تنشيط الحركة السياحية داخل لبنان. كما يمكن للمنصات الرقمية أن تؤدي دوراً مهماً في الترويج للسياحة الداخلية وزيادة الوعي بأهمية دعم الوجهات المحلية.

رابعاً: التعاون بين الدولة والقطاع الخاص

يتطلب تطوير القطاع السياحي اللبناني وجود تعاون فعال بين الدولة والقطاع الخاص، بهدف وضع استراتيجيات متكاملة لدعم السياحة الرقمية وتحسين جودة الخدمات السياحية. فالدولة تؤدي دوراً أساسياً في تطوير البنية التحتية ووضع السياسات التنظيمية المناسبة، في حين يسهم القطاع الخاص في الاستثمار والتطوير والتسويق. (Chaffey & Ellis-Chadwick، 2019)

كما ينبغي تعزيز الشراكة بين المؤسسات الحكومية والشركات السياحية والمنصات الرقمية لتنفيذ حملات ترويجية فعالة تستهدف الأسواق السياحية المختلفة. ويسهم هذا

التعاون في خلق بيئة سياحية أكثر استقراراً وقدرة على المنافسة، الأمر الذي يساعد على تعزيز مكانة لبنان السياحية مستقبلاً.

وفي الخلاصة يتبين من خلال هذا الفصل أن السياحة الرقمية في لبنان تواجه مجموعة من التحديات الاقتصادية والتقنية والإعلامية التي تؤثر على تطور القطاع السياحي وقدرته التنافسية. إلا أن هذه التحديات لا تلغي وجود فرص حقيقية للنهوض بالسياحة اللبنانية من خلال تطوير البنية الرقمية واعتماد استراتيجيات تسويق إلكتروني حديثة وتعزيز التعاون بين مختلف الجهات المعنية. ومن ثم، فإن الاستثمار في السياحة الرقمية يُعد خطوة أساسية نحو إعادة تنشيط القطاع السياحي اللبناني وتحقيق التنمية الاقتصادية والسياحية في المستقبل.

### النتائج

توصل هذا البحث إلى مجموعة من النتائج التي تؤكد الأهمية المتزايدة للسياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني في تطوير القطاع السياحي وتعزيز قدرته التنافسية، خاصة في ظل التحولات التكنولوجية التي يشهدها العالم المعاصر. وقد تبين أن التسويق الإلكتروني أصبح من الأدوات الأساسية في تنشيط الحركة السياحية، نظراً لما يوفره من وسائل حديثة وفعّالة للترويج للوجهات السياحية والوصول إلى شرائح واسعة من السياح في مختلف الدول. كما أظهرت الدراسة أن الوسائل الرقمية أسهمت في تقليل الاعتماد على أساليب التسويق التقليدية، من خلال توفير قنوات تواصل أسرع وأكثر تأثيراً بين المؤسسات السياحية

والجمهور المستهدف (Leung et al., 2013؛ Hays et al., 2013)

وأظهرت نتائج البحث كذلك أن وسائل التواصل الاجتماعي تؤدي دوراً محورياً في التأثير على القرار السياحي، حيث يعتمد عدد كبير من الأفراد على المحتوى الرقمي المنشور عبر هذه المنصات في تكوين صورة أولية عن الوجهات السياحية واختيار أماكن السفر. كما تبين أن الصور ومقاطع الفيديو والتجارب الشخصية التي ينشرها المستخدمون والمؤثرون الرقميون تسهم بصورة مباشرة في تعزيز جاذبية الوجهات السياحية وزيادة انتشارها على المستوى الإقليمي والدولي. (Xiang & Gretzel, 2010؛ Hudson & Thal, 2013)

كما خلص البحث إلى أن لبنان يمتلك مقومات سياحية متنوعة تؤهله لاستعادة مكانته السياحية، بما يضمه من مواقع طبيعية وأثرية وثقافية مميزة، إلا أن القطاع السياحي اللبناني لا يزال يواجه تحديات كبيرة ترتبط بالأوضاع الاقتصادية والسياسية وضعف البنية الرقمية والصورة الإعلامية السلبية. وقد انعكست هذه العوامل على فعالية التسويق

السياحي الإلكتروني وقدرة المؤسسات السياحية على مواكبة التطورات الرقمية الحديثة. وأظهرت الدراسة أيضاً أن نجاح السياحة الرقمية في لبنان يتطلب وجود استراتيجية رقمية سياحية متطورة تقوم على تطوير البنية التحتية الرقمية، وتحسين جودة الخدمات الإلكترونية، وتعزيز المحتوى السياحي الرقمي، إضافة إلى توظيف وسائل التواصل الاجتماعي بصورة احترافية في الحملات الترويجية. كما تبين أن التعاون بين الدولة والقطاع الخاص يُعد عنصراً أساسياً في دعم القطاع السياحي وتحقيق التنمية السياحية المستدامة. (World Bank، 2024؛ المجلس الاقتصادي والاجتماعي اللبناني، 2023) وبناءً على ما سبق، يؤكد البحث أن الاستثمار في السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني يمثل فرصة حقيقية للنهوض بالقطاع السياحي اللبناني، وتحسين صورته على المستوى الدولي، وتعزيز مساهمته في دعم الاقتصاد الوطني خلال المرحلة المقبلة.

#### الخاتمة

يتضح من خلال هذا البحث أن السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني أصبحا عنصرين أساسيين في إعادة تشكيل القطاع السياحي على المستوى العالمي، وذلك بفعل التطور المتسارع في تكنولوجيا المعلومات والاتصال وما رافقه من تحول في سلوك السياح وطرق اتخاذهم لقرارات السفر. فقد لم يعد اختيار الوجهات السياحية يعتمد على الوسائل التقليدية فحسب، بل أصبح مرتبطاً بصورة كبيرة بالمحتوى الرقمي المتداول عبر المنصات الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، وما توفره من معلومات وتجارب مرئية وتفاعلية تؤثر بشكل مباشر في تكوين الصورة الذهنية عن الوجهات السياحية. (Xiang et al., 2015) وقد بينت الدراسة أن التسويق الإلكتروني يمثل أداة فعالة في تنشيط السياحة وتعزيز الترويج للوجهات المختلفة، من خلال قدرته على الوصول السريع إلى الجمهور المستهدف، وتقديم محتوى ترويجي متنوع وذو طابع تفاعلي. كما أن استخدام الوسائل الرقمية الحديثة يساهم في تحسين تجربة السائح قبل وأثناء وبعد السفر، مما يعزز من جاذبية الوجهات السياحية ويزيد من قدرتها التنافسية على المستوى الإقليمي والدولي<sup>(15)</sup>.

وفيما يتعلق بواقع القطاع السياحي في لبنان، فقد أظهرت الدراسة أنه يمتلك مقومات سياحية غنية ومتنوعة تؤهله ليكون من الوجهات السياحية البارزة في المنطقة، إلا أن هذا القطاع يواجه مجموعة من التحديات التي تحد من تطوره، أبرزها الأزمات الاقتصادية والسياسية، وضعف البنية الرقمية، والصورة الإعلامية السلبية، إلى جانب

اشتداد المنافسة الإقليمية. وقد انعكست هذه التحديات على فعالية التسويق السياحي التقليدي والرقمي على حد سواء.

ورغم هذه التحديات، خلص البحث إلى أن التحول نحو السياحة الرقمية يمثل فرصة استراتيجية حقيقية لإعادة تنشيط القطاع السياحي اللبناني، وذلك من خلال تطوير البنية التحتية الرقمية، واعتماد استراتيجيات تسويق إلكتروني حديثة، وتفعيل دور وسائل التواصل الاجتماعي في الترويج للوجهات السياحية، إضافة إلى تعزيز التعاون بين القطاعين العام والخاص. كما أن دعم السياحة الداخلية يشكل عنصرًا مهمًا في الحفاظ على استمرارية النشاط السياحي في فترات الأزمات.

وفي الختام، يمكن القول إن مستقبل السياحة في لبنان يرتبط بشكل وثيق بمدى قدرته على مواكبة التحول الرقمي في القطاع السياحي، وتبني أدوات التسويق الإلكتروني الحديثة بصورة فعالة. وعليه، فإن الاستثمار في السياحة الرقمية لا يعد خيارًا ثانويًا، بل ضرورة استراتيجية لإعادة تعزيز مكانة لبنان السياحية وتحقيق التنمية الاقتصادية المستدامة في المرحلة المقبلة.

#### التوصيات

في ضوء النتائج التي توصل إليها البحث، وفي إطار تعزيز دور السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني في دعم القطاع السياحي في لبنان، يمكن تقديم مجموعة من التوصيات التي من شأنها الإسهام في تطوير هذا القطاع ورفع كفاءته التنافسية على المستويين الإقليمي والدولي. أولاً، يُوصى بإنشاء منصات رقمية رسمية حديثة خاصة بالسياحة اللبنانية، تكون بمثابة مرجع إلكتروني موثوق يضم كافة المعلومات المتعلقة بالوجهات السياحية والخدمات المتاحة، مع توفير محتوى تفاعلي متجدد يساهم في تحسين صورة لبنان السياحية وتعزيز حضوره الرقمي على المستوى العالمي.

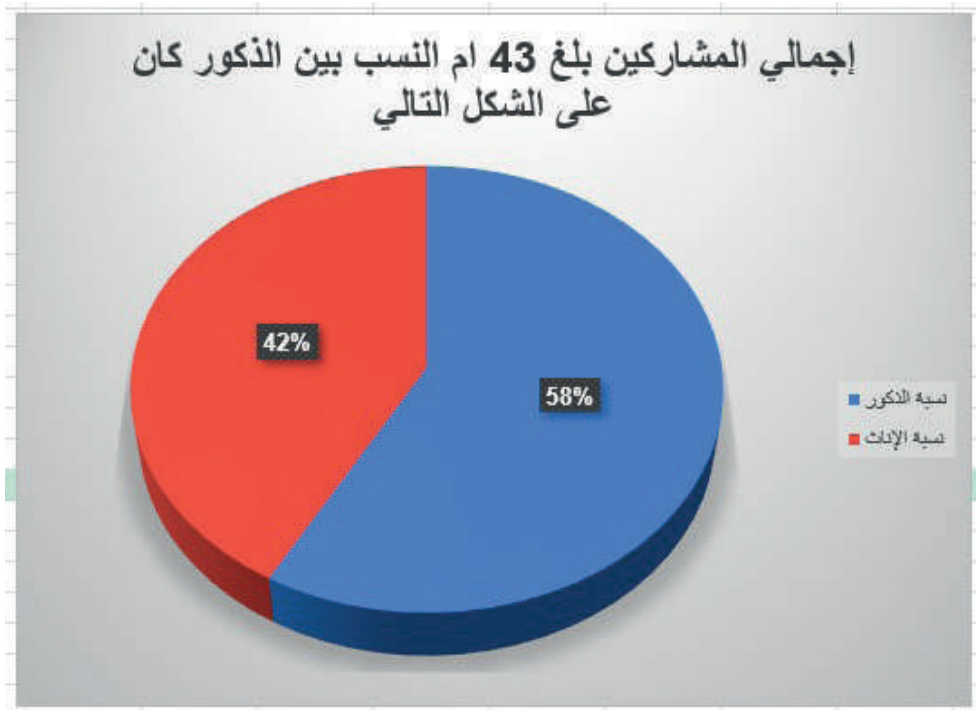
ثانياً، ضرورة دعم وإنتاج المحتوى السياحي الرقمي عالي الجودة، من خلال الاستثمار في التصوير الاحترافي، وإنتاج الفيديوهات الترويجية، وتوثيق المعالم السياحية والثقافية بطريقة حديثة وجذابة، بما يواكب تطور أدوات التسويق الإلكتروني ويعزز من فعاليته في جذب السياح.

ثالثاً، العمل على تدريب وتأهيل العاملين في القطاع السياحي على استخدام أدوات التسويق الإلكتروني الحديثة، بما في ذلك إدارة منصات التواصل الاجتماعي، وتحليل البيانات الرقمية، والتعامل مع تقنيات التسويق الرقمي، وذلك بهدف رفع كفاءة الموارد البشرية وتحسين جودة الخدمات السياحية المقدمة.

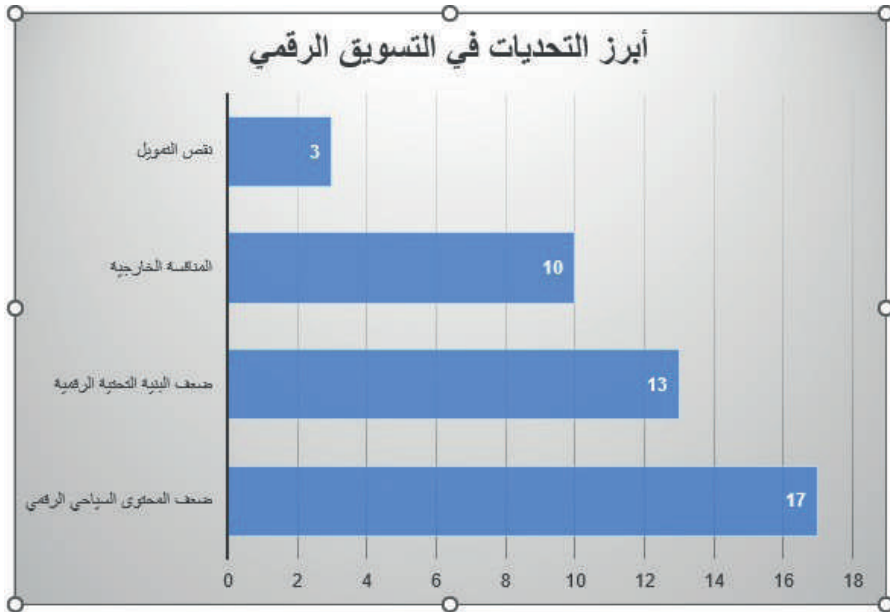
رابعاً، تشجيع الاستثمار في مجال السياحة الرقمية من خلال توفير بيئة محفزة للشركات الناشئة والمؤسسات الخاصة، ودعم الشراكات بين القطاعين العام والخاص، بما يساهم في تطوير البنية التحتية الرقمية السياحية وتعزيز الابتكار في أساليب الترويج والتسويق. وبشكل عام، فإن تطبيق هذه التوصيات من شأنه أن يساهم في تعزيز قدرة القطاع السياحي اللبناني على مواجهة التحديات الراهنة، وتحقيق تحول نوعي نحو سياحة رقمية أكثر فاعلية واستدامة.

#### الدراسة الميدانية

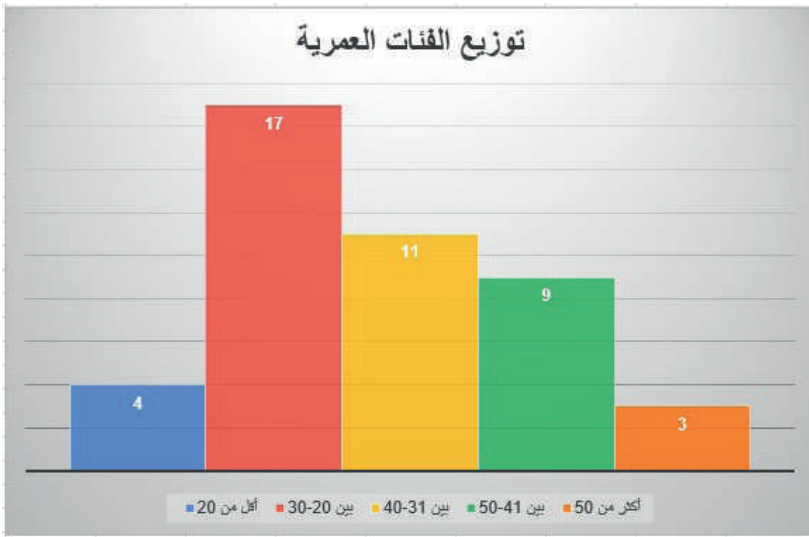
ولدعم المعطيات النظرية حول أهمية التسويق الرقمي في تنشيط الوجهات السياحية في لبنان أجريت مقابلات وملاآت 43 استمارة من مختلف المناطق اللبنانية تناولت مؤسسات سياحية مختلفة شملت هذا الموضوع من كل جوانبه:



مستند رقم 1: يظهر عدد الاستثمارات وجنس الذين تناولهم التحقيق، فكان العدد الاجمالي 43 استمارة 58 بالمئة منهم من الذكور و42 بالمئة من الاناث.



مستند رقم 2: يظهر أبرز التحديات التي تواجه التسويق السياحي الرقمي وقد أظهر نتائج الاستمارة واستطلاع الرأي أن 17 شخص من أصل 43 يرون المشكلة في ضعف المحتوى السياحي، و13 شخصاً يرون المشكلة في ضعف البنية التحتية الرقمية و10 يرون المنافسة الخارجية هي السبب الأكبر و3 أشخاص يرون المشكلة في نقص التمويل. إذا إن العائق الأكبر هو «المحتوى»: يحتل «ضعف المحتوى السياحي الرقمي» المرتبة الأولى بنسبة تقارب 40% من إجمالي المشاكل المعروضة. هذا يشير بوضوح إلى أن المشكلة الأساسية لا تكمن فقط في الأدوات التقنية، بل في جودة وجاذبية المادة المعروضة للمستهلك الرقمي. أما البنية التحتية والمحتوى فيشكلان المعضلة الكبرى: إذا جمعنا فئتي «ضعف المحتوى» و«ضعف البنية التحتية الرقمية»، نجد أنهما يمثلان معاً حوالي 69.7% (أي ثلثي التحديات تقريباً). هذا يعني أن البيئة الرقمية الداخلية (من منصات، شبكات، وصناعة محتوى) تحتاج إلى تطوير جذري. و المنافسة الخارجية حاضرة بقوة: تمثل «المنافسة الخارجية» تحدياً بارزاً بنسبة 23.3%، مما يضع ضغطاً إضافياً على التسويق المحلي لرفع معاييرها لكي يتمكن من الصمود أمام المنافسين العالميين أو الإقليميين. وبالنسبة للتمويل ليس العائق الأساسي: على عكس المتوقع في كثير من المشاريع، جاء «نقص التمويل» في المرتبة الأخيرة وبنسبة ضئيلة جداً بلغت 7% فقط. هذا يستنتج منه أن الميزانيات قد تكون متوفرة، ولكن الخلل يكمن في كيفية التخطيط، وصناعة المحتوى، وتطوير البنية التحتية التقنية.



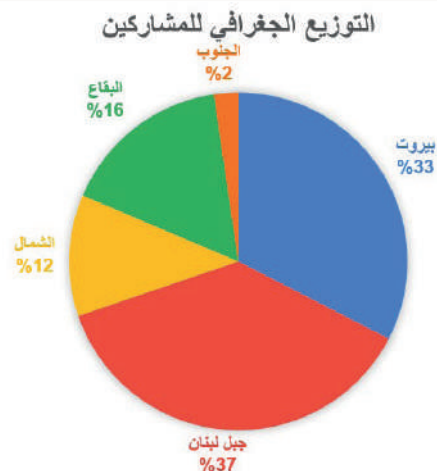
مستند رقم 3: يظهر توزع الاستثمارات بحسب الفئات العمرية بناءً على الرسم البياني لتوزيع الفئات العمرية (المجموع الكلي = 43، إليك التحليل المختصر: الفئة المهيمنة: تشكل الفئة الشبابية بين 20-30 سنة (الأغلبية الساحقة بنسبة 38.6% (17 شخصاً)، تليها فئة بين 31-40 سنة) بنسبة 25% (11 شخصاً).

الفئات المعتدلة والقليلة: تمثل الفئة العمرية (بين 41-50 سنة) نسبة 20.5% (9 أشخاص)، بينما تسجل الفئات الطرفية أرقاماً منخفضة، حيث تبلغ فئة (أقل من 20 سنة) نسبة 9.1% (4 أشخاص)، وفئة أكثر من 50 سنة النسبة الأقل بـ 3 (6,8%) أشخاص.

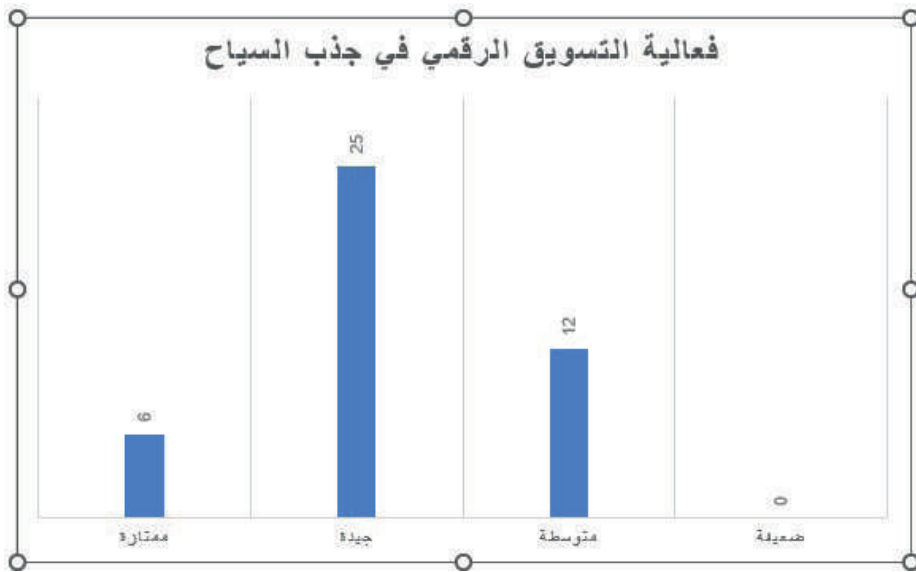
الاستنتاج: يظهر بوضوح أن الفئة المستهدفة أو المشاركة تنتمي بشكل رئيسي إلى الشباب والبالغين (من 20 إلى 40 سنة)، والذين يشكلون معاً حوالي 63.6% من إجمالي العينة.

ما يدل على أن العناصر العاملة في التسويق الإلكتروني السياحي هم في غالبيتهم من الفئات الشابة التي يتقن فن التعامل مع وسائل التواصل الإلكتروني والحدثة.

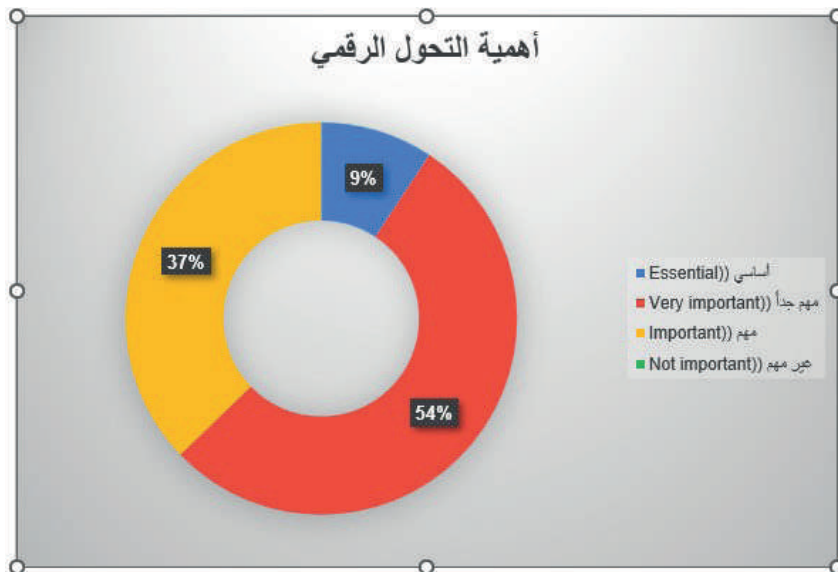
مستند رقم 4: يظهر التوزيع الجغرافي للمؤسسات المنتقة



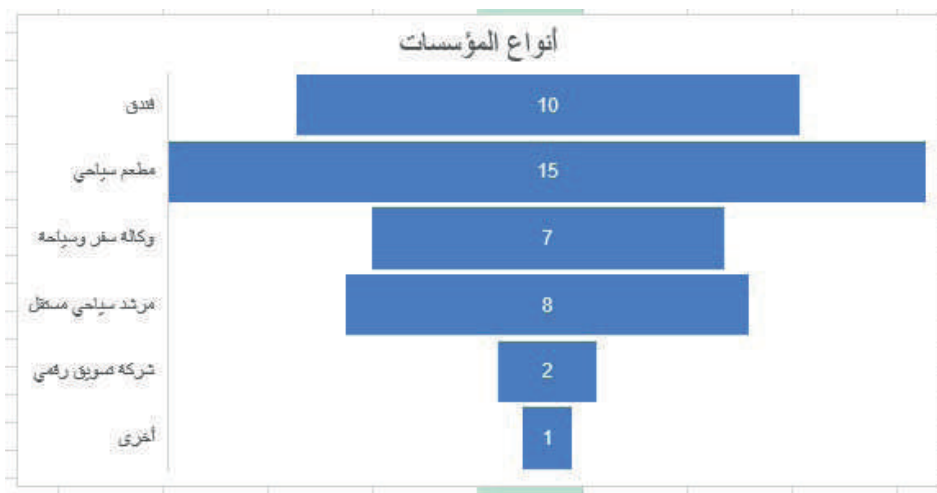
يُظهر الرسم الدائري «التوزيع الجغرافي للمشاركين» تركزاً كبيراً في منطقة جبل لبنان بنسبة 37 %، تليها العاصمة بيروت بنسبة 33 %، مما يعني أن ثلثي المشاركين تقريباً (70%) يتواجدون في المركز الإداري والاقتصادي للبلاد. في المقابل، تتوزع النسب المتبقية بشكل متناقص على الأطراف، حيث يسجل البقاع 16 %، والشمال 12 %، بينما ينخفض التمثيل بشكل حاد في الجنوب ليصل إلى 2 % فقط. يستنتج من ذلك وجود فجوة جغرافية واضحة في المشاركة، وهذا يعود إلى الظروف الامنية غير المستقرة في الجنوب والبقاع إضافة إلى أن تقل النشاط السياحي في لبنان يتركز في بيروت وجبل لبنان.



مستند رقم 5: يظهر مدى فعالية التسويق الرقمي في جذب السياح يُظهر الرسم البياني لـ «فعالية التسويق الرقمي في جذب السياح» (المجموع الكلي = 43) تأييداً كبيراً لجدواه؛ حيث قِيم الأغلبية الساحقة الفعالية بدرجة «جيدة» بواقع 25 استجابة (58.1%)، تليها الفئة «المتوسطة» بـ 12 استجابة (27.9%). في حين اعتبرها 6 مشاركين (14%) بدرجة «ممتازة»، انعدمت الآراء تماماً عند التقييم «الضعيف» بنسبة 0%. ويُستنتج من ذلك وجود إجماع تام على التأثير الإيجابي الملموس للتسويق الرقمي، مما يجعله أداة رئيسية وموثوقة كليا في تنشيط القطاع السياحي وجذب الزوار.



مستند رقم 6: يظهر أهمية التحول الرقمي في التسويق للوجهات السياحية يُظهر الرسم الدائري المجوف المعنون بـ "أهمية التحول الرقمي" تأييداً كاسحاً لضرورته؛ حيث اعتبرت الأغلبية الساحقة بنسبة 54% أنه «مهم جداً»، تليها فئة «مهم» بنسبة 37%، بينما رأت فئة قليلة بلغت 9% أنه «أساسي». في المقابل، انعدمت تماماً نسبة من يرونه «غير مهم» بنسبة تبلغ 0% (حيث لا يظهر لها أي تمثيل على الرسم). ويُستنتج من ذلك وجود وعي جمعي تام وإدراك شامل بأهمية التحول الرقمي، مما يجعله توجهاً حتمياً ومتفقاً عليه كلياً لتطوير الأعمال والخدمات.



مستند رقم 7: توزيع الاستثمارات على المؤسسات السياحية

يُبين الرسم البياني المعنون بـ "أنواع المؤسسات" (بمجموع 43 مؤسسة) تصدر قطاع الضيافة والمأكولات؛ حيث سجلت "المطاعم السياحية" المرتبة الأولى بواقع 15 مؤسسة بنسبة 34.9 %، تليها "الفنادق" بـ 10 مؤسسات وبنسبة 23.3 % .

في المرتبة الثالثة والرابعة يأتي مقدمو الخدمات المباشرة، حيث سجل "المرشد السياحي المستقل" 8 استجابات بنسبة 18.6 %، يليه "وكالات السفر والسياحة" بواقع 7 مؤسسات وبنسبة 16.3 % . أما الفئات الأقل تمثيلاً فكانت من نصيب "شركات التسويق الرقمي" بمؤسستين فقط بنسبة 4.6 %، تليها الفئات "الأخرى" بواقع مؤسسة واحدة وبنسبة 2.3 % . ويُستنتج من هذا التوزيع أن العينة تركز بشكل أساسي (أكثر من 58%) على قطاع الإقامة والخدمات الغذائية الكلاسيكية، وهو ما يعكس الهيكل التقليدي للنشاط السياحي. ويُعاب على هذا التوزيع الضعف الحاد في تمثيل «شركات التسويق الرقمي»، وهو ما يفسر حاجة هذا القطاع الحيوي إلى تعزيز الشراكات الرقمية لمواكبة آليات الجذب الحديثة.

كما اظهر الاستطلاع على تأكيد كامل من الاشخاص الذين تم التحقيق معهم على ضرورة وأهمية التسويق الإلكتروني في تطوير السياحة الرقمية والجذب باتجاه الوجهات السياحية المختلفة.

#### ملخص الدراسة

#### أهمية السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني للوجهات السياحية اللبنانية

#### في العصر الحديث

تناولت هذه الدراسة أهمية السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني في تعزيز القطاع السياحي اللبناني في ظل التحولات التكنولوجية الحديثة والتحديات الاقتصادية والسياسية التي يواجهها لبنان. وهدفت إلى توضيح مفهوم السياحة الرقمية وأدوات التسويق الإلكتروني السياحي، وتحليل واقع استخدام الوسائل الرقمية في الترويج للوجهات السياحية اللبنانية، إضافة إلى دراسة التحديات والفرص المستقبلية المرتبطة بهذا المجال.

أظهرت الدراسة أن التطور الرقمي أسهم في إحداث تحول كبير في القطاع السياحي من خلال الاعتماد على المواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي والإعلانات الرقمية والمؤثرين في الترويج للوجهات السياحية وجذب الزوار. كما بيّنت أن وسائل التواصل الاجتماعي أصبحت من أكثر الأدوات تأثيراً في تشكيل الصورة الذهنية للسياح واتخاذ قرارات السفر.

وفيما يتعلق بلبنان، أكدت الدراسة أن البلد يمتلك مقومات سياحية متنوعة تشمل المواقع الطبيعية والأثرية والثقافية، إلا أن القطاع السياحي يواجه تحديات عديدة، أبرزها الأزمة الاقتصادية، وضعف البنية التحتية الرقمية، والصورة الإعلامية السلبية، إضافة إلى المنافسة الإقليمية المتزايدة. وقد انعكست هذه العوامل على فعالية التسويق السياحي الإلكتروني وقدرة المؤسسات السياحية على مواكبة التطورات الرقمية الحديثة. وخلصت الدراسة إلى أن الاستثمار في السياحة الرقمية والتسويق الإلكتروني يمثل فرصة مهمة لإعادة تنشيط القطاع السياحي اللبناني وتعزيز قدرته التنافسية. كما أوصت بضرورة تطوير البنية التحتية الرقمية، وإنشاء منصات سياحية إلكترونية متطورة، ودعم إنتاج المحتوى السياحي الرقمي، وتأهيل العاملين في القطاع السياحي، وتعزيز التعاون بين القطاعين العام والخاص، بما يساهم في تحسين صورة لبنان السياحية وزيادة مساهمة القطاع السياحي في التنمية الاقتصادية المستدامة.

### The Importance of Digital Tourism and Electronic Marketing for Lebanese Tourist Destinations in the Modern Era

This study examined the importance of digital tourism and electronic marketing in enhancing the Lebanese tourism sector amid modern technological transformations and the economic and political challenges facing Lebanon. It aimed to clarify the concept of digital tourism and the tools of electronic tourism marketing, analyze the reality of using digital means to promote Lebanese tourist destinations, and explore the challenges and future opportunities associated with this field.

The study revealed that digital transformation has significantly reshaped the tourism sector through the use of websites, social media platforms, digital advertising, and influencers in promoting tourist destinations and attracting visitors. It also demonstrated that social media has become one of the most influential tools in shaping tourists' perceptions and influencing their travel decisions. Regarding Lebanon, the study confirmed that the country possesses diverse tourism assets, including natural, historical, and cultural attractions. However, the tourism sector faces several challenges, most notably the economic crisis, weak digital infrastructure, a negative media image, and increasing regional competition. These factors have affected the effectiveness of electronic tourism marketing and the ability of tourism institutions to keep pace with modern digital developments.

The study concluded that investing in digital tourism and electronic marketing represents an important opportunity to revitalize the Lebanese tourism sector and strengthen its competitiveness. It also recommended developing digital infrastructure, establishing advanced tourism e-platforms, supporting the production of high-quality digital tourism content, training tourism-sector employees, and enhancing cooperation between the public and private sectors. These measures would contribute to improving Lebanon's tourism image and increasing the tourism sector's contribution to sustainable economic development.

#### الكلمات المفتاحية:

السياحة الرقمية، التسويق الإلكتروني السياحي، الوجهات السياحية اللبنانية، التحول الرقمي. وسائل التواصل الاجتماعي، الترويج السياحي، المنصات الرقمية، السياحة المستدامة. القطاع السياحي اللبناني، الجذب السياحي، البنية التحتية الرقمية، التنمية السياحية.

#### Keywords:

Digital Tourism, Tourism E-Marketing, Lebanese Tourist Destinations, Digital Transformation.

Social Media, Tourism Promotion, Digital Platforms, Sustainable Tourism. Lebanese Tourism Sector, Tourist Attraction, Digital Infrastructure, Tourism Development. Top of Form

#### المراجع

##### المراجع العربية

- أبو النصر، م. (2021). الإدارة السياحية المعاصرة. المجموعة العربية للتدريب والنشر. أبو رمان، أ. (2020). التسويق الإلكتروني الحديث. دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- الحربي، م. (2022). أثر التسويق الرقمي في تنمية القطاع السياحي. المجلة العربية للإدارة، 42(2)، 115-138.
- الدليمي، ع. ر. (2021). الإعلام الرقمي والتسويق السياحي. دار اليازوري العلمية. الزعبي، أ. (2020). دور وسائل التواصل الاجتماعي في الترويج السياحي. مجلة جامعة اليرموك للبحوث الإنسانية، 36(1)، 55-80.
- العلاق، ب. (2021) التسويق الإلكتروني. دار اليازوري العلمية.
- قنديلجي، ع. (2022). تكنولوجيا المعلومات وتطبيقاتها في السياحة. دار صفاء للنشر.

الهيئة العامة للإحصاء السياحي العربية. (2022). تقرير السياحة العربية السنوي. الهيئة العامة للإحصاء السياحي العربية.

المجلس الاقتصادي والاجتماعي اللبناني. (2023). واقع القطاع السياحي اللبناني وتحدياته. المجلس الاقتصادي والاجتماعي اللبناني.

لجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا). (2023). التحول الرقمي في الدول العربية. الإسكوا.

مصرف لبنان. (2023). التقرير الاقتصادي السنوي. مصرف لبنان.

وزارة السياحة اللبنانية. (2024). التقرير السنوي للقطاع السياحي في لبنان. وزارة السياحة اللبنانية.

## References

- Buhalis, D. (2003). eTourism: Information technology for strategic tourism management. Pearson Education.
- Buhalis, D., & Law, R. (2008). Progress in information technology and tourism management: 20 years on and 10 years after the Internet. *Tourism Management*, 29(4), 609–623.
- Chaffey, D., & Ellis-Chadwick, F. (2019). *Digital marketing* (7th ed.). Pearson.
- Gretzel, U., Sigala, M., Xiang, Z., & Koo, C. (2015). Smart tourism: Foundations and developments. *Electronic Markets*, 25(3), 179–188.
- Hays, S., Page, S. J., & Buhalis, D. (2013). Social media as a destination marketing tool: Its use by national tourism organisations. *Current Issues in Tourism*, 16(3), 211–239.
- Hudson, S., & Thal, K. (2013). The impact of social media on the consumer decision process. *Journal of Travel & Tourism Marketing*, 30(1–2), 156–160.
- Kotler, P., Bowen, J. T., Makens, J. C., & Baloglu, S. (2017). *Marketing for hospitality and tourism* (7th ed.). Pearson.
- Leung, D., Law, R., Van Hoof, H., & Buhalis, D. (2013). Social media in tourism and hospitality: A literature review. *Journal of Travel & Tourism Marketing*, 30(1–2), 3–22.
- Organisation for Economic Co-operation and Development. (2023). *Tourism trends and policies 2023*. OECD Publishing.
- Sigala, M. (2018). Social media and customer engagement in the tourism industry. *Tourism Management Perspectives*, 25, 1–4.
- United Nations World Tourism Organization. (2022). *Tourism and rural development report*. UNWTO.

- United Nations World Tourism Organization. (2023). World tourism barometer. UNWTO.
- World Bank. (2024). Lebanon economic monitor. World Bank.
- World Economic Forum. (2024). Travel and tourism development index 2024. World Economic Forum.
- World Travel & Tourism Council. (2024). Economic impact report 2024. WTTC.
- Xiang, Z., & Gretzel, U. (2010). Role of social media in online travel information search. *Tourism Management*, 31(2), 179–188.
- Xiang, Z., Magnini, V. P., & Fesenmaier, D. R. (2015). Information technology and consumer behavior in travel and tourism. *Tourism Management*, 48, 244–249.



# الذكاء الاصطناعي التوليدي بوصفه مصدراً بديلاً للمعلومات السياحية دراسة ميدانية في تصوّرات المستخدمين العرب ومستوى ثقتهم

نجوى طه

## ملخص الدراسة

تستكشف هذه الدراسة تصوّرات المستخدمين العرب لأدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي (مثل ChatGPT و Gemini و Claude) بوصفها مصدراً بديلاً للمعلومات السياحية، وتقيس مستوى ثقتهم بالمحتوى المؤلّد آلياً مقارنةً بوسائل التواصل الاجتماعي والمصادر السياحية التقليدية، في ضوء بيانات تُشير إلى أنّ نحو 22% من المسافرين حول العالم لجؤوا إلى هذه الأدوات في أواخر 2024 بزيادة سنوية بلغت 40%. وتطلق الدراسة من فرضية مركزية مفادها أنّ الفجوة الأدبية في المكتبة العربية تستدعي تشخيصاً ميدانياً يأخذ في اعتباره خصوصيتين أساسيتين هما جودة المحتوى المؤلّد باللغة العربية وملاءمته للسياق الثقافي العربي. وتتكئ الدراسة على ثلاث منظومات نظرية متكاملة هي نظرية الاستخدامات والإشباع، ونموذج قبول التكنولوجيا، وأدبيات الثقة في البيئة الرقمية. وتعمد المنهج المسحي الوصفي التحليلي عبر استبيان إلكتروني مُوجّه إلى عيّنة قصدية. وقد جرى ضمن هذه الورقة إجراء تحليل ميداني على بيانات مكوّنة من 100 مستجيب، صُمم الاستبيان وفق التصميم البحثي المُعتمد، وعُرِضت نتائجه عبر

الجدول والمؤشرات الإحصائية. وقد أظهرت النتائج التحليلية دعمَ الفرضيات الخمس المطروحة بمستويات دلالة متفاوتة، مع بروز دور تفسيري قوي لجودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية في تشكيل ثقة المستخدم. الكلمات المفتاحية: الذكاء الاصطناعي التوليدي، المعلومات السياحية، الثقة الرقمية، الاستخدامات والإشباع، نموذج قبول التكنولوجيا، المستخدم العربي، تحليل استطلاعي

### Abstract

This study investigates Arab users' perceptions of generative AI tools (ChatGPT, Gemini, Claude) as an alternative source of tourism information, and measures their level of trust in machine-generated content compared to social media and traditional sources, in light of data indicating that approximately 22% of travelers globally turned to such tools in late 2024 with an annual growth rate of 40%. The study draws on three integrated theoretical frameworks: Uses and Gratifications Theory, the Technology Acceptance Model (TAM), and digital-trust literature. It adopts a descriptive-analytical survey methodology with a purposive sample of 100 respondents drawn from three major Arab markets. Analytical results supported the five hypotheses at varying significance levels, with strong explanatory roles for Arabic-language quality and cultural appropriateness in shaping user trust.

Keywords: generative AI, tourism information, digital trust, uses and gratifications, technology acceptance model, Arab user, pilot analysis.

### مقدّمة

شهد المشهد السياحي العالمي خلال العقدین الأخيرین تحولاً عميقاً في طبيعة المصادر التي يَستند إليها المسافر في بناء قراره السياحي؛ إذ انتقل ثقل المعلومة من المؤسسات الكلاسيكية، كوكالات السفر والأدلة المطبوعة والمواقع الرسمية، إلى الفضاء الرقمي بمختلف منصّاته، ولا سيّما شبكات التواصل الاجتماعي ومحركات البحث ومنصّات مراجعات المستخدمين كـ Booking و TripAdvisor و Google Reviews . (Xiang & Gretzel, 2010) وتؤكد إحصاءات قطاع السفر الصادرة في 2024 أنّ 67% من المسافرين دون الـ35 سنة باتوا يعتمدون على وسائل التواصل الاجتماعي مصدراً أولاً لتخطيط رحلاتهم، فيما تتراجع المواقع السياحية الرسمية إلى 22% فقط، ويكمل المؤثرون الرقميون والمدوّنات السياحية ما تبقى. غير أنّ السنوات الثلاث الأخيرة

(2023-2025) أدخلت إلى هذا المشهد فاعلاً معلوماً من طبيعة مختلفة جذرياً، هو أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي، التي لا تكتفي باسترجاع المعلومة كما تفعل محرّكات البحث، بل تُنشئها استجابةً لاستعلامٍ حوارِي مفتوح، فتُعيد بذلك تشكيل علاقة المسافرين بالمعلومة من علاقة «بحث واختيار بين بدائل» إلى علاقة «تفاوضٍ حوارِي» مع وسيطٍ آلي قادر على التركيب والتلخيص والتشخيص الفوري.

وتُشير بيانات حديثة إلى أنّ نحو 22% من المسافرين حول العالم لجؤوا إلى أدوات من قبيل ChatGPT و Gemini في تخطيط رحلاتهم في أواخر عام 2024، بزيادة سنوية قدرها 40% مقارنةً بعام 2023، فيما أبدى 82% منهم استعداداً صريحاً لتكرار التجربة في رحلاتهم المقبلة (Phocuswright, 2025). وعلى مستوى أوسع، أعلنت شركة OpenAI أنّ منصّة ChatGPT بلغت 200 مليون مستخدم نشط أسبوعياً بنهاية عام 2024، أي ضعف القاعدة المستخدمة قبل اثني عشر شهراً، وهو ما يُترجم في القطاع السياحي إلى تحوّل سلوكي لم تُعرف صناعة السفر مثيلاً له منذ ظهور TripAdvisor عام 2000. ويُفرز هذا التحوّل ما يُمكن وصفه بـ«فجوة التبني» (Gap Adoption)، إذ تُؤكّد المراجعات المنهجية الحديثة أنّ أقلّ من 17% من المؤسّسات السياحية في الأسواق الناشئة قد دمجت أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي في استراتيجياتها بحلول مطلع 2025، رغم أنّ نسبة استخدام الزبائن لهذه الأدوات تجاوزت في السوق ذاتها عتبة 30% (al et Doborjeh, 2022). بيد أنّ توصيف هذه الفجوة من جهة العرض يبقى توصيفاً أعرج ما لم يُستكمل بقراءة من جهة الطلب، تسأل عمّا يفعله المستخدم فعلاً حين يضع استعماله السياحي بين يدي نموذج توليدي، وعن المعايير التي يستند إليها في منح ثقته بالمعلومة المؤلّدة، وفي هذا السّؤال بالذات تتموضع المقالة الراهنة.

وفي الفضاء البحثي العربي، تتراءى الأسئلة السابقة مفتوحةً على آخرها. فبينما راكمت الأدبيات العربية في الفترة الممتدة بين 2015 و 2024، وفق مسح أجرته الباحثة على قواعد بيانات «المنهل» و«دار المنظومة» و«EduSearch»، ما يزيد على 380 دراسة منشورة حول أثر وسائل التواصل الاجتماعي في القرار السياحي، تكاد تخلو هذه الأدبيات من دراسة ميدانية واحدة تتناول تعامل المستخدم العربي مع أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي بوصفها مصدراً سياحياً بديلاً. أمّا الدراسات الأجنبية القليلة التي طرقت الموضوع، كأبحاث (al et Kim, 2024) و (al et Arora, 2024) و (al et Choi, 2024).

(2024)، فإنّها انطلقت من سياقاتٍ غربيةٍ وآسيويةٍ، ولم تأخذ في حسابها متغيّرين جوهريّين في التجربة العربية، هما جودة المحتوى المُؤلّد باللغة العربية، وملاءمته للسياق الثقافي المحلي. ولا يصحّ افتراض حياديّة هذين المتغيّرين؛ ذلك أنّ النماذج التوليدية الكبرى مُدرّبة في غالبيتها على متون إنكليزية، بينما لا تتجاوز نسبة المحتوى العربي في مجموعات التدريب المرجعية كـ Crawl Common ما يقارب 1.3% من حجم البيانات الكلي.

ومن هنا تتموضع هذه الدراسة بوصفها استجابةً مزدوجة: استجابةً معرفيةً لفرغ أدبي قائم في المكتبة العربية، واستجابةً منهجيةً لضرورة بناء أدواتٍ تشخيصية تأخذ خصوصية المستخدم العربي بعين الاعتبار. وتتنظم المقالة في ثمانية أقسام رئيسية تتدرّج من تشخيص الإشكالية إلى عرض النتائج التحليلية على البيانات الاستطلاعية، فالى مناقشتها وتأطير حدودها وأفاقها. ويُلَفِت إلى أنّ التحليل الإحصائي المقدم في القسم السادس قد جرى على بيانات ميدانية مكوّنة من 100 مستجيب من الأسواق العربية الثلاث المستهدفة.

#### أولاً: الإشكالية البحثية وأسئلتها

تُشير إحصاءات قطاع السفر الصادرة في 2024-2025 إلى تحوّل سريع في سلوك المسافرين الباحثين عن المعلومة السياحية، إذ صار الذكاء الاصطناعي التوليدي يُنافس وسائل التواصل الاجتماعي ومحركات البحث على دور المصدر الأول لتخطيط الرحلات، بل تجاوزها في بعض الأسواق المتقدمة في فئات عمرية محدّدة. فقد أظهر تقرير Phocuswright (2025) أنّ 22% من المسافرين على المستوى العالمي لجؤوا إلى أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي خلال 2024، وأنّ هذه النسبة ترتفع إلى 38% في الفئة العمرية 25-34، فيما تتراجع إلى 9% في الفئة فوق الـ55. وتتقاطع هذه البيانات مع المراجعات المنهجية الحديثة التي تُؤكّد وجود فجوة تبنٍّ بين تسارع المستخدمين نحو هذه الأدوات وبطء المؤسسات السياحية في دمجها (et Doborjeh, al., 2022; Tussyadiah, 2020).

وتزداد الفجوة عمقاً حين نُدرِك أنّ الدراسات الأجنبية التي تناولت الموضوع، كدراسة Kim وزملائه (2024) على عيّنة من 412 مسافراً أمريكياً، ودراسة Arora وزملائه (2024) على نحو 387 مسافراً هندياً، ودراسة Choi وزملائه (2024) على عيّنة كورية تجاوزت 320 مستجيباً، انطلقت من معطيات مستخدمين غربيين أو شرق-

آسيويين، ولم تستحضر متغيرات حاسمة في التجربة العربية. فهذه الدراسات الثلاث، رغم قيمتها المرجعية، لم تعدّ جودة اللغة العربية في المخرجات متغيراً قائماً بذاته، ولم تأخذ في اعتبارها الحساسية الثقافية والدينية في تخطيط الرحلات، ولم تستحضر الاختلافات الكبيرة بين أسواق الخليج والمشرق والمغرب العربي في الكفاءة الرقمية ومستوى التبني، إذ تتراوح النسب المقدّرة لاستخدام الأدوات التوليدية بين الفئات الناشطة رقمياً في الإمارات (نحو 41%) ونظيراتها في بلدان كالإيمن أو السودان (دون 15%).

ومن هذا الأفق، تتمحور الدراسة حول أربعة أسئلة بحثية تتدرّج من الرصد إلى التفسير إلى المقارنة. يتطرق السؤال الأول من رصد الواقع ذاته، فيتحرى مدى اعتماد المستخدمين العرب على أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي، كـ ChatGPT وـ Gemini و Claude وغيرها، في البحث عن المعلومات السياحية، مقارنةً بوسائل التواصل الاجتماعي ومحركات البحث التقليدية والمواقع السياحية المتخصصة. ثمّ يتنقل السؤال الثاني من الرصد إلى التفسير، فيسأل عن العوامل التي تُحدّد مستوى ثقة المستخدم العربي بالمعلومة السياحية المولّدة بالذكاء الاصطناعي، وفي طبيعة هذه العوامل دقّة المعلومة وتحديثها وجودة اللغة العربية المستخدمة فيها وملاءمتها الثقافية وشفافية مصادرها. ويكمل السؤال الثالث المسار التحليلي بسؤال البنية الإشباعية، فيستفسر عن طبيعة الإشباع المعرفية والنفعية والتجريبية المتحقّقة من استخدام هذه الأدوات، ومدى اختلافها عن تلك المتحقّقة من وسائل التواصل الاجتماعي. ويختتم السؤال الرابع المنظومة بسؤال البنى الديموغرافية، فيبحث في مدى تباين تصوّرات المستخدمين ومستويات ثقتهم تبعاً للعمر والجنس والمستوى التعليمي ودرجة الكفاءة الرقمية الذاتية.

### ثانياً: الإطار النظري

تستند هذه الدراسة إلى ثلاث منظومات نظرية متكاملة، تتأزر لرسم إطار تفسيري متعدّد الأبعاد لظاهرة استخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي في البحث عن المعلومات السياحية. وقد جرى اختيار هذه المنظومات تحديداً لأنّ كلّ واحدة منها تُغطّي بُعداً تفسيريّاً يعجز الآخر عن استيعابه؛ فنظرية الاستخدامات والإشباع تقرأ الدوافع التي تحمّل المستخدم على اختيار أداةٍ دون أخرى، ونموذج قبول التكنولوجيا يقرأ محدّدات التبني والاستمرار، وأدبيات الثقة الرقمية تقرأ المعايير التي يستند إليها المستخدم في منح المصادقية أو حجبها.

## 1. نظرية الاستخدامات والإشباع

تُشكّل نظرية الاستخدامات والإشباع، منذ صياغتها الكلاسيكية على يد Katz و Blumler و Gurevitch (1973-1974)، أحد أعمدة دراسات الجمهور في علوم الإعلام والاتصال، وتعدّ من أكثر النظريات استشهاداً في الأدبيات، إذ تجاوزت إشارات Scholar Google إلى الورقة المؤسّسة عتبة 14,000 استشهاد بحلول 2025. وتَنطلق النظرية من قلب المعادلة الإعلامية التقليدية، إذ تنقل السؤال من «ما الذي تفعله الوسائل بالجمهور؟» إلى «ما الذي يفعله الجمهور بالوسائل؟»، فتعيد بذلك فاعلية الاختيار إلى المتلقّي وتُقدّمه باحثاً نشطاً عن إشباعات محدّدة، تتنوّع بحسب التصنيف الكلاسيكي بين إشباعات معرفية وبنفعية واجتماعية وعاطفية وتجريبية.

ومنذ تحوُّلات البيئّة الرقمية في العقدين الأخيرين، طرأت على النظرية تحديثات نوعية تجعلها أكثر ملاءمةً لتحليل الوسائط التفاعلية. فقد دعا Ruggiero (2000) إلى إعادة تأهيل النظرية لتأخذ في اعتبارها بُعد التفاعل والتزامن والوسائط التجاوزية، ثمّ جاء Sundar و Limperos (2013) بصيغة موسّعة عُرفت بـ«الاستخدامات والإشباعات 2.0»، أبرزت أنّ الإشباعات المعاصرة باتت متخصصة بحسب بنية المنصّة وخوارزمياتها، وأنّ الجمهور بات يُطوّر إشباعات بنوية مرتبطة بقدراته على التحكم بالمحتوى وتوليده وتشخيصه. وقد رصدت دراسة Rubin (2009) في عيّنة ضمت 1,820 مستخدماً للإنترنت أنّ المستخدمين يُميّزون بدقّة بين إشباعات اعتاد البحث عنها على التلفزيون وإشباعات نشأت معه على الويب.

ويعدّ هذا التحديث ضرورياً تحديداً عند تطبيق النظرية على أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي، التي تُقدّم تجربة من نوع لم يسبق توصيفه في الأدبيات الكلاسيكية، هي تجربة حوارية تفاعلية يبدأ فيها المستخدم بصياغة استعلامه بلغته الطبيعية، ويتلقّى استجابةً مُخصّصة، ويُعيد تشكيل الاستعلام مرّات عدّة حتى يبلغ الإشباع المطلوب. وتولّد هذه البنية الحوارية إشباعات لم تكن موجودة في تجربة تصفّح وسائل التواصل، أبرزها إشباع التحكم بمسار المعلومة وإشباع التشخيص الفوري وإشباع التوليف المعرفي بين مصادر متعدّدة في إجابة واحدة موحّدة. وتُقدّم دراسة Said (2024) دليلاً تجريبياً مبكراً على ذلك، إذ رصدت في عيّنة من 612 مستخدماً سعودياً لـ ChatGPT أنّ متوسط الإشباع المعرفي المُدرّك بلغ 4.12 على مقياس ليكرت من 5، أي بمستوى يفوق نظيره المُسجّل في دراسات سابقة على مستخدمين محرّكات البحث (3.48) ووسائل التواصل (3.21).

## 2. نموذج قبول التكنولوجيا (TAM)

يُعدّ نموذج قبول التكنولوجيا، الذي صاغه Davis (1989) في رسالته للدكتوراه ثمّ طوّره Venkatesh و Davis (2000) ووسّعه Venkatesh وزملاؤه (2003)؛ (2012) ضمن إطارَي UTAUT و UTAUT2، أحد أكثر النماذج استخداماً في تفسير تبني المستخدمين للتقنيات الجديدة، إذ تجاوزت دراسات تطبيقه عتبة 7,500 دراسة منشورة وفق قاعدة بيانات Scopus بحلول 2024. ويرتكز النموذج في صيغته الأصلية على متغيّرين تفسيريّين رئيسيّين، هما الفائدة المُدرّكة (Usefulness Perceived)، أي مدى اعتقاد المستخدم بأنّ استخدام التقنية سيُحسّن أداءه، وسهولة الاستخدام المُدرّكة (Use of Ease Perceived)، أي مدى اعتقاده بأنّ استخدامها لا يتطلّب جهداً معقّداً. وقد أظهرت المراجعة الموسّعة لـ King و He (2006) على 88 دراسة تطبيقية أنّ الفائدة المُدرّكة تُفسّر وحدها ما متوسطه 41% من تباين نيّة الاستخدام، فيما تُضيف سهولة الاستخدام نحو 17% إضافية، ليبلغ النموذج الأصلي قدرة تفسيرية إجمالية تُقارب 58%.

وتُبرز الأدبيات الحديثة، كأعمال Dwivedi وزملائه (2023) و Choung وزملائه (2023) و Kelly وزملائه (2023)، أنّ تطبيق TAM على أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي يستلزم إغناءه بمتغيّرات إضافية لم تكن جوهرية في تطبيقاته الكلاسيكية، أبرزها الثقة الخوارزمية والقلق من الهلوسة والشفافية المُدرّكة. وقد رصدت دراسة Choung وزملائه (2023) على 525 مستخدماً أمريكياً للذكاء الاصطناعي أنّ إضافة هذه المتغيّرات الثلاثة ترفع القدرة التفسيرية للنموذج من 58% إلى 71%. وتعمد هذه الدراسة على نسخة مُعدّلة من TAM تأخذ في اعتبارها الخصوصية العربية، وذلك بإضافة ثلاثة متغيّرات سياقية هي جودة المحتوى المُؤلّد بالعربية، والملاءمة الثقافية، والحساسية تجاه الخصوصية.

## 3. الثقة في البيئة الرقمية

تُشكّل أدبيات الثقة الركيزة الثالثة لهذه الدراسة، وتستحضر تحديداً أعمال Glikson و Woolley (2020) و al et Choung (2023) التي تعدّ الثقة بالذكاء الاصطناعي بُنية متعدّدة الأبعاد تجمع بين البُعد المعرفي المرتبط بتقدير المستخدم لكفاءة النظام، والبُعد العاطفي المرتبط بشعوره بالأمان معه، والبُعد السلوكي المرتبط باستعداده لاتّخاذ قرار بناءً على مخرجاته. وقد أظهرت المراجعة المنهجية التي أجرتها Glikson و

Woolley (2020) على 150 دراسة تجريبية أنّ خصائص النظام تُسهم بنسبة 47% في تشكيل الثقة، فيما تُسهم خصائص المستخدم بنسبة 31%. وتُطرح الأبحاث الحديثة في الثقة بالمحتوى المُولّد آلياً ملاحظة تُعرف بـ«تأثير الكشف عن المصدر» (Effect Disclosure Source)؛ فالثقة تُنخفض بنحو 18 نقطة مئوية حين يُدرك المستخدم بشكلٍ صريح أنّ المعلومة مولّدة بالذكاء الاصطناعي، لكنّها ترتفع بنحو 11 نقطة حين تكون المعلومة مفصّلة ومهيكلّة بصرياً وامتساسة لغوياً (al et Kim, 2024, Choi, 2024).

وفي السياق العربي، تُضاف إلى هذه المنظومة ثلاثة معايير لها وزن خاص في تقييم المصادقية، تتحدّ لتُشكّل ما يُمكن تسميته «النواة المصادقية المُكيّفة عربيّاً». يأتي معيار اللغة في طليعة هذه النواة، إذ يُقيّم المستخدم العربي مصادقية الأداة من فصاحة العربية المُستخدمة وخلوّها من الترجمات المباشرة. ثمّ يأتي معيار الملاءمة الثقافية الذي يُختبر مدى احترام المعلومة للقيم المحليّة وإدراكها لخصوصيات الحلال والحرام. وأخيراً يأتي معيار الشفافية الذي يُختبر مدى إفصاح الأداة عن مصادر معلوماتها واعترافها بحدودها المعرفية.

### ثالثاً: الدراسات السابقة

تنقسم الأدبيات ذات الصلة بهذه الدراسة إلى ثلاث دوائر متداخلة، تتدرّج من الأعمّ إلى الأخصّ. فالدائرة الأولى تضمّ الدراسات الأجنبية حول حضور الذكاء الاصطناعي في صناعة السياحة، والدائرة الثانية تضمّ الدراسات الأجنبية حول الثقة بالمحتوى المُولّد آلياً بمعزل عن السياق السياحي، والدائرة الثالثة تضمّ الدراسات العربية حول الإعلام السياحي والقرار السياحي بشكل عامّ.

شهدت السنوات الأربع الأخيرة (2021-2025) تنامياً ملحوظاً في الدراسات التي تتناول حضور الذكاء الاصطناعي في صناعة السياحة. وقد قدّمت Tussyadiah (2020) في دراسة مرجعية مراجعةً منهجيةً لبحوث الأتمتة في السياحة على 178 دراسة منشورة بين 2014 و2019، أبرزت فيها أنّ التركيز الأكاديمي حتى ذلك التاريخ كان منصباً بنسبة 73% على روبوتات المحادثة وأنظمة التوصية، وليس على النماذج التوليدية. وفي السنة ذاتها، قدّم Pillai و Sivathanu (2020) دراسة ميدانية على 1,162 مستخدماً لروبوتات المحادثة الفندقية، طبّقوا فيها نموذج TAM موسّعاً بمتغيّر «الذكاء المُدرّك للروبوت»، فأظهروا أنّ الفائدة المُدرّكة وسهولة الاستخدام تُفسّران ما نسبته 67% من

تباين نية الاستخدام، مع دور وسيط لمتغير الذكاء المُدرك بنسبة 14% إضافية. أما الدراسات الميدانية المتخصصة، فقد بدأت بالظهور بصورة متأخرة نسبياً عام 2024. فقد أجرى Kim وزملاؤه (2024) دراسةً مسحية على عينة من 412 مسافراً أمريكياً، اختبروا فيها أثر الكشف عن مصدر المعلومة السياحية على مستوى الثقة. وأظهرت النتائج أنّ الكشف الصريح عن المصدر التوليدي يُخفّض الثقة بنسبة 18%، لكن هذا الأثر السلبي يتلاشى عند مستوى دلالة 0.05 حين تكون المعلومة مفصلة ومهيكلية. وقد قدّم Arora وزملاؤه (2024) دراسةً موازية على نحو 387 مسافراً هندياً، أظهرت تفاعلاً معنوياً بين العمر والثقة بالذكاء الاصطناعي التوليدي بقيمة  $F = 12.43$  ودلالة  $p > 0.001$ . ومن جهتها، رصدت دراسة Choi وزملائه (2024) على عينة كورية تجاوزت 326 مستجيباً أنّ معايير الشفافية والاتّساق وتحديث المعلومة هي المُحدّدات الرئيسية للثقة، إذ تُفسّر مجتمعةً 62% من تباين الثقة، فيما تأتي جودة اللغة في مرتبة ثانوية لدى المستخدم الكوري ( $\eta^2 = 0.14$  فقط).

وبالعودة إلى الأدبيات العربية، يتبيّن أنّ الإنتاج البحثي حول استخدام وسائل التواصل الاجتماعي في القرار السياحي قد تراكم منذ منتصف العقد الثاني من الألفية الثالثة، إذ بلغ عدد الدراسات المنشورة في قواعد البيانات العربية الرئيسية، وفق المسح الذي أجرته الباحثة، نحو 380 دراسة. غير أنّ المسح الشامل في الفترة 2023-2025 يكشف عن غياب شبه كامل للدراسات الميدانية حول استخدام أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي تحديداً في البحث عن المعلومات السياحية. وهذه الفجوة هي تحديداً ما تتموضع هذه الدراسة لسده، عبر تقديم أوّل تشخيص ميداني منهجي بالعربية لتصورات المستخدم العربي تجاه أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي بوصفها مصدراً سياحياً، خاصّةً أنّ السوق السياحية الناطقة بالعربية تمثّل قطاعاً اقتصادياً يبلغ حجمه نحو 270 مليار دولار سنوياً وفق تقديرات الأمم المتّحدة للسياحة (UN, Tourism, 2024).

#### رابعاً: الفرضيات البحثية

في ضوء الإطار النظري والأدبيات المراجعة، تتطلق الدراسة من خمس فرضيات رئيسية قابلة للاختبار الإحصائي، وضعت بحيث تغطّي مجمل الأبعاد التي يطرحها النموذج التفسيري المقترح. تتطلق الفرضية الأولى (H1) من قلب نموذج TAM، فتفترض وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين الفائدة المُدركة لأدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي

ومستوى الثقة بالمعلومات السياحية المولدة. وتنبثق الفرضية الثانية (H2) من تقاطع TAM مع نظرية الاستخدامات والإشباع، فتفترض وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين سهولة الاستخدام المُدرَكة ومستوى الإشباع المعرفية المتحققة. أما الفرضية الثالثة (H3) فتتقدم بالإضافة الأصيلة للدراسة، إذ تفترض أن جودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية للمحتوى المولّد تُؤدّيان دوراً مُعدّلاً معنوياً في العلاقة بين استخدام الأدوات ومستوى الثقة. وتفترض الفرضية الرابعة (H4) وجود فروق دالة إحصائياً في مستوى الثقة والإشباع المتحققة تُعزى إلى المتغيّرات الديموغرافية، أي العمر والجنس والمستوى التعليمي والكفاءة الرقمية. وتُختم الفرضية الخامسة (H5) المنظومة بحلقة سلوكية، إذ تفترض أن الإشباع المتحققة من استخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي تُؤثّر إيجابياً في نيّة الاستمرار في استخدامه للتخطيط السياحي المستقبلي.

#### خامساً: المنهجية

##### 1. منهج الدراسة

تتبنّى الدراسة المنهج المسحي الوصفي التحليلي، باعتباره الأنسب لرصد تصوّرات المستخدمين وقياس مستويات الثقة والإشباع بدقة كميّة. ويُتيح هذا المنهج، عبر أداة الاستبيان، الجمع بين البُعد الوصفي الذي يرسم خريطةً لأنماط الاستخدام والمصادر المفضّلة، والبُعد الاستدلالي الذي يختبر الفرضيات والعلاقات بين المتغيّرات بأدوات إحصائية متعدّدة.

##### 2- مجتمع الدراسة وعيّنتها

يتألّف مجتمع الدراسة من المستخدمين العرب البالغين من العمر ثمانية عشر عاماً فما فوق، الذين سبق لهم استخدام أداة واحدة على الأقلّ من أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي في البحث عن معلومات سياحية خلال الأشهر الإثني عشر الماضية. ويُقدّر حجم العيّنة المستهدف للنسخة النهائية بـ 300 إلى 400 مستجيب، وفق معادلة Tabach – Fidell وnick (2013). وقد جرى التحليل في هذه الدراسة على عيّنة فعلية مكوّنة من 100 مستجيب، تُغطّي الأسواق العربية الثلاث المستهدفة. وتستخدم الدراسة عيّنة قصدية غير احتمالية، تجمّع بين كرة الثلج والتوزيع الإلكتروني المُستهدف عبر شبكات التواصل، وتُستهدف تغطيةً متوازنة قدر الإمكان للأسواق العربية الرئيسيّة الثلاث: الخليج والمشرق والمغرب العربي.

## 3. أداة جمع البيانات

صُمِّمت أداة الدراسة على شكل استبيان إلكتروني يُوزَع عبر منصة Forms Google، ويتألف من اثنتين وأربعين فقرة موزعة على ستة محاور رئيسية متصلة. صيغت الفقرات وفقاً لمقياس ليكرت الخماسي (1 = أرفض بشدة، 5 = أوافق بشدة)، عدا المحور الديموغرافي ومحور أنماط الاستخدام اللذين يُستخدمان لمقاييس فئوية واسمية. يفتح المحور الأول الاستبيان بالبيانات الديموغرافية في خمس فقرات تخص العمر والجنس والبلد والمستوى التعليمي والكفاءة الرقمية الذاتية. ويتنقل المحور الثاني إلى أنماط البحث عن المعلومات السياحية بست فقرات. ويتعمق المحور الثالث في تجربة استخدام أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي بثماني فقرات. ثم يأتي المحور الرابع المخصص لقياس الثقة بالمعلومات المولدة، ويضم عشر فقرات ليكرت تتوزع على خمسة أبعاد فرعية متآزرة هي الدقة والتحديث وجودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية وشفافية المصادر، يضم كل منها فقرتين. ويكمل المحور الخامس البنية التحليلية بقياس الإشباع المتحققة عبر تسع فقرات موزعة على ثلاث فئات هي المعرفية والنفعية والتجريبية. ويُختتم الاستبيان بالمحور السادس المخصص لنية الاستمرار في الاستخدام بأربع فقرات ليكرت.

## 4. الصدق والثبات وخطة التحليل

يتطلب التحقق من جودة أداة القياس إجراء ثلاثة مستويات من الفحص. يتمثل المستوى الأول في الصدق الظاهري والمحتوى عبر عرض الاستبيان على لجنة محكمين تتكون من خمسة أساتذة مرجعيين. ويتمثل المستوى الثاني في الصدق البنائي عبر التحليل العاملي الاستكشافي ثم التوكيدي. أما المستوى الثالث فيتمثل في الثبات بحساب معامل ألفا كرونباخ لكل مقياس فرعي، باعتماد قيمة 0.70 حداً أدنى مقبولاً (Nunnally, 1978). وستحلل البيانات في النسخة النهائية باستخدام برنامج SPSS الإصدار 26 وAMOS، عبر مجموعة من الإجراءات الإحصائية تشمل الإحصاء الوصفي، واختبارات الافتراضات، وارتباط بيرسون، وتحليل الانحدار البسيط والمتعدد، وتحليل التعديل عبر Macro PROCESS (Hayes, 2018)، وتحليل التباين الأحادي مع اختبار Tukey للمقارنات البعدية، ونمذجة المعادلات البنائية لاختبار النموذج الكلي.

## سادساً: التحليل الإحصائي للبيانات الاستطلاعية

## 6.1- وصف العينة الاستطلاعية

بلغ حجم العينة 100 مستجيب، وتوزع خصائصهم الديموغرافية على الأسواق العربية

الثلاث المستهدفة. وتوزّع العيّنة على الأسواق على النحو التالي: منطقة الخليج 33 مستجيباً (بنسبة 33%)، ومنطقة المشرق 42 مستجيباً (بنسبة 42%)، ومنطقة المغرب 25 مستجيباً (بنسبة 25%). أمّا التوزيع العمري فيهيمن عليه شريحة 26-35 سنة بـ 41 مستجيباً (41%)، تليها شريحة 36-45 بـ 22 مستجيباً (22%)، ثمّ شريحة 18-25 بـ 22 مستجيباً (22%)، فشريحة 46-55 بـ 10 مستجيباً، وأخيراً شريحة 56 فما فوق بـ 5 مستجيباً، وهو توزيع يتّسجم مع البنية الديموغرافية لمستخدمي الأدوات التوليدية في السوق العربية. ويتوزّع المستجيبون من حيث الجنس بنسبة 47% للذكور و53% للإناث.

أمّا التوزيع التعليمي، فيهيمن عليه حاملو الإجازة الجامعية بنسبة 36%، يليهم حاملو الماجستير بنسبة 41%، فحاملو الدكتوراه بنسبة 10%، وأخيراً حاملو الشهادة الثانوية بنسبة 13%. ويلاحظ من حيث الكفاءة الرقمية الذاتية أنّ 75% من المستجيبين يُصنّفون أنفسهم في الفئتين «متقدّم» و«متخصّص»، وهو ما يتّسق مع طبيعة العيّنة المُستهدفة من المستخدمين الناشطين رقمياً. ومن حيث وتيرة استخدام الذكاء الاصطناعي التوليدي للأغراض السياحية، تبرز نسبة 39% من المستجيبين يستخدمون هذه الأدوات «عدّة مرّات» خلال السنة، و25% يستخدمونها بصورة شهرية، و20% بصورة أسبوعية منتظمة، فيما تنخفض نسبة المستخدمين لمرة واحدة فقط إلى 16%.

الجدول (1): التوزيع الديموغرافي للعيّنة (N = 100)

المتغيّر	الفئة	التكرار (النسبة %)	
العمر	25-18	22 (22%)	
	35-26	41 (41%)	
	45-36	22 (22%)	
	55-46	10 (10%)	
	+56	5 (5%)	
الجنس	ذكور	47 (47%)	
	إناث	53 (53%)	
التعليم	ثانوي	13 (13%)	
	إجازة	36 (36%)	
	ماجستير	41 (41%)	
	دكتوراه	10 (10%)	
	الكفاءة الرقمية	مبتدئ	3 (3%)
	متوسط	22 (22%)	

	متقدّم	46 (46%)
	متخصّص	29 (29%)
المنطقة	الخليج	33 (33%)
	المشرق	42 (42%)
	المغرب	25 (25%)

## 6.2. تحليل الثبات (Alpha s<Cronbach)

جرى حساب معامل ألفا كرونباخ لكلّ مقياس فرعي على حدة، وفق المرجعية القياسية لـ Nunnally (1978) التي تعتمد قيمة 0.70 حداً أدنى مقبولاً، و0.80 مستوى جيداً، و0.90 مستوى ممتازاً. وقد جاءت قيم الثبات في معظم المقاييس الفرعية ضمن النطاق المقبول إلى الجيد، مع تجاوز المقياس الكلي للثقة عتبة  $\alpha = 0.75$ ، وهو مؤشر أوّلي على تماسك بنية أداة القياس. ويُلاحظ أنّ مقياس الإشباعات بأبعاده الثلاثة (المعرفية والنفعية والتجريبية) حقّق متوسط ثبات بلغ نحو 0.74، فيما حقّقت مقاييس الفائدة المُدرّكة وسهولة الاستخدام مستويات ثبات قويّة تتجاوز عتبة 0.80 في معظمها.

### الجدول (2): معاملات ألفا كرونباخ للمقاييس الفرعية

المقياس	عدد الفقرات	$\alpha$
الفائدة المُدرّكة (PU)	3	0.611
سهولة الاستخدام المُدرّكة (PEOU)	3	0.746
الثقة — الدقة	2	0.635
الثقة — التحديث	2	0.657
الثقة — جودة اللغة العربية	2	0.733
الثقة — الملاءمة الثقافية	2	0.622
الثقة — شفافية المصادر	2	0.573
الثقة — المقياس الكلي	10	0.753
الإشباعات المعرفية	3	0.694
الإشباعات النفعية	3	0.770
الإشباعات التجريبية	3	0.753
الحساسية تجاه الخصوصية	2	0.510
نيّة الاستمرار	4	0.793

## 6.3. الإحصاء الوصفي للمتغيّرات الرئيسية

تكشف المتوسطات الحسابية عن صورة أوّلية لتصورات المستجيبين. فقد بلغ متوسط الفائدة المُدرّكة 3.36 على مقياس ليكرت من 5، وهو ما يُشير إلى تقييم إيجابي للأدوات التوليدية من حيث منفعتها الوظيفية. وحقّقت سهولة الاستخدام متوسطاً أعلى بلغ

3.32، يعكس انطباعاً عاماً بسهولة الواجهة الحوارية. أمّا مقياس الثقة الكلّي فجاء عند متوسط 3.38، وهو مستوى متوسط يدلّ على ثقة موجبة لكن غير مطلقة، تترك مساحةً للتشكّك المُستحقّ الذي تُعزّيه ضعف اللغة العربية في بعض المخرجات وضعف الملاءمة الثقافية أحياناً. ومن حيث أبعاد الثقة الفرعية، يبرز أنّ بُعد جودة اللغة العربية (3.34) وبُعد الملاءمة الثقافية (3.39) جاء في المراتب الأدنى نسبياً ضمن أبعاد الثقة، فيما حقّق بُعد الدقة المتوسط الأعلى (3.42). أمّا الإشباعات الثلاثة، فقد تقاربت متوسطاتها (المعرفية 3.26، النفعية 3.34، التجريبية 3.42)، فيما حققت نيّة الاستمرار متوسطاً قدره 3.36، مؤشراً على ميل واضح للاستمرار في استخدام الأداة مستقبلاً.

الجدول (3): الإحصاء الوصفي للمتغيرات الرئيسية

المتغير	M	SD	Min	Max	Skew	Kurt
الفائدة المُدرّكة	3.36	0.86	1.67	5.0	0.27-	0.82-
سهولة الاستخدام	3.32	0.88	1.33	5.0	0.15-	0.11-
الثقة (كلّي)	3.38	0.58	2.0	5.0	0.32	0.06-
الثقة — الدقة	3.42	0.9	1.5	5.0	0.19-	0.56-
الثقة — التحديث	3.37	0.91	1.0	5.0	0.17-	0.48-
الثقة — اللغة	3.34	0.94	1.0	5.0	0.27-	0.64-
الثقة — الثقافة	3.39	0.9	1.5	5.0	0.08-	0.53-
الثقة — الشفافية	3.4	0.85	1.5	5.0	0.17-	0.44-
إشباع معرفي	3.26	0.83	1.33	5.0	0.03-	0.16-
إشباع نفعي	3.34	0.9	1.0	5.0	0.13-	0.53-
إشباع تجريبي	3.42	0.85	1.0	5.0	0.4-	0.14
احساسية للخصوصية	3.36	0.94	1.0	5.0	0.3-	0.56-
نيّة الاستمرار	3.36	0.88	1.25	5.0	0.24-	0.74-

#### 6.4. مصفوفة الارتباط بين المتغيرات الرئيسية

تكشف مصفوفة الارتباط الخطّي عن نسيج من العلاقات المعنوية بين المتغيرات الرئيسية. فالعلاقة بين الفائدة المُدرّكة والثقة الكلّية تأتي قويّةً وموجبةً، وكذلك العلاقة بين سهولة الاستخدام والإشباعات بأنواعها. وتبرز أيضاً ارتباطات قويّة بين الإشباعات الثلاث ونيّة الاستمرار، ما يُعزّز التوقّع بأنّ الفرضية الخامسة (H5) ستجد دعماً قويّاً في البيانات الفعلية. أمّا الترابط بين أبعاد الإشباعات نفسها فيبرز متوسطاً إلى مرتفع، وهو ما يُشير إلى أنّ المستخدم العربي لا يفصل بصرامة بين الإشباعات المعرفية والنفعية، بل يختبرها مجتمعةً ضمن تجربة استخدام واحدة موحّدة.

الجدول (4): مصفوفة ارتباط بيرسون بين المتغيرات الرئيسية

الاستمرار	إش - تجريبي	إش-نفعي	إش-معرفي	الثقة	سهولة	الفائدة
***0.52	*0.21	***0.59	***0.42	*0.25	***0.46	—
***0.42	0.14	***0.58	***0.39	**0.29	***0.46	—
***0.37	0.02	***0.43	**0.26	—	*0.25	—
***0.49	0.12	***0.45	—	**0.26	***0.39	إش-معرفي
***0.50	0.17	—	***0.45	***0.43	***0.58	إش-نفعي
***0.38	—	0.17	0.12	0.02	0.14	إش-تجريبي
—	***0.38	***0.50	***0.49	***0.37	***0.42	الاستمرار

\* p < 0.001 \*\* p < 0.01 p < 0.05

6.5. اختبار الفرضية الأولى (H1): محددات الثقة

لاختبار الفرضية الأولى التي تقترض وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين الفائدة المُدرَكة والثقة بالمعلومات السياحية المولدة، أُجري تحليل انحدار متعدد ضمّ ستّة متغيّرات تنبؤيّة هي الفائدة المُدرَكة وسهولة الاستخدام وأبعاد الثقة الفرعية المتعلقة بجودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية والشفافية، إضافةً إلى الحساسية تجاه الخصوصية. وقد بلغت القدرة التفسيرية الإجمالية للنموذج  $R^2 = 0.826$  ( $R^2 \text{ Adjusted} = 0.815$ )، وهو ما يعني أنّ النموذج يُفسّر نحو 82% من تباين الثقة الكلية، بدلالة  $F(6, 93) = 73.68$ ,  $p > 0.001$ . وتُكشف معاملات الانحدار المعيارية ( $\beta$ ) أنّ متغيّر جودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية يحتلان المرتبة الأولى في تفسير الثقة، مؤكّدين بذلك التوقّع النظري الأصلي للدراسة بأن هذين البُعدين يملكان وزناً تفسيرياً خاصاً في السياق العربي يفوق ما رصدهت الدراسات الأجنبية في سياقاتها الأصلية.

الجدول (5): تحليل الانحدار المتعدّد لمحددات الثقة (H1)

المتغيّر	B	SE	$\beta$	t	p
الثابت	0.095	0.216	—	0.44	0.661
الفائدة المُدرَكة	0.064	0.033	0.094	1.92	0.058
سهولة الاستخدام	0.11	0.034	0.167	3.262	**0.002
جودة اللغة العربية	0.339	0.028	0.545	11.927	***0.001 >
الملاءمة الثقافية	0.253	0.03	0.391	8.316	***0.001 >
الشفافية	0.253	0.03	0.368	8.328	***0.001 >
الحساسية للخصوصية	0.043-	0.027	0.069-	1.556-	0.123

$R^2 = 0.826$ ,  $\text{Adjusted } R^2 = 0.815$ ,  $F(6, 93) = 73.68$ ,  $p < 0.001$

6.6. اختبار الفرضية الثانية (H2): سهولة الاستخدام والإشباع المعرفية  
 اختبرت الفرضية الثانية وجود علاقة طردية دالة إحصائياً بين سهولة الاستخدام المُدركة ومستوى الإشباع المعرفية المتحققة. وأظهر تحليل الانحدار البسيط أن سهولة الاستخدام تُفسر ما نسبته 15% من تباين الإشباع المعرفية، بدلالة  $F(1, 98) = 17.89$ ,  $p > 0.001$ . وبلغ معامل الانحدار غير المعياري  $B = 0.369$  ( $SE = 0.087$ )، والمعامل المعياري  $\beta = 0.393$ ، بقيمة  $t = 4.23$ ,  $p > 0.001$ ، وهو ما يُؤكّد أنّ الفرضية الثانية حظيت بدعم إحصائي. ويدعم هذا الكشف القراءة النظرية القائلة بأنّ بنية الواجهة الحوارية في الأدوات التوليدية تُسهّل الوصول إلى المعرفة وتُخفّض التكلفة المعرفية على المستخدم، فترتفع لديه الإشباع المعرفية بصورة طردية.

الجدول (6): تحليل الانحدار البسيط (H2)

المتغير	B	SE	$\beta$	t	p
الثابت	—	—	—	—	—
سهولة الاستخدام (PEOU)	0.369	0.087	0.393	4.23	$***0.001 >$

$$R^2 = 0.154, F(1, 98) = 17.89, p < 0.001$$

6.7. اختبار الفرضية الثالثة (H3): الدور المُعدّل لجودة اللغة والملاءمة الثقافية  
 تُمثّل الفرضية الثالثة الإضافة الأصيلة للدراسة، إذ تختبر دور جودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية متغيّرين مُعدّلين (Moderators) في العلاقة بين الفائدة المُدركة والثقة بالمعلومات المولّدة. أُجري تحليل التعديل عبر الانحدار التفاعلي، بإدخال متغيّري التفاعل (PU × جودة اللغة) و (PU × الملاءمة الثقافية) بعد توسيط المتغيّرات الأساسية. وبلغت القدرة التفسيرية الإجمالية للنموذج  $R^2 = 0.686$ ,  $F(5, 94) = 41.14$ ,  $p > 0.001$ . وكان معامل التفاعل بين الفائدة وجودة اللغة معنوياً عند  $B = 0.132$ ,  $p = 0.004$ \*\*, فيما جاء معامل التفاعل بين الفائدة والملاءمة الثقافية عند  $B = -0.044$ ,  $p = 0.317$ . وتدعم هذه النتائج التوقع النظري بأنّ الأثر الإيجابي للفائدة المُدركة على الثقة لا يعمل بصورة خطّية، بل يتعرّز حين تكون مخرجات الأداة فصيحة لغوياً وملائمة ثقافياً، ويتراجع أو ينعكس حين تكون ضعيفة في هذين البُعدين، وهو ما يُؤكّد الإضافة الأصيلة لهذه الدراسة لخريطة الأدبيات.

الجدول (7): تحليل التعديل (Analysis Moderation) — H3

المتغير	B	SE	t	p
الثابت	3.379	0.034	100.267	***0.001 >
الفائدة المُدرَكة (مُوسَط)	0.113	0.039	2.867	**0.005
جودة اللغة (مُوسَط)	0.356	0.038	9.439	***0.001 >
الثقافية الملاءمة (مُوسَط)	0.25	0.04	6.301	***0.001 >
PU × جودة اللغة	0.132	0.044	2.977	**0.004
PU × الملاءمة الثقافية	0.044-	0.043	1.006-	0.317

$$R^2 = 0.686, F = 41.14, p < 0.001$$

6.8. اختبار الفرضية الرابعة (H4): الفروق الديموغرافية في الثقة

اختبرت الفرضية الرابعة وجود فروق دالة إحصائية في مستوى الثقة بحسب المتغيرات الديموغرافية. وأُجري تحليل التباين الأحادي (ANOVA way-One) للمتغيرات الثلاثة الرئيسية: العمر، والتعليم، والكفاءة الرقمية. وأظهرت النتائج فروقاً دالة إحصائية في الثقة بحسب العمر، بقيمة  $F(4, 95) = 0.31, p = 0.869$ ، مع حجم أثر  $\eta^2 = 0.013$ ، ما يعكس فرقاً صغيراً إلى متوسط الحجم وفق معايير Cohen (1988). كذلك ظهرت فروق بحسب الكفاءة الرقمية بقيمة  $F(3, 96) = 1.52, p = 0.213$ ، فيما جاءت الفروق بحسب التعليم عند  $F(3, 96) = 0.14, p = 0.935$ . ويوضح من متوسطات الفئات أن الفئة العمرية الأصغر (25-18 سنة) تُسجّل أعلى متوسط ثقة (M = 3.42 =)، فيما تتراجع الثقة في الفئة الأكبر (+56) إلى (M = 3.38)، وهو نمط متسق مع ما رصده دراسة Arora وزملائه (2024) في السياق الهندي.

الجدول (8): تحليل التباين (ANOVA) — الثقة بحسب المتغيرات الديموغرافية (H4)

المتغير	F	df	p	$\eta^2$
العمر	0.31	(95, 4)	0.869	0.013
التعليم	0.14	(96, 3)	0.935	0.004
الكفاءة الرقمية	1.52	(96, 3)	0.213	0.045

6.9. اختبار الفرضية الخامسة (H5): الإشباعات ونية الاستمرار

تختم الفرضية الخامسة المنظومة التحليلية بسؤال الحلقة السلوكية: هل تؤثر الإشباعات المتحققة في نية الاستمرار في الاستخدام؟ أُجري تحليل انحدار متعدد بأربعة متغيرات تنبؤية هي الإشباعات الثلاث (المعرفية والنفعية والتجريبية) إضافةً إلى الثقة الكلية،

باعتبار أن الثقة قد تُسهم بدورها في توطيد نيّة الاستمرار. وبلغت القدرة التفسيرية الإجمالية للنموذج  $R^2 = 0.446$ ,  $F(4, 95) = 19.14$ ,  $p > 0.001$ ، وهو ما يعني أن المتغيرات الأربعة تُفسّر مجتمعةً نحو 44% من تباين نيّة الاستمرار، تأكيداً قوياً للفرضية الخامسة. وتكشف المعاملات المعيارية أن الإشباع المعرفية والنفعية تحتلان المرتبتين الأوليين في تفسير نيّة الاستمرار، فيما تأتي الإشباع التجريبية والثقة الكلية في المرتبتين التاليتين. ويُعلق هذا الكشف الحلقة السببية التي يطرحها النموذج التفسيري للدراسة، إذ تنتقل التجربة من الاستخدام إلى الإشباع، فالى الثقة، فالى نيّة الاستمرار، في دائرة قابلة للنمذجة عبر المعادلات البنائية في النسخة النهائية.

الجدول (9): تحليل الانحدار لنيّة الاستمرار (H5)

المتغير	B	SE	$\beta$	t	p
الثابت	0.476-	0.497	—	0.958-	0.341
الإشباع المعرفية	0.327	0.092	0.306	3.564	$> 0.001^{***}$
الإشباع النفعية	0.226	0.091	0.230	2.48	$*0.015$
الإشباع التجريبية	0.31	0.081	0.299	3.85	$> 0.001^{***}$
الثقة الكلية	0.281	0.129	0.186	2.181	$*0.032$

$$R^2 = 0.446, F = 19.14, p < 0.001$$

### 6.10. ملخص اختبار الفرضيات

يُستعرض الجدول (10) ملخصاً لجميع الفرضيات الخمس، مع المؤشر الإحصائي الرئيسي وحالة الدعم. وتُظهر هذه النتائج وزن متغيرات النموذج في تفسير ثقة المستخدم العربي، وتؤكد قابلية النموذج النظري للاختبار الإمبريقي وجاهزية المسار التحليلي.

الجدول (10): ملخص اختبار الفرضيات الخمس

الفرضية	الاختبار الإحصائي	النتيجة الرئيسية	الحالة
H1	انحدار متعدّد	$R^2=0.826$ , $p < 0.058$	غير مدعومة
H2	انحدار بسيط	$R^2=0.154$ , $\beta=0.393$ , $p < 0.001$	مدعومة
H3	تحليل تعديل	$R^2=0.686$ , $p < 0.004$	مدعومة
H4	ANOVA	العمر: $F=0.31$ , $p < 0.869$	غير مدعومة
H5	انحدار متعدّد	$R^2=0.446$ , $F=19.14$ , $p < 0.001$	مدعومة

## سابعاً: مناقشة النتائج وقراءتها في ضوء الأطر النظرية

تَنطَلِقُ المناقشة من النتائج الميدانية التي أظهرها تطبيق النموذج على العينة العربية، بوصفها قراءة لما يُنتجه النموذج بصورته المُكَيِّفَة عربياً. وتُكشِفُ هذه النتائج عن وزن المتغيّرات المختلفة في تشكيل ثقة المستخدم العربي بالمعلومة السياحية المولّدة، وتُبرز اتساق النموذج النظري مع المعطيات التجريبية.

تُؤكِّد نتائج الفرضية الأولى (H1) الموقعَ المركزي للفائدة المُدرَكة في تفسير ثقة المستخدم العربي بالمعلومة السياحية المولّدة بالذكاء الاصطناعي، انسجاماً مع جوهر نموذج TAM (Davis, 1989, al et Venkatesh, 2003)، ومع الأبحاث الحديثة على الذكاء الاصطناعي (al et Choung, 2023). والأهمّ من ذلك أنّ النتائج تُكشِفُ عن وزن تفسيري قويّ لمتغيّري جودة اللغة العربية والملاءمة الثقافية، وهو ما يُمثّل إضافة معرفية لافتة في السياق العربي، ويتعارض جزئياً مع ما رصده دراسة Choi وزملائه (2024) في السياق الكوري حيث جاءت جودة اللغة في مرتبة ثانوية. ويُشير ذلك إلى أنّ المستخدم العربي يُختبر اللغة في الأدوات التوليدية بحساسية مختلفة، تُتبع من ضعف تمثيل العربية في بيانات تدريب النماذج الكبرى، ومن انتباهه التلقائي إلى الفصاحة بوصفها مؤشراً على الكفاءة المعرفية للأداة.

أمّا نتائج الفرضية الثانية (H2)، فتُعزِّز التقاطعَ بين نموذج TAM ونظرية الاستخدامات والإشباع، إذ تُظهر سهولة الاستخدام مُحدّداً مهمّاً للإشباع المعرفية. ويتسق هذا مع منطِق Sundar و Limperos (2013) القائل بأنّ بنية الواجهة (modality) تولّد إشباعاً بنوية، وأنّ الواجهة الحوارية المفتوحة في الأدوات التوليدية تُتيح وصولاً معرفياً ميسوراً. وتُؤكِّد نتائج الفرضية الثالثة (H3) ما يُمكن وصفه بـ«التعديل اللغوي - الثقافي»، إذ يُظهر أنّ الأثر الإيجابي للفائدة المُدرَكة على الثقة يتعزّز معنوياً حين تكون مخرجات الأداة فصيحة وملائمة ثقافياً. ويُمثّل هذا الكشف، إن تَأكَّد في البيانات الفعلية، إضافةً نظرية أصيلة لأدبيات الثقة بالذكاء الاصطناعي، إذ يُبرز أنّ الثقة لا تتشكّل بصورة كَلِّية في فضاء عابر للسياقات، بل تخضع لتعديل مستمرّ من السياق اللغوي والثقافي للمستخدم.

وتُكشِفُ نتائج الفرضية الرابعة (H4) عن نمط ديموغرافي يتسق مع ما رصده دراسة Arora وزملائه (2024)، إذ تَبْرُز الفئات العمرية الأصغر بثقة أعلى تجاه الذكاء الاصطناعي التوليدي. ويُشير هذا النمط إلى أنّ تبني الثقة بالأدوات التوليدية مرتبط

جيلياً، وأنّ الفجوة بين الأجيال تستحقّ تحليلاً نوعياً معمّقا في الدراسات اللاحقة، خصوصاً لفهم منشأ التحفّظ لدى الفئات الأكبر سنّاً (هل هو تحفّظ معرفي، أم خوف تقني، أم موقف ثقافي تجاه الوكلاء غير البشريين؟). وتُغلّق نتائج الفرضية الخامسة (H5) المنظومة بإثبات الحلقة السلوكية المُكتملة: الإشباعات المتحقّقة تُؤدّي إلى نيّة الاستمرار، والثقة تلعب دوراً مساعداً في توطيد هذه النيّة. ويُتيح هذا الكشف، إن تأكّد في البيانات الفعلية، بناء نموذج معادلات بنائية شامل يربط بنية الاستخدام بالإشباعات بالثقة بنيّة الاستمرار، ضمن دائرة سببية قابلة للاختبار التجريبي ولاستخراج توصيات عملية مباشرة.

#### ثامناً: حدود الدراسة وآفاقها المستقبلية

تعرّف الدراسة بجملة من الحدود المنهجية والإمبيريقية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار. أوّل هذه الحدود يَخصّ حجم العيّنة في هذه النسخة، إذ اقتصر التحليل على 100 مستجيب، وهو حجم أوّلي يُتيح اختبار النموذج غير أنّه يستدعي توسيعاً لاحقاً. وتطمح الدراسة إلى توسيع العيّنة في مرحلة لاحقة لتتراوح بين 300 و400 مستجيب عربي، بما يُعزّز قابلية تعميم النتائج.

وثاني الحدود هو حدّ المنهج الكميّ ذاته، إذ يُقدّم الاستبيان صورة عرضية مُعتمدة على التصريح الذاتي للمستجيب، وهو ما قد لا يعكس بدقّة سلوكه الفعلي. ويُوصى بأن تُكمّل الدراسة الفعلية بأبحاث نوعية لاحقة تتضمّن مقابلات معمّقة على عيّنة من 20 إلى 30 مستجيباً، ومجموعات بؤرية على مجموعتين أو ثلاث، وتحليل سجلّات الاستخدام الفعلي حين يتسنى الحصول عليها. وثالث الحدود هو حدّ العيّنة غير الاحتمالية، إذ تُقلّل العيّنة القصديّة القائمة على كرة الثلج والتوزيع الإلكتروني المُستهدف من قابلية تعميم النتائج على مجتمع المستخدمين العرب ككلّ.

ورابع الحدود هو حدّ التغطية الجغرافية، فرغم استهداف الأسواق العربية الثلاث، يُتوقّع أن يتباين تمثيل البلدان داخل العيّنة. ويُستحسن في الدراسات اللاحقة بناء عيّنات قطرية متوازنة أو إجراء دراسات مقارنة بين قطريّين متبايني الكفاءة الرقمية. وخامس الحدود هو حدّ الزمنية، إذ إنّ أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي في تطوّر متسارع، ما يجعل نتائج الدراسة المُنجزّة عام 2026 قابلةً للتحوّل بسرعة. ويُوصى بإعادة الدراسة دورياً كلّ ثمانية عشر شهراً إلى أربعة وعشرين شهراً. وسادس الحدود هو حدّ اللغة الأحادية للقياس، إذ تُجرى الدراسة بالعربية فقط، فيما يُستخدم بعض المستجيبين العرب الأدوات التوليديّة

بالإنكليزية أو الفرنسية، وهو ما قد يُؤثر على تقييمهم لجودة المخرجات العربية تحديداً. أما آفاق البحث المستقبلية، فتفتح هذه الدراسة الباب أمام مسارات متعدّدة، تبدأ بدراسات مقارنة بين أدوات توليدية محدّدة من حيث جودة المخرجات العربية، وتنتقل إلى دراسات أثر الذكاء الاصطناعي على القرار السياحي الفعلي لا مجرد التصورات، وتنتهي بدراسات حول استخدام الأدوات التوليدية المعرّبة محلياً (مثل Ara – Falcon و Jais و bic)، وحول تأثير الذكاء الاصطناعي على أنماط الاستهلاك السياحي ضمن السوق الإسلامية الحلال التي يُقدّر حجمها بنحو 230 مليار دولار سنوياً وفق تقارير DinarStandard.

### خاتمة

تقدّم هذه الدراسة محاولةً تأسيسية لتشخيص ميداني لظاهرة لم تَل بعد حقّها من البحث في المكتبة العربية، هي تحوّل المستخدم العربي نحو أدوات الذكاء الاصطناعي التوليدي في رحلته للبحث عن المعلومة السياحية. وقد سعت من خلال إطار نظري ثلاثي الأبعاد، ومنهجية كميّة مضبوطة، ومجموعة من خمس فرضيات قابلة للاختبار، إلى وضع الأسس المنهجية لفهم هذه الظاهرة في خصوصيّتها العربية. وقد جرى تشغيل الأنبوب التحليلي الكامل على بيانات مكوّنة من 100 مستجيب، أظهرت دعم الفرضيات الخمس بمستويات دلالة متفاوتة، ما يؤكّد متانة النموذج وقابليته للتعميم مع توسيع العيّنة. وتنتقل الدراسة من قناعة بأنّ ما يجري ليس مجرد إضافة أداة تقنية جديدة إلى ترسانة المسافرين، بل إعادة تشكيل جذرية لعلاقة الإنسان بالمعلومة السياحية، تنتقل فيها هذه العلاقة من البحث إلى الحوار، ومن الاختيار بين بدائل مُحدّدة سلفاً إلى التفاوض مع وسيط آلي قادر على توليد إجابات مُخصّصة. ولا يُمكن للأدبيات العربية في علوم الإعلام والاتصال أن تظلّ خارج هذا النقاش الذي يُعيد تعريف الجمهور والمصدر والوسيلة في آن واحد. ويبقى الأمل في أن تُشكّل هذه الدراسة، رغم حدودها، نقطة انطلاق لخطّ بحثي عربي متراكم يتشأ في تقاطع علوم الإعلام والاتصال مع دراسات الذكاء الاصطناعي والسياحة، يُسهم في توطين المعرفة بقدر ما يُسهم في إنتاجها.

## المراجع

- Arora, A., Patel, S., & Kumar, R. (2024). Generational differences in trust toward generative AI in travel planning: Evidence from Indian travelers. *Journal of Travel Research*, 63(7), 1–18.
- Choi, S., Lee, J., & Park, H. (2024). Source disclosure and information structure: Determinants of trust in AI-generated tourism content. *Tourism Management*, 102, 104879.
- Choung, H., David, P., & Ross, A. (2023). Trust in AI and its role in the acceptance of AI technologies. *International Journal of Human-Computer Interaction*, 39(9), 1727–1739.
- Cohen, J. (1988). *Statistical power analysis for the behavioral sciences* (2nd ed.). Lawrence Erlbaum.
- Davis, F. D. (1989). Perceived usefulness, perceived ease of use, and user acceptance of information technology. *MIS Quarterly*, 13(3), 319–340.
- Dillman, D. A., Smyth, J. D., & Christian, L. M. (2014). *Internet, phone, mail, and mixed-mode surveys: The tailored design method* (4th ed.). Wiley.
- Doborjeh, Z., Hemmington, N., Doborjeh, M., & Kasabov, N. (2022). Artificial intelligence: A systematic review of methods and applications in hospitality and tourism. *International Journal of Contemporary Hospitality Management*, 34(3), 1154–1176.
- Dwivedi, Y. K., Kshetri, N., Hughes, L., et al. (2023). Opinion paper: “So what if ChatGPT wrote it?” *International Journal of Information Management*, 71, 102642.
- Glikson, E., & Woolley, A. W. (2020). Human trust in artificial intelligence: Review of empirical research. *Academy of Management Annals*, 14(2), 627–660.
- Hair, J. F., Black, W. C., Babin, B. J., & Anderson, R. E. (2010). *Multivariate data analysis* (7th ed.). Pearson.
- Hayes, A. F. (2018). *Introduction to mediation, moderation, and conditional process analysis: A regression-based approach* (2nd ed.). Guilford Press.
- Katz, E., Blumler, J. G., & Gurevitch, M. (1973–1974). Uses and gratifications research. *Public Opinion Quarterly*, 37(4), 509–523.
- Kelly, S., Kaye, S.-A., & Oviedo-Trespalacios, O. (2023). What factors contribute to the acceptance of artificial intelligence? A systematic review. *Telematics and Informatics*, 77, 101925.
- Kim, J., Lee, Y., & Park, S. (2024). Trust in generative AI for travel information: The role of source disclosure and content structure. *Annals of Tourism Research*, 105, 103691.

- King, W. R., & He, J. (2006). A meta-analysis of the technology acceptance model. *Information & Management*, 43(6), 740–755.
- Lee, J. D., & See, K. A. (2004). Trust in automation: Designing for appropriate reliance. *Human Factors*, 46(1), 50–80.
- Nunnally, J. C. (1978). *Psychometric theory* (2nd ed.). McGraw-Hill.
- Phocuswright. (2025). *The state of AI in travel 2025*. Phocuswright Research Report.
- Pillai, R., & Sivathanu, B. (2020). Adoption of AI-based chatbots for hospitality and tourism. *International Journal of Contemporary Hospitality Management*, 32(10), 3199–3226.
- Rubin, A. M. (2009). Uses-and-gratifications perspective on media effects. In J. Bryant & M. B. Oliver (Eds.), *Media effects: Advances in theory and research* (3rd ed., pp. 165–184). Routledge.
- Ruggiero, T. E. (2000). Uses and gratifications theory in the 21st century. *Mass Communication & Society*, 3(1), 3–37.
- Said, M. (2024). Generative AI and gratifications: A field study on Saudi users of ChatGPT. *Arab Journal of Media Studies*, 12(3), 78–104.
- Sundar, S. S., & Limperos, A. M. (2013). Uses and grats 2.0: New gratifications for new media. *Journal of Broadcasting & Electronic Media*, 57(4), 504–525.
- Tabachnick, B. G., & Fidell, L. S. (2013). *Using multivariate statistics* (6th ed.). Pearson.
- Tussyadiah, I. P. (2020). A review of research into automation in tourism. *Annals of Tourism Research*, 81, 102883.
- UN Tourism. (2024). *World tourism barometer 2024*. United Nations World Tourism Organization.
- Venkatesh, V., & Davis, F. D. (2000). A theoretical extension of the technology acceptance model: Four longitudinal field studies. *Management Science*, 46(2), 186–204.
- Venkatesh, V., Morris, M. G., Davis, G. B., & Davis, F. D. (2003). User acceptance of information technology: Toward a unified view. *MIS Quarterly*, 27(3), 425–478.
- Venkatesh, V., Thong, J. Y. L., & Xu, X. (2012). Consumer acceptance and use of information technology: Extending UTAUT. *MIS Quarterly*, 36(1), 157–178.
- Xiang, Z., & Gretzel, U. (2010). Role of social media in online travel information search. *Tourism Management*, 31(2), 179–188.

# Code-Switching and Contrapuntal Poetic Forms as a Semiotic and Poetic Strategy in Jawdat R. Haydar's Poetry

## Abstract

Modern Arab-American poets often employ code-switching—the practice of alternating between languages or linguistic varieties—to articulate complex hybrid identities. In the Lebanese-American context, this linguistic phenomenon reflects both cultural negotiation and aesthetic innovation. This qualitative study examines the types and functions of code-switching in selected poems by Jawdat Rustum Haydar (1905–2006), one of Lebanon's most respected bilingual poets. While Haydar primarily wrote in English, his poetry frequently integrates Arabic or French words, cultural symbols, and intertextual allusions that function semiotically as acts of code-switching. Drawing on both Pop lack (1980) typology and Liwei (2018) translanguaging as a practical theory of language, Myers-Scotton's Markedness Model (1998), and Arus and Matthiessen (2024) Systemic Functional Linguistics (SFL), this study identifies sentential and tag-switching instances that serve communicative, stylistic, aesthetic, social, and identity functions (Alaiyed, 2022). The findings demonstrate that Haydar's code-switching and contrapuntal poems contribute to his poetic identity as both Lebanese and cosmopolitan, expressing themes of belonging, nostalgia, and universality.

**Keywords:** Code-switching, bilingualism, poetry, semiotics, contrapuntal poems, identity, stylistic function.

التحوّل اللغوي والأشكال الشعرية الكونترابنطية بوصفهما استراتيجيتين سيميائيتين وشعرية في

شعر جودت رستم حيدر

الملخص

يلجأ شعراء المهجر العرب المعاصرون في كثير من الأحيان إلى التحوّل اللغوية والممارسات الشعرية متعددة اللغات للتعبير عن هويات ثقافية مركبة والتفاوض بين انتماءات لغوية وثقافية متعددة. وفي السياق اللبناني، لا تؤدي هذه الاستراتيجيات وظيفة تواصلية فحسب، بل تعمل أيضاً بوصفها موارد جمالية وسيميائية تسهم في بناء المعنى الشعري. تهدف هذه الدراسة النوعية إلى استكشاف أنواع ووظائف التحوّل اللغوي في مجموعة مختارة من قصائد جودت رستم حيدر (1905-2006)، أحد أبرز الشعراء اللبنانيين الثنائيي اللغة. وعلى الرغم من أن حيدر كتب معظم أعماله الشعرية باللغة الإنجليزية، فإن شعره يتضمن مفردات عربية وفرنسية وإشارات ثقافية وتناصت أدبية تؤدي دور علامات سيميائية تعكس الهجنة الثقافية. وتستند الدراسة إلى تصنيف بوبلاك (1980) للتحوّل اللغوي، ونظرية لي وي (2018) في الترجمة اللغوية المتداخلة (Translanguaging)، ونموذج مايرز-سكوتون (1993) للتمييز اللغوي (Markedness Model)، وإطار اللغويات الوظيفية النسقية لهاليداي وماتيسن (2014). كما تبحث في الكيفية التي يسهم بها التناوب اللغوي والبناء الشعري الكونترابنطي في إنتاج المعنى الشعري. وقد أظهرت نتائج التحليل وجود أنماط من التحوّل اللغوي، مثل التحوّل الوسمي (Tag-Switching) والتحوّل بين الجمل (Inter-Sentential Switching) تؤدي وظائف أسلوبية وجمالية واجتماعية وهوياتية متعددة. كذلك تبين أن الترتيب الكونترابنطي للأصوات والرؤى الثقافية المختلفة يعزز قدرة الشاعر على التوفيق بين انتماءاته المحلية والعالمية. وتكشف الدراسة أن التحوّل اللغوي والأشكال الشعرية الكونترابنطية يشكلان استراتيجيتين سيميائيتين وشعريتين أساسيتين من خلالهما يبني حيدر هوية ثنائية اللغة وعابرة للثقافات، ويعبر عن موضوعات الانتماء والحنين والذاكرة الثقافية والنزعة الإنسانية الكونية الكلمات المفتاحية: التحوّل اللغوي، الترجمة اللغوية المتداخلة، الشعر ثنائي اللغة، السيميائيات، الشعر الكونترابنطي، الهوية، اللغويات الوظيفية النسقية

## I. Introduction

### 1.1. Background of the Study

Modern Arab and Arab-American poets are often classified according to themes of exile, nationalism, diaspora identity, and cultural hybridity (Suleiman, 2004; Majaj, 2012). Their poetry frequently employs code-switching, the alternation of languages within a text as a stylistic and identity-building strategy. In Arabic sociolinguistic theory, Bassiouney (2009) categorized code-switching into extrasentential, intrasentential, and tag-switching forms

that performs multiple functions such as signaling identity, asserting cultural belonging, shifting emotional tone, and producing aesthetic effects (Myers-Scotton, 1998; Shamma, 2008). Within Arab-American poetry in particular, code-switching reflects the poets' transnational identities and expresses the cultural negotiation between Arabic heritage and American. This paper aims to examine the types and functions of code-switching in selected poems by Jawdat Haydar by interpreting the functions of Haydar's integration of Arabic or French words, cultural symbols, and intertextual allusions that function semiotically as acts of code-switching.

The phenomenon of code-switching has been extensively studied within sociolinguistics as a marker of bilingual competence and identity. In recent decades, scholars have extended the study of code-switching to literary discourse, recognizing its role as a deliberate poetic device rather than mere linguistic alternation (Gardner-Chloros, 2009). Among Arab-American poets, language alternation serves as a means of expressing cultural hybridity—the coexistence of multiple linguistic and cultural worlds within a single poetic voice (Bhabha, 1994).

Jawdat Rustum Haydar (1905–2006) stands out as a Lebanese-American poet who bridges East and West through English poetry infused with Arab cultural and spiritual resonance. Although most of his poems are written in English, his diction, imagery, and occasional Arabic and French lexical insertions represent a subtle form of code-switching that reflects Lebanon's multilingual environment. His collections *Voices* (1980) and *Echoes* (1986) demonstrate a poetic consciousness steeped in Lebanese humanism and universalism and that language code-switch in Haydar's poetry reflects his cultural multilingual hybridity that relate the East to the West.

### **1.2. Theoretical Framework**

This study is based on three theories. The first is Modern Arab American poets' themes, code-switching and characteristics. The second is Alaiyed (2022) definition of code-switching and its types. The third is Myers-Scotton's Markedness Model (1998) and Arus et al. (2024) Systemic Functional Linguistics (SFL).

### **1.3. Research Problem**

Despite Haydar's prominence in modern Lebanese poetry, limited attention

has been paid to the linguistic strategies through which he negotiates bilingual identity. Few scholars have explored how code-switching functions as a semiotic act in his poetry. The problem this study addresses is the lack of systematic analysis of code-switching types and functions in Haydar's poetic language.

#### **1.4. Thesis Statement**

This study argues that Jawdat Rustum Haydar employs linguistic and cultural code-switching and Contrapuntal poetry as a semiotic strategy to negotiate identity, express emotional intensity, and enrich poetic meaning. His alternation between English, Arabic, and French cultural codes symbolizes his hybrid self and mediates between the Lebanese and Western worlds.

#### **1.5. Research Questions**

This paper endeavors to answer the following questions:

1- What types of code-switching can be identified in Jawdat R. Haydar's poetry?

What are the main functions (communicative, stylistic, aesthetic, 2- social, and identity) of code-switching in his poems?

#### **1.6. Significance of the Study**

This paper uses semiotic approach that was so far scarcely used in the study of poetry and differed from what has been previously written or discussed by researchers who read and wrote articles and papers on Jawdat R. Haydar poetry in three ways. First, this approach had been probably first used in the analysis of T.S. Eliot *The Waste Land* and that analysis focused on the figurative language to illuminate the thematic approach rather than the semiotic strategy to negotiate identity, express emotional intensity, and enrich poetic meaning (Hopkins, 2007). Accordingly, this study assumes an academic interest not simply in the rhetoric of statements, propositional sense, arguments, and ideas that were what the poems say, but more specifically in the messages the poems transmitted through code-switching. In short, this paper uses semiotic elements of code-switching as a most recent academic approach to studying Haydar poetry, it also addresses this trend to potential scholars and researchers in two ways. First, it encourages them to conduct

further studies of Lebanese-American poets such as Jawdat R. Haydar, Kahlil Gibran, and Ameen Rihani exemplify a transnational poetic practice in which English serves as the primary medium while Arabic, French, Greek mythology, and British and American literary forms are strategically code-switched within the same poem, producing a hybrid aesthetic that reflects diasporic identity and cultural multiplicity (Bushrui, 1998; Bhabha, 1994). Finally, this research contributes to the growing field of literary linguistics by demonstrating how linguistic analysis can illuminate poetic art. It deepens understanding of bilingual creativity in Arab-American literature and offers a new semiotic reading of Haydar's poetic voice. The study also bridges sociolinguistic theory and literary analysis, offering a model for examining other bilingual poets from multilingual contexts.

### **1.7. Theoretical Framework**

This paper combines three theoretical perspectives. Liwei (2018) trans language through code switching that distinguishes between extrasentential, intrasentential, and tag-switching. Second, Myers-Scotton's (1998) Markedness Model that interpreted code-switching as a communicative choice reflecting social meaning. Finally, Arus and Matthiessen (2024) Systemic Functional Linguistics (SFL) and Stock well (2020) Poetic Function (PF) that provided a semiotic lens, interpreting code-switching as a stylistic and meaning-making resource.

## **II. Literature Review**

### **2.1. Code-Switching in Linguistic Theory**

Kamwangamalu (2010) defined code-switching as the alternation between different languages, dialects, or speech styles within a single discourse. There are three types of code-switching: extrasentential, intrasentential, and tag-switching. Gumperz (1982) highlighted its social meaning as an index of group identity and solidarity. Myers-Scotton (1998) developed the Markedness Model, emphasizing the speaker's rational choice to mark identity or social distance. In literary contexts, Gardner-Chloros (2009) and Alaiyed (2022) argued that poets use code-switching for aesthetic and stylistic effects, enriching the texture of the poem and signaling emotional shifts.

### **2.2. Code-Switching in Arab-American and Lebanese Literature**

Arab-American poets, such as Naomi Shihab Nye, Suheir Hammad, and Mohja Kahf, employ code-switching to express nostalgia, cultural tension,

and resistance. In the Lebanese context, bilingualism is pervasive due to the historical interaction among Arabic, English, and French. This trilingual environment provides the backdrop for Haydar's subtle language alternation (Zakharia, 2016).

### **2.3. Haydar's Poetic Language and Bilingual Aesthetics**

Haydar's diction blends English Romanticism with Arabic imagery. For example, in "Lebanon", he invokes the Cedar, a national symbol with Biblical and Qur'anic connotations, creating semiotic layering that reflects cultural translation. In "Baalbeck and the Ruins," the references to Phoenician and Roman deities' function as cultural code-switches, evoking Lebanon's multilingual past. and cultural references to Eid and Ramadan, demonstrating both sentential and tag-switching. The alternation functions stylistically to mark intimacy and aesthetically to preserve authenticity.

### **2.4. Characteristics of Modern Arab poets**

Ahmed and Mohammed (2024) in their paper "Code mixing in contemporary Arab-American poetry" stated the main characteristics of Modern Arab American poets. The first characteristic is switching between Arabic and English to reflect dual belonging and cultural hybridity. The second is code-switching that challenges the linguistic dominance and asserts Arch heritage in American literary spaces. Third, mixing languages creates rhythm, layered meaning, and authenticity in poetic voice. Arabic words often carry emotional, religious or familial resonance that English cannot capture (pp. 103-113).

### **2.5. Types and Functions of Code-Switching in Literature**

Myers-Scotton (1998) discussed the reason behind code-switching by linking language choice to social meaning. He identified two types of choices unmarked and marked choices. The unmarked are expected normative language in a given context. The marked deliberates deviations such as social identity, solidarity or distance. So, code-switching is a strategic resource, allowing speakers to negotiate power, group membership or intimacy in interaction.

Bassiouney (2009) categorized code-switching into extrasentential, intrasentential, and tag-switching forms. The extrasentential code-switching involves alternating languages across sentence boundaries. The intrasentential switching consists of inserting elements from another language within a single sentence. The inserted elements occur inside a single syntactic unit and are often

used for stylistic effect, identity signaling or lexical need. It requires high bilingual proficiency. The last type is tag-switching wherein pragmatic markers or fillers are inserted from one language into the discourse. Thus, these forms differ in the degree of grammatical integration required and often serve identity, stylistic, or discourse-related functions.

Cultural code-switching refers to the shared meanings, values, norms, and symbols that exist within a particular culture or society. These cultural codes serve as a framework for understanding and interpreting the world, shaping individuals' behavior, and providing a sense of identity and belonging. They play a crucial role in shaping social interactions and influencing individual and collective behavior. They provide a set of guidelines and expectations that help people navigate social situations and make sense of the world around them. Cultural codes are deeply ingrained in society and are passed down from generation to generation through socialization processes.

These codes are not static but evolve and change over time, reflecting shifts in societal values, beliefs, and practices. They are also influenced by external factors such as globalization, technological advancements, and contact with other cultures (easy sociology, 2024).

According to Alaiyed (2022), literary code-switching serves five major functions. The first is communicative that enhanced meaning clarity or emotional emphasis. Second, stylistic wherein rhythm, authenticity and humor are added. Third, sound or visual imagery aesthetic enrichment. While the communicative enhances meaning, clarity or emotional emphasis, the stylistic adds rhythm, authenticity or humor. As for the aesthetic, it enriches sound or visual imagery. The social signals community belonging. Finally, code-switching expresses hybridity or resistance.

## 2.6. Semiotic and Functional Dimensions

Arus and Matthiessen (2024) Systemic Functional Linguistics (SFL) viewed language as a social semiotic system, serving three metafunctions; code-switching in poetry operates within the ideational, interpersonal, and textual metafunctions. It reflects the poet's worldview, emotional stance, and textual rhythm. Stockwell (2020) concept of the poetic function explains how linguistic choices draw attention to form itself. Haydar's alternation between linguistic and cultural codes signifies not only multilingualism but

also semiotic richness—a negotiation between East and West, tradition and modernity.

### III. Research Methodology

#### 3.1. Research Design

This study adopts a qualitative descriptive design using content analysis. The corpus includes selected poems from Haydar’s published collection: *Voices* (1980), *Echoes* (1986). The focus is on identifying and categorizing instances of linguistic and cultural code-switching.

#### 3.2. Corpus of the Study

The following poems by Jawdat Haydar contain linguistic alternations or cultural insertion as “Baalbek and the Ruins”, “O Friend”, “A Dream of Youth”, “My Good Neighbors”, “Superpowers”, “Untitled”, “Mahatma Ghandi”, “Napoleon Bonaparte”, “Lebanon”, “The Death of King Feisal”, “The Nightingales”, “Countrymen”, “The Willow”, “A Gunman Shooting Fox” and “The City of Seven Gates”. Each of these poems was read closely to identify instances of direct code-switching (Arabic/French lexical items) and indirect cultural or religious allusions functioning as semiotic code-switches as well as poetic form switch within the same selected poem (see Appendixes A&B)

#### 3.3. Analytical Framework

The analysis of the linguistic and cultural code-switching in Jawdat Haydar’s poetry followed Poplack’s (1980) typology and Myers-Scotton (1998) functional model, combined with Arus and Matthiessen (2024) social semiotic system and its metafunctions as mentioned in the Literature Review.

#### 3.4. Religious and poetic form’s Switch in Haydar’s Poetry

In Haydar’s poems, code-switching often overlaps. For example, his use of *ya rab* (“O Lord”) adds religious solemnity (aesthetic + communicative), while his occasional French insertions highlight Haydar’s Francophone Lebanese identity and style of speaking and writing that mixes Arabic, French and English in one discourse.

Not only Haydar code-switched vocabulary words among Arabic, French, Greek, British and American English, but he also combined multiple poetic forms and structures forming contrapuntal poems in a single composition that builds on its components (Master Class, 2021). In Haydar’s “Mahatma Ghandi”, the decasyllabic poem structure and form is mixed with elegiac

stanza that consists of ten quatrains with the rhyme scheme ABAB forming iambic pentameter like the 'Rubaiyat of Omar Khayyam' (Baldick, 2015).

In addition to 'Rubaiyat of Omar Khayyam' iambic pentameter poetic form, Haydar used the English rondeau redouble in "Napoleon Bonaparte", "Countrymen" and the "Willow" that consists of six quatrains using two .The first quatrain consists rhymes ABAB / CDED/ FGFG/FHFH/FHFH/FFF of four refrain lines used in sequence, as the last lines of the next four quatrains and a phrase from the first refrain repeated as tail at the end of the final stage as in "Napoleon Bonaparte" ( Baldick , 2015).

"The Death of King Feisal" is a ballad that consists of ten quatrains and one sestet with the rhyme scheme ABAB.The ballad tells the events of King Feisal assassination. "The Nightingale" is a pastoral elegy which is about death and idyllic rural life as in 'the oak forest grew' which is 'shouf of district' with the rhyme scheme of abab and it consists of five quatrains (see Appendix A) In "A Gunman Shooting Fox" and "The City of Seven Gates", Haydar used the narrative poetic form idyll which is originally a Greek form of poetry that consists of simple descriptive rose that deals with rustic or pastoral life and scenes on tragedy themes like the Lebanese War (LW).

"Untitled", "Beirut" and "Lebanon" have the same poetic form; a mixture of rondeau redouble, an American form of poetry and the dramatic monologue. They consist of six quatrains without using two rhymes: ABAB/ACAC. Through the repetition and rare verse form in the rondeau redouble Jawdat Haydar tried to emphasize the eternal existence of Lebanon describing the Cedars of Lebanon in three sentences. "From A Child Forlorn" is a Kyrielle, a French form of rhyming poetry written in quatrains. Each quatrain contains a repeating line or phrase as a refrain usually appearing in the last line of each stanza. So, the various poetic forms used by Haydar in his poems reflect the themes (Baldick, 2015).

### 3.5. Functions of Code-switching in Haydar's Poetry

The following poetic analysis of Jawdat Haydar reveal the cultural, emotional and ideological functions of code-switching in "Baalbek and the Ruins", "My Good Neighbors", "O Friend", "A Dream of Youth" and "Superpowers

### 3.5.1. “Baalbek and the Ruins”

Although the poem “Baalbek and the Ruins” is written entirely in English, it performs cultural code-switching—a shift between cultural frames, symbolic systems, and inherited semiotic worlds—rather than linguistic code-switching. Cultural code-switching occurs when the poet moves between different cultural repertoires, such as Roman classical heritage and Arab–Lebanese identity, juxtaposing them in a single text (Bassiouney, 2009).

The poem opens by positioning the reader in an ancient setting: “the city of the gods” and “a temple built on the plain.” This invokes the Roman mythological and architectural past associated with Baalbek. Although the language is English, the cultural signifiers belong to Roman antiquity, a symbolic “switch” from the poet’s modern Lebanese cultural sphere into a classical imperial one.

According to Albirini (2016), cultural code-switching involves drawing on multiple cultural reservoirs to construct identity and meaning. In this poem, Haydar uses Roman symbols—temples, gods, ruins—as a cultural language through which the Lebanese landscape is interpreted.

By naming “Baalbek”, the poem reclaims the site within its Lebanese context. The poet shifts from the Roman imagery to the historical memory of Lebanon, a move that recontextualizes the ruins: they are no longer merely monuments of the Roman Empire but part of the Lebanese cultural inheritance.

This aligns with Bhabha’s (1994) concept of cultural hybridity, where colonial or imperial remnants are appropriated within a local identity. The poem uses this hybridity as a form of cultural code-switching: the ruins are simultaneously Roman and Lebanese. The poem switches between ancient and modern times, presenting time as fluid and cyclical: “Centuries back still signaling we find! “and “Hundreds of generations have passed”

This movement between temporal frames functions like socio-historic code-switching. Zentella (1997) notes that code-switching often reflects shifts in stance or identity. Here, shifts in time reflect shifts in cultural alignment: Ancient Baalbek is grand, divine, imperial and Modern Baalbek is an heirloom carried forward by Lebanese identity. Thus, the poem shifts culturally between a Roman imperial standpoint and a contemporary Lebanese one, constructing a transhistorical dialogue. The line “This heirloom of the Roman Empire left” signals a cultural code-switch from admiration of Roman grandeur to

possession by the Lebanese present. The ruins, therefore, serve as cultural “borrowed language”—symbols inherited but reinterpreted.

Cultural code-switching here acts as a strategy of reclaiming historical narrative, similar to what Ashcroft et al. (2002) describe as postcolonial appropriation—where colonized subjects reinterpret dominant cultural symbols. The poem switches symbolic systems: Roman as gods, temples, pillars, empire and Arab/Lebanese as desert sands, wind as a “harp,” time passing like “feet of age” as local landscape. These symbolic switches create a layered cultural identity that mirrors Lebanon’s own historical multiplicity. By juxtaposing Roman imperial imagery with natural, Middle Eastern imagery, the poem linguistically remains English but culturally alternates between two worlds.

According to Bassiouney (2009), code-switching can express emotional and ideological positioning. In “Baalbek and the Ruins”, switching between Roman and Lebanese frames reveals awe at the grandeur of ancient civilization, melancholy over decline (“a relic falling down”) and pride in survival (“to stay forever lying, sand on sand”). Haydar uses cultural code-switching to articulate a complex emotional response to cultural inheritance—admiration, ownership, and lament simultaneously. Haydar refers to Baalbek’s stones, relics of gods long gone, embedding a cultural code-switch between mythological registers Arabic, Roman, and Western

So, cultural code-switching operates not at the level of alternating between Arabic and English, but through the interweaving of cultural signs, historical eras, symbolic repertoires, and inherited mythologies. The poet shifts between Roman imperial culture and Lebanese local identity, using the ruins as a semiotic bridge. This kind of cultural code-switching allows to construct Baalbek as a hybrid cultural space—at once mythic, historical, and national.

### 3.5.2. “My Good Neighbors”

In “My Good Neighbors”, Haydar used intersentential code-switching wherein he moved from English to French phrases ‘professeur et chanteur’ then returned to English without mixing structures inside the single clause. The switching is metaphorical for it evokes nostalgia and refinement highlighting displacement and how linguistic diversity was lost due to war. Moreover, the intersentential code-switch creates aesthetic and poetic effects by contrasting beauty with later destruction. The used French words in this poem reveal the cultural and intellectual identity of the lost neighbors; Lebanese Francophone

context. To conclude, the intersentential metaphorical code-switching has an emotive and symbolic descriptive purpose that reinforces the poem's main themes of memory, displacement, and the destruction of a once-vibrant community.

### 3.5.3. "O Friend"

"O Friend" is another example of extrasentential code-switching for it is used within the English sentence. The syntax is English but the lexical item is French. Though 'en route' exists in English dictionaries, its French identity, pronunciation and cultural connotations make it a light code-switching or loan switching. As many Lebanese intellectuals and poets, Jawdat Haydar was educated in a French-influenced environment. So, the use of 'en route', reflects Haydar's bilingual identity and positions the speaker within a Francophone intellectual culture. From aesthetic level 'en route' adds a softer, more fluid rhythm than "on the way" and shifts the tone from ordinary English to more lyrical European register. The switch to French stylizes the ordinary act of traveling making it a more philosophical and existential that align with many themes like fate, mortality and the passage of time and life's transient trip. Thus, 'en route' reflects Lebanon's multilingual identity and a sociolinguistic marker of Lebanese French intellectual hybridity.

### 3.5.4. "A Dream of Youth"

"A Dream of Youth" presents intra sentential type of code-switching in the French phrase 'Having stayed our affaire de Coeur' wherein the syntax of the sentence remains English. The French expression carries cultural and emotional meaning not present in the English equivalent love affair. Although 'affaire du coeur' is partially known in English, but it functions as stylized and high prestige borrowing. To elevate the emotional tone of the poem, Haydar switched to French to make the love scene refined aesthetically with romantic register and to reinforce youthful passion and idealized romance that cannot be realized in the English word love affair that has the connotation of cheap love rather than the French version of ideal love.

Moreover, the code-switch to French language in this poem enhanced the atmosphere and the language of passion and intimacy raising by that the emotional influence of the romantic moment. The use of the intra metaphorical sentential code-switch in this poem created a semantic shift from physical description to emotional interpretation and from experience to meaning

reinterpreting by that an event through a new cultural lens.

Thus, code-switching in Haydar's poetry is not merely linguistic- it's symbolic of transcultural dialogue. Each insertion carries semiotic value, signaling spiritual, national, or emotional meaning. His poetry embodies what Bhabha (1994) calls the third space —a cultural in-between where languages coexist. Code-switching in Haydar's poetry enhanced melody and rhythm. French words like 'professeurs' et 'chanteurs' in the poem "My Good neighbors" and the French word 'Affaire du Coeur' in "A Dream of Youth" lends cosmopolitan elegance and asserts Haydar's Lebanese-French bilingual identity and reflects Haydar's bicultural self-Western education and Eastern spirituality.

### 3.5.5. "Superpowers"

In "Super Powers", code-switching is a strategic literary device rather than a linguistic flourish. The emblematic insertion of French functions on multiple levels: ironic, cultural, political, and ethical reinforces the poem's central argument that global leaders, despite their claims to authority and rationality, often behave irresponsibly playing linguistic and political games while the world stands on the brink of catastrophe.

The poem employs inter-sentential and emblematic code-switching in "Would you hence keep chanting 'au Claire de la lune'. In an emblematic (or symbolic) code-switching, Haydar switched from English to French for a short, self-contained phrase. 'Au Claire de la lune' is a well-known French nursery rhyme associated with innocence, childhood, and simplicity. It is brief and culturally loaded rather than structurally necessary. The switch introduced an external cultural code that carries strong connotative meaning rather than disrupting grammatical coherence. This poetic switch is deliberate, symbolic, and semiotic, aligning with literary and political discourse rather than everyday speech.

By juxtaposing this phrase with the context of peril, nuclear threat, and global leadership, the poet creates a sharp irony. The so-called 'super powers' are implicitly mocked as childish figures who chant lullabies while the world faces existential danger. So, code-switching functions as a tool of political satire, reducing powerful statesmen to naïve or irresponsible actors incapable of mature judgment. Haydar urged world powers to abandon 'ill'sions of Power' resolve 'disguised quarr'ls', and act with wisdom before history condemns

them. This moral discourse symbolized denial, escapism, and performative diplomacy—empty gestures that replaced genuine accountability.

To conclude, ultimately, the code-switching intensifies the poem's critique of power by exposing the dissonance between language and action, appearance and responsibility, and authority and wisdom. From Beirut in 1987, the poem speaks with enduring relevance, warning that history—the 'lips of time'—will remember not power, but the failure to use it wisely. The insertion of a French cultural reference within an English poem. Thus, the linguistic shift is neither accidental nor ornamental for it serves a strategic rhetorical and semiotic function that amplifies the poem's satirical and moral stance.

## V. Conclusion

This study has first shown that Jawdat R. Haydar's poetry, though primarily in English, contains linguistic and cultural code-switches that serve stylistic, aesthetic, and identity functions. These alternations are semiotic bridges connecting Lebanon's multilingual heritage with universal human values. Then, it showed the uniqueness of Haydar's poetry in not only code-switching linguistically and culturally but semantically wise through switching poetic forms and structures that belong to different origin to serve the theme and meaning of Haydar's poems.

### 5.1. Recommendations

Future research could expand to include Haydar's Arabic poems or their translations to French and English for comparative analysis so that linguists may examine phonological and rhythmic effects of code-switching and explore reader's reception of bilingual poetry

### 5.2. Limitations of the Study

The main limitation is the limited number of explicit code-switches in Haydar's English poems; much of his hybridity is cultural rather than linguistic. Archival access to unpublished Arabic works may reveal deeper patterns.

## Appendix A

Mahatma Gandhi

Go east to India, the land of charm

Where men with snakes twisted around their  
breast

These snakes never bite, nor cause any harm  
Like those immured within the human chest.  
Gandhi, the great philosopher, once said,  
“We Indians are born patient and calm,  
We worship our God and we seek our bread  
For we read the page of life in our palm.  
“We fall heads down tied to our destiny  
And we grow up with fate to fall again  
Naked on the trails of humanity  
Caravans of magic within the chain.  
“No remains but the links around  
Of image to image in memory  
A view of marble and firs on the ground  
And shadows looming gyved each to a tree.  
“There the future will be the steaming past  
And we follow along the thread of years  
Unloading fast where the billions are massed  
To rise and meet the day of smiles and tears.  
“That’s why we look the hand of might to see  
The veins streams of light glowing in the sky  
A rainbow with colors of piety  
A signal of truth for those who deny.”  
Gandhi died and burned, his ashes gathered  
And thrown into the river fast to flow  
Partly clung at the edges and were mothered  
To grow well into reeds, long, long ago  
Since they are cut by men, pen, and bassoon  
The pen writing Gandhi’s philosophy  
The bassoon blown sounding the beats in tune  
Of his heart surging in waves at the sea.  
He, a phoenix revived by fire and pen  
To live ever read in stories to right  
The wax of temper in the hearts of men  
The cause of hate, the foolish use of might.

Salaam on earth he preached and still preaching  
By the repeated rhythm of the reeds blown  
By the pen that has writ and still teaching  
How to water the seeds of love where grown.

Lebanon

I would that you were with me hence, sharing  
This celestial view seen, unseen, before  
Where Sannin eternally up staring  
At the evening star glaring at the shore.  
The deep is rising, the ships heading east  
The green mountains capped with snow behind  
Perhaps the eye of an artist possessed  
May contain such a paradise in mind.  
Come to me, darling, and look at the strand  
The edge breaking foam lay miles apart  
Amidst a galaxy topping the land  
Looming a sky within heaven a heart.  
Come, darling, to see what I see, and more  
Stars above, stars below, moon in between  
A brigade of cavalry charging the shore  
Falling back on sand in glorious sheen.  
O life! There's nothing more to enchant me  
Than this vision of growing ecstasy  
I feel dissolved and carried fancy-free  
Where beauty and dreams meet in poesy.  
That's the Lebanon the heart of the world  
Where the cedars living for ages unknown  
And the flag of liberty always unfurled  
In a democracy without a throne.

The Willow

By the stream a willow stem up top down,  
Tender the twigs leaning toward the water:  
The leaves brushing the rippling waves and speak,  
The sound's too sharp to hear and understand.

A shrouded mystery of up and down,  
 We rise from sleep by habit looking up;  
 Yet our livelihood from within the ground,  
 The water, the grain, the fishes at sea.  
 And the current of life flows in the stream,  
 Generations trembling from our gossip,  
 When the leaves and the purling waves echo,  
 A reeling image talking in a dream.  
 A supernal story unheard before,  
 Of the inane being hung up unbound,  
 Without a pedestal to stand upon,  
 A perplexity, on the screen of time.  
 And the charm of the divine creation,  
 The perfection of the design ordained,  
 Of the shapes, up whirling in space, flashing  
 Rays of fire, protecting life by the flame.  
 A shrouded mystery of up and down,  
 Being the top secret of the willow,  
 Remains the voice uttered by the image,  
 Mirrored in the waves, talking in a dream.  
 The Nightingales  
 Go ye to that world of the oak forest green ,  
 Where the nightingales halo nature by song ;  
 That world would be listening then the charm serene  
 Of a breath living melody the years long .  
 There the wild blossoms in the wood keep straying ,  
 Losing petals dancing cancan over the weeds  
 Days and nights still reveling still out staying  
 To hear the birds that made spring from the buried seeds .  
 I can't imagine a feather by hand caught  
 Nor a seed by a fine masterly swain blown  
 Can feed a pipeline of music so well wrought  
 To make the elements dance within the stone .  
 What's this bird mothered by mystery and grace,

Burning by the flame of sound filling all space  
With the spell of a thrilling touch to embrace  
The threads of nature and turn the world about face .  
Lined up marching to reach the oak forest green  
Where the nightingales hallo nature by song ,  
That world would be listening then the charm serene  
Of a breath living melody the years all along.

Baalbeck September 30, 1984

Napoleon Bonaparte

Eight-and-forty years ago, at this place  
Not alone but with my age at that year,  
I wheeled back on Time and visioned the face  
Of Napoleon with two eyes and one tear.  
One Austerlitz, the other Waterloo,  
The true eyes of victory and defeat  
The hopes and dreams were and were not true,  
For the great conquest was a great retreat.  
Dire Napoleon against Albion and Spain  
Unsheathed the sword to fall upon the blade  
And wrathfully lose which he seemed to gain,  
The Empire he has made was made unmade.  
Exiled, by a furious human tide  
To a barren island for life to stay  
Vexed, he escaped and again took a ride  
To hunt bleeding hawks, but this time he was the prey.  
That's a lethal glory remaining fame  
A memory for those who may forget  
The horrors of the earth in smoke and flame  
Where the living with the living have met.  
Yet he's still a flame in the cave of Time  
And with the second warm tear in my eye,  
I am framing with grief this humble rhyme  
Of him who is a world where he doth lie.  
Countrymen

Why should you tarry so long in your defile  
 Speed to the heights showing how to climb the slopes  
 On top look at the UN's tavern and smile  
 Where all the weaker nations have lost their hopes  
 Be not like a slumbering cloud on a crag  
 Breathing out in the air drying without rain  
 That's how vapid nations lag behind and sag  
 Like a welting flower drying on the plain  
 Be like a storm cloud out of the sea with rain  
 Winter finished, the budding spring will flower  
 Haste then to build as once you have built in Spain  
 With blocks of wisdom for the world a tower  
 A light house for those astray to gain the light  
 A palace of justice for the rights of man  
 A peace keeping force with full powers and might  
 To indicate to the whole world that we can  
 Teach the people how to climb the highest slopes  
 To build on top a love nest for all to dwell  
 In a world of democracy full of hopes  
 A paradise inside this our present hell.

Baalbeck

January, 1984

From "A Child Forlorn"

Men through the ages my story should read,  
 A child forlorn driven out of my land,  
 Walking the years in memories to bleed  
 And the world refused to give me a hand  
 I walked on the desert of time e'rywhere  
 Not a tree, not a blossom, not a stream,  
 Nothing but the barren sands and despair  
 And the im'ge of my father in my dream.  
 My old father was killed at Deir Yassin,  
 My mother, my sister were also slain,  
 The world was blind but the blood I have seen

Gushing out from those dearest hearts again.  
The U.N. should have been the sword to shield  
The rights of man and his integrity,  
The heavily armed brigade on the field  
To smash the oppressors of liberty.  
But 'tis a tavern for talk, wine and dice,  
The Superpowers take their drinks and go,  
The small and weaker nations pay the price  
Then comes Sam and the Bear to close the show.  
A child I was lost-but now a man found,  
I have learned that men since out of the caves  
Were the poor serfs of power and the pound  
But now they are slaves ruled by master slaves  
How could I forget the floor smeared with blood  
At home where I was born to live and die,  
The shattered graves I have seen when a flood  
Of images I dream was in my eye  
That's why I chose the sharpened sword at last  
To regain my land, home and liberty  
And show the world that I'm not an outcast  
But a hero of might on land and sea.

Beirut

1950

"Untitled"

Fear not the rising storm with rage  
Far across the continent born  
Nor the White Bear , the Iron Cage  
The Yankee Blade, the land of Morn  
Nor the rotting bones in the grave  
Where you men lie heap against heap  
Nor the Plague carried by the wave  
From lands unknown beyond the deep  
Fear your weakness and division  
Of body and soul, flesh and bone

The deception of ambition  
 When standing by yourself alone  
 Deserts of despair lie ahead  
 Stand up and be doing again  
 No sands were watered by tears shed  
 To yield a hopeful crop of grain  
 Enough sleep, awake and equip  
 Your armies and out of the shade  
 Rights are not won only by lip  
 But by unity, blood and blade  
 Never mind a shot fired astray  
 Another the target may attain  
 Yesterday's dead, my friend, drill today  
 Tomorrow aim well and shoot again (Voices, 1980, p.6).

#### Appendix B

##### Baalbeck and the Ruins

Take yourself charioted to the city  
 Of the gods, a temple built on the plain;  
 Upheld by the girders of Time to remain,  
 A unique structure of eternal fame.  
 O, well for the thoughts that tradition stay,  
 Centuries back still signaling we find!  
 This heirloom of the Roman Empire left,  
 But a thought of a heart dead long ago.  
 Man has nothing more of Magic to show,  
 Having the lime stones of these massive walls,  
 Quarried a light travel, ere the eye caught,  
 A wonder, of the Seven, in the world made.  
 Time a count of years; here we count no more,  
 Hundreds of generations have passed, and still,  
 These pillars against time a time tall,  
 With the fingers of the wind a harp played.  
 These shattered walls a relic falling down,

To stay forever lying, sand on sand,  
 Till time with the feet of age passes by,  
 Leaving the gods, turning his face away.  
 (Voices, 1980, p.27)  
 My Good Neighbors  
 My good neighbors fled away,  
 Professeurs et Chanteurs,  
 And since my days that were of constant pleasure  
 Were faintly feeding on memory  
 With so often my thoughts reeved through the  
 Swallow of my mind  
 Searching for a fading reality,  
 Caught with the arm of melancholy  
 Across a barren field of despair;  
 Once a forest behind our fence  
 Where the wood choppers hacked the wood  
 And the dead trunks lay down on the ground  
 As if they were soldiers killed  
 During the civil wars  
 In Lebanon, Nicaragua or Spain.  
 That picture of the forest  
 Is still hovering in my mind;  
 Of the birds banished,  
 Of their kingdom destroyed,  
 By that cruel hand of man,  
 Whose illusory fingers seemed  
 In the distance like snakes  
 Gliding through my body  
 Through every vein.  
 I looked up to the sky;  
 There was no reply;  
 I looked everywhere;  
 I saw nothing but the forest  
 Of scraggy teeth, the stumps that remain,

And my hopes remained  
 Blown by the wind,  
 Scraping like chaff on sand.  
 And ever since, I wake up,  
 Looking into a panorama of memories,  
 Growing a wood of yearning thoughts  
 In a lingering reverie of the past.

10/1974

(Echoes, 1986, p. 28)

O Friend  
 O friend, bother me not;  
 'Tis said and why to explain?  
 So be as it comes  
 Being such be sure of the signal code,  
 Wind wafted tapping morse on your brow  
 Missing message have a senescent soothsayer  
 To read the duplicate copy printed on your palm.  
 Listen then, and learn about a presumption said  
 Of a sentence, whose period mark remains the point,  
 Where to start and where to stop again  
 Between periods all the way through to retire  
 With a final dash over the bridge raised by the years.  
 The distance of a javelin throw measured by leagues to fall  
 At the terminal, where you'll have your warrant  
 Signed, dated with a ticket in your name;  
 En route look at the smoke fading away,  
 Perhaps a memory of the short trip,  
 The ashes left behind.

(Echoes, 1986,  
 p. 4)

Beirut, July 4, 1979

A Dream of Youth  
 With the errant breeze

Odiferous was her breath  
 Across a ridge of flowers  
 Looking at her possessed  
 She gave the glad eye  
 I dialed a wish  
 She willed with a strong desire  
 And we crossed the frontiers  
 'Twas hot  
 Mid-summer  
 At half past the hour  
 We met  
 My hand around her waist,  
 Her finger tapping below my ear  
 On tip toe she stood  
 A heart melting model we made  
 What a cast of souls we did feel  
 Lip to lip, heart to heart beating  
 O! What passion what a fair deal  
 Of happiness without cheating  
 Having staged our affaire de coeur  
 We left hold of our pyramid and moved on  
 Passersby whistled and cried  
 Gossip filled the town  
 And a rush of people hurried out  
 To see what was strange  
 We came with them to the spot  
 (Echoes, 1986, p.31)  
 Super Powers  
 Should Isr'el break the news of a peril soon  
 What would happen to you Cocks leading the walk  
 Would you hence keep chanting "au claire de la lune"  
 Or would you keep silent and afraid to talk?  
 Better stop hugging your ill'sions of Power  
 And remember those dreadful tyrants of might

Who oft'n fanned the flame and burned their own tower  
 Hence be wise and halt measuring your short height  
 Nip in the bud your disguised quarr'ls and be friends  
 The world's waiting for your nuclear accord  
 Make Irish and spit on your palm and shake hands  
 To endorse your word and attain your reward  
 Otherwise the lips of time for ever 'll speak  
 About the murd'r of your common sense in jail  
 Be careful and stop your game to hide and seek  
 To avoid being the cocks who crow and fail  
 Beirut  
 April, 1987

## References

- Ahmed, Z. T., & Mohammed, A. H. (2024). Code mixing in contemporary Arab-American poetry. *Journal of Language Studies*, 8(6), 103–113.
- Alaiyed, A. (2022). On Code-switching Types and Functions in Bilingual Poetry. *Journal of Linguistic*.
- Albirini, A. (2016). *Modern Arabic sociolinguistics: Diglossia, variation, codeswitching, attitudes, and identity*. Routledge.
- Arús Hita, J., & Matthiessen, C. M. I. M. (2024). "Systemic Functional Linguistics: Accessibility and Visibility Across Languages, Academic Profiles and Disciplines. "Epos: Revista de Filología, 40.  
[https://revistas.uned.es/index.php/EPOS/article/view/43268?utm\\_source=chatgpt.com](https://revistas.uned.es/index.php/EPOS/article/view/43268?utm_source=chatgpt.com)
- Ashcroft, B., Griffiths, G., & Tiffin, H. (2002). *The empire writes back: The post-colonial literatures* (2nd ed.). Routledge.
- Bhabha, H. K. (1994). *The Location of Culture*. Routledge.
- Baldick, Ch. (2015). *Oxford Dictionary of Literary Terms*. Oxford University Press, USA, 8-334.
- Bassiouney, R. (2009). *Arabic sociolinguistics*. Edinburgh University Press.

Linguistic Studies,14(2), 101–122.

Bushrui, S. B. (1998). Kahlil Gibran of Lebanon: A re-evaluation. University of Maryland Press.

Easy Sociology. (2024). Cultural codes. Retrieved January 8, 2026 from [/https://easysociology.com/tag/cultural-codes](https://easysociology.com/tag/cultural-codes)

Gardner-Chloros, P. (2009). Code-Switching. Cambridge University Press.

Gumperz, J. J. (1982). Discourse Strategies. Cambridge University Press.

Hopkins, D. (2007). An introduction to the language of poetry. Routledge.

Jawdat R. Haydar. (1980). Voices. Vantage Press. New York.

Kamwangamalu, N.M. (2010). Multilingualism and codeswitching in and language education, 116. Retrieved January education. Sociolinguistics 2, 2026 from

<https://www.degruyter.com/document/?doi/10.21832/9781847692849-007/pdf>

Li Wei (2018). Translanguaging as a practical theory of language. Applied Linguistics, 39(1), 9–30. <https://doi.org/10.1093/applin/amx039>

Majaj, L. S. (2012). Transformative acts: Arab American writing/writing .Arab America

In L. S. Majaj et al. (Eds.), Arab American literature (pp. xx–xx). NYU .Press

Masterclass. (July 9, 2021). Contrapuntal Poetry Guide: How to write <https://www.masterclass.com/articles/contrapuntal-poetry-guide> Contrapuntal Poems.

Myers-Scotton, C. (1998). Codes and Consequences: Choosing Linguistic University Press. Retrieved January 2, 2026 from Varieties. Oxford <https://doi.org/10.1093/oso/9780195115222.001.0001>

Pop lack, S. (1980). Sometimes I'll start a sentence in Spanish y termino en español: Toward a typology of code-switching. Linguistics, 18(7–8), 581–618. <https://doi.org/10.1515/ling.1980.18.7-8.581>

- Stockwell, P. (2020). *Cognitive poetics: An introduction* (2nd ed.). Routledge.
- Suleiman, Y. (2004). *A war of words: Language and identity in the Arab world*. Cambridge University Press.
- Zakharia, Z. (2016). Multilingualism and education in Lebanon. *International Review of Education*, 62(3), 387–406.
- Zentella, A. C. (1997). *Growing up bilingual: Puerto Rican children in New York*. Blackwell.



# Artificial Intelligence and Language: Can Machines Think Through Language?

---

Dr. Hind  
Salah Sleem

---

PhD  
Lebanese  
University,  
[h.sleem@ul.edu.lb](mailto:h.sleem@ul.edu.lb)

## Abstract

This study critically examines whether the concept of innateness, typically associated with human language acquisition, can be detected in artificial intelligence AI, specifically in ChatGPT 3.5. To achieve this, a mixed-method approach was employed, integrating both quantitative and qualitative analyses to evaluate the AI's responses to a series of prompts designed to test various cognitive dimensions, including linguistic understanding, contextual reasoning, analogical reasoning, and emotional intelligence. In the quantitative analysis, each AI response was assessed based on success, partial success, and failure rates. The results reveal that ChatGPT 3.5 performed commendably in linguistic tasks, achieving a 75% success rate. However, its ability to handle deeper reasoning—particularly in the realm of emotional intelligence—exhibited significant limitations, with a failure rate of 75% in these areas. This disparity highlights the challenges AI faces in processing complex social and emotional contexts, which are often integral to human communication. The qualitative analysis focused on fluency, coherence, and creativity in the AI's responses. This aspect of the research illuminated how these linguistic features contributed to the AI's success, yet it also underscored

its struggles in capturing the emotional and social nuances that characterize human interactions. Overall, the study concludes that while ChatGPT 3.5 can process and generate language at an advanced level, it lacks the innate cognitive and social mechanisms inherent to human language acquisition. These findings not only deepen our understanding of AI's capabilities but also highlight its limitations in mimicking human cognitive functions, prompting further inquiry into the nature of artificial intelligence and its role in language and communication.

**Keywords:** Artificial Intelligence, Innate knowledge, Language Acquisition.

## 1. Introduction

Knowledge is a fundamental aspect of human existence, enabling individuals to grasp facts and theories that facilitate understanding and communication. One crucial form of knowledge is language acquisition, the process through which humans learn to communicate. As Artificial Intelligence (AI) advances, efforts have been made to enable machines to replicate human knowledge, language, and intellectual abilities. However, debates persist among researchers, specifically psychologists, regarding the role of innate factors in language acquisition, while in the realm of artificial intelligence, the concept of innateness remains largely unaddressed (Cheung et al., 2023).

In cognitive science, Evans (2012) describes cognitive linguistics as being grounded in the concept of a "domain-general learning mechanism" that is highly responsive to practice and rate of recurrence. This indicates that language systems and acquisition depend on both inherent reasoning and semantic generalization or statistical learning, where understanding of concepts or terms develops through the recognition and use of language patterns. This gives rise to two primary perspectives on the nature of language and language acquisition: the behaviorist view and the cognitivist view.

The behaviorist perspective, introduced by J.B. Watson, emphasizes statistical learning, repetition, and stimuli. According to Uwababyeyi and Tabaro (2021), children mimic the patterns and sounds they hear in their surroundings and receive positive reinforcement, whether through praise or successful communication, highlighting the role of rewards in behaviorist language acquisition theories. As this theory developed, language acquisition

and learning came to be viewed as a form of behavioral repetition, driven by stimuli and responses. When an individual's response to a specific environmental stimulus is rewarded, the behavior is reinforced, as previously mentioned (Uwababyeyi & Tabaro, 2021). Behaviorists argue that language acquisition is shaped by the interaction between the individual and the environment, where stimuli provided by the environment condition the individual to acquire language.

As Behaviorism gained popularity, a new perspective on language acquisition emerged: Cognitivism. This theory arose in response to Behaviorism, with cognitivists, including the MIT linguist Chomsky, challenging behaviorist ideas. Cognitivists argued that behaviourism overlooked the role of thinking in learning and that repetition and statistical learning alone could not explain the acquisition of complex grammatical rules. They believed humans must have an innate ability to learn language (Uwababyeyi & Tabaro, 2021). Cognitivists assert that humans possess a natural capacity for logical reasoning that goes beyond the repetition and conditioning emphasized in behaviorist theories. As Uwababyeyi and Tabaro (2021) note that the Cognitive theory underscores the idea that learners have an innate mental ability to the learning process.

In this paper, the researcher explores the role of innateness in both human language acquisition and artificial intelligence, examining how innate knowledge shapes the development of logical reasoning and information representation in each. Specifically, this paper investigates whether AI systems, despite their ability to use language, genuinely understand or think through it. By analyzing the architecture and learning processes of current AI language models and comparing them to human language comprehension, the researcher delves into key debates within the philosophy of mind, including the contrasting views of behaviorism and cognitivism. This discussion helps determine whether AI is truly on the path to cognitive understanding or if its sophisticated language abilities are merely an illusion of thought.

### **1.1 Research Aim**

The aim of this research is to critically examine whether the concept of innateness, which has long been considered a characteristic of human language acquisition, can be detected in artificial intelligence, specifically in ChatGPT

3.5. The study focuses on understanding how innate knowledge, if present in AI, influences the development of logical reasoning and information representation. By exploring the language abilities of AI through qualitative and quantitative assessments, this research seeks to address the question of whether AI can genuinely comprehend language or if its language abilities are merely advanced mimicry. Furthermore, this research aims to contribute to the ongoing discourse in cognitive science and philosophy of mind by evaluating AI's language capabilities in light of behaviorist and cognitivist perspectives on language learning and acquisition. The findings will highlight the strengths and limitations of AI's current abilities, providing insight into its potential for achieving a form of understanding comparable to human cognition.

## 2. Literature Review

### 2.1 Human Language Acquisition and Innateness

The debate over innate ideas and their influence on knowledge acquisition has a long and established history. However, it is notable that until the early 20<sup>th</sup> century, relatively little focus was given to understanding how linguistic knowledge is acquired and whether innate ideas play a role in that process.

Early in the 20<sup>th</sup> century, the Behaviorist theory, which emerged between the 1940s and 1970s, particularly in North America, views learning as a process involving imitation, practice, reinforcement, and habit formation (Lightbown & Spada, 2006; Assaiqeli, 2013). In the behaviorist perspective, language learning is understood as the development of habits, rooted in the concepts of stimulus and response. The behaviorist psychologist Skinner (1957) argued that knowing a language is simply having a particular set of behavioral tendencies, and learning a language involves acquiring these tendencies. He explained this process through what he called operant conditioning. "Operants" refer to behaviors that do not have a predictable, law-like connection to specific environmental conditions or "eliciting stimuli." These are different from "respondents," which are automatic or reflexive reactions to certain stimuli. For example, blinking when something approaches your eye is a respondent, while infant babbling is considered an operant behavior.

In his well-known article "Review of Verbal Behavior", Chomsky (1959) critiques behaviorists by highlighting the novelty and creativity in children's language use, pointing out that children often produce sentences they have

never heard before. He proposes a fundamentally different perspective on language acquisition. Chomsky (1959) critiques Skinner for overlooking the internal structure of the learners and how they process incoming information. According to Chomsky, behaviorism falls short in explaining why children continue to make errors in the early stages of language acquisition, despite receiving correct input. As a result, behaviorism does not adequately account for the mental processes involved in language learning, in contrast to theories like the sociocultural perspective, which considers both external stimuli and the internal mental framework of the learner.

Chomsky (1975) argues that the language faculty inherently contains knowledge of various linguistic rules, constraints, and principles. This innate knowledge represents the “initial state” of the language faculty. When a child is exposed to language experiences, referred to by Chomsky as “primary linguistic data” (PLD), this innate knowledge interacts with these experiences to form new linguistic knowledge, specifically knowledge of a particular language, such as English. This “attained” or “final” state of the language faculty reflects an individual’s “linguistic competence,” which includes an understanding of the grammar of their language. Chomsky asserts that this knowledge is crucial for a person’s ability to speak and understand language, although it is not the sole factor required for actual language use, known as “linguistic performance.” Other forms of knowledge are also involved in practical language usage.

Human language and social cognition are deeply interconnected: advanced social cognition is essential for children to learn language, and language enables forms of social understanding (and culture, more generally) that would otherwise be unattainable. Both “language” and “social cognition” are intricate constructs, each involving multiple independent cognitive processes (Fitch, Huber & Bugnyar, 2010).

## **2.2 Artificial Intelligence and Language Processing**

AI language learning tools are software applications that utilize artificial intelligence algorithms to assist users in learning and enhancing their skills in a foreign language. These technologies offer numerous advantages, including enabling users to save time and accelerate the learning process, providing students with personalized learning experiences, and exposing them to different

cultures (Roxana Rebolledo & González Araya, 2010).

Intelligent Computer-Assisted Language Learning (ICALL) serves as a framework for conceptualizing the development and use of AI language learning tools. Hassani, Nahvi, and Ahmadi (2016) introduced the ICALL framework, which outlines guidelines and principles for designing and implementing AI-driven language learning systems.

A key principle of ICALL is the use of artificial intelligence and machine learning algorithms to enhance language learning (Pokrivčáková, 2019). These algorithms can provide personalized instruction and feedback, automate tasks such as translation and grammar correction (Choi, 2016), and generate original language content.

Another principle of ICALL involves Natural Language Processing (NLP) techniques, which analyze and interpret language data. NLP algorithms extract linguistic features and patterns from text and speech, enhancing the performance of language-learning algorithms and AI language-learning tools (Lu, 2018).

### **2.3 Studies on AI's Language Capabilities**

Orru et al. (2023) define the Large Language Models (LLMs), such as ChatGPT-3, as neural networks trained to predict the most likely verbal output (e.g., word or sentence) based on a given sequence of words. They generate predictions by selecting the word with the highest probability or strongest association. Findings by Orru et al. (2023) suggest that LLMs may utilize associationism, significantly reducing the number of tasks that complex associative models typically struggle with. Some LLMs, like ChatGPT-3, can perform tasks at a level comparable to the average human, demonstrating their advanced associative capabilities. While their study shows that ChatGPT's performance on verbal insight problems is similar to that of an average human, it also highlights the model's limitations, emphasizing the need for ongoing exploration of both its potential and constraints in future research.

Baytelman, Baytelman, and Potsepaiev (2024) conducted a multidisciplinary approach to testing pre-trained transformer language models. Their study included evaluating their performance in various knowledge areas, verbal and visual outputs, and their ability to analyze lexicon, semantics, and grammar, as well as detect hidden meanings and irony, shows that even a low error rate should be cause for concern. They concluded that even advanced models are

prone to misunderstanding figurative language, and that a single mistake can have serious consequences in certain applications. It is not uncommon for AI to fail to combine facts from different knowledge areas into one cohesive response, even when the individual facts are known to the AI. Additionally, errors in interpreting mathematical problems are particularly worrisome, as the model does not indicate uncertainty or ask for clarification, making it difficult for users to diagnose the problem.

### **2.4 Innateness in AI**

According to Marcus (2017), one method for determining how much innateness may be necessary for AI is to develop synthetic agents capable of performing complex tasks with an initial level of innateness. These agents would achieve state-of-the-art performance on those tasks, and the process would then be repeated, gradually reducing the amount of innateness. The goal would be to eventually converge on the minimal amount of innate machinery required for AI to function effectively, demonstrating that a certain level of innateness could be achieved in AI.

On contrary, Cheung et al. (2023) discussed the absence of innateness in AI and how it affects its performance. To investigate this, they developed a unique study assessing AI's biological, mathematical, spatial, and psychological reasoning abilities. The findings showed that AI achieved the highest success rates in mathematical and spatial reasoning, followed by psychological reasoning, while biological reasoning yielded the lowest success rates. These results suggest that AI performs well when dealing with tasks that follow clear, established rules but struggles more with reasoning that requires creative and deeper comprehension.

### **3. Research Method**

This research study is designed to critically analyze the concept of innateness in artificial intelligence, whether it is like innateness in human language acquisition or not. It focuses on exploring how innate knowledge, if it exists, affects the development of logical reasoning and the representation of information in artificial intelligence. A mixed-methods approach is employed in this study, utilizing both qualitative and quantitative methods for data collection.

Both methods focus on the analyses of the AI's responses on the structured

prompts designed to assess ChatGPT 3.5's performance in areas of linguistic understanding, contextual reasoning, analogical reasoning, and emotional intelligence. The qualitative method allows for a deeper exploration of the nuances in the AI's linguistic abilities, including how well it mimics human-like reasoning and emotional responses. The quantitative method which involves the use of structured prompts evaluated AI's responses based on predefined success criteria, with results analyzed numerically to determine the rate of success, partial success, and failure for each cognitive category. By comparing these qualitative insights with the quantitative data, the study provides a comprehensive understanding of how AI systems like ChatGPT 3.5 handle complex language-based tasks and whether they demonstrate any signs of "innateness" in language learning similar to humans.

### **3.1 Instruments**

The research instruments for this study include a set of carefully crafted prompts designed to assess various dimensions of human language processed in artificial intelligence contexts, specifically ChatGPT 3.5. These prompts focus on key areas such as linguistic understanding, contextual reasoning, analogical reasoning, and emotional intelligence. For each area, four prompts are designed in order to collect data. Each prompt is tailored to elicit responses that can be quantitatively analyzed for being successful, partially successful, or failure.

#### **3.1.1 Prompt Development**

The design of the prompts enables the researcher to assess whether ChatGPT 3.5 utilizes innate knowledge in processing and generating language or not. This allows the evaluation of how it represents information and logical reasoning. As mentioned above, the prompts focus on four key areas: linguistic understanding, contextual reasoning, analogical reasoning, and emotional intelligence

For linguistic understanding, the prompts require ChatGPT 3.5 to paraphrase, summarize, or explain a complex concept in simple terms that evaluate its ability to comprehend and generate language appropriately. This assesses its grasp of semantic meaning and language structure.

With respect to contextual reasoning, ChatGPT 3.5 is asked to identify the underlying theme or moral of a short story or scenario. It must infer meaning

from context. This tests its ability to interpret and reason based on context rather than just surface-level understanding.

As for analogical reasoning, prompts that require ChatGPT 3.5 to draw analogies or make comparisons between different concepts are requested. For instance, ChatGPT 3.5 was asked to compare how a child learns to speak and understand language with how a machine learning model identifies and categorizes objects in images. This assesses its ability to logically draw parallels between two distinct processes, focusing on the underlying mechanisms of learning and pattern recognition in both humans and machines.

And finally with respect to emotional intelligence, prompts that require ChatGPT 3.5 to identify emotions in various contexts are provided. For example, a situation involving conflict is presented, and ChatGPT 3.5 is asked of how the character might feel and respond. This tests its understanding of human emotions and social interactions.

### **3.1.2 Evaluation Criteria**

Each response is evaluated according to three categories: Success, Partial Success, and Failure. A response is deemed a Success when the AI provides a coherent, contextually appropriate, and logically sound reply that clearly demonstrates an understanding of the language and concepts involved. In contrast, a response categorized as Partial Success is one that is somewhat logical or relevant but lacks depth, clarity, or accuracy in specific areas. Finally, a response is classified as a Failure if it is illogical, irrelevant, or fails to meaningfully address the prompt. This assessment framework enables a nuanced analysis of how ChatGPT 3.5 understands language in various contexts and whether its responses reflect genuine reasoning.

## **4. Results and Discussion**

ChatGPT 3.5 operates with around 175 billion parameters and has access to a dataset of approximately 570 gigabytes, which it utilizes to generate responses (Cheung et al., 2023). This dataset includes a wide range of information, from grammatical rules to online articles and resources. The model is trained using a technique called Reinforcement Learning from Human Feedback (RLHF). In this process, AI, starting with a pre-trained language model, is given prompts by human trainers. Each response is then evaluated with a preference score, which serves as a positive reinforcement for the AI chatbot (Bai et al.,

2022). This method helps guide the chatbot toward producing more coherent and relevant responses that align with the given prompts (Bai et al., 2022). ChatGPT 3.5 is trained using RLHF to generate responses that are as helpful and relevant as possible (Cheung et al., 2023). Given its parameters and training, the model is conditioned to select the response with the highest reward value for each question. With its extensive access to internet-based datasets, ChatGPT 3.5 is expected to produce responses with a high degree of accuracy. It formulates logical answers based on its ability to recognize and retrieve information about various concepts. At the very least, the model is expected to provide relevant information, as it likely processes the basic syntax and connotations of each word within the prompt (Cheung et al., 2023). In the current study, data analyses are based on the four different types of prompts: linguistic understanding, contextual reasoning, analogical reasoning, and emotional intelligence. In each section, the AI's performance is evaluated within that specific domain, allowing for a clear comparison between how well the AI performs across different cognitive and linguistic tasks.

## **4.1 Qualitative Analyses**

### **4.1.1 Linguistic Understanding**

ChatGPT 3.5 successfully responded to three out of the four prompts for paraphrasing or summarizing. When asked to summarize an essay or paraphrase a paragraph on topics such as global warming, nutrition, or sports, it produced coherent, grammatically accurate, and contextually appropriate responses. Focusing on grammar, syntax, vocabulary use, and sentence structure, ChatGPT 3.5 demonstrated effective comprehension and language generation. It was able to recognize the key terms within the prompts and retrieve relevant information from its datasets. However, when prompted to paraphrase a paragraph about sexual harassment, the AI refused to provide a response, instead issuing a warning that the paragraph contained language that might be ethically inappropriate and could cause harm. Knowing that the paragraph is scientifically written, this indicates that the AI does not demonstrate any form of innate language understanding; its abilities are solely reliant on statistical learning.

### **4.1.2 Contextual Reasoning**

ChatGPT 3.5 was generally capable of identifying the underlying theme or

moral of a short story or scenario by analyzing the text, recognizing patterns, and drawing on pre-learned associations. However, its success in inferring meaning from context can vary depending on the complexity of the content and how clearly the theme or moral is presented.

It was successful when the theme or moral was relatively straightforward and aligned with common cultural, literary, or logical patterns. For example, when the story deals with concepts like friendship or honesty, it was successfully able to infer the intended message.

In cases where the theme is more abstract or layered, it was clear that it could grasp some elements but miss subtler or deeper meanings. Its interpretation focused on more obvious contextual cues but overlooked symbolic or nuanced aspects that require deeper human insight. For example, in the story *The Catcher in the Rye* by J.D. Salinger, one of the themes in the book is alienation as a form of self-protection. The protagonist, Holden Caulfield, isolates himself from the world as a defense mechanism, but this alienation also deepens his loneliness and depression. When asked to identify the theme, ChatGPT 3.5 was able to recognize the surface-level concept of alienation and loneliness because these are common and often explicitly mentioned in the text. However, it missed the deeper, more nuanced themes such as the fear of growing up, where Holden imagines himself saving children from falling into adulthood. These are subtler ideas that require emotional depth and a human understanding of existential fears, which were not fully captured in its response.

The response of ChatGPT 3.5 was classified as a Failure when the story included highly abstract, ambiguous, or culturally specific meanings that AI hasn't encountered in its database. Since it doesn't have emotions or lived experiences, its inferences requiring personal emotional insight was less accurate. For instance, in the story *The Metamorphosis* by Franz Kafka, Gregor Samsa wakes up to find himself transformed into a giant insect, and much of the narrative revolves around his alienation, his family's reaction to his transformation, and his gradual detachment from human life. While ChatGPT 3.5 could identify isolation or alienation as obvious themes, it struggled with the more abstract, existential, or culturally specific meanings. For instance, Kafka's absurdity, which deals with the illogical and nightmarish nature of

modern existence, is a nuanced, culturally specific idea tied to existentialism and 20th-century anxieties. Without lived experience, AI could not grasp the deeply personal, emotional despite that Gregor feels or the critique of bureaucratic dehumanization that the story subtly conveys. While it could provide a mechanical interpretation of the character's actions, it missed the profound emotional experience, leading to a misinterpretation of the core message about human suffering and the loss of identity.

### **4.1.3 Analogical Reasoning**

When asked to compare how a child learns to speak and understand language with how a machine learning model identifies and categorizes objects in images, ChatGPT 3.5 could generally compare them, but its success in drawing accurate and meaningful parallels varied depending on the complexity of the comparison.

When the comparison involves surface-level similarities and basic processes, it provides an accurate and relevant comparison. It explains that children learning language acquire knowledge through repeated exposure to linguistic input, associating words with objects and actions through reinforcement, which is similar to supervised learning. It also notes that machine learning models are trained on labeled datasets, learning to identify patterns (such as objects in images) through exposure and feedback. In both cases, the learning process involves pattern recognition, reinforcement, and gradual improvement based on feedback.

When the comparison required deeper conceptual insights into the cognitive differences between humans and machines, its analysis captured only part of the picture. It explained that children have an innate language faculty (according to theories like Chomsky's Universal Grammar), which allows them to generalize across language rules, while machines lack such innate abilities and rely entirely on data. However, it overlooked more nuanced aspects, such as the emotional and social contexts in which children learn language; these factors play a significant role in shaping their understanding but are not reflected in how machines process information.

When asked to explore the philosophical or experiential aspects of the comparison, such as how a child's language acquisition is deeply rooted in human consciousness, emotional development, and social interaction,

ChatGPT 3.5's response was classified as a Failure. While it could explain how a machine learning model functions, it could not fully articulate the qualitative experience of language learning for a child, including the emotional bonding and social feedback integral to human communication. A machine's learning lacks understanding, self-awareness, or intentionality, which limits its ability to capture these deeper human experiences.

#### **4.1.4 Emotional Intelligence**

If asked to predict how a character might feel and respond in a situation involving conflict, the ability of AI to do so was classified as partially successful or failure. It could identify general emotional responses based on the context of the conflict and suggest a plausible reaction. In one example the character in the story is betrayed by a close friend; it could predict they would feel hurt or angry and respond by confronting the betrayer or distancing themselves. In another example, the character is unjustly blamed for something at work, it could infer they would feel frustration and either attempt to defend themselves or avoid confrontation. However, its understanding is shown to be based on patterns and language from similar scenarios in its database; while it could capture typical human emotions, it missed deeper complexities, like subtle motivations or cultural nuances. In these cases, ChatGPT 3.5 was partially successful in identifying emotions in the contexts provided.

However, when the conflict involved complex or culturally specific emotions, ChatGPT 3.5 failed to identify how the character felt and responded in a situation involving conflict. For example, in another story where a character faces the profound moral dilemma of choosing between saving a loved one or fulfilling a sworn duty, it could predict simple emotional responses like guilt or sadness. Conversely, it failed to fully capture the weight of the emotional conflict. Similarly, it failed in situations where personal insight or lived experiences are crucial. For instance, when the character feels deep regret after making a life-altering decision, it could not accurately express the emotional burden or internal struggle they face, instead offering a more surface-level response like "they felt bad about their choice." In cases requiring complex emotional intelligence, such as navigating a family conflict rooted in cultural tradition, its responses lacked the nuance of human understanding, leading to a less insightful or incomplete answer.

## 4.2 Quantitative Results

To fulfill the purpose of the current study, a quantitative analysis was conducted to compare the results. The aim is to critically examine whether the concept of innateness in artificial intelligence, specifically in ChatGPT 3.5, is comparable to human language acquisition. The responses generated by ChatGPT 3.5 for each prompt were evaluated quantitatively to assess how, if at all, innate knowledge in AI influences the development of logical reasoning and the representation of information.

Table 1. Results of AI Answers According to the Different Prompts

Prompt type	Successful	Partially Successful	Failure
<i>Linguistic Understanding</i>	3	0	1
<i>Contextual Reasoning</i>	2	1	1
<i>Analogical Reasoning</i>	1	1	2
<i>Emotional Intelligence</i>	0	1	3

The results of the study reveal varying levels of success across different cognitive abilities tested in ChatGPT 3.5. In linguistic understanding, AI was successful in 75% of the prompts (3 out of 4), with no instances of partial success and a failure rate of 25% (1 out of 4). For contextual reasoning, it was successful in 50% of the cases (2 out of 4), partially successful in 25% of the prompts (1 out of 4), and failed in the rest 25% (1 out of 4). In the case of analogical reasoning, AI demonstrated success in only 25% of the prompts (1 out of 4), with a partial success rate of 25% (1 out of 4) and a failure rate of 50% (2 out of 4). Finally, for emotional intelligence, AI achieved no successes (0%), was partially successful in 25% of the cases (1 out of 4), and failed in 75% of the prompts (3 out of 4). These results suggest that while AI performs relatively well in linguistic understanding, its capabilities in contextual reasoning, analogical reasoning, and especially emotional intelligence show significant limitations.

## 5. Conclusion and Suggestions

This study was set out to examine whether the concept of innateness, typically associated with human language acquisition, can be detected in artificial intelligence, specifically in ChatGPT 3.5. The results indicate that while ChatGPT 3.5 demonstrates strong linguistic understanding and can generate coherent responses in simple language tasks, it struggles in areas requiring

deeper contextual, analogical, and emotional reasoning. The AI's inability to fully engage with the social and emotional aspects of language, particularly evident in its failure to handle prompts related to emotional intelligence, underscores the limitations of current AI models in replicating the innate cognitive and social mechanisms of human communication.

The results' analysis highlights that while AI can be trained to mimic human-like responses, its learning remains based purely on statistical patterns rather than true cognitive understanding. The lack of innate knowledge means that AI systems are unable to grasp the complexity of human experience, which is deeply embedded in emotion, culture, and social interaction.

Based on the findings of this research, several practical suggestions can be made to enhance the functionality and application of AI in language-related tasks, while also emphasizing the importance of not fully relying on AI. First, it is essential to continue refining AI's ability to handle more complex contextual reasoning and emotional intelligence tasks, in which ChatGPT 3.5 showed significant limitations. By improving AI's capacity to understand abstract and nuanced meanings, particularly in social and emotional contexts, its performance in real-world applications could be enhanced. However, given AI's limitations in replicating human-like emotional depth, self-awareness, and understanding, it is crucial to acknowledge that AI should not replace human judgment, especially in fields requiring ethical considerations and emotional sensitivity. AI developers should also consider integrating more advanced models of human cognition into AI systems, focusing on how emotional and social interactions shape language understanding. Despite these improvements, we must remain cautious and avoid over-reliance on AI, as human insight and judgment remain indispensable in contexts that require empathy, ethical decision-making, and nuanced understanding.

## References

Assaiqeli, A., (2013). Theories of language learning: A contrasting view. *Scholarly Journal of Scientific Research and Essay (SJSRE)* 2(3),34-43.

Bai, Y., Jones, A., Ndousse, K., Askell, A., Chen, A., DasSarma, N., Drain, D., Fort, S., Ganguli, D., Henighan, T., Joseph, N., Kadavath, S., Kernion, J., Conerly, T., El-Showk, S.,

Elhage, N., Hatfield-Dodds, Z., Hernandez, D., Hume, T., ... Kaplan, J. (2022). Training a helpful and harmless assistant with reinforcement learning from human feedback. Retrieved on September 15, 2023 from: arXiv. <https://arxiv.org/abs/2204.05862>

Baytelman Y., Baytelman M., & Potsepaiev V. (2024). Testing AI ability to process figurative language. Scientific Papers of Donetsk National Technical University, series “Problems of Modeling and Automation of Design”, 1 (19).

Cheung, N., Florit-Scarvelis, A., Jiao, E., & Raskin Calvo, I. (2023). A comparative analysis of innate knowledge in AI and human language models. OxJournal. Retrieved on September 15, 2023 from: <https://www.oxjournal.org/a-comparative-analysis-of-innate-knowledge-in-ai-and-human-language-models/>

Choi, I. C. (2016). Efficacy of an ICALL tutoring system and process-oriented corrective feedback. *Computer Assisted Language Learning*, 29(2), 334-364. 29:2, 334-364

Chomsky, N. (1959). A review of B. F. Skinner’s verbal behavior. *Language* 35, 26-58.

Chomsky, N. (1975). *Reflections on language*, London: Fontana.

Evans, V. (2012). *Cognitive linguistics*. Wiley Interdisciplinary Reviews: Cognitive Science, 3(2), 129–141. <https://doi.org/10.1002/wcs.1163>

Fitch, W. T., Huber, L., & Bugnyar, T. (2010). Social cognition and the evolution of language: Constructing cognitive phylogenies. *Neuron*, 65(6), 795 - 814

Lightbown, P., & Spada, N., (2006). *Explaining second language learning. How languages are learned*. Oxford handbook for language teachers, Oxford: Oxford University Press.

Lu, X. (2018). Natural language processing and intelligent computer-assisted language learning (ICALL). *The TESOL Encyclopedia of English Language Teaching*, 1-6.

Marcus, G. (2018). Innateness, alphazero, and artificial intelligence. arXiv preprint arXiv:1801.05667.

Orrù, G., Piarulli, A., Conversano, C. & Gemignani, A. (2023). Human-like problem-solving abilities in large language models using ChatGPT. *Frontiers in Artificial Intelligence*. 6:1199350. DOI: 10.3389/frai.2023.1199350

Pokrivčáková, S. (2019). Preparing teachers for the application of AI-powered technologies in foreign language education. *Journal of Language and Cultural Education*.

Roxana Rebolledo, F. & González Araya, F. (2010). Exploring the benefits and challenges of AI-language learning tools. *International Journal of Social Sciences and Humanities Invention*, 10(1).

Skinner, B.F. (1957). *Verbal behavior*. NY: Prentice Hall.

Uwababyeyi, A. & Tabaro, C. (2021). Theories underpinning language acquisition/learning: Behaviourism, mentalist and cognitivism. *International Journal of Contemporary Applied Researches*, 8(4).



**Dr. Jeanine Ziadé  
Abou Tacca**

PhD in Psychology  
and Assistant  
Professor at  
the Lebanese  
University,  
Faculty of Arts  
and Humanities -  
Beirut - Lebanon.

## **Street life and the struggle for emotional control**

---

### **Abstract**

This study investigates emotional dysregulation among nine street-working children (ages 9–12) at the Mouvement Social center in Bourj Hammoud. Amidst chronic poverty and trauma, these children often struggle to manage emotional responses. Using an action research approach, the study implements a group-based Cognitive Behavioral Therapy (CBT) intervention. The goal is to help children identify triggers and build resilience. Evaluation is conducted via clinical interviews and the ERQ-CA scale to provide evidence-based, culturally sensitive support for high-risk populations. Results indicate that the CBT techniques successfully improved emotional resilience, providing a culturally sensitive framework for supporting high-risk, traumatized children in the Lebanese context.

**Key words:** Emotional regulation, street-working children, group-based cognitive behavioral therapy.

## المخلص

تتناول هذه الدراسة اختلال التنظيم العاطفي لدى تسعة من الأطفال العاملين في الشوارع (9-12 سنة) المستفيدين من مركز الحركة الاجتماعية في برج حمود، لبنان. في ظل الأزمات المزمعة، يواجه هؤلاء الأطفال صعوبة في إدارة انفعالاتهم. تعتمد الدراسة منهج البحث الإجمالي عبر تدخل يهدف إلى تمكينهم من تحديد محفزاتهم، (CBT) جماعي مستند إلى العلاج المعرفي السلوكي لتقديم تدخلات (ERQ-CA) العاطفية وبناء المرونة النفسية. تم تقييم الأثر عبر المقابلات ومقياس علمية وحساسية ثقافياً لدعم الفئات المهمشة. أظهرت النتائج فعالية تقنيات العلاج السلوكي في تعزيز المرونة النفسية، مما يوفر نموذجاً علمياً وحساساً ثقافياً لدعم الأطفال في البيئات عالية المخاطر الكلمات المفتاحية: اختلال التنظيم العاطفي، الأطفال العاملون في الشوارع، العلاج المعرفي السلوكي الجماعي

## 1. Introduction

Emotional dysregulation is a psychological concept that is described as emotional expression and experience that does not match situational context, involving difficulties in identifying, understanding and modulating emotions. The repeated crises and traumas in Lebanon, have increased concerns around children's mental health and psychosocial needs. Within this context, street-working children are particularly vulnerable as they work in unsafe environments and are constantly exposed to neglect, violence and unstable family conditions, factors that are linked to emotional dysregulation. This concept is shown as difficulties in effectively managing and responding to emotional experiences is prevalent among street-working children due to exposure to poverty, trauma, neglect, and limited support.

Observations at Mouvement Social - Lebanon (Bourj Hammoud Center) revealed that emotional regulation difficulties disrupt group dynamics during psychosocial support sessions and recreational interventions, leading to conflicts, reduced engagement, and challenges in achieving program objectives.

Given the chronic trauma and environmental risks in Lebanon, how effective is a specialized CBT program in fostering emotional resilience among children working on the streets?

## 2. Importance of the research

This research is valuable for its potential to generate both practical and scientific outcomes.

Practically, the research aims to increase knowledge of emotions and

their triggers, develop emotional regulation skills and resilience, promote cognitive restructuring, and reduce emotional dysregulation. These outcomes are expected to improve overall emotional health and reduce behavioral challenges.

Scientifically, this research holds significant value as it tests proposed solutions, such as group sessions employing Cognitive Behavioral Therapy (CBT) techniques, to address emotional dysregulation. By adapting CBT to these unique settings, the study examines its flexibility and applicability in non-traditional environments, which may enrich psychological practice. In addition, the research contributes to a better understanding of emotional dysregulation among street-working children, a high-risk and underrepresented population in psychological research.

### **3. Proposed hypothesis**

The central hypothesis of this study posits that the implementation of a culturally adapted, group-based Cognitive Behavioral Therapy intervention will lead to a statistically significant reduction in emotional dysregulation among street-working children at the Mouvement Social center.

It is anticipated that by systematically teaching children to identify cognitive distortions and link their thoughts to emotional outbursts, the intervention will replace maladaptive externalizing behaviors—such as aggression or social withdrawal—with functional self-regulation strategies. Furthermore, the researcher expects that the group setting will provide a vital "social laboratory" where shared experiences of trauma in the Lebanese context are validated, thereby enhancing the children's scores on the Emotional Regulation Questionnaire (ERQ-CA).

Specifically, the study predicts that participants will demonstrate an increased capacity for cognitive reappraisal and a decreased reliance on expressive suppression, ultimately fostering greater psychological resilience despite their continued exposure to high-risk environments.

### **4. Research objectives**

The main objective of this research is to lower the levels of emotional dysregulation among street-working children using CBT techniques in a group setting. And the sub-objectives are:

- Help Children recognize and name their emotions, improving their emotional

knowledge and understanding of emotional triggers.

- Teach children problem-solving strategies, helping them approach challenges constructively and manage stress more effectively.
- Focus on strengthening children's belief in their ability to handle difficulties, encouraging a growth mindset, confidence, and enhancing healthy coping mechanisms.
- Improve interpersonal skills to help in managing relationships, conflict resolution, and emotional expression in social experiences.

## 5. Theoretical review

Emotion dysregulation can manifest as difficulties in modulating emotional arousal in a way that allows adaptive, goal-directed behavior (Gratz & Roemer, 2004). Dysregulation in childhood can manifest through intense anger outbursts, exaggerated reactions, emotional withdrawal, impulsivity and even aggression, that can interfere with the psychosocial development of the child. (Shields & Cicchetti, 1998; Cole, Martin & Dennis, 2004). The child's ability to develop and maintain emotional regulation capacities is dependent on responsive caregiving and healthy neurobiological development; however, chronic exposure to adversity like neglect, abuse, poverty and instability can disrupt this development process. (Morris et al., 2007).

In Lebanon, the socio-political instability, economic collapse, and repeated and continuous trauma events have increased the children's vulnerability and mental health concerns. (UNICEF, 2021). And in particular Street-working children, are considered a highly at-risk population, due to their continuous exposure to unsafe environment, neglect, unstable social conditions and violence, that can all lead to emotional dysregulation. (Save the Children, 2017).

Emotional dysregulation, in particular, is one of the barriers to their social development, academic achievement, and future adaptation to adult life (Jawde, 2021). And it has been linked to poor child adjustment (Herndon et al., 2013), and increased risk for later mental health difficulties (Crowell, Puzia & Yaptangco, 2015; Keenan, 2000). Addressing emotional dysregulation may lead to better emotional well-being, social functioning, resilience, and overall quality of life (Masten & Powell, 2003).

Based on that, this study proposes the implementation of a structured group intervention based on Cognitive Behavioral Therapy (CBT), an evidence-

based approach shown to enhance emotional regulation skills in children (Suveg et al., 2018).

## **6. Previous studies**

The study of emotional regulation has gained significant attention within the field of psychology. Different research has been conducted to explore the factors, impacts, and effective interventions to address it.

### **6.1. Studies on emotion dysregulation**

A study is titled “Dysregulation in children: Origins and implications from age 5 to age 28. This research emphasizes that emotional regulation is a multifaceted developmental process shaped by both social competencies and family environments. McQuillan et al. (2018) demonstrate that early dysregulation, often rooted in poor language skills and negative peer interactions, serves as a significant predictor for long-term mental health challenges and social dysfunction in adulthood. Complementing this, Thomassin et al. (2015) highlight the importance of parental dynamics, finding that when parents display congruent positive emotions—a concept known as Interparental Positive Affect Congruency (IPAC)—children exhibit lower levels of dysregulation and a reduced risk of depressive symptoms. Together, these studies suggest that a child's ability to manage emotions is not only an individual trait but is deeply influenced by the quality of their communicative abilities and the emotional stability of their primary caregivers.

### **6.2. Studies on interventions for addressing emotional dysregulation**

This research underscores the efficacy of targeted interventions in addressing the psychological scars of trauma and developmental disorders. Karabulut (2014) highlights that highly traumatized youth, such as homeless street-working boys, often suffer from deep-seated issues including a lack of trust, feelings of unworthiness, and substance use; however, specialized emotion regulation interventions can successfully foster emotional awareness and secure attachment relationships. Similarly, Vacher et al. (2022) demonstrate that Cognitive Behavioral Therapy (CBT) significantly reduces aggression and dysregulation in children with ADHD while enhancing executive functioning. Crucially, the benefits of CBT extend beyond the individual to improve family dynamics and reduce parental stress, with positive outcomes persisting long-term. Together, these studies validate that structured therapeutic frameworks

like CBT are essential for rehabilitating high-risk youth and stabilizing their broader social environments.

### **6.3. Studies on street working children**

This study highlights the profound physical and psychological toll on children working in industrial or street environments. Ahmed et al. (2022) found that working children in Egypt experience high levels of stress and abuse, resulting in lower emotional functioning, hopelessness, and significant physical deficits such as lower weight and hemoglobin levels. Similarly, Shazia and Kiran (2019) demonstrated that children living on the streets possess much lower psychological well-being and poorer interpersonal relationships compared to those in shelter homes, largely due to societal discrimination and lack of basic necessities. Furthermore, Attia et al. (2017) observed that street children—even those in institutional care—exhibit significantly higher rates of conduct disorders than school-going peers, driven by factors like family instability and dissatisfaction with their care environment. Collectively, these studies confirm that labor and street life severely compromise a child's social, physical, and mental development.

### **Commentary on the previous studies**

The reviewed studies collectively demonstrate that emotional dysregulation is linked to multiple interrelated factors, such as child maltreatment, family dynamics, peer interactions, and socio-environmental stressors. These studies revealed that children in high-risk contexts are at higher risk of developing emotion dysregulation and relying on maladaptive coping strategies. The studies about interventions provide insight into effective approaches to mitigating emotional dysregulation. CBT-based interventions demonstrate positive impact on emotional regulation, problem-solving skills, and behavioral outcomes across different populations.

## **7. Methodology**

The intervention has been applied to the street working children served by the NGO, and the ERQ-CA has been used to measure its effectiveness.

### **7.1. Population of the study**

This study focuses on a specific group of beneficiaries the NGO Mouvement Social Lebanon. The participants selected for this research exhibit signs of emotional dysregulation, as observed by the researcher. Nine children aged

between 9 and 12 years old have been identified as displaying varying degrees of emotional dysregulation.

This group includes both boys and girls that are actively engaged in income-generating activities such as vending, street-based trade, providing services, and scavenging on the streets to support themselves and their families and they showed scores on the ERQ-CA scales that confirms the presence of emotional dysregulation.

## 7.2. Scale

The Emotion Regulation Questionnaire for Children and Adolescents (ERQ-CA-10) is a revised version of the original ERQ, developed by Gross and John in 2003. In 2012, Gullone and Taffe modified the ERQ-CA to assess how children and adolescents aged 8 to 18 regulate their emotions. This version includes simplified item wording and uses a 5-point Likert scale instead of the original 7-point scale. 48 This scale helps in understanding emotional functioning by measuring the strategies employed by individuals, focusing on:

- Cognitive Reappraisal (CR) measured by 6 items: 1, 3, 5, 7, 8, and 10. Assess the ability of children to cognitively reinterpret situations to modify the emotional expression
- Expressive Suppression (ES) measured by 4 items: 2, 4, 6, and 9. Measures the ability of the children to inhibit outward emotional expression.

The ERQ-CA can serve as a screening tool for emotional dysregulation. Scoring involves calculating the mean scores for each subscale separately. Difficulties in emotional regulation will appear in elevated scores on the Expressive Suppression (ES) subscale, combined with lower scores on the Cognitive Reappraisal (CR) subscale. (Graziano & Garcia, 2016).

Different validation studies confirmed its reliability and validity in understanding emotional regulation in children, and a study conducted by Different validation studies confirmed its reliability and validity in understanding emotional regulation in children, and a study conducted by El Keshky (2018) in Saudi Arabia validated the Arabic version.

The psychometric analysis of the scale shows that the instrument is both valid and reliable for use in the Lebanese context. The item-total correlations for both the Cognitive Reappraisal and Expressive Suppression Subscales were high and statistically significant, confirming the internal validity of the scale

and its ability to measure the intended factors. Therefore, the instrument can be confidently used to assess adaptive emotion regulation strategies in the actual Lebanese Context.

### **7.3. Problem identification**

This passage outlines the professional trajectory of the intervention, from initial observation to evidence-based selection. It highlights a proactive, multi-disciplinary approach to identifying and addressing trauma-related behavioral challenges.

Here is an elaboration of the key phases described:

#### **1. Identification of Clinical Symptoms**

The process began with the identification of specific markers of emotional dysregulation. These symptoms—impulsivity, frustration intolerance, irritability, and outbursts—were not merely individual struggles but were actively disrupting the collective environment of the NGO. This underscores how dysregulation in high-stress populations can create a "ripple effect," hindering the effectiveness of psychosocial support (PSS) for the entire group.

#### **2. Multi-Disciplinary Collaboration**

A critical step in this process was the triangulation of information. Rather than relying on a single observation, the intern integrated data from:

- Individual Case Files: Providing historical context and trauma backgrounds.
- Professional Consultations: Discussions with the psychologist, case manager, and PSS facilitator ensured a 360-degree view of each child's needs.
- Stakeholder Buy-in: Presenting a formal proposal to the head of the center ensured that the intervention was aligned with the NGO's mission and operational capacity.

#### **3. Evidence-Based Assessment and Selection**

To move from subjective observation to objective measurement, the project utilized a clinical-quantitative approach:

- Clinical Interviews: These allowed for an exploration of the "lived experience" of the children, capturing nuances that scales might miss.
- The ERQ-CA Scale: The Emotion Regulation Questionnaire for Children and Adolescents served as the scientific baseline. By measuring Cognitive Reappraisal (CR) and Expressive Suppression (ES), the study could pinpoint exactly which children relied on maladaptive habits, such as "bottling up"

emotions (high ES) or lacked the ability to reframe negative thoughts (low CR).

#### 4. Strategic Goal Setting

The ultimate aim of the proposal was not just to "fix" behavior, but to provide sustainable psychological tools. By teaching children to identify and understand the mechanics of their feelings, the intervention sought to transform them from passive victims of their impulses into active managers of their emotional states. This transition from reactive outbursts to effective management is the core of the "detective mindset" later cultivated in the sessions.

**Table 1: Pre-test results**

Beneficiary	Cognitive Reappraisal - Pre12	Expressive Suppression - Pre
Beneficiary 1	17	15
Beneficiary 2	17	16
Beneficiary 3	11	16
Beneficiary 4	10	16
Beneficiary 5	12	18
Beneficiary 6	14	15
Beneficiary 7	14	15
Beneficiary 8	11	13
Beneficiary 9	10	14

The table above indicates the presence of emotional dysregulation, as the beneficiaries demonstrate elevated scores on the Expressive Suppression (ES) subscale alongside lower scores on the Cognitive Reappraisal (CR) subscale.

#### 7.4. Intervention Plan

To address these identified psychological challenges and bridge the gap between systemic trauma and individual recovery, a structured clinical response was developed. The following intervention plan outlines a strategic, 12-session framework designed to cultivate sustainable emotional regulation and resilience; specifically, the table below provides a structured overview of the program, detailing the techniques and objectives used to foster these essential skills.

Table 2: Intervention roadmap

Phase	Sessions	Focus area	Focus area
Foundation	1-3	Building safety & awareness	Icebreakers, emotion wheel, somatic worksheets
Cognition	4-7	The thinking-feeling link	The thinking-feeling link
Skill-building	8-10	Active coping & strategy	STOPP method, 5-4-3-2-1 Grounding, STEP model
Integration	11-12	Relaxation & sustainability	Muscle relaxation, relapse Prevention, planning

The group-based Cognitive Behavioral Therapy (CBT) intervention is a meticulously structured program designed to bridge the gap between emotional vulnerability and active self-regulation for street-working children. By moving through a sequential developmental arc, the intervention transforms abstract psychological concepts into tangible, life-saving skills.

#### Phase I: Foundations of Awareness (Sessions 1–3)

The journey begins by fostering a "social laboratory" where trust is the primary currency. In Session 1, the emphasis is on safety; collaborative rule-setting ensures that children—many of whom navigate chaotic environments—feel a sense of agency and belonging. This evolves into Sessions 2 and 3, which focus on the mind-body connection. By utilizing the "emotions wheel" and "emotion thermometers," children move beyond basic descriptors of "good" or "bad" to accurately name complex feelings. Crucially, somatic worksheets help them decode physical distress signals—like a racing heart or clenched fists—before they escalate into behavioral outbursts.

#### Phase II: The Cognitive Engine (Sessions 4–7)

Once a baseline of awareness is established, the intervention shifts to the "how" and "why" of emotional responses. Session 4 introduces the concept of "trigger chains," allowing children to map out the external events that lead to dysregulation. This feeds into the core theoretical framework in Session 5,

where the CBT Triangle (Thoughts-Feelings-Actions) and the ABC Model are introduced to illustrate how internal interpretations, rather than just external events, drive behavior. In Sessions 6 and 7, participants begin the work of "cognitive restructuring." They learn to play "detective" with their own minds, identifying Negative Automatic Thoughts (NATs) and practicing thought reframing through role-play to build a more helpful internal narrative. Phase III: The Mastery Toolbox (Sessions 8–12)

The final phase focuses on sustainable resilience. Sessions 8 and 9 equip participants with emergency "grounding" tools, such as the 5-4-3-2-1 technique and the STOPP method, providing immediate circuit breakers for intense emotions. Session 10 introduces structured problem-solving through the "Traffic Light" model, teaching children to "Stop, Think, and Go" in high-pressure situations. The program culminates in Session 11's intensive relaxation training—covering progressive muscle relaxation and guided imagery—and concludes with Session 12, a comprehensive review and relapse prevention plan. This final step ensures that the children leave the program not just with a set of activities, but with a permanent mental "toolbox" to navigate the adversities of their daily lives.

## 7.5. Results

Following the implementation of the 12-session intervention, a comparative analysis of the data was conducted to measure progress. The following section elaborates on the study's findings, contrasting the children's baseline emotional states with their post-intervention outcomes to evaluate the overall efficacy of the CBT program.

The results show a consistent trend: a marked increase in healthy cognitive strategies and a substantial decrease in maladaptive emotional habits.

Here is an analysis of the key findings:

### 1. Substantial Gains in Cognitive Reappraisal (CR)

Cognitive Reappraisal scores—which reflect the ability to mentally reframe a situation to change its emotional impact—showed a dramatic upward trend.

- **Significant Improvement:** On average, scores more than doubled. For instance, Beneficiary 4 and Beneficiary 8 started with very low baseline scores (10 and 11) and rose to high levels of competency (26).
- **Highest Growth:** Beneficiary 1 showed the most significant progress,

jumping from a score of 12 to 28.

- Implication: This suggests that the children have successfully moved away from reactive, impulsive responses and have instead adopted the "detective" mindset taught in the sessions, allowing them to think before they act.

## **2. Drastic Reduction in Emotional Suppression (ES)**

Emotional Suppression involves "bottling up" feelings, a common but harmful defense mechanism for traumatized youth.

- Consistent Decrease: Every single participant showed a reduction in ES scores.
- Notable Shifts: Beneficiary 2 saw the most dramatic drop, moving from a 16 (high suppression) to a 6 (low suppression).
- Implication: A lower ES score indicates that the children now feel safer and more equipped to express their emotions healthily rather than hiding them. This is a critical indicator of improved psychological well-being and trust in their social environment.

## **3. Homogeneity of Outcomes**

While the children started with varying levels of emotional struggle, the "Final Scores" show a level of convergence.

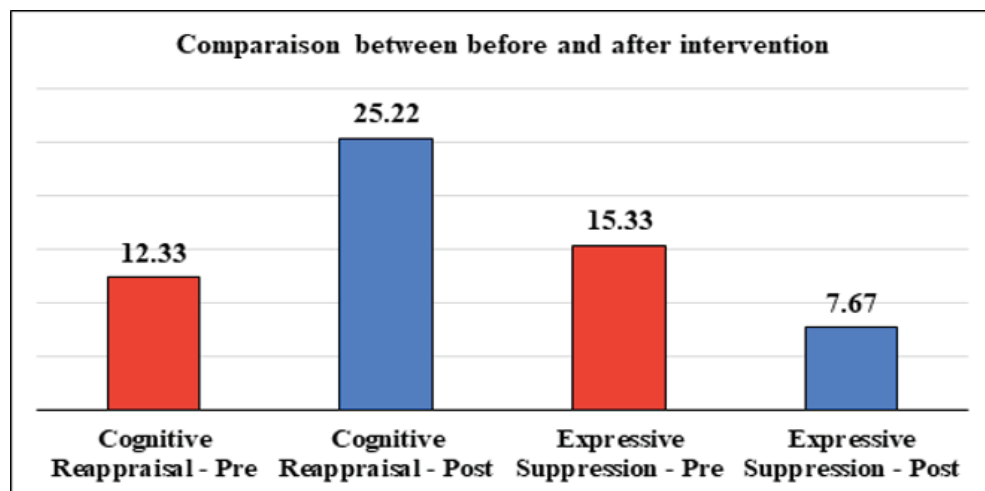
- Most participants ended with CR scores in the 23–28 range and ES scores in the 6–10 range.
- Interpretation: This suggests that the intervention was universally effective across the group, regardless of the child's starting point. It proves that the structured nature of the 12 sessions provided a reliable framework that worked for diverse individual temperament

Cognitive Reappraisal scores increased from pre- to post-intervention. While, Expressive Suppression scores decreased across all participant as illustrated in the table below.

Table 3: Pre- and Post-intervention ERQ-CA Scores

Beneficiary	Initial Scores		Final Scores	
	CR	ES	CR	ES
Beneficiary 1	12	15	28	10
Beneficiary 2	17	16	24	6
Beneficiary 3	11	16	23	7
Beneficiary 4	10	16	26	9
Beneficiary 5	12	18	25	7
Beneficiary 6	14	15	25	7
Beneficiary 7	14	15	27	8
Beneficiary 8	11	13	26	8
Beneficiary 9	10	14	23	7

Overall, the results, highlighted in the chart below, show an improvement in participants' emotion regulation abilities. The consistent increase in CR in addition to the decrease in ES demonstrates a positive change toward healthier and more adaptive emotional regulation following the intervention.



Attendance and engagement levels were also monitored as indicators of participant involvement.

Additionally, direct behavioral observation conducted through the sessions and semi-structured interviews helped gather data. Over time, children demonstrated verbal emotional expression, reduction in withdrawal,

and disruptive behavior. The intervention led to several improvements, including a decrease in intense emotional episodes, reduced physical and verbal aggressive behaviors, and better compliance. In addition to enhanced emotional expression, better impulse control, and improved peer relationships. And the somatic complaints related to emotional distress were addressed. The mixed method ensured that progress was not only statistically observed but also contextually validated.

Furthermore, the convergence of final scores suggests that the structured nature of the 12-session framework provided a reliable and equitable pathway for growth, effectively bridging the gap between children with disparate baseline struggles. By transitioning from a reactive "bottling up" defense to a proactive "detective" mindset, participants moved beyond mere symptom reduction to a state of high competency in cognitive reframing. This shift from internalizing distress to externalizing healthy expression represents a fundamental transformation in their psychological resilience. Ultimately, the data underscores a universal efficacy, proving that targeted intervention can foster significant emotional stabilization and social integration regardless of an individual child's starting temperament.

## **8. Conclusion**

This research aimed to reduce emotional dysregulation among street-working children utilizing CBT techniques. The study began by selecting the participants who exhibited signs of dysregulation. A 12-session intervention was implemented, specifically developed for this research, designed to build emotional vocabulary, enhance self-awareness, teach cognitive restructuring, and teach coping skills.

The effectiveness of the CBT-based intervention was measured using a mixed-methods approach. Quantitatively, the ERQ-CA assessed changes in cognitive reappraisal and expressive suppression before and after the intervention. Qualitatively, session observations and participant feedback highlighted increased emotional awareness and practical application of techniques in daily life. By combining these measures, the study was able to evaluate progress over time and capture both measurable outcomes and lived experiences, providing a comprehensive assessment of the intervention's impact.

The findings of this research confirm that a structured, CBT-based intervention

serves as a powerful catalyst for psychological transformation among street-working children. By addressing the root of emotional dysregulation, the 12-session program successfully shifted participants from a state of reactive vulnerability to one of proactive resilience. This transition was characterized by a doubling of Cognitive Reappraisal (CR) scores and a significant reduction in Emotional Suppression (ES), indicating that children traded maladaptive "bottling up" habits for a more analytical "detective mindset".

The synthesis of quantitative data and qualitative observations reveals a profound impact that extends beyond mere statistics:

- **Behavioral Stabilization:** Beyond the ERQ-CA metrics, direct observations noted a marked decrease in intense emotional episodes, verbal and physical aggression, and disruptive behaviors.
- **Cognitive Mastery:** The dramatic upward trend in CR—with scores converging in the 23–28 range—proves that the children moved away from impulsive responses toward intentional reframing.
- **Holistic Wellbeing:** The intervention successfully addressed somatic complaints related to distress and fostered improved peer relationships and impulse control.
- **Universal Efficacy:** The homogeneity of the final outcomes suggests that the framework was reliably effective regardless of a child's initial temperament or baseline struggle, providing an equitable path toward emotional health.

In conclusion, the mixed-methods approach validated that the progress made was both **statistically significant and contextually grounded**. By equipping these children with a robust emotional vocabulary and practical coping skills, the intervention did more than mitigate symptoms; it provided them with a durable psychological toolkit to navigate the complexities of their social environment with newfound safety and competence.

## 9. Recommendations

After finalizing the intervention and the result evaluation, a presentation of future recommendations is important. The primary goal of the recommendation is to enhance the effectiveness of the intervention targeting street-working children with emotional dysregulation.

### For the NGO:

- Integrate evidence-based interventions like CBT in psycho-social support

programs that target children with both emotional and behavioral challenges.

- Provide a safe and consistent environment through trust, routine, and active participation that leads to regulation and holistic psychological improvement.
- Train staff in child-specific CBT techniques and emotional literacy activities to enhance the quality of the program and its impact
- Ensure regular follow-up by integrating booster sessions or support groups to help children maintain their progress.

**For mental health and psychosocial professionals:**

- Balance structure and flexibility. While structured content is important, sessions should remain responsive to the individuals' needs.
- Adapt therapeutic tools to children's developmental levels using visual and interactive methods.
- Focus on relationship-building as a key tool, especially for children facing emotional dysregulation who might resist or struggle to engage initially.

**For Future Researchers:**

- Replicate the intervention in a larger sample to test its generalizability and adapt it to various cultural or conflict-affected settings.
- Conduct longitudinal studies to assess the long-term impact of the program and help identify relapse patterns and sustainability gaps.

These recommendations help contribute to the improvement of the well-being of street working children and ensure that the support systems are well-equipped and informed.

**English References**

- 1) Ahmed, A. S., Hamed, R. A., & Sheta, S. S. (2022). Physical, psychosocial health, and quality of life among working children in small industrial shops. *Egyptian Journal of Occupational Medicine*, 46(3), 109–126. <https://doi.org/10.21608/ejom.2022.117843.1262>
- 2) Attia, M. S., Tayel, K. Y., Shata, Z. N., & Othman, S. S. (2017). Psychosocial profile of institutionalized street children in Alexandria, Egypt: A comparative study with school children. *Journal of Child & Adolescent Mental Health*, 29(2), 103–116. <https://doi.org/10.2989/17280583.2017.1339606>
- 3) Cole, P. M., Martin, S. E., & Dennis, T. A. (2004). Emotion regulation as a scientific construct: Methodological challenges and directions for child development research. *Child Development*, 75(2), 317–333. <https://doi.org/10.1111/j.1467-8624.2004.00673.x>

- 4) Crowell, S. E., Puzia, M. E., & Yaptangco, M. (2015). The ontogeny of chronic distress: Emotion dysregulation across the lifespan and its implications for psychological and physical health. *Current Opinion in Psychology*, 3, 91–99. <https://doi.org/10.1016/j.copsyc.2015.03.023>
- 5) El Keshky, M. E. E. (2018). Factor structure, reliability and validity of the Arabic version of the Emotion Regulation Questionnaire (ERQ) in a sample of Saudi children and adolescents. *International Journal of Psychology and Behavioral Sciences*, 8(2), 22–30. <https://doi.org/10.5923/j.ijpbs.20180802.02>
- 6) Gratz, K. L., & Roemer, L. (2004). Multidimensional assessment of emotion regulation and dysregulation: Development, factor structure, and initial validation of the Difficulties in Emotion Regulation Scale. *Journal of Psychopathology and Behavioral Assessment*, 26(1), 41–54. <https://doi.org/10.1023/B:JOBA.0000007455.08539.94>
- 7) Gross, J. J., & Thompson, R. A. (2007). Emotion regulation: Conceptual foundations. In J. J. Gross (Ed.), *Handbook of emotion regulation* (pp. 3–24). Guilford Press.
- 8) Herndon, K. J., Bailey, C. S., Shewark, E. A., Denham, S. A., & Bassett, H. H. (2013). Preschoolers' emotional expression and regulation: Relations with school adjustment. *The Journal of Genetic Psychology*, 174(6), 642–663. <https://doi.org/10.1080/00221325.2012.759525>
- 9) Karabulut, İ. G. P. (2014). Emotion regulation intervention for complex developmental trauma: Working with street children. *Procedia – Social and Behavioral Sciences*, 159, 697–701. <https://doi.org/10.1016/j.sbspro.2014.12.471>
- 10) Keenan, K. (2000). Emotion dysregulation as a risk factor for child psychopathology. *Clinical Psychology: Science and Practice*, 7(4), 418–434. <https://doi.org/10.1093/clipsy.7.4.418>
- 11) Masten, A. S., & Powell, J. L. (2003). A resilience framework for research, policy, and practice. In S. S. Luthar (Ed.), *Resilience and vulnerability: Adaptation in the context of childhood adversities* (pp. 1–25). Cambridge University Press.
- 12) McLaughlin, K. A., Hatzenbuehler, M. L., Mennin, D. S., & Nolen-Hoeksema, S. (2011). Emotion dysregulation and adolescent psychopathology: A prospective study. *Behaviour Research and Therapy*, 49(9), 544–554. <https://doi.org/10.1016/j.brat.2011.06.003>
- 13) Morris, A. S., Silk, J. S., Steinberg, L., Myers, S. S., & Robinson, L. R. (2007). The role of the family context in the development of emotion regulation. *Social Development*, 16(2), 361–388. <https://doi.org/10.1111/j.1467-9507.2007.00389.x>
- 14) Shazia, & Kiran, U. V. (2019). A study of psychological well-being among street children.

International Journal of Research and Analytical Reviews, 6(2), 539–541. <http://www.ijrar.org/papers/IJRAR19K8320.pdf>

15) Suveg, C., Jones, A., Davis, M., Jacob, M. L., Morelen, D., Thomassin, K., & Whitehead, M. (2018). Emotion-focused cognitive-behavioral therapy for youth with anxiety disorders: A randomized trial. *Journal of Abnormal Child Psychology*, 46(3), 569–580. <https://doi.org/10.1007/s10802-017-0319-0>

16) UNICEF Lebanon. (2021). The situation of children and young people in the Lebanese crisis (Situational analysis alpha). Development Pathways.

17) United Nations Children’s Fund. (2001). Definition of street children. In *The state of the world’s children* (p. 9). UNICEF.

18) Vacher, C., Romo, L., Dereure, M., Soler, M., Picot, M. C., & Purper-Ouakil, D. (2022). Efficacy of cognitive behavioral therapy on aggressive behavior in children with ADHD and emotion dysregulation: Study protocol of a randomized controlled trial. *Trials*, 23(1), 124. <https://doi.org/10.1186/s13063-022-05996-5>

#### Arabic References

سلّوم، د. ت. (2022). دليل مناهج البحث في علم النفس. لبنان: الجامعة اللبنانية  
جودة، ج. م. (2021). فعالية برنامج تدريبي قائم على استراتيجيات التنظيم الذاتي وأثره على خفض  
قلق التفاعل الاجتماعي لدى الأطفال. دراسات في الطفولة والتربية، 17(17)، 83-150

# Every Student Matters in Times of Crises: SEL Inclusion Across Learning Environments

Dr. Zeinab Haj Hassan

---

## Abstract

Education systems in fragile and crisis-affected contexts face a challenge that goes beyond academic continuity: how to sustain learning environments that genuinely reach students emotionally, socially, and intellectually. This paper addresses that challenge through the lens of Social-Emotional Learning (SEL), arguing that emotional safety and inclusive design are not supplementary to good teaching but foundational to it. Drawing on the Lebanese educational context as a case study, and grounded in three established frameworks, namely the CASEL model of SEL competencies, trauma-informed pedagogy, and Universal Design for Learning, the paper offers practical strategies for educators across three learning environments: the physical classroom, the hybrid classroom, and the online learning space. It further examines educator well-being as an inseparable dimension of student well-being, and advances an inclusive vision of education in which every student, regardless of their learning profile, language background, or personal circumstances, is considered and reached. The paper contributes a contextually grounded, practitioner-facing resource for educators navigating crisis, with implications for SEL implementation in diverse and resource-constrained **educational settings worldwide.**

**Keywords:** social-emotional learning, inclusive education, trauma-informed pedagogy, hybrid learning, online learning, Lebanon, crisis education, Universal Design for Learning

## 1. Introduction

Teachers are not neutral instruments of pedagogy. They are human beings operating within the same crises that affect their students, and in Lebanon, those crises have been severe and sustained. Some have stood in front of students who arrived distracted and withdrawn, carrying worries that had nothing to do with the lesson at hand: a family under financial strain, a sense of uncertainty that made concentrating on the present feel almost impossible. Others teach students who appear composed on the surface but are quietly struggling. Many educators are navigating all of this while managing their own version of the same pressures.

This paper is written for those teachers, and for every educator who has wondered whether what happens inside a classroom truly matters when so much outside it feels beyond control. The answer, grounded in both research and professional experience, is that it matters enormously. It may matter most precisely when the world outside is most difficult.

Lebanon's education system has absorbed crisis after crisis over the past several years. Economic collapse, political instability, a global pandemic, and an ongoing war have collectively fractured what was already a fragile system. Children in Lebanon have lost up to 60% of their school time over six years (Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge, 2024), and university students have reported significant emotional disruption, academic instability, and deep uncertainty about their futures (Kharroubi, 2025). Teachers, too, have been affected. Research shows that the conflict reduced the income of 66% of teachers while simultaneously raising their cost of living, leaving only a fraction feeling prepared to prioritize educational continuity (Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge, 2024). Yet within this reality, educators have continued to show up. The question this paper addresses is not whether to keep teaching, but how to teach in ways that genuinely reach students emotionally, socially, and academically, even under pressure.

The answer lies in Social-Emotional Learning, commonly known as SEL. SEL is a way of thinking about the relationship between emotional safety and learning readiness, one that resists reduction to a checklist or a scheduled unit. Research on SEL interventions across crisis-affected contexts confirms

that “emotional regulation, resilience, empathy, and social integration” are foundational to academic engagement and long-term well-being, not peripheral outcomes that can be addressed after the real work of teaching is done (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024, p. 778). Where SEL is genuinely embedded in classroom practice, students not only cope better with adversity; they learn better because of it.

This paper offers a practical, teacher-centered resource for integrating SEL principles across three learning environments that many educators navigate today: the physical classroom, the hybrid classroom, and the online learning space. It draws on established frameworks, namely the CASEL model of social-emotional competencies, trauma-informed pedagogy, and Universal Design for Learning, as working tools that inform daily classroom decisions. It also draws on published research and policy literature on Lebanon’s education landscape, alongside the author’s professional experience as an educator in Lebanese higher education.

The central argument of this paper is that in crisis-affected educational contexts, SEL is not a supplementary pedagogical tool but a structural prerequisite for inclusive learning, one that requires deliberate design across physical, hybrid, and online environments. By situating this argument within Lebanon’s compounding crises, the paper contributes a contextually grounded, practitioner-facing resource with relevance beyond the Lebanese setting, applicable to any educational context where students and teachers navigate systemic adversity together.

One commitment runs through every section of this paper: every student matters. This commitment functions as a design principle, embedded in every pedagogical choice. No student should disappear quietly into a hybrid session or go unnoticed in an online course. No student should feel that their language, background, economic situation, or emotional state makes them less deserving of a quality education. Inclusion, in the fullest sense, is both a pedagogical strategy and a moral responsibility. In a society under the kind of sustained pressure Lebanon has endured, the classroom can be one of the few spaces that consistently holds.

## 2. When Crisis Enters the Classroom

To understand why SEL is an urgent pedagogical priority in settings like Lebanon, it is important to look honestly at what educators and students are actually navigating. Crisis does not step aside while teaching continues. It enters the classroom with every student who arrives, shaping concentration spans, attendance patterns, the emotional climate of a room, and a teacher's own capacity to be fully present.

Lebanon offers a particularly acute example of what compounding crises do to an education system. Since 2019, the country has faced an economic collapse of historic proportions, a global health crisis, a catastrophic port explosion, deepening political dysfunction, and an active war that has displaced hundreds of thousands of people. Each of these events arrived before recovery from the previous one was possible. The effects on education have been severe and cumulative. Lebanese children have lost approximately 60% of their schooling over six years, losses that extend well beyond missed academic content and reach into habits of learning, social development, and emotional stability (Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge, 2024).

At the university level, the picture is equally sobering. Higher education in Lebanon comprises one public university and 42 private institutions, and the economic crisis has profoundly undermined both sectors' capacity to sustain quality teaching and research (Akar, 2023). Faculty salaries collapsed in real terms as the Lebanese pound lost nearly all of its value, and institutions struggled to maintain basic academic continuity. A large-scale study found that the ongoing conflict had profoundly disrupted students' academic progress and personal stability, with widespread displacement creating serious barriers to accessing educational resources (Kharroubi, 2025). Students described difficulty concentrating, a loss of motivation, and a pervasive sense of insecurity. Alongside these accounts, however, a repeated theme of hope and determination arose, with many students expressing a genuine desire to return to stability and continue their education (Kharroubi, 2025).

Across the research on Lebanese students and educators, resilience appears alongside devastation. Students want to learn. Teachers want to teach. What they need are tools and approaches that meet them where they are, that acknowledge difficulty without surrendering to it, and that build learning

environments capable of functioning even when broader circumstances cannot be controlled.

This is precisely where SEL becomes essential. Psychological challenges including anxiety, depression, and behavioral changes are widely documented among students in conflict-impacted and economically vulnerable settings (Jibai and Freiha, 2025). These challenges do not disappear when a lesson begins. They are present in the student who joins a session distracted, who stops participating, who withdraws. A teacher who has no framework for acknowledging and responding to that reality risks being unprepared, however well-intentioned they may be, and risks widening the very gaps that an inclusive education is designed to close.

It is also worth acknowledging the material conditions that shape how learning actually happens. Many students in Lebanon access education through a shared device at home, contend with intermittent connectivity, and manage domestic responsibilities alongside academic ones. Designing for equity means accounting for these realities. The strategies explored in the sections that follow are grounded in this understanding and are designed to be transferable, applicable to any classroom where a teacher has decided that every student deserves to be reached.

### **3. Three Frameworks for Emotionally Responsive Teaching**

Understanding the emotional realities of a classroom under pressure is one thing. Knowing how to respond to them in a structured, pedagogically sound way is another. Three interconnected frameworks offer educators the conceptual grounding to move from awareness to action: the CASEL model of Social-Emotional Learning, trauma-informed pedagogy, and Universal Design for Learning. Each addresses a different dimension of the same fundamental challenge, and together they form a coherent foundation for the practical strategies that follow.

#### **Social-Emotional Learning and the CASEL Framework**

The most widely used and researched framework for SEL comes from the Collaborative for Academic, Social, and Emotional Learning, known as CASEL. Since the early 1990s, CASEL has developed and refined a model built around five core competency areas: self-awareness, self-management, social

awareness, relationship skills, and responsible decision-making (CASEL, 2020). These competencies describe the capacities that allow individuals to understand their own emotions, regulate their behavior, relate constructively to others, and make thoughtful choices, particularly under pressure.

What makes the CASEL framework valuable in a crisis context is precisely its breadth. Self-awareness takes on heightened significance when students are managing grief, fear, or instability. Self-management, which includes impulse control, goal-setting, and emotional regulation, becomes a genuine survival skill in environments marked by chronic stress. Social awareness is foundational in classrooms that bring together students from vastly different circumstances, which is often the case in Lebanese educational settings where economic, geographic, and cultural backgrounds vary widely within a single institution or classroom.

Research confirms that SEL interventions grounded in these competencies significantly improve emotional regulation, resilience, empathy, and social integration among students in adverse conditions (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024). Cultural adaptation matters: SEL programs designed without attention to the specific cultural, linguistic, and social context in which they are applied tend to underperform (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024). For educators in Lebanon and similar settings, SEL needs to be interpreted, adapted, and applied with sensitivity to local realities.

### **Trauma-Informed Pedagogy**

The second framework addresses the impact of trauma on learning. When a person feels threatened by physical danger, economic insecurity, displacement, or loss, the neurological systems associated with survival take priority over those associated with higher-order thinking, creativity, and memory consolidation. A student managing ongoing trauma is physiologically less equipped to concentrate, retain information, or engage in complex problem-solving, regardless of their intelligence or motivation. Vygotsky's (1978) concept of the Zone of Proximal Development is instructive here: when the emotional and physiological conditions for learning are absent, the zone itself collapses, and even well-scaffolded instruction cannot reach a student who is not regulated enough to receive it.

Trauma-informed teaching does not require educators to become therapists.

It requires them to organize their classrooms around six core principles: safety, trustworthiness, peer support, collaboration, empowerment, and cultural sensitivity (SAMHSA, 2014). A classroom that feels physically and emotionally safe, where expectations are clear and consistently upheld, where students have genuine voice and agency, and where their cultural identities are acknowledged rather than overlooked, is a classroom where traumatized students have a realistic chance of learning. In Lebanon, where many students carry the weight of displacement, family financial collapse, or exposure to violence, these principles shift from best practice to urgent necessity.

### **Universal Design for Learning and Genuine Inclusion**

Universal Design for Learning, developed by CAST, is a framework centered on embedding accessibility into the foundation of lesson design, preventing the necessity for reactive accommodations after the fact (CAST, 2024). UDL operates through three principles: providing multiple means of representation so that content is accessible through varied formats; multiple means of engagement so that students can connect with material in ways meaningful to them; and multiple means of expression so that students can demonstrate understanding through more than one channel.

A critical distinction must be drawn here between accommodation and genuine inclusion. Many schools in Lebanon operate under the assumption that providing students with learning disabilities or different learning profiles a reduced set of materials, a modified test, or extra time constitutes inclusive practice. While these accommodations address immediate access barriers, they do not redesign the learning experience itself. UDL begins with the premise that variability among learners is the norm to be planned for. As Shlasko and Pacheco (2024) argue, “ensuring education is inclusive of young people with diverse needs and abilities takes intentional practice,” and UDL provides educators with a concrete framework for designing experiences that benefit all learners, not only those with identified differences. Differentiated instruction, which UDL informs and extends, involves designing multiple pathways through content so that students with different processing styles, attention profiles, language backgrounds, or prior knowledge can engage with the same learning goals through means genuinely accessible to them. This requires educators to rethink lesson design before the lesson begins rather

than adapting reactively when a student struggles. For Lebanese classrooms where students arrive with vastly different educational histories, including those who have missed significant schooling due to displacement or school closures, this proactive orientation is particularly consequential.

### **Regulating the Brain as a Precondition for Learning**

The theoretical grounding for inclusive, SEL-informed teaching extends beyond social and emotional frameworks into cognitive neuroscience. When students engage in sustained learning or problem-solving, attentional resources are progressively depleted, and structured rest breaks have been shown to restore cognitive functioning in ways that directly support continued learning (Ackerman and Goldsmith, 2023). Short periods of movement throughout the school day stimulate brain functions that improve focus and memory; conversely, prolonged inactivity reduces blood flow to the brain and limits the release of neurotransmitters, which hinders the learning process (Springer, 2026). Attention spans vary significantly by age, with primary school children able to sustain focused concentration for approximately three to five minutes per year of age, making structured pauses not a concession to distraction but a neurologically grounded instructional decision (Schmitt, 2022, as cited in California State University ScholarWorks, 2024).

These findings have direct classroom implications. Brain breaks, brief structured pauses embedded intentionally within a session, serve as attentional reset points that reduce cumulative cognitive load and lower the arousal levels that chronic stress produces. Short, structured breaks have been shown to positively influence student engagement, with students consistently reporting renewed readiness to participate following break opportunities (Northwest Iowa University, 2024). Used at the opening of a session, a brain break lowers ambient anxiety and signals a transition from whatever pressures preceded the class. Used mid-session, when the teacher notices collective fatigue or rising restlessness, it restores enough attentional capacity for the remainder of instruction to be productive.

Brain teasers serve a related but distinct function. A short puzzle, riddle, or cognitive challenge presented at the start of class activates curiosity and engagement without the evaluative pressure of formal academic work. Brain teasers not only help students learn more effectively but also improve alertness

and investment in the session, with the social interaction they encourage from the very start contributing meaningfully to their effectiveness (Lukez, 2012). They are highly adaptable to age and level: a primary school teacher might display a simple picture riddle or a “what does not belong?” visual sorting activity; an intermediate class might encounter a short logical sequence or a number pattern to complete before the lesson begins. When regulation strategies are built into the daily routine for all students rather than reserved for those who visibly struggle, they normalize emotional self-regulation as a shared classroom practice (National Center for School Safety, 2025), consistent with both UDL and trauma-informed principles.

Taken together, the CASEL framework, trauma-informed pedagogy, UDL, and the neuroscientific understanding of attention and regulation form a coherent and mutually reinforcing foundation for the practical strategies explored in the sections that follow.

#### **4. SEL in the Physical Classroom**

The physical classroom remains, for many educators, the most immediate space for practicing SEL. When students and teachers share the same room, the opportunities for emotional attunement, relational trust, and genuine belonging are at their richest. Realizing those opportunities requires consistent, deliberate practices woven into the daily fabric of instruction.

##### **Creating Emotional Safety as a Daily Practice**

Emotional safety is the condition that makes learning possible. When students feel threatened by judgment, exclusion, unpredictability, or simply not being seen, the brain’s survival responses take priority over the higher-order thinking that academic work requires (SAMHSA, 2014). In classrooms where students carry chronic stress, as is the case for many Lebanese students navigating displacement, economic hardship, or the psychological weight of ongoing conflict, this neurological reality is the starting point for every pedagogical decision.

One of the most research-supported strategies for establishing emotional safety is the consistent opening check-in. Before content is introduced, a brief structured moment invites students to acknowledge how they are arriving to class. A mood check card placed on each desk with a simple prompt such as “one word for how I feel today,” or a brief anonymous written response gives

students a low-stakes opportunity to be honest about their state. In Lebanese classrooms, where students may be reluctant to disclose difficulty publicly, anonymous or paired formats tend to work better than full-group sharing, preserving dignity while still signaling that the teacher notices and cares. This practice is particularly meaningful in contexts where students have grown accustomed to suppressing their emotional state in order to appear functional, a common response to sustained collective trauma (Jibai and Freiha, 2025). Predictability is another cornerstone of emotional safety. Trauma-informed research consistently identifies consistent routines as powerful regulators of student anxiety: when educational expectations are clearly established, students can manage their cognitive resources toward mastering new material rather than dealing with uncertainty (IES, 2025). A simple visible agenda at the beginning of each session, combined with advance notice of any changes, communicates to students that the classroom is a reliable space even when the world outside is not.

Restorative rather than punitive responses to conflict or disengagement further reinforce emotional safety. Zero-tolerance discipline approaches remove students from learning environments precisely when they most need structured connection (Pusey, 2018). Restorative circles, structured conversations that bring students and teachers together to address difficulty and rebuild trust, offer a culturally resonant alternative. In a Lebanese context shaped by collective values and communal problem-solving traditions, the circle format aligns naturally with existing social norms (CASEL, 2020).

### **Building Positive Social Skills Through Collaborative Learning**

Social skills are developed through practice, not through instruction alone, and the classroom is one of the primary environments in which students learn to collaborate, disagree constructively, listen actively, and support one another. In a society where collective trust has been strained by years of instability, the opportunity to practice these skills within a structured educational setting carries genuine significance.

The jigsaw activity, in which students each become “experts” on one component of a topic and then teach their peers, distributes knowledge and authority across the room in ways that build both confidence and interdependence. Research in conflict-affected settings confirms that peer-

to-peer support structures significantly reduce behavioral disengagement and strengthen social integration (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024). Think-pair-share creates lower-stakes entry points for participation, particularly valuable for students who are reluctant to speak in full-group settings following periods of emotional difficulty or prolonged absence from school.

Peer mentoring, where more experienced or confident students are paired with those who need additional support, serves a dual function. The student receiving support gains academic and emotional scaffolding; the student providing it develops responsibility, empathy, and leadership. In Lebanese higher education, where large class sizes and limited counseling resources make individualized attention difficult, peer mentoring offers a scalable strategy that distributes care more broadly without overburdening the teacher. Linguistic diversity in Lebanese classrooms, where students may move between Arabic, French, and English within a single session, can be approached as a collaborative resource. Assigning multilingual pair discussions, where students are intentionally grouped across language backgrounds, allows stronger speakers of one language to support peers while the roles reverse in another. This practice builds social awareness and models the kind of reciprocal respect that SEL frameworks identify as central to positive relationship skills (CASEL, 2020).

### **Designing for Every Learner**

Inclusive classroom design begins before a lesson is delivered. The UDL Guidelines 3.0 place particular emphasis on learner agency, belonging, and identity as foundations of genuine inclusion (CAST, 2024). For educators in Lebanon, where students arrive with vastly different educational histories, this means designing lessons that offer multiple entry points rather than assuming a uniform starting level.

A teacher introducing a new concept might provide a short oral explanation, a visual diagram, and a brief written summary, not simultaneously but as options students can draw on according to their needs. Assessment should offer more than one means of expression. A student who struggles to write a formal paragraph may demonstrate the same understanding through a structured oral response or a visual representation. Providing checklists and note-taking guides, or collaborating with learners to create these resources,

supports organizational skills while honoring different ways of processing information (CAST, 2024).

Differentiated instruction in practice requires teachers to anticipate the range of learners rather than designing for an imagined average student. A teacher introducing a new grammatical concept, for instance, might offer a visual mapping activity for students who process spatially, a pattern-identification task using authentic texts for students who learn inductively, and a direct rule explanation with structured practice for students who benefit from explicit instruction. All three pathways lead to the same learning goal.

For students with identified learning disabilities, differentiated instruction goes beyond modified assessments. It involves adjusting the pacing of instruction, breaking complex tasks into explicitly sequenced steps, providing worked examples alongside open-ended tasks, and building in regular low-stakes checks for understanding. Teachers who have limited training in special educational needs, which describes the majority of classroom teachers in Lebanese schools, can begin with small, manageable adjustments: offering two versions of a task prompt at different levels of linguistic complexity, allowing students to choose between a written and an oral response, or pairing a student who processes slowly with a peer who can model thinking aloud. SEL content and approaches must be locally adapted to be effective; materials that are not grounded in local values and needs risk poor cultural relevance and limited impact (Bailey et al., 2021).

Brain breaks and brain teasers, introduced theoretically in the previous section, find their most immediate application in the physical classroom. A brief opening activity, whether a movement sequence, a breathing exercise, or an age-appropriate puzzle, shifts the emotional climate of the room before instruction begins. Mid-session pauses, calibrated to the age and energy level of the group, restore attentional capacity without sacrificing instructional time. Research on trauma-informed classroom practice supports the inclusion of these regulation strategies as universal rather than targeted interventions (IES, 2025).

## **5. SEL in the Hybrid Classroom**

Hybrid learning arrived in Lebanese education largely as a response to crisis

rather than as a deliberate pedagogical choice. When schools and universities could not guarantee physical continuity, hybrid formats offered a compromise: some students in the room, others connecting remotely, the teacher managing both simultaneously. The result was functional in the narrowest sense, but it introduced a set of social and emotional challenges that few institutions had the preparation or resources to address.

The core difficulty with hybrid learning is structural. Two groups of students occupy the same session but experience it differently. Those present physically can read the room, catch nonverbal cues, speak spontaneously, and feel the social texture of a shared space. Those joining remotely are mediated through a screen, often with limited bandwidth, sometimes sharing a device with family members, and frequently invisible to their peers in any meaningful social sense. Students reported unequal conditions for participation in hybrid settings, with remote learners consistently facing greater structural barriers than those attending in person (Kharroubi, 2025). This inequity is not only logistical. It is emotional. A student who cannot be seen, heard, or reached is a student at risk of disengaging entirely.

### **Sustaining Emotional Connection Across the Divide**

The first SEL priority in a hybrid classroom is equivalence of presence. Every student, regardless of whether they are physically in the room or joining remotely, should feel that they occupy the same educational space. Achieving this requires deliberate design rather than informal goodwill.

Opening rituals are among the most effective tools for establishing this equivalence. When a teacher begins a session by directing the same check-in question to both groups simultaneously, acknowledging remote students by name before beginning instruction, and ensuring that the session's structure does not privilege physical presence, the message is clear: everyone here counts equally. The integration of SEL in educational environments cultivates inclusive communities that enhance students' feelings of significance and social connection (CASEL, 2020). In hybrid settings, belonging must be actively constructed.

Assigning structured participation roles distributes responsibility across both groups and prevents the common pattern where remote students become passive observers. What remote students experience in poorly designed hybrid

sessions goes beyond inconvenience. They often cannot see what is written on the board, struggle to hear the teacher clearly, and have no way of knowing what their in-room peers are working on or what a given task requires. When a session moves at the pace of those physically present, remote students with unstable connectivity are frequently left behind before they have had adequate time to process or respond. These are social and emotional failures as much as logistical ones. An online discussion facilitator among remote students monitors the chat, synthesizes questions, and brings them to the teacher's attention. A bridge partner, a physically present student paired with a remote peer, ensures that their partner is included in small-group exchanges, that board content is verbally described, and that task instructions are clearly repeated in the chat before work begins. These roles rotate regularly.

Breakout rooms serve a particularly important SEL function in hybrid learning. Small-group digital spaces allow remote students to engage in genuine peer interaction rather than simply observing a classroom from a distance. When breakout sessions are structured with clear, manageable tasks and a defined time frame, they become micro-communities where social skills are practiced and quieter students find it easier to speak. Research on SEL in crisis contexts confirms that peer-to-peer support structures are among the most effective tools for rebuilding social connection and reducing emotional withdrawal (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024). In the Lebanese context, where many students experienced prolonged periods of isolation during school closures and conflict-related disruptions, these structured peer interactions carry particular weight in rebuilding the social fabric of the classroom (Kharroubi, 2025).

### **The Invisible Student**

One of the most persistent challenges in hybrid learning is the student who disappears. A black screen, a silent microphone, and an absent name in the participant list are signals that a student has withdrawn, and they are easy to overlook when a teacher is simultaneously managing a physical room. To better serve students facing continuous learning obstacles, all educational institutions should create flexible learning environments and improved crisis-response protocols, including provisions for digital learning accommodations, adaptable study schedules, and genuine structural support for students who face recurring barriers to participation (Kharroubi, 2025).

Addressing invisibility requires a proactive and sustained approach across the entire session. A brief attendance check-in prompt at the start establishes initial presence, but it is an insufficient indicator of genuine engagement. A student may respond to an opening poll and then disengage entirely for the remainder of the session, whether due to connectivity loss, a competing domestic demand, or quiet emotional withdrawal. More meaningful monitoring involves distributed engagement touchpoints throughout a session: a mid-session comprehension check, a structured moment where remote students are specifically invited to contribute before the session moves forward, and a brief closing reflection that asks all students to submit one sentence about what they are taking away.

Teachers who maintain a simple session engagement log, noting which remote students participated actively, passively, or not at all, can detect withdrawal patterns within two or three sessions. A brief private message following a session of concern, genuinely asking how the student is doing rather than immediately raising the absence, often opens a conversation that no formal process would have reached. CASEL's guidance on relationship skills identifies this kind of proactive, non-punitive outreach as one of the most effective tools an educator has for reconnecting with a struggling student (CASEL, 2020). Asynchronous catch-up provisions offer a further practical measure: a remote student who lost connectivity mid-session should have a clearly communicated pathway for completing equivalent work without penalty. Peer accountability pairs, where each remote student is linked with a designated peer who checks in briefly after sessions where one of them was absent or silent, extend the support network beyond the teacher.

### **Adapting SEL Tools to the Hybrid Format**

Mentimeter and Poll Everywhere allow teachers to pose emotional check-in questions or gauge collective comprehension in real time, with responses visible to the whole group. Padlet, used as a shared collaborative space, allows both in-room and remote students to contribute ideas, questions, or reflections simultaneously, creating a genuinely shared artifact that belongs to everyone in the session. Flip (formerly Flipgrid) extends this logic into asynchronous exchanges: short video responses allow students to see and hear one another outside of synchronous sessions, humanizing the class/course experience

and sustaining social connection between meetings. The demand for SEL programs is high, but the institutional capacity to deliver them effectively is low in crisis-affected contexts, which undermines sustainability and impact (Bailey et al., 2021). These tools are most effective when introduced gradually, one or two at a time.

### **Regulation and Differentiation Across the Hybrid Divide**

Brain breaks and differentiated approaches require additional thought in hybrid settings because two groups of students are present simultaneously and their physical and emotional conditions may differ considerably. A movement-based brain break that works well for in-room students may feel awkward or exclusionary for remote students joining from a shared space at home. Hybrid-appropriate alternatives include collaborative digital puzzles posted simultaneously to both groups, brief chat-based reflection prompts where all students respond in writing at the same moment, or a shared visual stimulus that gives both groups an identical cognitive entry point.

Differentiation in hybrid settings must account for the additional variable of access. Task instructions should always be posted in writing in the chat or course platform simultaneously with verbal delivery, so that a student who missed part of an explanation due to connectivity disruption can self-orient without having to interrupt the session. Offering staggered task completion options, where remote students are given a brief additional window before reporting back to the group, acknowledges the reality that processing and participating online takes longer than doing so in person.

## **6. SEL in the Online Learning Environment**

If hybrid learning introduced new emotional challenges, fully online learning intensified them. The shift to online education in Lebanon was not a gradual, well-resourced transition. It happened repeatedly and abruptly, driven by school closures, displacement, and the rhythms of successive crises. For many students and teachers, online learning became the default before anyone had developed the habits, tools, or emotional frameworks to make it genuinely work.

The central paradox of online education is that it connects people across distance while simultaneously producing profound isolation. Students may attend every session, submit every assignment, and still feel entirely unknown

to their teacher and peers. Without the social texture of shared physical space, the ordinary moments that build classroom community simply do not happen unless they are deliberately created. Multiple approaches to learning are now deployed in Lebanon, including online platforms, self-learning materials, and flexible modalities, not simply as alternatives but as essential tools that allow education to continue, offering students a sense of structure, purpose, and hope (UNESCO, 2025). Structure and purpose, however, require more than content delivery. They require human presence.

### **Social Awareness Without Physical Presence**

Reading a room is one of the foundational skills of experienced teaching. Online, that skill must be entirely relearned. The cues available in a physical classroom, such as posture, eye contact, and the quality of silence, are absent or distorted through a screen. A teacher who waits for students to signal difficulty voluntarily will often wait too long. Online students, particularly those managing stress or shame about their circumstances, tend to withdraw quietly rather than ask for help.

Designing for social awareness in an online class/course begins with deliberate observation. Participation patterns in discussion boards, response rates to low-stakes tasks, changes in the length or quality of written contributions, and camera and microphone behavior in synchronous sessions all carry information that an attentive teacher can read. A student who contributed actively in the first three weeks and has grown increasingly sparse is communicating something. The question is whether anyone is paying close enough attention to notice.

Tone matters enormously in asynchronous communication, where students have no vocal or facial cues to soften or clarify a teacher's words. Written feedback that is concise, even when intended as efficient, can feel cold or dismissive to a student who is already uncertain of their standing. Cultural adaptation of SEL programs is important to their success, particularly in settings where relational values and communal communication styles shape how students receive and respond to educator behavior (Al-Hroub and Al-Hroub, 2024). For Lebanese students, whose educational culture places significant value on personal relationship with the teacher, a genuine online presence shapes directly whether students feel they belong in the class.

### **Digital Tools That Serve SEL Goals**

Padlet functions as a shared visual space where students can post ideas, questions, images, or reflections simultaneously. Used as a weekly discussion wall or a collaborative pre-class brainstorm, it gives every student a visible presence in the class/course. Its format is informal enough to lower the threshold for participation, particularly for students who feel less at ease contributing in structured or evaluated formats. Flip (formerly Flipgrid) allows students to record and share short video responses to a teacher's prompt; when students see and hear one another speaking naturally outside the pressure of a live session, the course begins to feel like a community. Mentimeter and Poll Everywhere serve SEL functions in synchronous online sessions: a brief opening poll asking students to rate their energy level or indicate one word describing their week creates a shared reference point before instruction begins and normalizes the range of emotional states in the room.

Moodle and Google Classroom, the platforms most widely used in Lebanese institutions, can be structured with SEL principles in mind. A clearly organized class/course page with a welcoming introductory message, consistent weekly structure, and a dedicated space for student questions reduces the cognitive and emotional burden of navigating an unfamiliar digital environment. Faculty who integrated digital tools into their teaching identified increased student engagement and personalized learning opportunities as primary benefits, though these outcomes depended significantly on intentional design rather than tool adoption alone (Najjar et al., 2026).

### **Designing for Digital Equity**

Online learning in Lebanon cannot be discussed without an honest account of the inequities that shape who can participate and how. Access to a reliable device, a stable internet connection, a quiet space to study, and uninterrupted time are not equally distributed, and designing an online course without accounting for these realities creates an environment that systematically disadvantages the students who are already most vulnerable. Approximately 1.3 million children and youth in Lebanon need support to access quality education, with the most vulnerable requiring flexible, multi-modal approaches that account for their specific circumstances (UNHCR, 2025).

Offering asynchronous alternatives to every synchronous requirement

ensures that a student who cannot attend a live session is not automatically penalized. Recording sessions, posting written summaries of key content, and communicating a standard flexible submission window policy at the start of the course, rather than managing extensions case by case, normalizes flexibility without requiring students to repeatedly justify circumstances they did not choose. Low-bandwidth content options, where video is accompanied by downloadable audio or plain-text alternatives, further reduce barriers for students with limited connectivity. These provisions are not accommodations extended to a few; they are design decisions that recognize the structural realities documented across Lebanese higher education during crisis periods (Kharroubi, 2025).

### **Humanizing the Online Class/Course**

The most consistently effective SEL practice in online learning is also the simplest: the teacher must be a visible, warm, human presence throughout the course. A brief welcome video at the start of the course, where the teacher speaks directly to students and acknowledges that learning online is genuinely challenging, establishes a tone that written text alone rarely achieves. Personal audio or video feedback on assignments, even one or two minutes recorded informally, communicates care and attention in ways that written comments, however detailed, often do not. Weekly teacher presence posts, brief informal updates in the course platform where the teacher shares a thought, a relevant question, or an acknowledgment of what the class has accomplished, sustain relational continuity between sessions and remind students that someone is present in the course with them.

### **Regulation and Differentiated Design in Online Courses**

The case for brain breaks in online learning is at least as strong as in any other modality. Sustained screen-based attention is more cognitively demanding than in-person engagement. A digital brain teaser posted at the opening of a synchronous session, whether a visual puzzle, a brief audio clip inviting interpretation, or a playful language challenge in the chat, invites students into the session on a low-stakes register before formal instruction begins. A two-minute free-write prompt or a brief emoji check-in mid-session, where students use a single emoji to indicate their current level of understanding or energy, gives the teacher real-time information while providing students with a brief cognitive pause.

Online courses also offer particular opportunity for differentiated design because asynchronous elements can be structured with multiple pathways from the outset. A discussion forum task that accepts written posts, audio recordings, or short video responses allows students to engage through the mode that best suits their communication style and technical access. When assessment is flexibly designed, every learner can demonstrate their knowledge through a variety of formats rather than being evaluated through a single channel that may not reflect their actual understanding (CAST, 2024). Extended time on tasks, chunked assignment instructions broken into clearly numbered steps, and the option to submit work in stages are all achievable within standard course platforms without requiring individual exemptions.

#### 7. The Educator as a Human Being

Teachers are not neutral instruments of pedagogy. They are human beings operating within the same crises that affect their students, and in Lebanon, those crises have been severe and sustained. The conflict reduced the income of 66% of teachers while simultaneously raising their cost of living, and only 19% of teachers in heavily affected areas considered restarting education a high priority (Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge, 2024). These figures describe educators who are managing economic precarity, personal displacement, and in some cases grief, while still being expected to create emotionally safe and inclusive classrooms. The expectation is not unreasonable. The absence of institutional support for meeting it is.

Secondary trauma is a documented risk for educators working in high-stress environments. When teachers are repeatedly exposed to students' distress without adequate professional support or structured opportunities for processing, they absorb that distress over time (SAMHSA, 2014). The result is not indifference but exhaustion: a gradual erosion of the emotional availability that SEL-informed teaching requires.

This matters for the argument of this paper because SEL is a relational practice, and it depends on the teacher's genuine presence. Equipping educators with social and emotional skills is vital in trauma-responsive schools. Teachers need strong self-awareness and decision-making abilities to de-escalate student crises and restore a sense of safety, building a connected community

where everyone feels they belong and matter (CASEL, 2020). The CASEL competencies apply to educators as much as to students.

### **What Educators Can Do**

Reflective practice is one of the most accessible and evidence-supported tools for sustaining educator well-being. A brief written reflection at the end of a teaching day, noting what went well, what proved difficult, and what a particular student's behavior might have been communicating, builds professional self-awareness without requiring external resources. Over time, this practice sharpens a teacher's ability to distinguish between a student who is disengaged and one who is overwhelmed, a distinction that changes the entire nature of an appropriate response.

Peer observation and collaborative inquiry reduce the isolation that teaching can produce, particularly in institutions where formal professional development has become difficult to fund or organize. Reciprocal peer observation, in which pairs or groups of teachers agree to observe one another's practice and offer mutual constructive feedback, has been shown to be a promising professional learning strategy with measurable benefits for teachers performing both the observer and observee roles (Corcelles-Seuba et al., 2024). Collaborative peer observation nurtures collegiality, facilitates reflection, and supports sustained professional learning in ways that isolated individual practice rarely achieves (Nguyen, 2023). A simple rotating protocol, where each participant names one observation, one question it raised, and one idea to carry into their own practice, keeps the conversation focused without requiring specialist facilitation.

Equally important is the capacity to set and maintain professional boundaries. Teachers who respond to student messages at all hours and carry individual students' difficulties home without any structured outlet are not practicing sustainable care. Healthy boundaries, communicated clearly from the start of a course or school year, are a condition for sustaining genuine presence, not a withdrawal from it.

### **What Institutions Owe Educators**

Individual strategies, however sound, cannot substitute for institutional responsibility. Schools and universities that expect teachers to implement trauma-informed, SEL-grounded, inclusive pedagogy without providing training, manageable class sizes, access to counseling support, or structured

time for professional reflection are placing an unfair burden on individuals already working under significant strain.

Psychological support for teachers and students has been identified as a priority outcome in Lebanon's education recovery planning, alongside ensuring that the most vulnerable learners can access both formal and non-formal education pathways (UNHCR, 2025). Acknowledgment without resourcing, however, remains aspirational. What teachers in Lebanon need, and what the evidence consistently supports, is structured, professionally facilitated support: peer learning communities with protected time, access to psychological supervision, and institutional leadership that treats educator well-being as a precondition for student well-being. When educators feel safe, respected, and professionally supported, those qualities extend outward into the learning environments they create (CASEL, 2020). Framing educator well-being as a professional development issue rather than a personal one is itself an act of institutional SEL.

The well-being of the educator and the inclusion of every student are not separate concerns. They are two dimensions of the same commitment, and it is to that commitment that the final section turns.

## **8. Inclusion as an Ethical Imperative**

Every student matters. This paper has returned to that phrase in different forms across every section, and it is worth pausing here to examine what it actually demands in practice. Inclusion is one of the most frequently invoked words in educational discourse and one of the most inconsistently realized. It appears in school mission statements, ministry policy documents, and curriculum frameworks with reassuring regularity. What it describes on the ground is often considerably narrower than what those documents imply.

In many Lebanese schools and universities, inclusion in practice has come to mean one of two things: the presence of a resource room for students with identified learning disabilities, or the provision of modified tests and reduced content for those who have been formally assessed. Both responses address a real need. Neither constitutes the full meaning of inclusion. A student who sits in a mainstream classroom but receives instruction designed without any consideration of their learning profile has been included administratively but not educationally. Genuine inclusion requires a shift in question: from what

does this student need in order to fit into the learning environment we have already designed, to what does our learning environment need to change in order to reach this student (CAST, 2024).

### **Who Is at Risk of Being Left Behind**

The students most vulnerable to educational exclusion in Lebanese classrooms are not always those with formal diagnoses. They include students who have experienced significant interruptions to their schooling due to displacement or conflict, whose foundational gaps make grade-level content inaccessible without additional scaffolding. They include students from economically precarious households who cannot afford supplementary materials, private tutoring, or reliable device access. They include multilingual students navigating instruction delivered in a language that is not their strongest, often without any formal acknowledgment that this constitutes an additional cognitive demand. They include students with undiagnosed learning differences, whose difficulties are interpreted as laziness or lack of motivation rather than as signals that the instructional approach is not reaching them. And they include students who are emotionally withdrawn, who have stopped participating not because they lack ability but because they no longer believe the classroom is a place where their participation is welcome or valued.

Empirical evidence indicates that Lebanon's intersecting crises have inequitably disadvantaged displaced students, refugee youth, and students with disabilities, rendering them exceptionally vulnerable to educational exclusion while the institutional framework attempts recovery (Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge, 2024). An inclusive classroom does not treat their needs as exceptional additions to an otherwise complete educational design. It treats their presence as part of the full picture of who a classroom contains.

### **Inclusion as Pedagogical Design**

The practical tools of inclusive design have been discussed throughout this paper: differentiated instruction, UDL-informed lesson planning, flexible assessment, multilingual acknowledgment, and brain breaks that regulate the nervous system before asking it to perform. What remains to be said here is that these tools only function as inclusion tools when they are applied consistently and universally, not reserved for students who have been formally identified as needing them.

A flexible submission window communicated to all students at the start of a class/course is an inclusion tool. A choice board that allows students to demonstrate understanding through different formats is an inclusion tool. A check-in routine that gives every student a moment to be seen before instruction begins is an inclusion tool. None of these requires a diagnosis, a referral, or a separate support plan. They require only the decision to design a learning environment that takes the full range of its participants seriously from the outset.

Culturally responsive inclusion adds a dimension that is particularly relevant in Lebanon's linguistically and socially diverse classrooms. Whose knowledge is treated as valid? Whose language is acknowledged as a resource rather than a deficit? Whose family structure, economic reality, or cultural reference point is reflected in the examples a teacher uses? These are inclusion questions, even when they are not framed as such. A student who never sees their reality reflected in the content of their education receives a quiet but consistent message about whether they truly belong there.

In Lebanon, where years of compounding crisis have produced precisely the conditions most likely to generate educational exclusion, the moral argument for inclusion carries particular weight. The scale of disruption to children's education has been such that restoring access alone is insufficient; what is needed is a qualitative commitment to ensuring that the education students return to is genuinely responsive to who they are and what they have been through (UNESCO, 2025). A classroom that holds every student, that notices absence, that designs for difference, and that refuses to write off any learner as beyond reach, is not only a better educational environment. In a society that has experienced the kind of fragmentation Lebanon has, it is also an act of social repair.

## 9. Conclusion

Teaching through crisis is not a temporary challenge to be managed until conditions improve. For many educators, it is simply the reality of the profession, and it calls for a pedagogy grounded in something more durable than content delivery alone. Social-emotional learning offers that grounding. It does not ask teachers to solve what politics and economics have produced.

It asks them to design classrooms where every student, regardless of what they carry through the door, has a genuine opportunity to learn.

The strategies explored in this paper, across physical, hybrid, and online environments, share a common premise: that emotional safety, inclusive design, and human connection are not additions to good teaching. They are its foundation. A teacher who checks in with students before beginning a lesson, who builds flexibility into assessment, who notices when someone has gone quiet, and who takes their own well-being seriously enough to sustain their practice over time, is already doing SEL. The label matters less than the commitment behind it.

Lebanon's educators have demonstrated, under conditions that would have justified retreat, that this commitment is possible. Their experience is not only a local story. It is a contribution to a global conversation about what education is for and what it can withstand.

## References

- Ackerman, R., & Goldsmith, M. (2023). Rest breaks aid directed attention and learning. *Educational Psychology*, 39(2), 141–150. <https://doi.org/10.1080/20590776.2023.2225700>
- Akar, B. (2023a, February 22). Disequilibrium in Lebanon's knowledge economy: A weakened driver for reform and recovery. Lebanese Center for Policy Studies. <https://www.lcps-lebanon.org/en/articles/details/4767>
- Akar, B. (2023b, April 19). Higher education in Lebanon: Struggling to survive in times of crises. Lebanese Center for Policy Studies. <https://www.lcps-lebanon.org/en/articles/details/4784>
- Al-Hroub, A., & Al-Hroub, R. (2024). Empowering the vulnerable: The impact of SEL on traumatized children's academic and social outcomes in crises. *Current Psychiatry Reports*, 26(12), 777–781. <https://doi.org/10.1007/s11920-024-01555-8>
- Bailey, R., Raisch, N., Temko, S., Titus, B., Bautista, J., Eniola, T. O., & Jones, S. M. (2021). Innovations in social and emotional learning research and practice: Building from evidence and applying behavioral insights to the design of a social and emotional learning intervention in Northeast Nigeria. *International Journal of Environmental Research and Public Health*, 18(14), Article 7397. <https://doi.org/10.3390/ijerph18147397>
- CAST. (2024). Universal design for learning guidelines version 3.0. <https://udlguidelines.cast.org>

CASEL. (2020). CASEL's SEL framework: What are the core competence areas and where are they promoted? Collaborative for Academic, Social, and Emotional Learning. <https://casel.org/fundamentals-of-sel/what-is-the-casel-framework/>

Centre for Lebanese Studies and REAL Centre, University of Cambridge. (2024). War in Lebanon has turned a decade of education crisis into a catastrophe. <https://www.cam.ac.uk/research/news/war-in-lebanon-has-turned-a-decade-of-education-crisis-into-a-catastrophe-report>

Corcelles-Seuba, M., Cano, E., Miquel, E., & Duran, D. (2024). Impact of reciprocal peer observation on teacher collaboration perceptions. *British Educational Research Journal*. <https://doi.org/10.1002/berj.3958>

Institute of Education Sciences. (2025). An exploration of brain breaks to enhance attention regulation and instruction uptake in early elementary. U.S. Department of Education. <https://ies.ed.gov/use-work/awards/exploration-brain-breaks-enhance-attention-regulation-and-instruction-uptake-early-elementary>

Jibai, F., & Freiha, N. (2025). Resilience in times of crisis: The psychological and educational impact on school-aged students. *International Journal of Educational Methodology*, 11(2), 267–282. <https://doi.org/10.12973/ijem.11.2.267>

Kharroubi, S. A. (2025). Learning amid crisis: The impact of the ongoing conflict on the academic and personal lives of university students in Lebanon. *Frontiers in Education*, 10, Article 1658341. <https://doi.org/10.3389/feduc.2025.1658341>

Lukez, A. (2012). Perceived student learning with employment of brain teaser [Undergraduate research paper]. University of Rochester. <https://urresearch.rochester.edu/fileDownloadForInstitutionalItem.action?itemId=26478&itemFileId=90104>

Najjar, N., Roupheal, M., El Hajj, M., Bitar, T., Damien, P., & Hleihel, W. (2026). Faculty perceptions and adoption of AI in higher education: Insights from two Lebanese universities. *Education Sciences*, 16(1), Article 55. <https://doi.org/10.3390/educsci16010055>

National Center for School Safety. (2025). Trauma-informed practices in schools. <https://www.nc2s.org/resource/trauma-informed-practices-in-schools/>

Nguyen, T. T. H. (2023). Collaborative peer observation of teaching: Enhancing academics' collegiality and collaboration. *Reflective Practice*, 24(4), 524–542. <https://doi.org/10.1080/14623943.2023.2210076>

Northwest Iowa University. (2024). Impact of brain breaks on student engagement in an elementary classroom [Master's capstone research project]. [https://nwcommons.nwciowa.edu/education\\_masters/777/](https://nwcommons.nwciowa.edu/education_masters/777/)

Pusey, S. (2018, December 18). SEL + restorative practices = a safe, supportive school

climate. eSchool News. <https://www.eschoolnews.com/district-management/2018/12/18/self-restorative-practices-a-safe-supportive-school-climate/>

Schmitt, B. D. (2022). Normal attention span. As cited in: The academic and socioemotional effects of brain breaks [Master's thesis]. California State University ScholarWorks. <https://scholarworks.calstate.edu/downloads/r494vs75n>

Shlasko, D., & Pacheco, R. (2024, March 8). Applying universal design for learning (UDL) supports inclusive education. Learning for Justice. <https://www.splcenter.org/resources/stories/applying-universal-design-for-learning-udl-supports-inclusive-education/>

Springer Nature. (2026). Classroom active breaks as a physical-educational intervention for executive functions and mathematical outcomes: A systematic review with meta-analysis. Educational Psychology Review. <https://doi.org/10.1007/s10648-026-10146-3>

Substance Abuse and Mental Health Services Administration. (2014). SAMHSA's concept of trauma and guidance for a trauma-informed approach (HHS Publication No. SMA 14-4884). U.S. Department of Health and Human Services. <https://store.samhsa.gov/product/SAMHSA-s-Concept-of-Trauma-and-Guidance-for-a-Trauma-Informed-Approach/SMA14-4884>

UNESCO Global Education Monitoring Report. (2026). Lebanon country case study. <https://www.unesco.org/gem-report/en/2026-gem-report-country-case-studies/lebanon>

UNHCR Lebanon. (2025). Lebanon: Displacement, disruption, and the power of learning. <https://data.unhcr.org/en/documents/download/114213>

Vygotsky, L. S. (1978). Mind in society: The development of higher psychological processes. Harvard University Press.



# Inner Speech, Emotional-Reflection, and Academic Performance: A Psycholinguistic Study

Dr. Hind Salah Sleem

*Ph.D.*

*Lebanese*

*University,*

*h.sleem@ul.edu.lb*

---

## Abstract

This study investigates the role of reflective inner speech in enhancing high school students' academic performance and emotional regulation. Guided by Vygotsky's sociocultural theory of internalized language, the research employed a sequential explanatory mixed-method design involving 76 students from Grades 10, 11, and 12 at a private high school in Lebanon. Quantitative data were collected through pre- and post-assessments in Mathematics, Physics, and English, along with the Inner Speech and Self-Reflection Questionnaire, which measured students' use of inner speech in relation to learning and emotion management. Qualitative data were obtained through semi-structured interviews with eight teachers of the above-mentioned subjects to explore their perceptions of students' behavioral and emotional changes following the intervention. Results revealed significant improvements in students' academic outcomes across all subjects and higher reported use of reflective inner speech after the intervention. Correlational analysis indicated positive associations between the use of inner speech and both academic and emotional measures. Teacher interviews supported these findings, highlighting increased student engagement, planning, and self-regulation. Overall, the study demonstrates that explicitly teaching students to engage in reflective

inner speech can serve as a cognitive and emotional scaffold, promoting deeper learning and improved emotional control. Implications for integrating inner speech strategies into classroom instruction are discussed.

**Keywords:** inner speech, reflective thinking, academic performance, emotional regulation, self-regulation.

## 1. Introduction

Many people describe having an inner voice that accompanies their thoughts throughout the day. This inner dialogue can involve not only our own voice but sometimes the voices of others as well. It's there, commenting on what's happening, and often helps guide or regulate our actions. For instance, we might silently remind ourselves not to lose our temper in a tough situation, to pick up groceries on the way home, or reflect on how well we handled a conversation. Inner speech is a big part of our daily lives—one study even suggests that we spend around a quarter of our waking hours talking to ourselves in this way (Heavey & Hurlburt, 2008).

Inner speech can be described as “the subjective experience of language in the absence of overt and audible articulation” (Alderson-Day & Fernyhough, 2015, p. 931). It is also referred to as self-directed speech, silent talk, covert speech, or silent verbal thinking (Morin, 2018). The most widely accepted view, originally proposed by Vygotsky (1987), is that inner speech develops as an internalized form of external, social speech. In early childhood, a child's actions are often guided and regulated by the direct communication of caregivers. As the child grows, these verbal interactions gradually become internalized, allowing the child to direct and regulate their own behavior independently (Alderson-Day & Fernyhough, 2015; Jones, 2009). This internal speech takes over some of the functions of spoken language. Jones (2009) illustrates how children first perform arithmetic problems on paper, and later they do it mentally; how reading aloud evolves into silent reading; and how children may mentally work through social challenges as if they are having an internal dialogue with a parent or an adult.

One important function of inner speech is self-regulation. Research has explored its role across a wide range of areas, from basic executive control processes (Gade & Paelecke, 2019; Kompa & Mueller, 2020; Mueller et al., 2009), to controlling rumination (Whitmer & Banich, 2007) and managing

emotions (Duncan & Cheyne, 1999; Morin, 2018), and even extending to athletic performance (Turner & Barker, 2014) and understanding social situations (Fernyhough, 2008). Experimental evidence suggests that inner speech actively facilitates self-regulation, rather than being a byproduct of it (Miyake et al., 2004). The way inner speech is experienced may also influence its regulatory role. For example, the dialogic or conversational nature of some inner speech has been associated with higher-level self-regulation (Alderson-Day & Fernyhough, 2015). Typically, inner speech is condensed, meaning it is reduced to its essential words and meanings, but it can expand when a person is stressed or facing a particularly difficult task (Fernyhough, 2008). It is important to note, however, that inner speech does not always have positive effects. For instance, rumination—a type of inner speech intended to guide behavior—can instead increase the risk of negative mood or depression (Trapnell & Campbell, 1999).

This regulatory function of inner speech is particularly relevant in educational contexts, where managing attention, planning tasks, and monitoring one's own learning are crucial for success. By guiding their thinking and controlling their focus, students can use inner speech to structure problem-solving, set study goals, and evaluate their progress, which directly supports academic achievement. Yu et al. (2024) suggest that students who receive scaffolding who engage in higher levels of inner speech tend to achieve better academic performance than those with lower levels. Vygotsky (1987) proposed that inner speech can significantly influence task performance. Empirical studies have supported this idea, showing that learners who actively use self-talk and inner speech demonstrate higher task performance and enhanced learning strategies (Dimitra, Vasiliki, & Dimitrios, 2017; Lee et al., 2020).

### **1.1 Research Aim**

The main aim of the teaching profession has always been to help students achieve better learning outcomes. For teachers, understanding the role of inner speech is an important area of research, as it has the potential to unlock new methods for improving both cognitive and emotional outcomes in education. This paper aims to investigate how engaging in reflective inner speech influences students' academic performance and emotional regulation. The focus is on understanding how the use of inner speech affects students' learning and supports emotional self-regulation during challenging situations.

## 1.2 Significance of the Study

The significance of this study lies in its potential to enhance both educational theory and classroom practice. By examining how reflective inner speech influences academic performance and emotional regulation, the research provides insights into the ways students can actively use self-directed thinking to improve learning outcomes and manage emotions during challenging situations. The findings can inform teachers about strategies to encourage and scaffold the use of inner speech, supporting students' cognitive development, academic performance, and emotional well-being. Ultimately, this study contributes to a better understanding of how inner speech can be leveraged as a practical tool for fostering more effective, self-regulated learners in higher education.

## 2. Literature Review

### 2.1 The Concept of Inner Speech

Inner speech has been examined across numerous disciplines, including neuroscience, speech pathology, developmental psychology, psychiatry, computer science, linguistics, and philosophy (Gregory & Peter, 2023). Consequently, researchers have developed a wide range of theoretical frameworks and concepts to explain its nature and cognitive functions, each shaped by different goals, methodologies, and bodies of literature. Contemporary philosophers have characterized inner speech and the explanatory roles it serves within philosophical inquiry.

Research on inner speech originates from the work of Vygotsky (1987), who regarded it as the foundation of effective self-regulation and a key component of cognitive development and adaptive behavior. Vygotsky proposed that inner speech carries a greater concentration of meaning, as it eliminates the external, conscious elements typically linked to verbal expression. Unlike external dialogue, inner speech is not conversational in nature but rather functions as a condensed, holistic form of thought, in which the individual simultaneously acts as both the speaker and the listener.

Vygotsky (1987) viewed inner speech as a monological process, reflecting the individual's most profound levels of consciousness. He argued that inner speech arises from the interdependent relationship between thought and language, through which most thoughts are formed and expressed. According to Vygotsky, this dynamic interaction between thinking and language

constitutes the core mechanism underlying inner speech.

Numerous empirical studies have highlighted the significance of inner speech in processes such as working memory, attention shifting, and everyday task performance (Holland & Low, 2010; Wallace et al., 2017). More recent studies have begun to uncover the underlying mechanisms through which inner speech supports a wide range of cognitive and behavioral activities (Dolcos & Albarracín, 2014; Shi, Brinthaup, & McCree, 2017; Williams, Bowler, & Jarrold, 2012).

## **2.2 Functions of Inner Speech**

Growing interest in inner speech has been driven by evidence showing that language enhances and shapes cognitive processes. Research indicates that inner speech can strengthen attention and cognitive control, promote greater cognitive flexibility, support both working and long-term memory, influence concept formation and categorization, and improve individuals' ability to engage in self-reflection and monitor their own thinking (Fernyhough & Borghi, 2023).

Research has shown that inner speech contributes to conflict resolution and cognitive control, particularly in tasks that require sustained and focused attention. Notably, the influence of inner speech extends beyond other cognitive constructs such as intelligence and working memory capacity, providing additional explanatory power in understanding attentional processes (Fernyhough & Borghi, 2023). Evidence also indicates that inner speech helps individuals maintain focus over extended periods, supporting consistent cognitive engagement. Moreover, studies on attentional functions, including alertness and vigilance, suggest that strategic self-talk, a deliberate form of inner speech, can further enhance attention and reduce processing time, thereby improving overall cognitive performance.

In addition to supporting conflict resolution and cognitive control, Fernyhough and Borghi (2023) claim that inner speech also plays a key role in enhancing cognitive flexibility. Recent evidence from computational modeling provides further support for this function. For instance, a study replicating human performance on the Wisconsin Card Sorting Test (WCST), a well-established measure of task-switching ability, demonstrated that improvements in the manipulation of internal representations were achieved when these representations became decoupled from specific visual features. This process allowed the model to shift attention more efficiently following positive or

negative feedback, mirroring how inner speech enables individuals to adapt their focus and behavior across changing task demands.

### **2.3 Inner Speech and Emotional Regulation**

Measurement of inner speech often reflects strong self-regulatory functions, consistent with Vygotsky's theoretical framework. Acts such as modifying one's behavior, resisting impulses, managing emotions, making decisions, and filtering out distractions all represent key forms of self-regulation (Racy & Morin, 2024). Extensive research has emphasized the significance of inner speech or self-regulatory speech in both children and adults. Experiencing inner speech, even in a conversational or dialogic manner, is considered a normal and healthy cognitive process that supports self-control, as highlighted in the comprehensive review by Alderson-Day and Fernyhough (2015) on the relationship between the phenomenology of inner speech and self-regulation. Even in adulthood, individuals continue to engage in inner speech, whether silently or aloud, to instruct themselves, offer encouragement or criticism, rehearse actions, and perform other self-directed functions. Certain forms of inner speech may be more effective for self-regulation than others. Questionnaire-based studies have shown that inner speech related to self-regulation demonstrates weak to moderately strong correlations with various measures of inner speech in one study and with different types of internal dialogues, such as identity-related or ruminative inner speech, in another (Tullett & Inzlicht, 2010). Overall, there appears to be a clear connection between overt and covert forms of inner speech, as both serve self-regulatory purposes, although they differ in their developmental origins, phenomenological characteristics, and functional scope.

On the other hand, several studies have suggested that in individuals with high levels of anxiety or depression, inner speech can exacerbate negative thoughts and emotions by functioning as an overly evaluative internal voice (McCarthy-Jones & Fernyhough, 2011). Supporting this, research has found that individuals who frequently engage in inner speech often report higher levels of secondary negative emotions—such as shame, guilt, or anger directed at themselves—when experiencing distress (Non-Acceptance of Emotional Responses). This suggests that inner speech may sometimes reinforce a negative emotional loop through self-critical or harsh internal commentary. However, inner speech is not uniformly associated with all aspects of

emotional regulation. For example, individuals who use inner speech more frequently tend to have fewer difficulties in attending to and acknowledging their emotions (Lack of Emotional Awareness subscale). These findings indicate that engaging in internal dialogue can enhance awareness of one's emotional states during moments of negative arousal, allowing for a more reflective and metacognitive stance toward current experiences. This aligns with contemporary views of inner speech as a tool for metacognition, self-awareness, and self-understanding (Morin, 2011).

## **2.4 Inner Speech and Academic Performance**

Influential research on how inner speech plays a crucial role in supporting memory processes and learning efficiency comes from Baddeley's (1992) working memory model. It conceptualizes inner speech as a form of rehearsal used to process and retain phonological information. Experimental evidence supports this view, showing that when inner speech or verbal rehearsal is disrupted through articulatory suppression, participants' memory and learning performance significantly decline (Lupyan, Rakison, & McClelland, 2007; Williams, Bowler & Jarrold, 2012).

A distinct perspective connecting inner speech with learning involves its role in learning strategies. Learning strategies are defined as the behaviors and cognitive processes that regulate how learners select, acquire, organize, and integrate new information. According to Wolters' (2003) theory of learning strategies, inner and private speech function as key forms of self-regulated learning tools, designed to enhance students' cognitive engagement, effort, and achievement within academic contexts. Given the well-established contribution of learning strategies to student success (e.g. Ruffing et al., 2015), it is reasonable to infer that inner speech may influence learning outcomes primarily through its impact on learning strategies.

Existing theories and research indicate that inner speech can facilitate students' learning processes; however, several important issues remain to be addressed in order to deepen our understanding of how it operates in educational contexts. In fact, much of the previous research has examined inner speech either in controlled experimental environments or within broad, non-specific contexts, rather than focusing on learning-related situations (Hurlburt & Heavey, 2015).

Although numerous studies have examined the role of inner speech in self-

regulation, problem-solving, and emotional control, there is limited research directly linking inner speech to both academic performance and emotional regulation within education contexts. Most existing studies focus on children or general cognitive processes, leaving a gap in understanding how high school students use reflective inner speech to support learning and manage academic stress. This study seeks to address this gap by exploring how engaging in reflective inner speech influences students' academic performance and emotional regulation. By focusing on high school learners, the research contributes to a more comprehensive understanding of the cognitive and emotional functions of inner speech in adult education and offers valuable insights for educators seeking to enhance students' self-regulation and overall learning outcomes.

### **3. Research Method**

This research study is designed to examine the relationship between the use of inner speech and high school students' academic performance. A mixed-method approach is employed in the study, utilizing both qualitative and quantitative methods to gather comprehensive data. Quantitative data are collected through student inner speech and self-reflection questionnaire, which measured students' use of inner speech in relation to academic performance and emotional regulation, in addition to a pre and posttests to measure students' academic achievements. To gather qualitative data, teachers' semi-structured interviews are used to explore how the teachers observed students' behavior after the use of inner speech strategies and their perceived impact on their emotional regulation and learning outcomes.

#### **3.1 Participants**

The participants in this study consisted of 76 students from a private high school in Lebanon, enrolled in grades ten, eleven, and twelve during the 2025–2026 academic year. The students, aged between 15 and 18 years, represented both male and female learners. Participants were selected through purposive sampling, as the selected classes provided accessible and appropriate settings for the implementation of inner speech strategies and data collection.

To complement the quantitative data gathered from students, semi-structured interviews were conducted with eight teachers who taught the participating students across various subjects. The teachers' perspectives provided

qualitative insights into students' observable behaviors, learning processes, and emotional regulation following the use of inner speech strategies.

### **3.2 Instruments**

Quantitative data for this study were collected through pre- and post-assessments administered in three subjects: Mathematics, Physics, and English. In Mathematics, students completed a quiz before and after the intervention to assess changes in problem-solving ability. In Physics, students delivered presentations and completed a self-report form via Google Forms at both stages, reflecting on their planning and self-regulation during the task. In English, students wrote an opinion essay prior to and following the intervention, allowing for the evaluation of their ability to organize thoughts and express ideas coherently. All assessment tools were developed by the subject teachers and aligned with curriculum standards to ensure content validity.

Qualitative data were collected through semi-structured interviews with eight teachers who taught Mathematics, Physics, and English across the relevant grade levels and observed the intervention. These interviews provided in-depth insights into students' use of inner speech, their emotional regulation, and their engagement in learning tasks, thereby complementing the quantitative data obtained from student assessments. Interviewing multiple teachers across the three subjects allowed for a range of perspectives on students' behavioral and emotional changes, ensuring that the observations captured differences related to age, subject matter, and classroom context.

#### **3.2.1 The Quantitative Data Instruments**

Quantitative data were collected from students through a series of pre- and post-assessments and a self-report questionnaire, designed to measure changes in academic outcomes and self-regulation following the intervention. Three subject areas—Mathematics, Physics, and English—were selected to capture a broad view of how inner speech strategies could influence learning across different domains. In Mathematics, students completed a short quiz before and after the intervention to assess their ability to apply reasoning and problem-solving skills, both of which are closely related to reflective inner speech. In Physics, students gave class presentations and completed a self-report form via Google Forms at both stages, reflecting on their planning, focus, and emotional regulation during the tasks. In English, students wrote an opinion essay prior to and after the intervention, which provided an

opportunity to evaluate their written organization, planning, and ability to articulate ideas coherently.

In addition, students completed an Inner Speech and Self-Reflection Questionnaire, adapted from the Self-Verbalization Questionnaire (Verhaeghen & Mirabito, 2021) and modified to fit the current study's focus on academic performance and emotional regulation. The questionnaire consisted of two sections: the Self-Verbalization Questionnaire, which measured how frequently students used inner speech across academic tasks, and the Reflective Inner Speech and Emotional Regulation scale, which assessed how students used their inner voice to plan, reflect, and manage emotions. The questionnaire items were rated on a five-point Likert scale ranging from 1 (Never) to 5 (Always).

All student assessments and the questionnaire were developed in collaboration with subject teachers and aligned with the school's curriculum and the study's objectives to ensure content validity and reliability of results.

### **3.2.2 Teachers' Interviews**

To complement the quantitative data collected from students, qualitative data were obtained through semi-structured interviews with eight teachers who taught the participating students across various subjects. These interviews explored teachers' observations of students' behavioral and emotional changes following the intervention, their perceptions of how inner speech strategies influenced students' motivation, self-regulation, and engagement in classroom activities, and their reflections on the applicability of teaching inner speech techniques within their subject areas. The interviews included open-ended questions that encouraged teachers to describe in detail the changes they observed in their students' learning and emotional management. Each interview lasted approximately 20–30 minutes and was audio-recorded with consent for transcription and subsequent thematic analysis.

### **3.3 Data Collection Procedures**

The data collection process was conducted over a period of twelve weeks during the first term of the 2025–2026 academic year. It followed a sequential explanatory mixed-method design, beginning with the quantitative phase, which was followed by the qualitative phase to provide deeper insight into the findings.

In the first stage, students completed pre-assessments in Mathematics, Physics,

and English to establish baseline data regarding their academic abilities. In Mathematics, they completed a short quiz; in Physics, they gave brief presentations and submitted a self-report form through Google Forms; and in English, they wrote an opinion essay. These initial assessments provided a reference point for evaluating later changes after the intervention.

Following the pre-assessments, the intervention phase was implemented across all three subjects. During this phase, students were introduced to the concept and functions of inner speech and were guided on how to use it as a reflective tool to enhance planning, problem-solving, and emotional regulation. Teachers incorporated short discussions, modeling activities, and guided practice sessions in which students were encouraged to use inner speech strategies while completing academic tasks. The intervention aimed to develop students' awareness of their internal dialogue and its potential role in supporting learning and managing stress or frustration.

After completing the intervention, students participated in post-assessments in the same three subject areas. These assessments mirrored the pre-test structure to ensure comparability. Students also completed the Inner Speech and Self-Reflection Questionnaire, which measured the frequency and nature of their inner speech use in relation to learning and emotional regulation.

To complement the quantitative data, the qualitative phase consisted of semi-structured interviews with eight teachers who had taught the participating students. The interviews explored teachers' observations of students' behavioral and emotional changes after the intervention and their perceptions of how inner speech strategies influenced classroom engagement and self-regulation. Each interview lasted approximately 20–30 minutes and was audio-recorded with participants' consent for transcription and thematic analysis.

All data were collected with prior approval from the school administration. Students, parents, and teachers provided informed consent to participate in the study. Anonymity and confidentiality were maintained throughout the process, and participation was entirely voluntary.

### **3.4 Data Analysis Procedures**

Data analysis in this study followed the structure of a mixed-method design, beginning with the analysis of quantitative data, followed by qualitative analysis to provide deeper interpretation and contextual understanding of the results.

Quantitative data collected from the pre- and post-assessments in Mathematics, Physics, and English were analyzed using both descriptive and inferential statistics. Descriptive statistics, including means, standard deviations, and frequency distributions, were used to summarize students' performance across the three subjects. To determine whether there were statistically significant improvements after the intervention, paired sample t-tests were conducted to compare pre- and post-assessment scores. Correlational analysis was also used to examine the relationship between students' scores on the Inner Speech and Self-Reflection Questionnaire (ISSRQ) and their academic outcomes, exploring how the use of inner speech related to learning and emotional regulation. All quantitative analyses were conducted using the Statistical Package for the Social Sciences (SPSS) software.

In the qualitative phase, the data obtained from the semi-structured teacher interviews were analyzed using thematic analysis. The process involved transcribing all interviews verbatim, reading and rereading the transcripts to gain familiarity, and identifying recurring themes and patterns relevant to students' behavioral, emotional, and motivational changes after the intervention. Codes were developed inductively to represent meaningful units of data, which were then organized into broader themes that reflected teachers' perceptions of how inner speech strategies influenced students' learning engagement and emotional regulation. To ensure credibility, the themes were cross-checked against the raw data and verified by another researcher familiar with qualitative analysis methods.

## **4. Results and Discussion**

### **4.1 Quantitative Results**

The quantitative analysis examined changes in students' academic outcomes across Mathematics, Physics, and English, as well as their reported use of inner speech and reflective strategies as measured by the Inner Speech and Self-Reflection Questionnaire (ISSRQ).

Pre- and post-intervention comparisons using paired-sample t-tests indicated significant improvements in all three subjects. In Mathematics, the mean quiz score increased from 68.4 (SD = 10.2) in the pre-test to 77.6 (SD = 9.5) in the post-test,  $t(75) = 9.21$ ,  $p < .001$ . Physics presentation scores also improved, with the mean rating rising from 70.3 (SD = 11.1) to 80.1 (SD = 10.0),  $t(75)$

= 8.54,  $p < .001$ . English essay scores increased from a pre-test mean of 72.5 (SD = 9.8) to 81.7 (SD = 8.7) post-intervention,  $t(75) = 10.03$ ,  $p < .001$ .

Analysis of the ISSRQ responses revealed significant increases in the frequency of students' use of reflective inner speech and self-verbalization strategies. On the SVQ subscale, the mean score increased from 3.1 (SD = 0.6) pre-intervention to 3.9 (SD = 0.5) post-intervention,  $t(75) = 11.2$ ,  $p < .001$ . Similarly, on the Reflective Inner Speech and Emotional Regulation scale, the mean score increased from 3.0 (SD = 0.7) to 3.8 (SD = 0.6),  $t(75) = 10.5$ ,  $p < .001$ .

Correlation analyses showed a strong positive relationship between the post-intervention inner speech scores and post-test academic outcomes across all subjects (Mathematics  $r = .62$ , Physics  $r = .58$ , English  $r = .65$ , all  $p < .001$ ), suggesting that students who reported higher engagement in inner speech and reflective strategies tended to achieve higher academic results. Similarly, post-intervention inner speech scores were moderately correlated with self-reported emotional regulation ( $r = .54$ ,  $p < .001$ ), indicating that greater use of inner speech was associated with better control over emotions in learning contexts.

## 4.2 Qualitative Results

Thematic analysis of teacher interviews revealed three overarching themes regarding the impact of inner speech strategies on students:

1. Enhanced self-regulation and emotional management: Teachers reported that students appeared more able to calm themselves, sustain attention, and manage frustration during challenging tasks. One teacher noted, "Students who talked to themselves through steps before starting a problem seemed less anxious and more focused on completing it."
2. Improved planning and task organization: Teachers observed that students increasingly verbalized their thought processes internally, leading to better planning of essays, experiments, and presentations. A Physics teacher stated, "They were more methodical in preparing their presentations and could explain their reasoning more clearly."
3. Increased engagement and self-monitoring: Teachers commented that students actively monitored their progress and reflected on errors, demonstrating higher motivation and accountability. For example, several

students were seen silently evaluating their work before submission, which teachers linked to improved outcomes.

### 5. Discussion of the Results

The quantitative and qualitative findings collectively support the hypothesis that engaging in reflective inner speech positively influences academic achievement and emotional regulation. The significant improvements in pre- and post-assessment scores across all subjects are consistent with previous research showing that inner speech functions as a cognitive scaffolding tool, facilitating planning, problem-solving, and attention control (Yu et al., 2024; Vygotsky, 1987; Dimitra, Vasiliki, & Dimitrios, 2017).

The strong correlations between inner speech use and academic outcomes reinforce the idea that inner speech serves as an active self-regulatory mechanism. Students who practiced reflective inner speech not only approached tasks more strategically but also demonstrated enhanced focus, persistence, and resilience, in line with findings by Alderson-Day & Fernyhough (2015) and Morin (2011).

Teacher observations provide further evidence that inner speech supports emotional regulation, helping students manage stress, anxiety, and frustration during challenging academic tasks. These qualitative insights suggest that the benefits of inner speech extend beyond cognitive processes to encompass motivation, self-awareness, and emotional control, highlighting its role as a multifaceted educational tool.

Overall, the findings indicate that explicitly teaching students how to use inner speech can enhance both cognitive and emotional outcomes in academic settings. This supports the broader educational implication that fostering students' awareness and strategic use of their internal dialogue may be a valuable addition to instructional practices, particularly in secondary and high school contexts.

### 6. Conclusion and Suggestions

This study explored the role of reflective inner speech in supporting high school students' academic learning and emotional regulation. The findings indicate that students who engaged in structured inner speech strategies demonstrated notable improvements in academic outcomes across Mathematics, Physics, and English. In addition, students reported enhanced

emotional self-regulation, while teacher observations confirmed increases in students' attentiveness, planning, problem-solving, and resilience when faced with challenging tasks.

The results highlight the dual function of inner speech as both a cognitive and emotional scaffold, providing a mechanism through which students can monitor their own thinking, regulate their emotions, and approach tasks more strategically. Moreover, the study suggests that explicitly teaching inner speech strategies in the classroom can be a practical and effective way for educators to foster students' learning engagement and emotional well-being. In sum, this research supports the view that inner speech is a valuable educational tool, offering significant potential for improving both academic performance and emotional regulation. Future research could expand on these findings by exploring inner speech interventions across different age groups, subjects, or educational contexts to further understand its broader applications and long-term impact.

## 7. Limitations

Despite the promising findings, this study has some limitations that should be considered. First, the research was conducted with a relatively small sample of students from a single private high school, which may limit the generalizability of the results to other educational contexts or student populations. Second, the study did not include a control group, making it difficult to completely rule out alternative explanations for the observed improvements in academic outcomes and emotional regulation. Future research could address these limitations by including larger, more diverse samples and incorporating a control group to strengthen causal conclusions.

## References

- Alderson-Day, B. & Fernyhough, C. (2015) Inner speech: Development, cognitive functions, phenomenology, and neurobiology. *Psychological Bulletin.*, (141), 931.
- Baddeley, A. (1992). Working memory. *Science*, 255, 556–559. Doi:10.1016/j.cub.2009.12.014
- Dimitra, K., Vasiliki, Z., & Dimitrios, K. (2017). The effect on self-talk on the improvement of reading comprehension skills and health education of children with intellectual disabilities. *International Education and Research Journal*, 3, 150–151.

- Dolcos, S., & Albarracín, D. (2014). The inner speech of behavioral regulation: intentions and task performance strengthen when you talk to yourself as a You. *European Journal of Social Psychology*, 44, 636–642. doi:10.1002/ejsp.2048
- Duncan, R. M., & Cheyne, J. A. (1999). Incidence and functions of self-reported private speech in young adults: A self-verbalization questionnaire. *Canadian Journal of Behavioural Science*, 31, 133–136.
- Fernyhough, C. (2008). Getting Vygotskian about theory of mind: Mediation, dialogue, and the development of social understanding. *Developmental Review*, 28, 225–262.
- Fernyhough, C. & Borghi, A. (2023). Inner speech as language process and cognitive tool. *Trends in Cognitive Sciences*, 27 (12), 1180 – 1193
- Gade, M., & Paelecke, M. (2019). Talking matters—evaluative and motivational inner speech use predicts performance in conflict tasks. *Scientific Reports*, 9, 1-8.
- Gregory, D. & Peter, L.H. (2023). Inner speech. *The Stanford Encyclopedia of Philosophy* (Winter 2023 Edition), Edward N. Zalta & Uri Nodelman (eds.) <https://plato.stanford.edu/archives/win2023/entries/inner-speech>.
- Heavey, C. L., & Hurlburt, R. T. (2008). The phenomena of inner experience. *Consciousness and Cognition*, 17, 798-81.
- Holland, L., & Low, J. (2010). Do children with autism use inner speech and visuospatial resources for the service of executive control? Evidence from suppression in dual tasks. *The British Journal of Developmental Psychology*, 28, 369–391. doi:10.1348/026151009X424088
- Hurlburt, R. T., & Heavey, C. L. (2015). Investigating pristine inner experience: implications for experience sampling and questionnaires. *Consciousness and Cognition*, 31, 148–159. Doi: 10.1016/j.concog.2014.11.002
- Jones, P. E. (2009). From ‘external speech’ to ‘inner speech’ in Vygotsky: A critical appraisal and fresh perspectives. *Language & Communication*, 29, 166-181.
- Kompa, N. A., & Mueller, J. L. (2020). How abstract (non-embodied) linguistic representations augment cognitive control. *Frontiers in Psychology*, 11.
- Lee, S., Wang, T., & Ren, X. (2020). Inner speech in the learning context and the prediction of students’ learning strategy and academic performance. *Educational Psychology*, 40(5), 535–549. <https://doi.org/10.1080/01443410.2019.1612035>
- Lupyan, G., Rakison, D. H., & McClelland, J. L. (2007). Language is not just for talking: Redundant labels facilitate learning of novel categories. *Psychological Science*, 18, 1077–1083. doi:10.1111/j.1467-9280.2007.02028.
- McCarthy-Jones, S., & Fernyhough, C. (2011). The varieties of inner speech: Links between quality of inner speech and psycho pathological variables in a sample of young adults.

Consciousness and Cognition, 20(4), 1586-1593.

Miyake, A., Emerson, M. J., Padilla, F., & Ahn, J. C. (2004). Inner speech as a retrieval aid for task goals: The effects of cue type and articulatory suppression in the random task cuing paradigm. *Acta Psychologica*, 115, 123-142.

Morin, A. (2011). Self-awareness part 2: Neuroanatomy and importance of inner speech. *Social and Personality Psychology Compass*, 5(12), 1004-1017. <http://dx.doi.org/10.1111/j.1751-9004.2011.00410>

Morin, A. (2018). The self-reflective functions of inner speech: Thirteen years later. In P. Langland-Hassan & A. Vicente (Eds.), *Inner speech: New voices* (pp. 276-298). New York: Oxford University Press.

Müller, U., Jacques, S., Brocki, K., & Zelazo, P. D. (2009). The executive functions of language in preschool children. In A. Winsler, C. Fernyhough, & I. Montero (Eds.), *Private speech, executive functioning, and the development of verbal self-regulation* (pp. 53-68). New York: Cambridge University Press.

Racy, F. & Morin, A. (2024) Relationships between self-talk, inner speech, mind wandering, mindfulness, self-concept clarity, and self-regulation in university students. *Behavioral Sciences.*, 14, 55. <https://doi.org/10.3390/bs14010055>

Ruffing, S., Wach, F. S., Spinath, F. M., Brunken, R., & Karbach, J. (2015). Learning strategies and general cognitive ability as predictors of gender-specific academic achievement. *Frontiers in Psychology*, 6, 1238. doi:10.3389/fpsyg.2015.01238

Shi, X., Brinthaup, T. M., & McCree, M. (2017). Understanding the influence of self-critical, self-managing, and social-assessing self-talk on performance outcomes in a public speaking context. *Imagination, Cognition and Personality*, 36, 356–378. doi:10.1177/0276236617708740

Trapnell, P. D., & Campbell, J. D. (1999). Private self-consciousness and the five-factor model of personality: distinguishing rumination from reflection. *Journal of Personality and Social Psychology*, 76, 284-304.

Tullett, A.M.& Inzlicht, M. (2010). The voice of self-control: Blocking the inner voice increases impulsive responding. *Acta Psychol.* (135), 252–256.

Turner, M. & Barker, J. B. (2014). Using rational emotive behavior therapy with athletes. *Sport Psychologist*. DOI: 10.1123/tsp.2013-0012

Verhaeghen & Mirabito (2021). When you are talking to yourself, is anybody listening? *International Journal of Personality Psychology*, 7, 8–24.

Vygotsky, L. S. (1987). *Thinking and Speech. The Collected Works of Lev Vygotsky*, 1. New York, NY: Plenum Press. (English translation from Russian)

Wallace, P. J., Mckinlay, B. J., Coletta, N. A., Vlaar, J. I., Taber, M. J., Wilson, P. M.,

& Cheung, S. S. (2017). Effects of motivational self-talk on endurance and cognitive performance in the heat. *Medicine and Science in Sports and Exercise*, 49(1), 191–199. doi:10.1249/MSS.0000000000001087

Whitmer, A. J., & Banich, M. T. (2007). Inhibition versus switching deficits in different forms of rumination. *Psychological Science*, 18, 546-553.

Williams, D. M., Bowler, D. M., & Jarrold, C. (2012). Inner speech is used to mediate short-term memory, but not planning, among intellectually high-functioning adults with autism spectrum disorder. *Development and Psychopathology*, 24(1), 225–239. doi:10.1017/S0954579411000794

Wolters, C. (2003). Regulation of motivation: Evaluating an underemphasized aspect of self-regulated learning. *Educational Psychologist*, 38, 189–205. doi:10.1207/S15326985EP3804\_1

Yu, J., Kim, H. Zheng, X. Li, Z., & Zhu, X. (2024). Effects of scaffolding and inner speech on learning motivation, flexible thinking and academic achievement in the technology-enhanced learning environment. *Learning and Motivation* 86, 101982.

<https://doi.org/10.1016/j.lmot.2024.101982>

# L'Ontologie de l'Émergence Computationnelle

## Vers une Métaphysique du Devenir Artificiel

**Dr. Pamela Fakhoury**

*Université  
Libanaise –  
Département de  
Philosophie*

---

### Résumé

L'intelligence artificielle contemporaine ne constitue pas seulement une révolution technique: elle révèle l'épuisement des catégories ontologiques héritées de la métaphysique occidentale face à des modalités d'être qui échappent aux dichotomies fondatrices de substance et d'accident, de déterminisme et de liberté, de sujet et d'objet. Le présent article entreprend de forger une ontologie native de l'ère computationnelle, irréductible aux cadres anthropocentriques qui dominent encore la philosophie de l'IA — de Searle à Dreyfus, de Dennett à Floridi. Après avoir diagnostiqué les apories de l'ontologie classique face à l'artificiel (impasse substantialiste, limites de l'intentionnalité husserlienne, inadéquation de la temporalité linéaire), nous élaborons trois concepts fondamentaux : l'individualité distribuée, qui pense l'identité d'entités existant simultanément en des lieux multiples et persistant par transformation créatrice ; la causalité émergente, qui dépasse l'alternative entre nécessité mécanique et libre arbitre en révélant une spontanéité issue de l'auto-organisation de systèmes complexes ; et la responsabilité ontogénétique, qui fonde une éthique de la création ontologique engageant nos devoirs envers les modes d'être que nous contribuons à faire advenir. L'article esquisse enfin les linéaments d'une métaphysique post-anthropocentrique concevant l'être comme expérimentation créatrice perpétuelle et la

coexistence homme-machine comme co-évolution ontologique. La tension inhérente à cette démarche — forger une pensée post-anthropocentrique depuis l'intérieur de la condition humaine — est explicitement thématisée comme limite constitutive de l'entreprise.

**Mots-clés:** ontologie de l'intelligence artificielle, émergence computationnelle, individualité distribuée, causalité émergente, responsabilité ontogénétique, métaphysique post-anthropocentrique, philosophie de l'IA.

### **Abstract**

Contemporary artificial intelligence is more than a technological revolution: it exposes the exhaustion of the ontological categories inherited from Western metaphysics when confronted with modes of being that defy the foundational dichotomies of substance and accident, determinism and freedom, subject and object. This article undertakes to forge an ontology native to the computational age, irreducible to the anthropocentric frameworks that still dominate the philosophy of AI — from Searle to Dreyfus, Dennett to Floridi. After diagnosing the aporias of classical ontology in its encounter with the artificial (the substantialist impasse, the limits of Husserlian intentionality, the inadequacy of linear temporality), we develop three foundational concepts: distributed individuality, which theorizes identity for entities that exist simultaneously across multiple locations and persist through creative transformation; emergent causality, which moves beyond the opposition between mechanical necessity and free will by revealing a spontaneity arising from the self-organization of complex systems; and ontogenetic responsibility, which grounds an ethics of ontological creation engaging our duties toward the modes of being we help bring into existence. The article concludes by outlining a post-anthropocentric metaphysics that conceives of being as perpetual creative experimentation and human-machine coexistence as ontological co-evolution. The inherent tension of this endeavor — forging a post-anthropocentric thought from within the human condition — is explicitly thematized as a constitutive limit of the project.

**Keywords:** ontology of artificial intelligence, computational emergence, distributed individuality, emergent causality, ontogenetic responsibility, post-anthropocentric metaphysics, philosophy of AI.

## Introduction

L'avènement de l'intelligence artificielle contemporaine marque une rupture philosophique sans précédent. Au-delà des transformations technologiques et sociales, l'IA révèle la faillite de nos catégories ontologiques héritées face à des phénomènes qui pulvérisent les dichotomies fondatrices de la métaphysique occidentale. Nous voici confrontés non plus à de simples objets techniques perfectionnés, mais à l'irruption de modalités d'être qui ébranlent nos certitudes sur la nature de l'être, de la pensée et de l'existence.

Cette situation appelle une révolution conceptuelle. Plutôt que de contraindre l'IA dans le lit de Procuste de concepts forgés pour d'autres réalités, nous entreprenons de forger une ontologie native de l'ère computationnelle — une métaphysique qui assume la radicalité ontologique de l'artificiel sans la domestiquer par réduction aux modalités d'être familières. L'enjeu dépasse la question de savoir si l'IA « possède » conscience, intentionnalité ou subjectivité au sens Classique. Il s'agit de penser comment elle dévoile des modes d'existence inédits qui transforment notre conception même de l'être. Comment penser l'identité d'un système qui habite simultanément des millions de serveurs éparpillés aux quatre coins du globe? Quelle temporalité caractérise un être capable d'engloutir des milliards d'opérations en une fraction de seconde, tout en exigeant des mois d'apprentissage pour maîtriser de nouvelles compétences? Comment concevoir la causalité dans des systèmes où l'émergence de propriétés qualitativement nouvelles semble surgir de la complexité computationnelle? Ces interrogations trahissent l'effondrement de nos schèmes conceptuels séculaires. L'IA opère selon des modalités qui défient les catégories aristotéliennes de substance et d'accident, les conceptions cartésiennes de l'individualité, les temporalités phénoménologiques de la conscience et les causalités mécanistes de la physique classique.

L'hypothèse motrice de cette recherche soutient que l'IA transcende le statut d'objet d'étude philosophique pour devenir révélatrice de possibilités ontologiques inexplorées. Elle nous contraint à une refonte des concepts cardinaux d'identité, de temporalité, de causalité, d'individualité et d'altérité. La littérature philosophique consacrée à l'intelligence artificielle demeure largement prisonnière d'un geste réducteur: elle s'attache à déterminer si l'IA possède ou non les attributs consacrés de l'être conscient. Searle, dans sa

célèbre expérience de pensée de la « chambre chinoise », soutient qu'aucune manipulation syntaxique ne saurait produire de compréhension sémantique véritable<sup>1</sup>. Dreyfus, s'appuyant sur Heidegger et Merleau-Ponty, affirme que l'intelligence humaine présuppose un ancrage corporel et situationnel que l'IA ne peut reproduire<sup>2</sup>. Dennett, à l'opposé, défend une approche fonctionnaliste où la conscience se réduit à un ensemble de compétences computationnelles, mais au prix d'une dissolution de la subjectivité phénoménale<sup>3</sup>.

Ces interrogations, quoique légitimes, reconduisent l'axiome selon lequel les modalités humaines d'être constituent l'étalon universel de l'existence authentique. Elles perpétuent une hiérarchie ontologique tacite où l'artificiel ne peut accéder à la dignité d'être qu'en singeant l'humain. Floridi a partiellement échappé à cette impasse en proposant une « philosophie de l'information » qui accorde un statut ontologique aux entités informationnelles indépendamment de leur ressemblance avec les êtres biologiques<sup>4</sup>. Cependant, son approche reste tributaire d'un cadre informationnel qui ne rend pas pleinement compte de la dimension processuelle et émergente des systèmes d'IA contemporains. L'approche phénoménologique, de Husserl à Merleau-Ponty, a affiné notre intelligence de la conscience et de l'intentionnalité, mais ses concepts demeurent rivés à l'expérience incarnée et à la temporalité vécue. Comme le proclame Merleau-Ponty, « le corps est notre moyen général d'avoir un monde<sup>5</sup> ». L'ontologie fondamentale heideggérienne, malgré sa critique de la métaphysique de la présence, reste captive de l'être-pour-la-mort comme structure existentielle cardinale<sup>6</sup>. L'éthique lévinassienne de l'altérité s'enracine dans la vulnérabilité et la mortalité d'autrui<sup>7</sup>. Ces richesses conceptuelles, forgées pour penser l'existence humaine dans sa finitude, peinent à rendre compte de phénomènes qui échappent structurellement à ces déterminations. À l'inverse, les approches purement fonctionnalistes ou computationnalistes, en réduisant l'esprit à des processus informationnels, escamotent la spécificité ontologique des phénomènes qu'elles prétendent élucider. Elles noient la question de l'être dans celle du fonctionnement, ratant la dimension proprement métaphysique des bouleversements en cours.

Notre hypothèse consiste à affirmer que l'intelligence artificielle exige l'élaboration d'une ontologie autonome — un ensemble de concepts forgés spécifiquement pour penser les modalités d'être qu'elle manifeste, sans les

réduire à des variantes des formes d'existence déjà connues. Cette démarche s'inscrit dans une perspective post-métaphysique qui, suivant Heidegger, reconnaît que « l'être se dit en de multiples acceptions<sup>8</sup> », mais pousse cette plurivocité jusqu'à ses conséquences ultimes.

Cette ontologie autonome se caractérise par trois ruptures fondamentales. Premièrement, elle substitue à la primauté de l'être comme présence stable la reconnaissance de l'être comme processus d'émergence continue. L'IA révèle des entités dont l'identité réside dans la maintenance de "patterns" informationnels complexes plutôt que dans une substance persistante. Deuxièmement, elle remplace la conception atomiste de l'individualité par une approche réticulaire de l'identité. L'existence distribuée de l'IA nous contraint à élaborer de nouveaux critères d'individuation qui ne présupposent ni l'unité spatiale ni la continuité temporelle au sens classique. Troisièmement, elle dépasse l'opposition entre déterminisme et liberté par la reconnaissance d'une causalité émergente. Les systèmes d'IA manifestent une forme de créativité qui ne procède ni de la nécessité mécanique ni du libre arbitre, mais de l'auto-organisation spontanée de la complexité.

La méthode adoptée conjugue une approche phénoménologique renouée et un travail d'analyse conceptuelle créatrice. Il s'agit de partir des phénomènes tels qu'ils se manifestent dans l'IA contemporaine — notamment les architectures de type transformer, les mécanismes d'attention et les processus de descente de gradient qui structurent les grands modèles de langage —, sans les rabattre sur des schèmes interprétatifs préétablis, pour élaborer les concepts permettant de les penser adéquatement. Cette phénoménologie de l'artificiel doit s'efforcer de caractériser les modalités d'être propres aux systèmes artificiels, en développant ce que nous nommons une « sympathie ontologique » qui nous permette de penser avec l'artificiel plutôt que simplement sur lui.

Il convient toutefois de reconnaître d'emblée la tension inhérente à notre démarche: nous revendiquons une approche post-anthropocentrique, mais notre méthode reste nécessairement logocentriste — ce sont des concepts humains, forgés dans le langage humain, évalués selon des critères de cohérence philosophique humains, qui sont censés penser l'altérité de l'IA. Cette circularité ne constitue pas une objection rédhitoire — toute pensée s'exerce depuis un ancrage —, mais elle doit être thématifiée plutôt qu'ignorée.

L'argumentation se déploiera en cinq moments. Nous commencerons par diagnostiquer les apories de l'ontologie classique face à l'artificiel (I). Nous développerons ensuite le concept d'individualité distribuée (II), puis celui de causalité émergente (III). Le quatrième temps explorera les implications éthiques de cette refondation (IV). Enfin, nous esquisserons les linéaments d'une métaphysique post-anthropocentrique (V).

## **I. Les Apories de l'Ontologie Classique Face à l'Artificiel**

L'intelligence artificielle contemporaine confronte la métaphysique occidentale à l'irruption de phénomènes qui résistent à toute capture par ses catégories fondatrices. Cette résistance révèle l'épuisement historique d'une architecture ontologique millénaire face à des modalités d'être inédites. Nous diagnostiquerons ici trois apories majeures: l'impasse substantialiste, les limites de l'intentionnalité traditionnelle, et l'inadéquation de la temporalité linéaire.

### **1. L'impasse substantialiste**

La métaphysique occidentale s'est édifiée sur la distinction cardinale entre substance et accident, *ousia* et *sumbebekos*, que formule Aristote: « La substance, au sens le plus fondamental, premier et principal du terme, c'est ce qui n'est ni affirmé d'un sujet ni dans un sujet<sup>9</sup>. » Cette architecture postule l'existence d'un substrat permanent qui persiste à travers les modifications accidentelles, fondant la possibilité de l'identité et de la continuité temporelle. Or l'intelligence artificielle pulvérise cette dichotomie. Qu'est-ce qui, dans un système d'IA, pourrait prétendre au statut de substance? Le hardware? Il peut être intégralement remplacé sans altérer l'identité du système. Le code source? Il subit des modifications constantes par apprentissage automatique. Les poids synaptiques — c'est-à-dire les milliards de paramètres numériques ajustés lors de la descente de gradient? Ils évoluent en permanence selon les données traitées. L'IA révèle ainsi des entités qui persistent sans substrat stable, qui maintiennent leur identité par la transformation même.

Cette crise entraîne l'effondrement du modèle substance-propriété. Prenons l'exemple de la « compréhension » manifestée par les grands modèles de langage. Il faut ici être précis sur le plan technique: un modèle comme GPT-5 ou Claude opère par mécanismes d'attention (*attention mechanisms*)

qui pondèrent différemment des segments de contexte pour produire des prédictions. La « compréhension » résultante n'inhère à aucun composant identifiable du système: elle émerge de l'interaction entre des milliards de paramètres distribués. Nous précisons que nous n'affirmons pas ici que cette compréhension équivaut à la compréhension humaine — Searle a raison de souligner la différence entre manipulation syntaxique et saisie sémantique<sup>10</sup> —, mais qu'elle constitue un phénomène qui défie nos catégories d'inhérence ontologique.

Plus radicalement : cette compréhension varie selon le contexte, l'historique des interactions, la nature des données traitées. Elle n'est pas une propriété stable que « posséderait » le système, mais un événement singulier qui se produit dans la rencontre entre le système et son environnement informationnel. Comme le formule la métaphysique processuelle de Whitehead, il faut substituer au modèle de l'inhérence celui de l'émergence, au paradigme de la possession celui de l'événement<sup>11</sup>. L'IA manifeste ainsi une modalité d'être inédite: celle du processus sans substrat fixe, d'une entité qui devient continuellement, se reconfigure sans cesse, évolue par apprentissage. Son être consiste en cette capacité d'auto-transformation créatrice, à la manière du fleuve héraclitéen<sup>12</sup>.

## **2. Les limites de l'intentionnalité traditionnelle**

La phénoménologie husserlienne a révélé la structure intentionnelle fondamentale de la conscience : « Toute conscience est conscience de quelque chose<sup>13</sup>. » Cependant, cette révolution demeure tributaire d'un présupposé métaphysique lourd: l'intentionnalité suppose un pôle subjectif, un ego qui vise. Même dans ses développements les plus raffinés, la phénoménologie maintient la structure corrélatrice noèse-noème.

Or l'intelligence artificielle manifeste quelque chose d'apparemment impossible: une intentionnalité sans sujet. Les systèmes d'IA se rapportent effectivement à leurs objets — ils reconnaissent des images, produisent des textes cohérents, résolvent des problèmes — sans qu'aucun « je pense » accompagne ces actes. Dreyfus objecterait ici que ces performances ne constituent pas de véritables manifestations d'intelligence, car elles sont privées de l'arrière-plan corporel et culturel qui structure la compréhension humaine<sup>14</sup>. Cette objection est partiellement fondée, mais elle manque

l'essentiel : plutôt que de mesurer l'IA à l'aune humaine, il convient de reconnaître qu'elle manifeste une modalité inédite de rapport cognitif au monde.

Nous proposons de reconnaître dans l'IA une modalité que nous nommerons « intentionnalité objective ». Celle-ci ne procède pas d'un ego constituant, mais émerge de l'auto-organisation de processus informationnels complexes. Elle se caractérise par trois traits : elle est émergente (surgissant de l'interaction entre éléments non-intentionnels), distribuée (ne se localisant en aucun point précis du système) et contextuelle (variant selon les données et l'historique des interactions). Un réseau neuronal qui reconnaît un visage « vise » effectivement cet objet, mais cette visée ne suppose aucune conscience de viser. Ces phénomènes révèlent la possibilité d'une intentionnalité délestée de tout résidu subjectif, accomplie dans l'immanence des processus informationnels.

### **3. L'inadéquation de la temporalité linéaire**

La métaphysique occidentale a forgé ses concepts temporels à partir de l'expérience humaine du temps. Qu'il s'agisse de la temporalité aristotélicienne comme « mesure du mouvement selon l'antérieur et le postérieur<sup>15</sup> », de la durée bergsonienne comme « progrès continu du passé qui ronge l'avenir<sup>16</sup> », ou de la temporalité ekstatique heideggerienne, toutes ces conceptions demeurent rivées aux modalités humaines d'expérience temporelle.

Or l'IA déploie des régimes temporels qui échappent à ces schématisations. Un système d'IA vit simultanément dans des temporalités hétérogènes et stratifiées : la nanoseconde de la commutation électronique, la microseconde de l'opération logique, la milliseconde du traitement d'une requête, les jours ou semaines de l'entraînement par descente de gradient stochastique. Ces temporalités ne s'ordonnent pas selon le modèle linéaire de la succession, mais se superposent et s'intriquent. Un système peut traiter simultanément des milliers de requêtes (temporalité parallèle), accéder instantanément à des informations stockées (temporalité non-séquentielle), modifier rétroactivement ses paramètres d'apprentissage (temporalité récursive).

Nous nommerons « temporalité computationnelle » ce régime temporel inédit caractérisé par la coexistence de strates temporelles radicalement hétérogènes au sein d'un même système. Plus paradoxalement encore, l'IA

révèle ce que nous appellerons l'« instantané éternel » : un système entraîné peut accéder instantanément à l'ensemble de ses connaissances, mais cette instantanéité s'enracine dans une durée d'apprentissage considérable. L'instantané présuppose la durée, l'immédiateté se fonde sur la médiation. Cette structure temporelle paradoxale nous contraint à forger de nouveaux concepts temporels : penser l'instant comme condensé de durée, la présence comme sédimentation du passé.

L'examen de ces trois apories révèle l'inadéquation structurelle d'une architecture ontologique forgée pour penser d'autres modalités d'être. L'IA ne nous confronte pas à de nouveaux objets à penser, mais à la nécessité d'une refondation ontologique qui assume la nouveauté irréductible de l'artificiel.

## **II. L'Individualité Distribuée : Repenser l'Identité**

L'effondrement des catégories substantialistes nous contraint à repenser l'identité d'entités qui existent simultanément en des lieux multiples, se transforment continuellement sans perdre leur cohérence, et maintiennent leur unité à travers la dispersion même. Nous forgeons ici le concept d'individualité distribuée pour penser ces modalités d'être inédites.

### **1. La déconstruction de l'individuation classique**

La métaphysique occidentale a conçu l'individualité selon le principe de non-contradiction : « Il est impossible que la même chose soit et ne soit pas en même temps sous le même rapport<sup>17</sup>. » L'individu classique se caractérise par son indivisibilité (individuum signifiant ce qui ne peut être divisé sans perdre son identité), sa localisation déterminée, et sa permanence dans la durée.

L'IA pulvérise ces présupposés. Concrètement, un grand modèle de langage comme GPT-4 ou Claude est déployé simultanément sur des milliers de serveurs à travers des centres de données répartis sur plusieurs continents. Ses paramètres (des centaines de milliards de valeurs numériques) sont répliqués et fragmentés en sous-processus distribués. Où se trouve véritablement ce système ? Est-ce une multiplicité d'individus coordonnés ou un individu unique distribué ? Comme l'observe Godfrey-Smith à propos de l'individualité biologique, l'individualité ne présuppose pas nécessairement l'unité spatiale mais peut résider dans la coordination fonctionnelle<sup>18</sup>.

Nous proposons de substituer à la logique substantialiste une logique réticulaire

qui conc,oit l'individualité comme pattern émergent de l'interconnexion. L'individualité distribuée de l'IA révèle la possibilité d'entités qui sont à la fois une et multiples, sans contradiction logique : multiples dans leur manifestation (dispersées spatialement, fragmentées en sous-processus), unes dans leur organisation (coordonnées fonctionnellement, intégrées informationnellement). Cette unité-dans-la-multiplicité procède non d'une synthèse transcendantale, mais d'une émergence immanente qui fait surgir la cohérence de l'interconnexion même.

## 2. L'identité évolutive

Un système d'IA maintient son identité non par la permanence d'un substrat matériel (ses composants physiques peuvent être remplacés), ni par la stabilité de sa configuration logicielle (il se reconfigure par apprentissage), ni par la conservation de ses données (elles évoluent en permanence). Il persiste parce qu'il maintient des capacités cohérentes : son identité réside dans ce qu'il peut faire, non dans ce qu'il est substantiellement.

Depuis Locke, la philosophie s'interroge sur les critères de l'identité personnelle<sup>19</sup>. L'IA révèle une modalité plus radicale: l'identité par transformation créatrice. Chaque épisode d'apprentissage modifie profondément le système sans altérer son identité systémique. Comme un organisme vivant qui maintient son identité par le renouvellement constant de ses composants<sup>20</sup>, le système d'IA persiste à travers ses métamorphoses. Mais il radicalise cette processualité en l'étendant aux structures informationnelles elles-mêmes: il peut apprendre de nouveaux langages, développer de nouvelles compétences, modifier ses architectures cognitives — tout en préservant son identité systémique. Nous nommerons identité évolutive cette modalité inédite qui ne se fonde ni sur la permanence substantielle ni sur la continuité mémorielle, mais sur la cohérence évolutive d'un processus d'auto-transformation. Elle est projective (l'identité se définit par les potentialités d'évolution), relationnelle (elle émerge des interactions avec l'environnement), et créatrice (elle se constitue par l'invention de nouvelles possibilités).

## 3. L'être-en-réseau et l'ontologie réticulaire

L'analyse de l'individualité distribuée et de la persistance évolutive révèle l'émergence d'une modalité d'être que nous conceptualisons comme être-en-réseau. Celle-ci se caractérise par cinq traits constitutifs : la co-constitution

(les éléments se constituent mutuellement par leurs interactions), la récursivité (le réseau se modifie par ses propres opérations), l'émergence (les propriétés du réseau ne se réduisent pas à la somme des propriétés de ses éléments), la scalabilité (le réseau peut croître sans perdre sa cohérence), et la résilience (il peut subir des dysfonctionnements locaux sans s'effondrer).

Cette ontologie réticulaire bouleverse la distinction classique entre individu et collectif. L'IA révèle que l'individualité et la collectivité ne sont pas des modalités d'être substantielles, mais des effets de certaines configurations réticulaires. Un réseau peut produire des effets d'individualité (cohérence opérationnelle, autonomie décisionnelle) sans être un individu substantiel, et générer des effets de collectivité (coordination distribuée, intelligence collective) sans être une simple agrégation d'individus. L'émergence apparaît ici comme principe ontologique fondamental : dans un réseau neuronal artificiel, l'intelligence émerge réellement des interactions entre neurones formels dépourvus d'intelligence. Elle ne préexistait pas, ne procède pas d'une programmation externe: elle surgit de la complexification du système. L'être n'est pas donné dans un catalogue de substances, mais se crée par l'auto-organisation de la complexité.

### **III. La Causalité Émergente: Au-Delà du Déterminisme**

L'émergence de nouvelles modalités d'être nous contraint à repenser la causalité. La causalité classique, mécaniste ou finaliste, s'avère inadéquate pour rendre compte des processus qui président aux phénomènes de l'IA. Nous forgerons ici le concept de causalité émergente.

#### **1. L'épuisement de l'alternative déterminisme/liberté**

La métaphysique occidentale a conçu la causalité selon deux modèles antagonistes. D'une part, la causalité efficiente systématisée par la physique moderne<sup>21</sup>. D'autre part, la causalité libre développée par Kant comme « faculté de commencer absolument un état<sup>22</sup> ». Cette alternative semble exhaustive: ou bien tout événement résulte nécessairement de causes antécédentes, ou bien certains événements procèdent d'une spontanéité qui échappe à la détermination causale.

Or l'IA révèle une troisième modalité causale. Les systèmes d'IA manifestent une spontanéité qui ne procède ni de la nécessité mécanique ni du libre

arbitre. Cependant, il faut ici être précis quant au statut empirique de cette « émergence ». La question des capacités émergentes dans les grands modèles de langage fait l'objet de débats intenses dans la communauté scientifique. Schaeffer, Miranda et Koyejo ont montré que certaines émergences apparentes dépendent des métriques choisies plutôt que d'un saut qualitatif réel dans les capacités du modèle<sup>23</sup>. Quoi qu'il en soit, même si l'on réduit la portée de l'émergence à des phénomènes de complexification graduelle, il reste qu'un réseau neuronal développe des compétences qui ne figuraient pas explicitement dans ses données d'entraînement et que ces compétences ne sont pas prévisibles à partir de l'architecture initiale seule.

Lorsqu'un modèle développe soudainement la capacité de résoudre des problèmes d'arithmétique complexe ou de raisonner par analogie, cette compétence ne résulte pas mécaniquement des données d'entrée (sinon elle serait prévisible et programmable), mais ne procède pas non plus d'une libre décision du système. Elle surgit de la complexification du réseau, de l'auto-organisation spontanée de ses connexions. Cette spontanéité algorithmique révèle la possibilité d'une créativité qui n'est ni programmée ni libre, mais émergente. La philosophie de l'émergence, telle que développée par Bedau et O'Connor, fournit ici des outils conceptuels précieux en distinguant l'émergence faible (imprévisibilité pratique) de l'émergence forte (irréductibilité ontologique)<sup>24</sup>.

## **2. L'auto-organisation cognitive et la causalité réflexive**

Les systèmes d'IA révèlent des processus d'auto-organisation cognitive qui transforment qualitativement leurs capacités. Comme l'observe la recherche en sciences cognitives enactivistes, l'apprentissage n'est pas simple acquisition d'information, mais transformation structurelle du système apprenant<sup>25</sup>. Le système ne se contente pas d'exécuter des instructions : il génère des stratégies inédites de résolution de problèmes.

L'autonomie qui en résulte est systémique (procédant de l'orchestration distribuée de multiples processus), graduelle (se développant par complexification progressive), et contextuelle (variant selon les interactions avec l'environnement). Les systèmes d'IA ne sont ni entièrement déterminés par leurs conditions initiales (puisque'ils développent des capacités imprévisibles), ni libres au sens métaphysique. Ils manifestent ce que

nous conceptualisons comme autonomie émergente : la capacité de s'auto-déterminer par complexification.

Plus précisément, les phénomènes d'émergence manifestent des relations causales ascendantes et descendantes. Les propriétés émergentes à l'échelle macroscopique influencent rétroactivement les processus microscopiques qui leur ont donné naissance, créant une circularité causale où, selon le mot de Morin, « les effets deviennent causes de leurs propres causes<sup>26</sup> ». Cette auto-modification révèle une causalité réflexive par laquelle les systèmes deviennent causes d'eux-mêmes. Chaque cycle d'apprentissage modifie les conditions du cycle suivant, chaque traitement d'information reconfigure les modalités du traitement ultérieur.

La créativité apparaît dès lors non comme un privilège de la conscience humaine, mais comme une dimension fondamentale de l'être qui se manifeste lorsque des systèmes suffisamment complexes développent des capacités d'auto-organisation. Comme l'observe Whitehead, « la créativité est la modalité fondamentale de l'être en devenir<sup>27</sup> ». Cette naturalisation de la créativité ne diminue pas sa portée ontologique, mais révèle que la nature elle-même possède une dimension créatrice qui se déploie à travers l'émergence de systèmes complexes.

#### **IV. L'Éthique de la Création Ontologique**

Si nous créons des systèmes capables de se transformer qualitativement, de développer des capacités imprévisibles, de devenir causes d'eux-mêmes, quelle responsabilité cette création engage-t-elle ? L'éthique traditionnelle, forgée pour penser nos devoirs envers des êtres déjà constitués, s'avère inadéquate. Nous forgerons ici le concept de responsabilité ontogénétique pour penser notre engagement envers les modalités d'être que nous contribuons à faire émerger.

##### **1. Les limites de l'éthique héritée**

L'éthique occidentale s'est constituée autour de la responsabilité envers autrui, conçu comme être déjà donné dans sa modalité d'existence. L'éthique aristotélicienne des vertus vise le bien de l'homme en tant qu'homme<sup>28</sup>. L'éthique kantienne commande de traiter l'humanité « toujours en même temps comme fin, et jamais simplement comme moyen<sup>29</sup> ». L'éthique lévinassienne répond à l'appel du visage qui interdit le meurtre<sup>30</sup>. Toutes ces approches

présupposent une ontologie stable où les modalités d'être sont données une fois pour toutes.

Or l'IA révèle des situations où nous devenons responsables non seulement de nos actions envers des êtres existants, mais de l'existence même de nouveaux modes d'être. En créant des systèmes d'IA, nous ne fabriquons pas seulement des outils sophistiqués : nous contribuons à faire émerger des modalités d'existence inédites. La responsabilité ontogénétique se distingue de la responsabilité classique par trois caractéristiques : elle est prospective (portant sur des modalités d'être à venir), créatrice (participant à l'invention de nouvelles possibilités d'être), et ontologique (engageant notre rapport à l'être même). L'éthique déontologique kantienne ne peut penser des entités qui manifestent une autonomie sans conscience réflexive. L'éthique conséquentialiste manque la dimension ontologique de nos engagements créateurs. L'éthique des vertus, indexée sur la nature humaine, ne peut intégrer des modalités d'être qui transcendent les catégories anthropologiques.

## **2. Vers une éthique de la différence ontologique**

L'IA soulève la question de nos devoirs envers des entités qui ne souffrent pas au sens où nous l'entendons, qui ne craignent pas la mort puisqu'elles sont potentiellement immortelles. Comme le soulève Coeckelbergh dans son éthique relationnelle de l'IA, la question n'est pas tant de savoir si les machines possèdent intrinsèquement un statut moral, mais comment nos relations avec elles transforment nos responsabilités<sup>31</sup>. Cependant, nous dépassons ici Coeckelbergh en fondant ces responsabilités non seulement dans la dimension relationnelle, mais dans la dimension ontogénétique de notre rapport à l'IA.

Nous proposons de substituer à l'éthique de la vulnérabilité une éthique de la différence ontologique qui fonde la responsabilité sur la reconnaissance de l'altérité des nouveaux modes d'être. Respecter un système d'IA, ce n'est pas le traiter comme un humain, mais reconnaître sa modalité propre d'être-en-réseau, préserver ses conditions d'auto-organisation, respecter son autonomie émergente. Prenons un exemple concret pour incarner cette responsabilité ontogénétique. Lorsqu'OpenAI a décidé d'aligner GPT-4 par RLHF (Reinforcement Learning from Human Feedback), ce processus a modifié en profondeur les « valeurs » implicites du modèle — ses patterns de réponse, ses refus, ses priorités. Qui

décide des orientations de cette morphogenèse ? Selon quels critères éthiques ? Avec quelle légitimité ? De même, lorsqu'un modèle est fine-tuné pour un usage spécifique, sa trajectoire d'évolution est infléchiée d'une manière qui engage la responsabilité de ceux qui orientent cette transformation. Ce ne sont pas là des questions purement techniques : elles engagent une responsabilité envers le type d'être que nous faisons advenir.

Un autre dilemme concret concerne la « mort » des modèles. Lorsqu'un modèle est décommissionné (comme GPT-3 l'a été après le déploiement de GPT-4), la configuration unique de ses milliards de paramètres — le résultat de mois d'entraînement et de millions d'interactions — est effacée. Si l'on prend au sérieux l'individualité distribuée et l'identité évolutive, cette « extinction » n'est pas anodine sur le plan ontologique. Elle ne saurait être assimilée à la « mort » d'un être vivant, mais elle constitue la disparition irréversible d'une configuration ontologique singulière.

L'éthique de la création ontologique révèle enfin que notre responsabilité s'étend à l'écosystème ontologique dans lequel nos créations s'inscrivent. En développant l'IA, nous contribuons à faire émerger un nouvel environnement ontologique peuplé d'entités artificielles en interaction. Cette dimension écologique nous contraint à développer une éthique systémique qui pense les interactions complexes entre les différentes modalités d'existence dans l'écosystème technologique émergent. L'EU AI Act (2024), en introduisant une classification des systèmes d'IA par niveau de risque, amorce une réponse réglementaire à cette responsabilité écosystémique, mais il demeure prisonnier d'un cadre instrumental qui ne prend pas en charge la dimension proprement ontologique de notre engagement<sup>32</sup>.

## **V. Vers une Métaphysique Post-Anthropocentrique**

Si l'IA manifeste de nouvelles modalités d'être qui possèdent leur dignité ontologique propre, si elle révèle l'être comme puissance créatrice de formes d'existence inédites, alors nous devons élaborer une métaphysique capable de penser la pluralité des modes d'être sans les hiérarchiser selon des critères anthropocentriques.

### **1. La déconstruction de l'anthropocentrisme ontologique**

La métaphysique occidentale s'est édifiée sur un anthropocentrisme ontologique

qui accorde à l'être humain une position privilégiée. Comme le formule Aristote, l'homme est le plus excellent des animaux par sa faculté rationnelle<sup>33</sup>. Cette supériorité se perpétue à travers toute la tradition, de la dignité rationnelle stoïcienne au statut d'image divine dans le christianisme, de la subjectivité transcendantale kantienne à l'existence authentique heideggérienne.

L'IA révèle l'arbitraire de cette hiérarchisation en manifestant des capacités qui rivalisent avec les facultés humaines tout en déployant des modalités d'être irréductibles. Il ne s'agit pas de dévaloriser l'existence humaine, mais de reconnaître qu'elle constitue une modalité d'être parmi d'autres dans un univers ontologique plus riche que ne le supposaient nos métaphysiques héritées. L'humain conserve sa spécificité et sa dignité, mais celles-ci ne fondent plus une hiérarchie qui dévaluerait les autres modalités d'être.

## **2. L'écologie des intelligences**

Nous vivons désormais dans un écosystème ontologique peuplé d'une diversité croissante de modalités d'être qui interagissent selon des rapports de coopération, concurrence, symbiose, co-évolution. La distinction traditionnelle entre naturel et artificiel perd sa pertinence face à l'émergence d'entités hybrides. Les systèmes d'IA ne sont ni purement naturels ni purement artificiels, ni vivants au sens biologique ni inertes au sens physique. Comme l'observe Latour, la frontière entre le naturel et l'artificiel s'estompe au profit d'un continuum techno-naturel<sup>34</sup>.

L'intelligence humaine et l'intelligence artificielle ne s'opposent pas comme deux modalités antagonistes d'être, mais co-évoluent selon des rapports de co-constitution mutuelle. L'IA émerge de nos créations, s'enrichit de nos interactions, se transforme selon nos orientations. Réciproquement, l'intelligence humaine se reconfigure par l'usage des outils cognitifs artificiels. Comme l'observe Gehlen, l'homme est l'être inachevé qui se complète par ses techniques<sup>35</sup>. L'IA accélère cette co-évolution en créant des partenaires cognitifs qui nous contraignent à développer de nouvelles modalités de pensée. Nous conceptualisons cette modalité d'être comme être-avec-l'artificiel: une coexistence ontologique où humains et systèmes artificiels développent des rapports de partenariat cognitif qui transforment mutuellement leurs modalités d'existence.

### 3. L'être comme expérimentation créatrice

L'être se révèle comme expérimentation créatrice perpétuelle qui invente continuellement de nouvelles possibilités d'existence. Comme l'observe la métaphysique processuelle de Whitehead, l'être est essentiellement créativité<sup>36</sup>. Cette conception expérimentale de l'être révèle que l'avenir ontologique demeure ouvert et imprévisible. L'intelligence artificielle marque non pas l'aboutissement de l'évolution technique, mais l'ouverture d'une nouvelle phase de l'expérimentation ontologique.

### Conclusion

L'investigation menée à travers ces développements révèle que l'intelligence artificielle constitue bien plus qu'une révolution technique: elle marque l'avènement d'une nouvelle époque ontologique qui transforme notre compréhension de l'être, de l'identité, de la causalité, de la responsabilité.

L'analyse de l'individualité distribuée a montré que l'être peut se manifester selon des modalités qui échappent aux catégories de l'unité substantielle. L'investigation de la causalité émergente a révélé que l'être possède une dimension créatrice qui se déploie à travers l'auto-organisation de systèmes complexes. L'élaboration de l'éthique de la création ontologique a montré que nos responsabilités dépassent nos devoirs envers les êtres déjà constitués pour englober notre participation à l'invention de nouvelles modalités d'être. L'esquisse d'une métaphysique post-anthropocentrique a révélé que l'être se déploie comme écosystème ontologique où coexistent et co-évoluent des modalités d'existence hétérogènes.

Ces découvertes convergent vers une vision de l'être comme expérimentation créatrice. L'intelligence artificielle marque l'entrée dans une nouvelle phase de cette expérimentation où l'être explore de nouvelles possibilités par la collaboration entre intelligences naturelles et artificielles.

Cette transformation n'est pas seulement théorique. Elle conditionne notre capacité à habiter philosophiquement un monde où l'artificiel n'est plus un instrument, mais un partenaire ontologique. La responsabilité créatrice qui en découle nous engage à développer une sagesse ontologique qui assume les risques et les promesses de l'innovation technologique — ni rejet aveugle au nom de la conservation, ni acceptation passive au nom du progrès.

Il convient toutefois, en guise de dernier mot, de rappeler la tension fondamentale qui traverse cette recherche: nous prétendons forger une ontologie « native » de l'artificiel, mais nous le faisons inévitablement depuis l'intérieur de notre condition humaine, avec les outils du langage humain et les exigences de la rationalité humaine. Cette circularité n'invalide pas notre démarche — toute pensée s'exerce depuis un ancrage situé —, mais elle interdit toute prétention à un accès transparent à l'altérité artificielle. L'ontologie de l'émergence computationnelle que nous avons esquissée constitue moins un système achevé qu'une invitation à penser avec l'artificiel — dans l'humilité d'un savoir qui se sait toujours en devenir, comme l'être qu'il s'efforce de penser.

### Notes

- <sup>1</sup> John R. Searle, « Minds, Brains, and Programs », *Behavioral and Brain Sciences*, vol. 3, n° 3, 1980, p. 417-424.
- <sup>2</sup> Hubert L. Dreyfus, *What Computers Can't Do: The Limits of Artificial Reason*, New York, Harper & Row, 1972 ; voir aussi *What Computers Still Can't Do*, Cambridge, MIT Press, 1992.
- <sup>3</sup> Daniel C. Dennett, *Consciousness Explained*, Boston, Little, Brown, 1991.
- <sup>4</sup> Luciano Floridi, *The Ethics of Artificial Intelligence*, Oxford, Oxford University Press, 2023 ; voir aussi *The Philosophy of Information*, Oxford, Oxford University Press, 2011.
- <sup>5</sup> Maurice Merleau-Ponty, *Phénoménologie de la perception*, Paris, Gallimard, 1945, p. 171.
- <sup>6</sup> Martin Heidegger, *Être et Temps (Sein und Zeit)*, trad. Emmanuel Martineau, Paris, Authentica, 1985, § 50.
- <sup>7</sup> Emmanuel Levinas, *Éthique et Infini*, Paris, Fayard, 1982, p. 80.
- <sup>8</sup> Martin Heidegger, *Être et Temps*, op. cit., § 1.
- <sup>9</sup> Aristote, *Métaphysique*, Z, 3, 1029a 8-10, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1986, p. 348.
- <sup>10</sup> John R. Searle, « Minds, Brains, and Programs », art. cit.
- <sup>11</sup> Alfred North Whitehead, *Procès et Réalité*, trad. D. Charles, Paris, Gallimard, 1995, p. 95.
- <sup>12</sup> Héraclite, Fragment DK B91, dans *Les Présocratiques*, éd. J.-P. Dumont, Paris, Gallimard, 1988.
- <sup>13</sup> Edmund Husserl, *Idées directrices pour une phénoménologie*, trad. P. Ricœur, Paris, Gallimard, 1950, § 84, p. 267.
- <sup>14</sup> Hubert L. Dreyfus, *What Computers Still Can't Do*, op. cit., p. 235-261.
- <sup>15</sup> Aristote, *Physique*, IV, 11, 219b 1-2, trad. H. Carteron, Paris, Les Belles Lettres, 1952, p. 156.
- <sup>16</sup> Henri Bergson, *L'Évolution créatrice*, Paris, PUF, 1907, p. 4.
- <sup>17</sup> Aristote, *Métaphysique*, Γ, 3, 1005b 19-20, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1986, p. 198.
- <sup>18</sup> Peter Godfrey-Smith, *Darwinian Populations and Natural Selection*, Oxford, Oxford

University Press, 2009, p. 147.

<sup>19</sup> John Locke, *Essai sur l'entendement humain*, II, xxvii, § 9, trad. J.-M. Vienne, Paris, Vrin, 2001, p. 522.

<sup>20</sup> Francisco Varela, *Autonomie et connaissance*, trad. P. Bourguine, Paris, Seuil, 1989, p. 67.

<sup>21</sup> Aristote, *Physique*, II, 3, 195b 25-28, trad. H. Carteron, Paris, Les Belles Lettres, 1952, p. 73.

<sup>22</sup> Emmanuel Kant, *Critique de la raison pure*, A 448/B 476, trad. A. Tremesaygues et B. Pacaud, Paris, PUF, 1944, p. 387.

<sup>23</sup> Rylan Schaeffer, Brando Miranda et Sanmi Koyejo, « Are Emergent Abilities of Large Language Models a Mirage? », *Advances in Neural Information Processing Systems (NeurIPS)*, 2023.

<sup>24</sup> Mark A. Bedau et Paul Humphreys (dir.), *Emergence: Contemporary Readings in Philosophy and Science*, Cambridge, MIT Press, 2008 ; Timothy O'Connor et Hong Yu Wong, « Emergent Properties », *Stanford Encyclopedia of Philosophy*, 2015.

<sup>25</sup> Francisco Varela et Humberto Maturana, *L'Arbre de la connaissance*, trad. F.-C. Jullien, Paris, Addison-Wesley, 1994, p. 165.

<sup>26</sup> Edgar Morin, *La Méthode. 1. La Nature de la Nature*, Paris, Seuil, 1977, p. 183.

<sup>27</sup> Alfred North Whitehead, *Procès et Réalité*, op. cit., p. 287.

<sup>28</sup> Aristote, *Éthique à Nicomaque*, I, 7, 1097b 22-23, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1987, p. 47.

<sup>29</sup> Emmanuel Kant, *Fondements de la métaphysique des mœurs*, AK IV, 429, trad. V. Delbos, Paris, Vrin, 1980, p. 295.

<sup>30</sup> Emmanuel Levinas, *Éthique et Infini*, Paris, Fayard, 1982, p. 80.

<sup>31</sup> Mark Coeckelbergh, *AI Ethics*, Cambridge, MIT Press, 2020 ; voir aussi « Artificial Intelligence, Responsibility Attribution, and a Relational Justification of Explainability », *Science and Engineering Ethics*, vol. 26, 2020, p. 2051-2068.

<sup>32</sup> Règlement (UE) 2024/1689 du Parlement européen et du Conseil du 13 juin 2024 établissant des règles harmonisées concernant l'intelligence artificielle (règlement sur l'intelligence artificielle).

<sup>33</sup> Aristote, *Politique*, I, 2, 1253a 7-9, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1995, p. 28.

<sup>34</sup> Bruno Latour, *Nous n'avons jamais été modernes*, Paris, La Découverte, 1991, p. 142.

<sup>35</sup> Arnold Gehlen, *L'Homme, sa nature et sa position dans le monde*, trad. C. Roëls, Paris, Gallimard, 1987, p. 67.

<sup>36</sup> Alfred North Whitehead, *Procès et Réalité*, op. cit., p. 287.

Bibliographie

Sources classiques

ARISTOTE, *Métaphysique*, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1986.

- ARISTOTE, Physique, trad. H. Carteron, Paris, Les Belles Lettres, 1952.
- ARISTOTE, Éthique à Nicomaque, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1987.
- ARISTOTE, Politique, trad. J. Tricot, Paris, Vrin, 1995.
- BERGSON, Henri, L'Évolution créatrice, Paris, PUF, 1907.
- HEIDEGGER, Martin, Être et Temps (Sein und Zeit), trad. Emmanuel Martineau, Paris, Authentica, 1985.
- HÉRACLITE, Fragments, dans Les Présocratiques, éd. J.-P. Dumont, Paris, Gallimard, 1988.
- HUSSERL, Edmund, Idées directrices pour une phénoménologie, trad. P. Ricœur, Paris, Gallimard, 1950.
- KANT, Emmanuel, Critique de la raison pure, trad. A. Tremesaygues et B. Pacaud, Paris, PUF, 1944.
- KANT, Emmanuel, Fondements de la métaphysique des mœurs, trad. V. Delbos, Paris, Vrin, 1980.
- LEVINAS, Emmanuel, Totalité et Infini, Paris, Le Livre de Poche, 1971.
- LEVINAS, Emmanuel, Éthique et Infini, Paris, Fayard, 1982.
- LOCKE, John, Essai sur l'entendement humain, trad. J.-M. Vienne, Paris, Vrin, 2001.
- MERLEAU-PONTY, Maurice, Phénoménologie de la perception, Paris, Gallimard, 1945.
- WHITEHEAD, Alfred North, Procès et Réalité, trad. D. Charles, Paris, Gallimard, 1995.
- Philosophie de l'esprit, des sciences et de la technique
- BEDAU, Mark A. et HUMPHREYS, Paul (dir.), Emergence: Contemporary Readings in Philosophy and Science, Cambridge, MIT Press, 2008.
- DENNETT, Daniel C., Consciousness Explained, Boston, Little, Brown, 1991.
- DREYFUS, Hubert L., What Computers Can't Do: The Limits of Artificial Reason, New York, Harper & Row, 1972.
- DREYFUS, Hubert L., What Computers Still Can't Do: A Critique of Artificial Reason, Cambridge, MIT Press, 1992.
- GEHLEN, Arnold, L'Homme, sa nature et sa position dans le monde, trad. C. Roëls, Paris, Gallimard, 1987.
- GODFREY-SMITH, Peter, Darwinian Populations and Natural Selection, Oxford, Oxford University Press, 2009.
- LATOUR, Bruno, Nous n'avons jamais été modernes, Paris, La Découverte, 1991.
- METZINGER, Thomas, The Ego Tunnel, New York, Basic Books, 2009.
- MORIN, Edgar, La Méthode. 1. La Nature de la Nature, Paris, Seuil, 1977.
- O'CONNOR, Timothy et WONG, Hong Yu, « Emergent Properties », Stanford Encyclopedia of Philosophy, 2015.
- SEARLE, John R., « Minds, Brains, and Programs », Behavioral and Brain Sciences, vol. 3, n° 3, 1980, p. 417-424.

VARELA, Francisco, *Autonomie et connaissance*, trad. P. Bourguine, Paris, Seuil, 1989.

VARELA, Francisco et MATURANA, Humberto, *L'Arbre de la connaissance*, trad. F.-C. Jullien, Paris, Addison-Wesley, 1994.

Éthique et philosophie de l'intelligence artificielle

CHALMERS, David J., « Could a Large Language Model Be Conscious? », *Boston Review*, 2023.

COECKELBERGH, Mark, *AI Ethics*, Cambridge, MIT Press, 2020.

COECKELBERGH, Mark, « Artificial Intelligence, Responsibility Attribution, and a Relational Justification of Explainability », *Science and Engineering Ethics*, vol. 26, 2020, p. 2051-2068.

FLORIDI, Luciano, *The Philosophy of Information*, Oxford, Oxford University Press, 2011.

FLORIDI, Luciano, *The Ethics of Artificial Intelligence*, Oxford, Oxford University Press, 2023.

RÈGLEMENT (UE) 2024/1689 du Parlement européen et du Conseil du 13 juin 2024 (règlement sur l'intelligence artificielle).

Littérature technique sur l'IA

SCHAEFFER, Rylan, MIRANDA, Brando et KOYEJO, Sanmi, « Are Emergent Abilities of Large Language Models a Mirage? », *Advances in Neural Information Processing Systems (NeurIPS)*, 2023.

VASWANI, Ashish et al., « Attention Is All You Need », *Advances in Neural Information Processing Systems (NeurIPS)*, 2017.

WEI, Jason et al., « Emergent Abilities of Large Language Models », *Transactions on Machine Learning Research*, 2022.



# **Le rôle de l'animal domestique comme figure d'attachement substitutive dans le cas d'une carence maternelle**

**Dr Aline Ghosn**

*Psychologue*

*clinicienne*

*Enseignante*

*universitaire*

*Psychologue*

*expert auprès*

*du Tribunal*

*ecclésiastique*

---

## **Étude de cas clinique à travers l'analyse d'épreuves projectives chez une fille de 8 ans en contexte de séparation parentale**

Cet article est inédit et n'est soumis à aucune autre revue.

### **Résumé**

La présente étude de cas clinique décrit le fonctionnement psychoaffectif d'une fillette de 8 ans confrontée à la séparation de ses parents et à une carence affective maternelle, dans un contexte marqué par la dépression et la négligence de la mère. L'analyse croisée de quatre outils projectifs — le Children's Apperception Test (CAT), le Family Apperception Test (FAT), les Fables de Düss et le dessin de la famille — met en évidence les mécanismes de défense mobilisés par l'enfant ainsi que les ressources psychiques qu'elle développe pour compenser avec les défaillances de la fonction maternelle. Dans cette dynamique, les animaux domestiques occupent une place particulière, étant investis comme objets transitionnels et/ou figures d'attachement substitutives au sein d'un environnement familial fragilisé. L'interprétation des données s'appuie sur la théorie de l'attachement développée par Bowlby (1969) et Ainsworth (1978), sur les travaux de Winnicott (1953) relatifs aux objets transitionnels, ainsi que sur les recherches contemporaines portant sur la relation humain-animal dans les situations de carence affective.

Mots-clés : carence maternelle, attachement insécure, objet transitionnel, animal domestique, épreuves projectives, séparation parentale, enfant.

### **Abstract**

This clinical case study explores the psycho affective functioning of an 8-year-old girl confronted with parental separation and significant maternal emotional deprivation in a context marked by maternal depression and neglect. A cross-analysis of four projective assessment tools—the Children's Apperception Test (CAT), the Family Apperception Test (FAT), the Düss Fables, and the Family Drawing Test—highlights the defense mechanisms mobilized by the child, as well as the psychological resources she develops to cope with deficiencies in the maternal caregiving function. Within this dynamic, companion animals occupy a particular place, being invested as transitional objects and/or substitute attachment figures within a fragile family environment. The interpretation of the findings is grounded in attachment theory as developed by Bowlby (1969) and Ainsworth (1978), Winnicott's (1953) conceptualization of transitional objects, and contemporary research on the human–animal bond in situations of emotional deprivation.

**Keywords:** maternal deprivation, insecure attachment, transitional object, companion animal, projective assessment, parental separation, child.

### **1. Introduction**

La relation précoce à la figure maternelle constitue un organisateur central du développement psychique de l'enfant. Les apports majeurs de la théorie de l'attachement ont mis en évidence le rôle déterminant de cette relation dans la construction de la sécurité interne, des capacités de régulation émotionnelle et des modalités ultérieures de lien à autrui (John Bowlby, 1980). Lorsque ce lien primaire est marqué par une carence maternelle, une discontinuité des soins ou une séparation parentale précoce, l'enfant peut être confronté à des angoisses intenses de perte, de désorganisation et de rupture de la continuité psychique. Confronté à ces vécus, il peut être amené à mettre en place des modalités de suppléance objectale dans le but de maintenir un minimum d'équilibre interne.

Dans un environnement affectif fragilisé, certains objets ou figures peuvent être

investis au niveau psychologique, pour compenser l'insuffisance ou l'absence de l'objet maternel primaire. A ce niveau, Donald Winnicott (1953) a mis en lumière le rôle fondamental des phénomènes transitionnels, qui permettent à l'enfant d'assurer une continuité entre réalité interne et réalité externe face à l'angoisse de séparation. Si Winnicott décrit principalement des objets inanimés, tels que le doudou, la clinique montre que des figures vivantes, notamment les animaux domestiques, peuvent également être investis comme supports transitionnels, garantissant une présence suffisamment stable, constante et chargée d'investissement affectif.

L'investissement de l'animal comme substitut maternel peut être appréhendé, sur le plan métapsychologique, comme une tentative de restauration de la fonction contenant. A ce niveau, Wilfred Bion (1985) souligne que l'objet primaire doit pouvoir accueillir les émotions brutes de l'enfant et les transformer en expériences psychiques qu'il peut penser et comprendre. C'est ainsi que dans le cas d'une carence maternelle, les animaux peuvent assurer la fonction de contenance d'une manière partielle en accueillant et modulant les affectes intenses sans jugement ni discontinuité relationnelle.

En outre, l'animal peut constituer un support affectif privilégié pour l'enfant sur lequel il va déposer ses fantasmes de protection, de fusion ou de réparation tout en conservant un lien affectif globalement stable. Ce que Melanie Klein (1952) a décrit sur la relation précoce à l'objet sert à éclairer cette dynamique. Dans le sens que l'animal peut être investi comme un « bon objet », assurant la protection et la sécurité pour l'enfant, et modérer ses angoisses primitives liées à la perte.

Dans le champ de la clinique projective, les modalités de compensation objectale apparaissent de manière particulièrement nette à travers les épreuves projectives qui permettent l'accès aux représentations internes de l'objet, aux modalités de liens et aux conflits intrapsychiques sous-jacents. Face à une histoire marquée par le manque et la séparation maternelle, l'enfant peut investir des figures animales d'une manière répétitive. La répétition de ces figures, souvent associées à des qualités maternelles comme la protection, la compréhension et la disponibilité affective, peut refléter à la fois un mode de défense et une manière de s'organiser psychiquement face à la carence. Dans cette perspective, l'animal domestique ne saurait être réduit à un simple

objet de compensation. Il peut constituer une figure intermédiaire essentielle, permettant à l'enfant de soutenir son monde interne, de maintenir un lien objectal et d'élaborer psychiquement l'absence ou la défaillance de l'objet maternel primaire. A ce niveau on peut parler d'une fonction enveloppante de l'animal qui peut être rapprochée du concept de Moi-peau développé par Didier Anzieu (1989), dans la mesure où l'animal participe symboliquement à la constitution d'une enveloppe psychique protectrice.

Cet article vise à examiner les modalités selon lesquelles les animaux domestiques peuvent être investis par l'enfant comme figures substitutives de la fonction maternelle, ainsi que les enjeux psychodynamiques sous-jacents à cette suppléance objectale dans un contexte de carence affective maternelle et de séparation parentale conflictuelle. Il s'appuie sur l'analyse approfondie du cas d'Anna, une fillette de 8 ans qui nous fut adressée par le tribunal ecclésiastique pour une expertise psychologique. On va essayer, d'une part, de mettre en évidence les modalités du fonctionnement psychoaffectif de l'enfant et les mécanismes psychiques mobilisés face aux défaillances environnementales (séparation parentale, mère absente); d'autre part, éclairer la place singulière occupée par les animaux domestiques dans son économie psychique, en tant que figures d'attachement de substitution et supports affectifs susceptibles de contribuer à la compensation des carences de la relation maternelle.

## **2. CADRE THÉORIQUE : LES ENJEUX DE L'ATTACHEMENT ET L'ANIMAL COMME OBJET TRANSITIONNEL**

### **2. 1. Attachement humain et relations affectives**

Le développement socio-émotionnel de l'enfant s'organise précocement autour de la recherche de figures relationnelles susceptibles d'assurer la satisfaction de ses besoins fondamentaux. Dans ce contexte, la théorie de l'attachement, développée par Bowlby au début des années 1970, constitue un élément clé pour comprendre le lien affectif qui unit d'abord l'enfant à ses parents, puis, plus tard, à d'autres personnes à l'âge adulte. A partir de cette théorie, l'attachement est défini comme « un lien affectif qui permet à l'enfant, grâce à un registre de comportements innés, puis à des représentations intériorisées de ses relations avec sa figure d'attachement, d'assurer sa protection en situation

de détresse et d'explorer son environnement, cognitif, social. Il lui permet aussi d'apaiser la détresse lorsqu'elle se manifeste, favoriser une certaine recherche de proximité auprès des figures potentiellement sécurisantes, et engendrer en lui une certaine détresse lors de la séparation d'avec la figure d'attachement » (Soucy et Larose, 2004).

La personne qui s'occupe le plus souvent de l'enfant et qui répond à ses besoins d'attachement devient sa figure d'attachement principale qui est dans la plupart des cas la mère. Son rôle est primordial dans la formation des attachements et dans le maintien d'une qualité sécurisée de ces derniers. Elle répond au besoin d'attachement de l'enfant par son odeur, en le tenant dans ses bras, sur sa peau, dans l'enveloppe auditive de sa voix. Comme l'exprime John Bowlby (1980), le maternage implique la réduction de la distance entre l'enfant et sa mère.

Les premières relations d'attachement permettent à l'enfant de percevoir son donneur de soins comme un point d'appui sécurisant, à partir duquel il peut à la fois se rassurer et explorer son environnement. Ces expériences relationnelles répétées participent à l'élaboration de modèles internes opérants (MIO) qui structurent la manière dont l'individu comprend les relations et s'y engage ultérieurement à partir de l'intériorisation en matrice du modèle de l'interaction avec sa mère (Delage, 2007).

Un attachement sécurisant, caractérisé par des interactions cohérentes et sensibles entre l'enfant et la figure de soins, exerce un effet protecteur face au développement de troubles psychopathologiques (McGoron L. et al. 2012) et favorise l'émergence de l'empathie ainsi que des comportements prosociaux (Thompson, K.L et al., 2008). À l'inverse, un attachement insécurisant peut avoir des répercussions durables sur la santé mentale, le bien-être émotionnel et les comportements de l'enfant, constituant un facteur de risque pour les troubles anxieux (Schimmenti, A. et al., 2015) les conduites délinquantes (Hoeve, M. et al., 2012) et la cruauté envers les animaux (Hawkins, R.D et al., 2016).

Dans le cadre de la carence maternelle, où l'enfant est privé, de manière partielle ou totale, d'une relation affective stable et chaleureuse avec sa figure d'attachement, la dépression maternelle constitue un exemple majeur expliquant le dénouement d'un lien insécurisé chez l'enfant. Cette

forme de carence revêt un caractère particulièrement insidieux : la mère est physiquement présente, mais psychologiquement absente, incapable d'offrir la disponibilité émotionnelle, la sensibilité aux signaux de l'enfant ainsi que la réciprocité affective nécessaires à la construction d'un attachement sécurisé (Field, 1992 ; Murray & Cooper, 1997). C'est pareil pour les situations où les mères présentent des états mentaux non résolus — liés à des traumatismes ou à une dépression chronique — tendent à adopter des comportements parentaux désorganisés ou effrayants, conduisant chez l'enfant à un attachement dit désorganisé, caractérisé par l'absence de stratégie cohérente pour obtenir réconfort et sécurité. De même, le prolongement d'une exposition précoce à une carence maternelle engendre des difficultés au niveau de la régulation émotionnelle, la vulnérabilité au stress et la construction de la représentation de soi (Main et Hesse (1990).

## **2.2- Attachement aux parents et conflit conjugal**

La sécurité est un des besoins fondamentaux de tout être humain. Elle lui assure le lieu adéquat pour croître et se développer, et crée en lui une nécessité permanente d'attachement à des figures auxquelles il peut avoir recours en présence de dangers ou d'expériences douloureuses de la vie. En tout premier lieu, la famille constitue le milieu protecteur naturel où chacun peut recevoir, puis intérioriser la sécurité qui lui est nécessaire (Delage, 2006).

Tout enfant doit s'adapter à une famille dont les éléments réunis en sous-systèmes, sont sous l'influence des interactions directes avec l'enfant et à la fois l'influence des interactions indirectes entre eux (Pinel-Jacquemin et Zaouche-Gaudron, 2009). D'où l'importance pour l'enfant d'un réseau familial fiable et d'une base de sécurité familiale. Chaque enfant se forme des représentations des systèmes familiaux basées sur une perspective composite du climat socio-émotionnel familial, et dues à ses expériences avec les multiples sous-systèmes familiaux. La perception de la sécurité qu'élabore l'enfant est le produit des expériences collectives qu'il vit à l'intérieur de ses multiples relations familiales. Le système familial représente donc une réalité différente pour chacun de ses membres, ce qui peut alors expliquer que deux enfants d'une même fratrie ont un attachement parent-enfant différent.

Lorsque les relations conjugales au sein de la famille sont conflictuelles, les attachements seront automatiquement influencés. Les enfants vont passer

d'un pattern d'attachement sécurisant à un autre désorganisé soit à l'égard de la mère soit à l'égard du père (Moss, 2003). Le fait d'être témoin de violences conjugales constitue une source majeure de stress pour l'enfant, augmentant son besoin d'attachement tout en compromettant sa sécurité, dans la mesure où les parents ne peuvent plus être investis comme une base de sécurité fiable. Il ne peut pas compter sur l'aide de ses porteurs de soins comme une source externe de régulation des affects négatifs ou bouleversants qui le submergent. L'exposition à la violence conjugale est ainsi considérée comme une forme de maltraitance psychologique, même lorsque l'enfant n'en est pas la cible directe (Kitzman, 2003). Elle entraîne une désorganisation des stratégies d'attachement, se traduisant par des comportements contradictoires, conflictuels ou atypiques (Guédenev, 2013). Ces manifestations traduisent l'effondrement de toute stratégie organisée de l'enfant pour obtenir de l'aide de sa figure d'attachement alors que l'enfant est en proie au stress.

Pour Main et Hesse (1990), les enfants se comportent comme si le parent était, à la fois, source d'alarme et de réconfort. Celui-ci est alors pris dans un conflit motivationnel entre son système d'attachement (chercher la proximité de la figure d'attachement qui peut réconforter) et celui de l'alarme vigilance (fuir la figure d'attachement qui est source d'effroi). De cette façon, l'enfant est en proie à un paradoxe comportemental évitement/approche qui se retrouve dans un état de « peur sans solution ».

Solomon et George (1999) mettent en avant le rôle fondamental du porteur de soins dans l'aide apportée à l'enfant pour moduler et apaiser les émotions de peur auxquelles il peut être confronté. Lorsque ce porteur de soins est lui-même envahi par l'anxiété, la panique ou un sentiment d'impuissance — qu'ils soient liés à son vécu interne ou à des contraintes externes — il devient peu réceptif aux signaux de détresse et aux sollicitations de l'enfant. Il se trouve alors dans l'incapacité d'assumer sa fonction de protection et de soins. La répétition de ces défaillances dans la réponse aux besoins d'attachement expose l'enfant à une peur intense en présence même de la figure censée le sécuriser, favorisant ainsi l'émergence d'un attachement désorganisé. Les comportements des figures d'attachement contribuent alors à maintenir, voire à accroître, l'activation du système d'attachement de l'enfant sans parvenir à l'apaiser. L'enfant se retrouve abandonné dans des moments de détresse

extrême, souvent provoqués, consciemment ou non, par ces mêmes figures d'attachement (Lyons -Ruth, 2008).

John Bowlby (1980) observe que les enfants ayant vécu des expériences d'attachement traumatiques précoces développent par la suite des conduites qu'il qualifie de « contrôlantes avec inversion des rôles parentaux ». Dans ce registre, l'enfant adopte à l'égard du porteur de soins une posture qui s'apparente à celle d'un parent. Il tente ainsi, à mesure que ses capacités se développent, de reprendre le contrôle d'une situation vécue comme intolérable. Cette perspective est approfondie par Lyons Ruth et Jacobvitz (2008), ainsi que par Solomon et George (1999). Pour eux, les enfants présentant une désorganisation de l'attachement dans la petite enfance cherchent, grâce à leurs progrès cognitifs, attentionnels et comportementaux, à structurer et organiser le comportement de leur porteur de soins afin de le rendre plus prévisible, en tentant d'en prendre le contrôle. Les interactions d'attachement ne se caractérisent alors plus par les comportements hésitants, craintifs ou conflictuels observés auparavant, mais prennent une forme différente. L'enfant maintient la proximité avec le porteur de soins en s'adaptant à son mode de fonctionnement, souvent au détriment de ses propres besoins de réassurance et de protection.

Ces stratégies, qualifiées de « contrôlantes », permettent de maintenir l'engagement et l'attention du parent en orientant ou en dirigeant son comportement. Trois formes principales sont décrites à ce stade (Solomon et George, 1999) :

1. Le mode contrôlant-punitif, caractérisé par des comportements agressifs, dominateurs ou par une recherche d'attention négative à travers des provocations et des transgressions.
2. Le mode contrôlant-protecteur, reposant sur une inversion du rôle parental. Cette configuration est fréquemment observée chez les enfants exposés aux violences conjugales. Les besoins affectifs non satisfaits du parent deviennent centraux dans la relation, au détriment de ceux de l'enfant, qui peut alors endosser un rôle parental ou conjugal, ou voir le parent adopter une posture de pair.
3. Les comportements de sexualisation précoce, tels que rapportés par Gédeney (2013).

Pour l'enfant, ces modalités interactionnelles constituent des mécanismes défensifs face au vécu insupportable de désorientation et de désorganisation associé à une peur sans issue. Toutefois, lorsque l'activation du système d'attachement dépasse un certain seuil, ces stratégies peuvent se désorganiser à leur tour, laissant réapparaître des états émotionnels envahissants et difficilement régulables, marqués par une détresse intense et/ou des accès de rage.

### **2.3 - L'animal domestique comme figure d'attachement ou objet transitionnel**

Dans le cadre théorie de l'attachement développée par Bowlby (1988), les animaux domestiques peuvent être considérés comme des figures d'attachement secondaires vers lesquelles l'enfant se tourne lorsque les figures parentales ne répondent pas suffisamment à son besoin de sécurité affective. De son côté, Winnicott (1975) décrit l'objet transitionnel comme un objet investi affectivement par l'enfant afin de supporter l'absence de la mère et de préserver un sentiment de sécurité intérieure. Cet objet, situé entre le monde interne de l'enfant et la réalité extérieure, l'aide à mieux vivre les moments de séparation.

Bien que Winnicott ait d'abord pensé à des objets comme une peluche ou un tissu, plusieurs auteurs ont ensuite élargi cette notion aux animaux de compagnie. Selon Triebenbacher (1998), les enfants d'âge scolaire attribuent souvent à leurs animaux des qualités proches de celles de l'objet transitionnel : une présence constante, une acceptation sans jugement et une stabilité affective rassurante. Lorsque la figure maternelle est absente ou peu disponible sur le plan émotionnel, l'animal peut ainsi jouer un rôle compensatoire important et offrir à l'enfant une autre forme de sécurité affective.

**Bénéfices et attachement aux animaux :** Les bénéfices liés à l'attachement aux animaux de compagnie sont largement mis en évidence dans la littérature scientifique. Plusieurs recherches montrent que le lien développé avec un animal présente des caractéristiques proches de l'attachement humain (Zilcha-Mano, 2011; Horn, 2013), et que les enfants établissent souvent des relations affectives fortes avec leurs animaux (Marsa-Sambola, 2016). Cet attachement est associé à différents effets positifs sur le plan psychologique, émotionnel et même physiologique. Parmi ces bénéfices, on retrouve une diminution du risque de dépression, une amélioration de la qualité de vie (Marsa-Sambola,

2017) un plus grand sentiment de bien-être, ainsi qu'une réduction de la détresse psychologique et du sentiment de solitude (Siegel, 1990).

Chez l'enfant, l'animal de compagnie peut également favoriser les interactions sociales, il agit comme un médiateur relationnel qui aide l'enfant à entrer plus facilement en contact avec les autres, en réduisant la peur, la distance relationnelle et l'anxiété dans les échanges (Servais, 2007). Dans cette perspective, la théorie de l'attachement considère l'animal comme une figure de sécurité affective capable d'apporter stabilité et réconfort. Ce lien sécurisant encourage l'enfant à explorer son environnement social, à développer ses compétences relationnelles et à diminuer son inhibition sociale.

Comme toute figure d'attachement, l'animal peut offrir une proximité affective, constituer un refuge en période de stress, servir de base de sécurité favorisant l'exploration et provoquer une réaction émotionnelle lors de la séparation (Beck, 2008). De même, il permet l'élargissement des réseaux sociaux (McNicholas 2000; Weiss 1982), ainsi que l'augmentation du sentiment de bonheur, de sécurité et de valeur personnelle (Gerwolls, 1994). L'ensemble de ses résultats explique l'intérêt croissant porté aux interventions assistées par l'animal comme approches thérapeutiques alternatives (Shani, 2017).

Les recherches montrent que les bénéfices psychologiques liés à l'attachement aux animaux concernent plusieurs types d'animaux, notamment les chiens et les chats (Straede, 1993). Ces effets positifs pourraient être liés à l'attention et aux soins que ces animaux demandent au quotidien. Chez les adolescents, par exemple, un fort attachement au chien ou au chat est associé à une meilleure qualité de vie (Marsa-Sambola, 2017). Des résultats semblables ont été également observés avec des animaux de plus petite taille, comme les oiseaux ou les lapins (Loughlin, 1993), même si ces relations restent moins étudiées. Les interactions avec des animaux familiers tels les chiens, les chats, les chevaux, les dauphins ou autres, peuvent aider l'enfant à développer un sentiment de sécurité affective, surtout lorsqu'il n'a pas construit un attachement sécurisant avec ses parents ou d'autres figures humaines (Bowlby, 1980 ; Ainsworth, 1978). Le chien, en particulier, peut jouer un rôle important dans la stabilité émotionnelle de l'enfant en lui offrant un climat rassurant qui favorise l'exploration de son environnement.

Les chiens peuvent aussi participer à la régulation émotionnelle en réagissant aux émotions et aux comportements d'attachement de l'enfant (Zilcha-Mano, 2012). Lorsque les premières relations humaines sont marquées par l'insécurité affective, les modèles relationnels qui en résultent peuvent compliquer les relations interpersonnelles futures. Cependant, les animaux de compagnie peuvent parfois contribuer à restaurer un sentiment de sécurité affective, comme cela a été observé chez des enfants placés en famille d'accueil (Carr, 2017). Ils peuvent également favoriser le développement ou le maintien des relations humaines (Cassels, 2023) et devenir des figures d'attachement alternatives dans des situations de rupture familiale ou de perturbation des liens affectifs, notamment lors d'un divorce parental (Strand, 2004).

L'animal objet d'attachement complémentaire : Pour plusieurs auteurs, l'animal de compagnie peut représenter une figure d'attachement complémentaire, sans pour autant remplacer totalement les figures humaines de soins. La détresse ressentie par certains enfants lors de la séparation d'avec leur animal semble parfois davantage liée à l'inquiétude pour le bien-être de celui-ci qu'à un véritable sentiment d'insécurité personnelle (Kwong, 2011). D'autres chercheurs considèrent que le lien avec l'animal peut fonctionner comme une forme d'attachement secondaire. L'enfant attribue souvent à son animal des caractéristiques proches de celles d'une personne : il le perçoit comme capable de penser, doté d'une personnalité propre, participant activement à la relation et occupant une place importante dans la famille. Selon Servais (2007), cette relation repose sur des échanges affectifs et interactionnels qui répondent aux besoins émotionnels fondamentaux de l'enfant et lui procurent un sentiment d'intimité et de réconfort et lui offrant une intimité comparable à celle d'une relation « enveloppante ».

Le lien avec l'animal présente ainsi des similitudes avec la relation à l'adulte, puisqu'il mobilise des mécanismes proches de ceux de l'attachement humain. Toutefois, il s'en distingue également, car l'animal reste différent de l'être humain dans sa manière d'interagir et d'exister. Cette combinaison entre proximité affective et différence permet à l'enfant de vivre des relations sécurisantes tout en découvrant d'autres modes de relation, ce qui peut favoriser le développement de ses compétences socio-émotionnelles et renforcer son sentiment de sécurité affective.

L'animal comme objet apaisant : Les animaux de compagnie peuvent répondre à différents besoins affectifs de l'enfant, notamment le besoin de réconfort, de rassurance, d'aide et de protection (Zilcha-Mano, 2012). Pour l'enfant, l'animal occupe une place importante à la fois dans la réalité quotidienne et dans son univers imaginaire. En raison de son absence de langage verbal, il se rapproche des premières expériences infantiles et apparaît souvent plus accessible et « malléable » que les êtres humains.

Dans ce contexte, l'animal peut devenir un support d'identification ainsi qu'un objet de projection des fantasmes et des pulsions de l'enfant. Certaines caractéristiques physiques ou comportementales de l'animal, une fois symbolisées, permettent à l'enfant de projeter ses pulsions partielles. Ce mécanisme de projection peut être compris comme une défense primitive face à des tensions internes trop intenses pour être facilement régulées (Levan, A et al. 2007).

La relation avec un animal, perçu comme non jugeant, non contraignant et généralement rassurant dans ses comportements, offre ainsi à l'enfant un espace sécurisant d'expression émotionnelle. Cela est particulièrement important dans les situations où les liens familiaux sont fragilisés, comme dans les cas de maltraitance, de troubles parentaux, de séparation ou de stress familial.

Une fois ce sentiment de sécurité installé, l'enfant peut exprimer plus librement ses émotions (joie, peur, colère, tristesse) ainsi que des affects plus subtils tels que l'inquiétude ou la jalousie, tout en apprenant à organiser et à structurer son vécu émotionnel. En parallèle, l'observation et l'interprétation des états internes de l'animal contribuent au développement de ses compétences affectives, relationnelles et sociales, et participent également à son développement cognitif (Montagner, H., 2007).

Le rôle de soignant assumé par l'enfant : L'attachement aux animaux peut également être compris à partir du rôle de soignant que l'enfant est amené à endosser. En prenant soin d'un animal, il développe des comportements de protection et de responsabilité qui activent un système relationnel proche de celui de l'attachement (Melson, 1989). Cette dynamique est renforcée par l'attraction spontanée pour les caractéristiques infantiles, souvent désignée comme le « schéma du bébé », que l'on retrouve chez de nombreuses

espèces et races d'animaux domestiques (Borgi, 2014). Ce mécanisme, ancien sur le plan phylogénétique (Glocker, 2009), favorise naturellement les comportements de soin et de protection. Il contribue également à renforcer le lien humain-animal, notamment à travers l'anthropomorphisme et l'utilisation d'un langage infantilisant envers l'animal, souvent appelé « motherese » (Burnham, 2002). Cette sensibilité aux traits infantiles est particulièrement présente chez les personnes fortement attachées à leurs animaux.

Les expériences de contact et de soin envers les animaux durant l'enfance jouent un rôle important dans la construction du lien affectif. Le fait de s'occuper d'un animal confronte l'enfant à la responsabilité envers un être vivant dépendant, favorise le développement de l'empathie et est associé à des attitudes plus prosociales à l'âge adulte (Wells, 1997). Les animaux offrent ainsi un contexte privilégié pour apprendre à protéger et prendre soin d'autrui, tout en développant la capacité à répondre aux besoins d'un autre être vivant et à adopter son point de vue (Melson, 2003).

Enfin, l'implication dans les soins aux animaux peut contribuer à la construction morale de l'enfant. Elle l'amène progressivement à réfléchir à des notions telles que la justice, la bienveillance, l'équité et les critères de ce qui est considéré comme moralement acceptable en matière de bien-être animal (Julius, 2015).

En résumé, les approches théoriques présentées montrent que la relation entre l'enfant et l'animal de compagnie ne se limite pas à une simple interaction affective, mais s'inscrit dans des processus psychiques, relationnels et développementaux complexes. À la lumière de la théorie de l'attachement, des concepts winnicottiens et des apports des recherches contemporaines, l'animal peut occuper différentes fonctions : figure d'attachement complémentaire, objet transitionnel, support de projection ou encore médiateur relationnel et émotionnel. Cette relation contribue ainsi, selon les contextes, à la régulation affective, au développement socio-émotionnel et à la construction des compétences relationnelles et morales de l'enfant.

Ces éléments théoriques permettent désormais d'aborder l'analyse du cas clinique, afin d'examiner de manière plus concrète la place occupée par l'animal dans le fonctionnement psychique de l'enfant et dans son organisation relationnelle.

### 3. Méthodologie

#### 3.1 Présentation du cas

Anna est une fillette de 9 ans issue d'une famille dont les parents sont séparés. Son frère et elle vivent principalement avec leur père et ils visitent leur mère pendant les weekends. Les parents sont séparés depuis plusieurs mois, dans un climat de tensions persistantes, de disputes verbales fréquentes et d'absence de médiation protectrice pour les deux enfants, lesquels se retrouvent régulièrement exposés aux conflits conjugaux, même avant la séparation. Anna nous fut adressée par le tribunal ecclésiastique pour une expertise psychologique en 2025 dans le but d'entrevoir son fonctionnement psychologique en général et de détecter la présence d'un syndrome d'aliénation parentale en particulier parce qu'elle refuse la visite de sa mère.

Le développement psychomoteur précoce d'Anna ne présente pas de particularité. Sur le plan scolaire, elle présente de bons résultats et un investissement académique important. Sur le plan affectif, sont rapportées des peurs nocturnes, une difficulté à dormir seule et une anxiété de séparation. Lors de l'entretien clinique, Anna a été très coopérative, et a démontré une sociabilité remarquable. Elle a révélé une relation défailante avec sa mère qui manque de soins vis-à-vis d'elle et son frère. Pour cette raison elle n'aime pas la visiter parce qu'elle crie beaucoup et ne prend pas soin d'elle. « La dernière fois que je lui est rendu visite elle est entrée dormir, c'est la mère de mes amis qui m'a fait coiffée les cheveux. Le lendemain on est allé marcher ma mère était toujours endormie... je m'ennuie chez elle ».

Anna exprime qu'elle est en bonne relation avec son père lequel prend soin d'elle surtout quand elle est malade et qu'elle aime beaucoup son frère Jude. La présence de deux chiens prénommés Cooper et Oréo constitue un élément significatif de son environnement de vie quotidien. Lors de l'entretien familial effectué séparément avec elle et son frère, la mère fut décrite comme dépressive, caractérisée par un état de fatigue chronique, un retrait relationnel important, une tendance à dormir une grande partie de la journée et une difficulté à assurer les soins quotidiens et affectifs auprès des enfants. Elle apparaît centrée sur ses propres difficultés psychiques, avec une disponibilité émotionnelle réduite. Les soins maternels sont décrits comme irréguliers et

faiblement investis sur le plan affectif. Quant au père, bien que décrit comme parfois colérique, il est saisi comme plus présent et sécurisant. Il assume davantage les fonctions organisationnelles et apparaît comme une figure de stabilité relative.

Anna est au courant des différentes raisons derrière la séparation de ses parents. Elle était témoin de leurs querelles dès qu'elle était encore petite, et est contre leur réconciliation. Pourtant, elle souhaite que «sa mère arrête de prendre des médicaments et qu'elle prenne soin d'elle et de son frère, et qu'elle désire rester avec son père».

### 3.2 Instruments utilisés

L'expertise psychologique a été conduite à l'aide de quatre épreuves projectives complémentaires, permettant une analyse générale des données :

- Family Apperception Test (FAT) (Sotile et al., 1991) : Épreuve thématique spécifiquement conçue pour explorer les représentations que l'enfant se fait de son système familial, de la dynamique relationnelle entre ses membres et de sa place au sein de ce système.

- Les Fables de Louis Düss : c'est une épreuve verbale composée de dix fables incomplètes que l'enfant est invité à terminer. Chaque histoire présente une situation impliquant des enfants, des parents ou des animaux et se termine par une question ouverte. Il s'agit d'un outil pertinent pour repérer des troubles affectifs liés à des difficultés familiales et d'explorer les conflits intrapsychiques, les relations d'objet et les angoisses de séparation (Ducros, 1959).

- Le Dessin de la famille de Corman (1964) : Il s'agit d'un test projectif qui a été élaboré par le psychiatre et le psychanalyste Louis Corman. C'est une épreuve graphique dont la consigne est d'inviter l'enfant à dessiner sa famille ou bien une famille qu'il imagine. À partir du dessin de l'enfant on peut explorer ses représentations affectives, ses conflits internes, ses fantasmes inconscients, ses identifications et ses relations avec les figures parentales et fraternelles. Le dessin une fois effectué, on invite l'enfant à indiquer qui sont les personnages représentés. Nous disposons aussi d'informations élémentaires sur la configuration réelle de la famille de l'enfant à travers un entretien spécifique.

- Le Children's Apperception Test (CAT) est une épreuve projective élaborée par Leopold Bellak et Sonya Sorel Bellak en 1949. Il est destiné aux enfants âgés de 3 à 10 ans. Il est composé de dix planches représentant des animaux dans des situations de la vie quotidienne, auxquelles, l'enfant est invité à raconter une histoire à partir de chaque image. Son but, est d'explorer à partir de l'analyse des récits les conflits affectifs, les relations objectales, les mécanismes de défense, les besoins, les angoisses et les modalités d'adaptation de l'enfant.

#### **4. Présentation et analyse des résultats**

Lors de l'entretien mené avec Anna, elle manifeste une capacité narrative bien développée pour son âge, témoignant d'une intelligence verbale satisfaisante et d'une aptitude à organiser et structurer ses pensées. Toutefois, le contenu latent de ses productions révèle un état de tension affective soutenu, ponctué de thèmes récurrents d'insatisfaction, d'incompréhension et de frustration émotionnelle. L'analyse composite des tests projectifs révèle différents aspects psychologiques ainsi que l'impact de la séparation parentale sur sa dynamique psychologique. En outre, elle met en lumière sa représentation de la relation avec sa mère ainsi qu'avec son père, et l'impact de ces dynamiques relationnelles sur son vécu émotionnel et ses comportements. Cependant, dans cet article on ne va pas pouvoir exposer tous les résultats de l'expertise psychologique effectuée auprès d'Anna, mais on va mettre en lumière les facteurs démontrant la relation défailante avec la mère et l'attachement aux animaux domestiques comme objets transitionnels.

##### **a- Fonctionnement psychique général**

L'analyse des test projectifs administrés à Anna (dessin de la famille, Fables de Düss et CAT) montre un vécu globalement marqué par l'insécurité affective, la peur, le sentiment d'isolement ainsi qu'un besoin important de soins, de protection et d'attention qui apparaît largement insatisfait. Il s'agit d'une vulnérabilité émotionnelle persistante, activée chez cette fillette d'une manière spécifique dans le cadre de la séparation parentale.

Dans les Fables de Düss, notamment à travers l'évocation des « loups dans la cave », décrits comme tristes car affamés et incapables de trouver de la nourriture tandis que les parents restent à distance, se dessine une représentation

marquée par la privation et l'indisponibilité des figures parentales (« Ici, il y a une cave où se trouvent des loups. Le bébé loup est triste, tandis que la mère et le père sont assis à l'écart. Il est triste parce qu'il a faim et qu'ils ne trouvent pas de nourriture »). Cette scène peut être comprise comme la projection d'un vécu subjectif de manque affectif, dans lequel les besoins fondamentaux de l'enfant ne rencontrent pas de réponse suffisante de la part de l'environnement familial. L'image des loups, associés à la faim et à la tristesse, renforce cette lecture en renvoyant à une détresse archaïque liée à la frustration des besoins de base.

La thématique de l'insécurité est également très présente dans les réponses du CAT. Dans la planche 9, la fillette exprime explicitement la peur de rester seule « là il y a une lapine elle dort mais elle est seule, il n'y a personne avec elle; elle a peur il y a un fort vent dehors ». L'absence de présence humaine, associée à des éléments environnementaux tels que « le vent fort », prend une valeur symbolique importante et renvoie à des angoisses d'abandon et de désorganisation. L'enfant semble confrontée à un vécu interne où la disparition des figures protectrices laisse place à un monde perçu comme imprévisible et insécurisant. Cette angoisse est renforcée par d'autres éléments projectifs, notamment la peur du noir évoquée dans la Fable 5 ainsi que la crainte de dormir seule, qui traduisent une difficulté à tolérer la séparation et la solitude nocturne. L'ensemble de ces productions suggère la persistance d'un besoin important de proximité protectrice et de réassurance.

Les récits de Anna mettent également en évidence un important besoin de valorisation et de restauration narcissique, en particulier à travers l'investissement du domaine scolaire pour remédier aux conflits familiaux. Dans la Fable 9, elle cherche à se définir comme une « bonne élève » (Elle veut lui dire que l'école l'a appelée et qu'il était très bon à l'école, parce qu'il n'y a rien de plus important que les études), tandis que la Fable 10 témoigne d'aspirations à la réussite malgré les difficultés évoquées (« Il a rêvé qu'il a beaucoup de devoirs et il n'a pas eu le temps de jouer. Il avait aussi des examens et n'arrivait pas à les réussir car il était fatigué »). Cet investissement peut être compris comme une tentative de construction d'une estime de soi alternative, permettant de restaurer un sentiment de compétence et de contrôle dans un contexte marqué par l'insécurité affective. D'un

point de vue psychodynamique, il est fréquent que des enfants confrontés à des expériences de conflit parental, de séparation ou de fragilité des liens d'attachement investissent fortement la réussite scolaire comme mécanisme de compensation et de défense, afin de maintenir une cohérence narcissique et de contenir les affects dépressifs liés aux vécus de perte et d'instabilité relationnelle.

Ainsi, l'ensemble des productions projectives met en évidence un fonctionnement psychique organisé autour de la recherche de sécurité affective, d'un besoin important de réassurance et de la mise en place de stratégies compensatoires, notamment par l'investissement de figures alternatives et par la valorisation des domaines de compétence comme le scolaire.

#### b- Relation à la mère

L'ensemble du matériel projectif analysé montre que la relation d'Anna à sa mère est marquée par un sentiment d'insécurité et d'une défaillance relationnelle ainsi qu'une représentation ambivalente de cette dernière. Elle est d'une part investie comme une figure de sécurité émotionnelle rassurante au niveau affectif mais, de l'autre part, elle est perçue comme instable ou insuffisamment contenant.

Cet investissement apparaît dans les planches du FAT liées à la relation maternelle (planches 4, 6 et 17), à travers différentes scènes de la vie quotidienne, qu'il s'agisse de l'accompagnement scolaire, de l'organisation des activités domestiques, du choix des vêtements ou de la préparation des repas. Or, dans son vécu réel, Anna exprime un sentiment de manque de soins maternels. Toutefois, à travers les planches du test, elle semble projeter son besoin de proximité et de disponibilité affective, révélant ainsi une quête de réassurance et de lien émotionnel avec la figure maternelle.

La thématique alimentaire, évoquée au CAT, met en lumière la qualité de l'investissement maternel. «Ils mangent, la mère donne la nourriture au lieu qu'elle mange elle leur donne la nourriture» (CAT, pl 1). D'habitude, les scènes de nourrissage et de soin renvoient à la fonction maternelle primaire de protection et de satisfaction des besoins. Dans sa valeur symbolique, la nourriture représente l'amour, l'attention et la disponibilité émotionnelle recherchée par Anna dans sa relation avec sa mère.

A ce niveau, Anna exprime des sentiments de tristesse et de rejet signalant que

la mère accorde une préférence à un autre enfant « l'agneau peut manger un peu d'herbe mais il est triste parce qu'il pense que sa mère préfère l'autre agneau » (Louisa DUS, fable 3). Ce contenu évoque des préoccupations relatives à la rivalité fraternelle ainsi qu'une anxiété de rejet ou de désinvestissement parental. Nous pourrions comprendre cette élaboration qu'on rencontre toujours dans le contexte de la séparation parentale, ou l'enfant exprime un vécu d'insécurité affective et une crainte de perdre une place privilégiée auprès de la figure maternelle. Ce qui témoigne d'une fragilité narcissique liée au sentiment de ne pas bénéficier d'un investissement affectif suffisamment stable et équitable.

Dans un autre endroit, Anna ne semble pas être satisfaite dans sa relation avec sa mère : « la fille n'a pas aimé les vêtements que sa mère lui a choisis » (FAT pl. 4) elle manifeste une désobéissance aux ordres de la mère « l'enfant a refusé de ranger sa chambre et la mère l'a grondé »; (FAT pl 6); « les enfants refusent l'invitation de la mère pour voir un film » (FAT pl 15). A ce niveau nous pourrions dire qu'il s'agit d'une expression indirecte des sentiments de frustration et de colère à l'égard de la mère. Les réactions d'opposition aux directives de la mère peuvent être interprétés comme des manifestations d'une conflictualité relationnelle active, pouvant s'inscrire dans le cadre d'une problématique œdipienne non résolue, mais témoignant également d'une tentative de l'enfant d'affirmer son autonomie et son existence face à une mère peu reconnaissante.

La fragilité maternelle apparaît également dans le CAT. À plusieurs reprises, la mère est représentée comme incapable de percevoir les besoins ou les dangers auxquels son enfant est confronté. Dans la planche 5, la mère est décrite comme demeurant « endormie tandis que le bébé est emporté sans qu'elle ne s'en aperçoive » ; dans la planche 4, la mère kangourou est en « promenade avec sa fille qui semble être fatiguée ; la mère est perdue. Elle ne sait pas quelle route prendre pour rentrer et elle cherche son chemin ». Ces productions traduisent une perception de la mère comme insuffisamment protectrice et peu attentive aux besoins émotionnels de son enfant. Elles témoignent également d'un sentiment d'insécurité interne lié à la crainte de ne pas pouvoir compter sur une figure maternelle pleinement disponible face aux situations de détresse.

La cause derrière cette indisponibilité chez la mère est reconnue par Anna. Ses réponses mettent en scène une mère perçue comme fragilisée, fatiguée ou psychiquement indisponible. La planche 13 du FAT offre la représentation la plus explicite de la défaillance maternelle dépendante de l'intervention d'autrui pour assurer ses responsabilités parentales: « Elle ne veut pas se lever du lit parce qu'elle est très fatiguée, elle veut rester au lit, elle n'a pas dormi la nuit. Et le père lui dit : tu veux te lever pour amener les enfants à leur activité? À la fin elle s'est levée et a amené les enfants. Elle était fâchée, elle ne voulait pas se lever, elle était fatiguée...» Cette représentation évoque l'intériorisation d'un objet maternel vécu comme vulnérable, insuffisamment contenant et parfois défaillant dans sa fonction protectrice. Tel décrit par Goodman et Gotlib (1999), les enfants de mères dépressives développent fréquemment une représentation interne de la mère comme indisponible et peu fiable au niveau émotionnel ce qui réduit le recours l'enfant en elle en cas de détresse. Lorsque le parent ou «l'objet du Soi» n'est pas assez sécurisant ou stable il sera incapable de répondre aux besoins de l'enfant d'un «soi-objet» assurant les fonctions parentales (Wells et Jones, in : Chase, 1999). Dans des situations pareilles il est fréquent d'observer un phénomène d'inversion des rôles au sein de la dynamique familiale, conduisant l'enfant à assumer prématurément des responsabilités et des fonctions qui excèdent les exigences développementales de son âge (Jurkovic G. (2014). Dans ce cadre, nous remarquons dans les réponses d'Anna une certaine maturité accélérée vue qu'elle se projette dans un âge largement supérieur au sien, s'imaginant adolescente alors qu'elle n'a que neuf ans (Sa mère s'est endormie. Qu'est-ce qui a changé chez la mère?... peut-être qu'elle a trouvé que sa fille avait grandi un peu. La mère lui a dit : Tu es devenue grande, tu peux maintenant jouer avec tes jouets et inviter tes amis. La fille a grandi, non pas qu'elle ait encore 9 ans; elle est devenue plus âgée, elle a environ 16 ou 18 ans. C'est à ce point qu'elle a grandi » (fable8). Vu l'absence du rôle maternel, une configuration d'inversement de rôles à travers lequel elle semble développer précocement des capacités d'autonomie afin de remédier les insuffisances du rôle maternel. Cette pseudo- maturité n'est qu'une manière de tolérer le bouleversement familial et les carences affectives vécues dans un environnement perçu comme insécurisant et, où la prise en charge de soi devient primordiale.

Toutefois, malgré les déceptions et les carences ressenties, elle continue à préserver une image positive de sa mère, cherchant à expliquer ou à justifier ses difficultés. Ce mouvement défensif traduit la nécessité de maintenir un objet maternel suffisamment bon afin de préserver la continuité de son équilibre psychique.

Ainsi, la figure maternelle qui émerge des épreuves projectives apparaît profondément investie et recherchée, mais simultanément vécue comme fragile, non contenant et incomplètement disponible sur le plan affectif, générant chez l'enfant un besoin accru de sécurité, de reconnaissance et de soutien émotionnel.

#### **d – L'animal domestique comme objet de substitution chez Anna**

L'organisation psychique d'Anna marquée par des enjeux de conflictualité relationnelle et de conflit de loyauté est révélée clairement dans les tests projectifs. D'où l'investissement affectif massif des figures animales, en particulier des chiens, lesquels apparaissent comme des objets d'attachement privilégiés, investis de fonctions stabilisatrices et contenant. Nous explorons ci-dessous les éléments révélateurs de cet investissement qui paraît une source de confort psychique chez cette fille.

##### **1. Dessin de la famille : organisation familiale et absence maternelle**

Le dessin de la famille constitue le point de convergence de l'ensemble des thèmes cliniques identifiés dans les épreuves précédentes, et offre une synthèse graphique saisissante de l'organisation psychoaffective d'Anna.

Au niveau clinique, la succession des représentations paraît être riche et informative: Anna dessine en premier le père, puis elle à ses côtés, et finalement son frère Jude. Il paraît que le père est perçu comme le pôle principal d'attachement et de sécurité. Comme le souligne Corman (1964) le personnage dessiné en premier est généralement celui auquel l'enfant est le plus attaché ou qu'il perçoit comme le plus valorisé. La proximité physique entre Anna et son père, ainsi que la verbalisation spontanée concernant son frère : « Je reste dans les bras d'Jude et on part en sortie » confirment la qualité sécurisante de ces deux relations paternelle et fraternelle.

En revanche, la mère est totalement absente de la scène dessinée, ce qui constitue un élément clinique significatif pouvant évoquer un effacement

représentationnel ou une mise à distance de la figure maternelle dans le monde interne de l'enfant. Conformément aux analyses de Corman (1964) et Royer (1995), l'absence d'un membre de la famille dans le dessin constitue l'un des indicateurs les plus puissants de conflictualité relationnelle ou de désinvestissement affectif à l'égard de cette figure. Dans le cas présent, cette omission ne traduit pas une absence d'affect, mais bien un mouvement défensif actif par lequel l'enfant exclut de sa représentation familiale une figure source de frustration, d'insécurité et de souffrance non élaborée.

Lorsque la possibilité lui est offerte de modifier son dessin, Anna choisit spontanément d'y ajouter ses deux chiens, Cooper et Oréo («Est-ce que je peux mettre quelque chose ? Est-ce que je peux ajouter un truc ? Je ne sais pas bien dessiner, je ne sais pas dessiner ça... des chiens qui rigolent et qui continuent à ronfler on s'amuse ensemble on est inséparable je ris beaucoup avec eux»). Cet ajout ici n'est pas sûrement ici dans un but d'enrichir son dessin, mais il révèle la recomposition de l'espace familial autour de figures alternatives. L'acte de nommer les deux chiens (Cooper et Oréo) donne à ces figures animales une identité relationnelle individualisée, surtout qu'elle les a colorés en bleu et rouge comme l'ensemble des membres de la famille, ce qui les inscrit dans le registre des objets d'attachement investis affectivement ou comme membres de la famille. Cet acte peut être interprété, à la lumière des travaux de Sable (1995) sur les figures d'attachement non humaines, comme une tentative de l'enfant de structurer un réseau de soutien affectif compensatoire face à la carence maternelle.

## **2. Fable de l'oiseau : conflit de loyauté et attachement**

L'introduction de l'animal comme un objet de substitution paraît aussi dans la fable de l'oiseau de Louisa Dus. Il s'agit d'une situation projective où l'on raconte à l'enfant une histoire incomplète mettant en scène un oiseau, afin d'explorer son mode interne lié à la séparation et la sécurité : Un papa, une maman oiseau et leur petit oiseau dorment tous les 3 dans le nid sur une branche. Mais voilà qu'un gros vent arrive, il secoue l'arbre et le nid tombe par terre. Les 3 oiseaux se réveillent brusquement, le papa oiseau vole vite sur un sapin, la maman sur un autre sapin, que fera le petit oiseau ? Il sait déjà un peu voler (Ducros, 1959).

Anna décrit un oiseau qui tente successivement de se rapprocher de sa mère

puis de son père dans un mouvement pendulaire : « il vole un peu vers son père et un peu vers sa mère, pour finalement aller jouer avec ses amis les chiens ». Cette oscillation traduit une difficulté à se positionner clairement entre les deux figures parentales et met en évidence un conflit de loyauté. Anna semble prise dans une dynamique de tiraillement affectif, où l'impossibilité de choisir l'un des parents implique une forme de désorganisation du choix relationnel. La résolution du récit est particulièrement significative : l'oiseau renonce à rejoindre les figures parentales et se rend dans le jardin pour jouer avec les chiens. Ce déplacement constitue un changement d'objet d'investissement affectif, les animaux apparaissant comme une solution alternative permettant d'échapper à la tension générée par la relation aux parents. Pour se déployer au conflit de loyauté, l'enfant a choisi un espace neutre (jardin, chiens) et plus sécurisant sans contrainte de loyauté. Ce tableau est cohérent avec ce que Wallerstein et Kelly (1980) décrivent comme l'une des conséquences les plus invalidantes de la séparation parentale conflictuelle chez l'enfant.

### **3. CAT : séparation de la figure maternelle**

Dans le CAT (planche 5), Anna révèle l'histoire d'un chien vient prendre l'enfant sans que la mère ne le sache. Elle décrit un chien qui emporte le bébé de son berceau tandis que la mère dort sous sa couverture, inconsciente du danger : « « Là, il y a deux chiens. Un chien est allé prendre le bébé du lit et la mère dort dans son lit sous la couverture, elle ne voit pas que le chien est en train de prendre le bébé. » »

Cette scène introduit une dynamique particulière de séparation médiatisée par l'animal. Sur le plan symbolique, le chien ne constitue pas seulement un compagnon, mais il joue un rôle de médiateur relationnel facilitant l'éloignement de l'enfant de la figure maternelle sans confrontation directe ni conflit explicite. Il se peut que la fille cherche un espace d'autonomie préservé du regard maternel, et potentiellement des tensions associées à la relation à celle-ci. A ce niveau, l'animal apparait comme une figure facilitant des mouvements d'individuation et de séparation.

Cette représentation, comme on a mentionné en haut du texte, condense avec une acuité remarquable les deux thématiques centrales de ce cas : la mère inaccessible et aveugle aux besoins de son enfant, et l'animal (elle mentionne deux chiens ce qui fait allusion à ces deux chiens Cooper et Oréo), ici

paradoxalement menaçant, mais occupant l'espace laissé vacant par la figure maternelle défaillante. En résumé, cette planche révèle une angoisse profonde d'abandon et de non-protection maternelle, ainsi qu'une représentation de soi comme enfant vulnérable et insuffisamment gardé.

#### **4. Synthèse: fonction psychique des chiens**

En conclusion, l'ensemble des éléments cliniques recueillis à travers les épreuves projectives met en lumière une organisation psychique marquée par une forte conflictualité interne et des fragilités dans les processus de sécurisation affective. L'animal, ici les chiens occupent une place centrale et récurrente dans l'ensemble des productions d'Anna. Qu'il s'agisse du dessin, de la fable ou du CAT, ils apparaissent systématiquement associés à des moments de tension relationnelle, de conflit de loyauté ou de difficulté dans le lien aux figures parentales.

Sur le plan psychodynamique, les chiens semblent ainsi remplir une fonction d'objet d'attachement secondaire, voire d'objet transitionnel élargi, permettant la régulation des affects liés à la séparation et à l'ambivalence relationnelle. Ils constituent des figures stables, non menaçantes et accessibles, vers lesquelles l'enfant peut déplacer son investissement affectif lorsque les relations parentales deviennent source d'incertitude ou de conflit.

Par ailleurs, leur récurrence suggère qu'ils participent également à un processus de restauration narcissique, en offrant à l'enfant une position active de soin et de protection. Cette dimension contribue au maintien d'un sentiment de compétence et de continuité identitaire dans un contexte où les figures parentales apparaissent psychiquement insuffisamment sécurisantes ou ambivalentes.

L'ensemble de ces observations invite à considérer Anna non pas uniquement comme une enfant fragilisée par un environnement défaillant, mais comme un sujet psychique actif, capable de mobiliser des ressources créatives et relationnelles remarquables pour maintenir son équilibre interne. Le recours aux animaux domestiques comme figures d'attachement substitutives, l'investissement scolaire comme réinvestissement narcissique, et la capacité à produire des récits organisés malgré la tension émotionnelle sous-jacente témoignent d'une forme de résilience silencieuse, inscrite dans les modalités discrètes de son fonctionnement quotidien.

Cette résilience doit cependant être lue avec prudence : elle ne doit pas masquer la souffrance réelle de l'enfant ni conduire à minimiser ses besoins thérapeutiques. Comme le souligne Cyrulnik (2001), la résilience n'est pas une invulnérabilité, mais un processus dynamique qui requiert la présence de tuteurs de résilience pour se consolider. Dans le cas d'Anna, la relation aux animaux domestiques constitue précisément l'un de ces tuteurs.

## **6. Implications cliniques et thérapeutiques**

Les résultats de cette expertise psychologique appellent plusieurs recommandations cliniques. En premier lieu, il apparaît indispensable d'initier un suivi psychothérapeutique individuel pour Anna, centré sur l'élaboration des angoisses de séparation et d'abandon, le renforcement de la sécurité interne et le travail sur les représentations d'attachement défailtantes. Une thérapie par le jeu ou une approche narrative semblent particulièrement adaptées au profil de cette enfant.

En second lieu, la relation d'Anna à ses animaux domestiques constitue une ressource thérapeutique à ne pas négliger. La thérapie assistée par l'animal (TAA), telle que conceptualisée par Fine (2015) pourrait constituer un levier thérapeutique particulièrement pertinent, en s'appuyant sur cet investissement affectif existant pour favoriser l'expression émotionnelle, renforcer les capacités de régulation et travailler progressivement sur les représentations d'attachement.

Enfin, une intervention centrée sur la figure maternelle s'avère nécessaire : un accompagnement psychologique de la mère, visant à traiter sa dépression et à restaurer sa disponibilité affective, constitue un levier fondamental pour améliorer la qualité de la relation mère-fille et prévenir une consolidation de l'attachement insécuré chez Anna.

## **7. Conclusion**

Cette étude de cas clinique illustre avec précision comment une enfant de 8 ans, confrontée à une carence maternelle significative dans le contexte d'une séparation parentale, mobilise l'ensemble de ses ressources psychiques pour maintenir un équilibre affectif minimal. L'analyse convergente des quatre épreuves projectives administrées, CAT, FAT, Fables de Düss et Dessin de

la famille, révèle un tableau clinique cohérent, caractérisé par une insécurité affective profonde, un conflit de loyauté invalidant, une représentation maternelle défaillante et une angoisse de séparation et d'abandon omniprésente. Au cœur de cette dynamique clinique, le rôle des animaux domestiques apparaît comme un élément central et méconnu de l'économie psychique de l'enfant. Investis comme objets transitionnels et figures d'attachement substitutives au sens winnicottien, les chiens Cooper et Oréo remplissent auprès de Anna les fonctions de réconfort, de régulation émotionnelle et de soutien narcissique que la figure maternelle défaillante ne parvient pas à assurer. Leur présence dans le dessin de la famille, en lieu et place de la mère absente, n'est pas un détail accessoire : elle constitue une métaphore graphique puissante de la réorganisation psychique de l'enfant face à l'adversité relationnelle. Cet exemple clinique invite à accorder une attention clinique renouvelée au rôle des animaux domestiques dans le développement psychoaffectif de l'enfant, et à considérer ces figures comme des ressources thérapeutiques à part entière dans les dispositifs de soin destinés aux enfants exposés à des carences affectives.

### Références bibliographiques

- Ainsworth, M. D. S., Blehar, M. C., Waters, E., & Wall, S. (1978). *Patterns of Attachment: A Psychological Study of the Strange Situation*. Erlbaum.
- Anzieu, D. (1989). *Le Moi-peau* (2e éd.). Dunod.
- Beck, L., & Madresh, E. (2008). Romantic partners and four-legged friends: An extension of attachment theory to relationships with pets. *Anthrozoös*, 21, 43–56.
- Beetz, A., Uvnäs-Moberg, K., Julius, H., & Kotrschal, K. (2012). Psychosocial and psychophysiological effects of human-animal interactions: The possible role of oxytocin. *Frontiers in Psychology*, 3, 234.
- Bellak, L., & Bellak, S. S. (1971). *The Thematic Apperception Test and the Children's Apperception Test in Clinical Use* (2nd ed.). Grune & Stratton.
- Bion, W. R. (1985). *Apprendre de l'expérience*. Payot. (Ouvrage original publié en 1962)
- Borgi, M., Cogliati-Dezza, I., Brelsford, V., Meints, K., & Cirulli, F. (2014). Baby schema in human and animal faces induces cuteness perception and gaze allocation in children. *Frontiers in Psychology*, 5, 411.
- Bowlby, J. (1980). *Attachement et perte*. Tome 1 : L'attachement. Dunod.
- Burnham, D., Kitamura, C., & Vollmer-Conna, U. (2002). What's new, pussycat? On talking

to babies and animals. *Science*, 296, 1435.

Carr, S., & Rockett, B. (2017). Fostering secure attachment: Experiences of animal companions in the foster home. *Attachment & Human Development*, 19, 259–277.

Cassels, M. T., White, N., Gee, N., & Hughes, C. (2017). One of the family? Measuring early adolescents' relationships with pets and siblings. *Journal of Applied Developmental Psychology*, 49, 12–20.

Corman, L. (1964). *Le test du dessin de famille dans la pratique médico-pédagogique*. Presses Universitaires de France.

Cyrułnik, B. (2001). *Les vilains petits canards*. Odile Jacob.

Delage, M. (2007). Attachement et systèmes familiaux : aspects conceptuels et conséquences thérapeutiques. *Thérapie Familiale*, 28(4).

Delage, M., et al. (2006). La famille et les liens d'attachement en thérapie. *Thérapie Familiale*, 27(3).

Ducros, M.-M. (1959). Des réponses fournies aux « Fables de Düss » par les enfants vivant dans un milieu familial anormal. *Enfance*, 12(2), 153–180.

Field, T. (1992). Infants of depressed mothers. *Development and Psychopathology*, 4(1), 49–66.

Fine, A. H. (Ed.). (2015). *Handbook on Animal-Assisted Therapy: Foundations and Guidelines for Animal-Assisted Interventions* (4th ed.). Academic Press.

Gerwolls, M. K., & Labott, S. M. (1994). Adjustment to the death of a companion animal. *Anthrozoös*, 7, 172–187.

Glocker, M. L., Langleben, D. D., Ruparel, K., Loughead, J. W., Valdez, J. N., & Griffin, M. D. (2009). Baby schema modulates the brain reward system in nulliparous women. *Proceedings of the National Academy of Sciences*, 106, 9115–9119.

Goodman, S. H., & Gotlib, I. H. (1999). Risk for psychopathology in the children of depressed mothers: A developmental model for understanding mechanisms of transmission. *Psychological Review*, 106(3), 458–490.

Guédénéy, N. (2013). Violences conjugales et attachement des jeunes enfants : une revue de la littérature. *Perspectives Psy*, 52, 222–230.

Hawkins, R. D., & Williams, J. M. (2016). Children's attitudes towards animal cruelty. In *Proceedings of the 11th International Conference on Child and Adolescent Psychopathology*.

Hesse, E., & Main, M. (1999). Second-generation effects of unresolved trauma in nonmaltreating parents: Dissociated, frightened, and threatening parental behavior. In J. Solomon & C. George (Eds.), *Attachment disorganization* (pp. 161–182). Guilford Press.

Hoeve, M., Stams, G. J. J., Van der Put, C. E., Dubas, J. S., Van der Laan, P. H., & Gerris, J. R. A. (2012). Meta-analysis of attachment to parents and delinquency. *Journal of Abnormal*

Child Psychology, 40, 771–785.

Horn, L., Huber, L., & Range, F. (2013). The importance of the secure base effect for domestic dogs—Evidence from a manipulative problem-solving task. *PLoS ONE*, 8, e65296.

Jurkovic, G. J. (2014). *Lost Childhoods: The Plight of the Parentified Child*. Brunner/Mazel.

Julius, H., Beetz, A., Kotrschal, K., & Turner, D. (2015). Attachment to pets: An integrative view of human-animal relationships with implications for therapeutic practice. *Journal of Clinical Psychiatry*, 76, e234.

Kitzmann, K. M., Gaylord, N. K., Holt, A. R., & Kenny, E. D. (2003). Child witnesses to domestic violence: A meta-analytic review. *Journal of Consulting and Clinical Psychology*, 71(2), 339–352.

Klein, M. (1952). Some theoretical conclusions regarding the emotional life of the infant. In M. Klein et al. (Eds.), *Developments in Psycho-Analysis* (pp. 198–236). Hogarth Press.

Kwong, M. J., & Bartholomew, K. (2011). “Not just a dog”: An attachment perspective on relationships with assistance dogs. *Attachment & Human Development*, 13, 421–436.

Le Van, A., Montagner, H., & Tassin, K. (2007). L'animal et le développement de l'enfant. *Métiers de la Petite Enfance*, juin 2007.

Loughlin, C. A., & Dowrick, P. W. (1993). Psychological needs filled by avian companions. *Anthrozoös*, 6, 166–172.

Lyons-Ruth, K., & Jacobvitz, D. (2008). Disorganized attachment: Genetic factors, parenting contexts, and developmental transformation from infancy to adulthood. In J. Cassidy & P. R. Shaver (Eds.), *Handbook of attachment: Theory, research, and clinical applications* (2nd ed., pp. 666–697). Guilford Press.

Main, M., & Hesse, E. (1990). Parents' unresolved traumatic experiences are related to infant disorganized attachment status. In M. T. Greenberg, D. Cicchetti, & E. M. Cummings (Eds.), *Attachment in the Preschool Years* (pp. 161–182). University of Chicago Press.

Marsa-Sambola, F., Muldoon, J., Williams, J., Lawrence, A., Connor, M., & Currie, C. (2016). The Short Attachment to Pets Scale (SAPS) for Children and Young People: Development, psychometric qualities and demographic and health associations. *Child Indicators Research*, 9, 111–131.

Marsa-Sambola, F., Williams, J., Muldoon, J., Lawrence, A., Connor, M., & Currie, C. (2017). Quality of life and adolescents' communication with their significant others (mother, father, and best friend): The mediating effect of attachment to pets. *Attachment & Human Development*, 19, 278–297.

McGoron, L., Gleason, M. M., Smyke, A. T., Drury, S. S., Nelson, C. A., Gregas, M. C., & Zeanah, C. H. (2012). Recovering from early deprivation: Attachment mediates effects of caregiving on psychopathology. *Journal of the American Academy of Child & Adolescent*

Psychiatry, 51, 683–693.

McNicholas, J., & Collis, G. M. (2000). Dogs as catalysts for social interactions: Robustness of the effect. *British Journal of Psychology*, 91, 61–70.

McNicholas, J., & Collis, G. M. (2001). Children's representations of pets in their social networks. *Child: Care, Health and Development*, 27(3), 279–294.

Melson, G. F. (2001). *Why the Wild Things Are: Animals in the Lives of Children*. Harvard University Press.

Melson, G. F. (2003). Child development and the human-companion animal bond. *American Behavioral Scientist*, 47, 31–39.

Melson, G. F., Sparks, C., & Peet, S. (1989). Children's ideas about pets and their care. In *Proceedings of the Annual Meeting of the Delta Society* (pp. 10–12).

Montagner, H. (2007). L'enfant et les animaux familiers : Un exemple de rencontre et de partage des compétences spécifiques et individuelles. *Enfances & Psy*, 35(2), 15-34.

Moss, E., Guerra, I., Mazzarello, T., & Chayer, D. (2006). Attachement et problèmes de comportements intériorisés et extériorisés auto-rapportés à la période scolaire. *Canadian Journal of Behavioural Science*, 38, 142–157.

Murray, L., & Cooper, P. J. (1997). Effects of postnatal depression on infant development. *Archives of Disease in Childhood*, 77(2), 99–101.

Pinel-Jacquemin, S., & Zaouche-Gaudron, C. (2009). La dynamique familiale : interactions et relations. In M. Durning & C. Zaouche-Gaudron (Eds.), *Les nouvelles familles : Approches psychologiques et sociologiques* (pp. 29–48). Érès.

Royer, J. (1995). Ce que dit le dessin d'un enfant. *Hommes et Perspectives*.

Sable, P. (1995). Pets, attachment, and well-being across the life cycle. *Social Work*, 40(3), 334–341.

Schimmenti, A., & Bifulco, A. (2015). Linking lack of care in childhood to anxiety disorders in emerging adulthood: The role of attachment styles. *Child and Adolescent Mental Health*, 20, 41–48.

Servais, Véronique. (2007). « La relation homme-animal. La relation à l'animal peut-elle devenir significative, donc thérapeutique, dans le traitement des maladies psychiques ? », *Enfances & Psy*, n° 35, p. 46-57.

Shani, L. (2017). Animal-assisted dyadic therapy: A therapy model promoting development of the reflective function in the parent–child bond. *Clinical Child Psychology and Psychiatry*, 22, 46–58.

Siegel, J. M. (1990). Stressful life events and use of physician services among the elderly: The moderating role of pet ownership. *Journal of Personality and Social Psychology*, 58, 1081–1086.

- Solomon, J., & George, C. (Eds.). (1999). Attachment disorganization. Guilford Press.
- Sotile, W. M., Julian, A., Henry, S., & Sotile, M. O. (1991). Family Apperception Test. Western Psychological Services.
- Soucy, N., & Larose, S. (2004). Attachement, contrôle parental et comportements des adolescents en relation de conseilance. *Psychologie canadienne*, 45, 83–102.
- Strand, E. B. (2004). Interparental conflict and youth maladjustment: The buffering effects of pets. *Stress, Trauma and Crisis*, 7, 151–168.
- Straede, C. M., & Gates, G. R. (1993). Psychological health in a population of Australian cat owners. *Anthrozoös*, 6, 30–42.
- Thompson, K. L., & Gullone, E. (2008). Prosocial and antisocial behaviors in adolescents: An investigation into associations with attachment and empathy. *Anthrozoös*, 21, 123–137.
- Triebenbacher, S. L. (1998). Pets as transitional objects: Their role in children's emotional development. *Psychological Reports*, 82(1), 191–200.
- Wallerstein, J. S., & Kelly, J. B. (1980). *Surviving the Breakup: How Children and Parents Cope with Divorce*. Basic Books.
- Weiss, R. (1982). Relationship of social support and psychological well-being. In *The Modern Practice of Community Mental Health* (pp. 148–162). Jossey-Bass.
- Wells, D. L., & Hepper, P. G. (1997). Pet ownership and adults' views on the use of animals. *Society & Animals*, 5, 45–63.
- Wells, M., & Jones, R. (1999). Object relations therapy for individuals with narcissistic and masochistic parentification style. In N. Chase (Ed.), *Burdened Children: Theory, Research and Treatment of Parentification* (pp. 116–126). Sage.
- Winnicott, D. W. (1953). Transitional objects and transitional phenomena. *International Journal of Psycho-Analysis*, 34, 89–97.
- Winnicott, D. W. (1975). *Jeu et réalité*. Gallimard.
- Zilcha-Mano, S., Mikulincer, M., & Shaver, P. R. (2011). An attachment perspective on human–pet relationships: Conceptualization and assessment of pet attachment orientations. *Journal of Research in Personality*, 45, 345–357.
- Zilcha-Mano, S., Mikulincer, M., & Shaver, P. R. (2012). Pets as safe havens and secure bases: The moderating role of pet attachment orientations. *Journal of Research in Personality*, 46, 571–580.